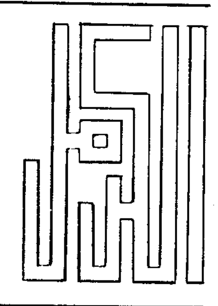
العدد ٧ / ١٩٨٣



فصلية ثقافية

رئيس التحرير :
محمود درويش

سكرتير التحرير :
سليم بركات

المحرر المسؤول :
بنايوتس بسخالس

Published quarterly by:
BISAN PRESS
& PUBLICATION INSTI-
TUTE LTD

تصميم الغلاف : رشيد القريشي .
الخطوط : عماد حليم .

Zalocostas str,
P.O. Box 4179,
Nicosia - Cyprus

Tel: (00 357-21)51240/51571
Telex: 3139 BISAN CY

«الكرمل»
مجلة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، تصدر عن مؤسسة «بيسان» للصحافة والنشر والتوزيع .

General Manager:
Mohamed Sulaiman

Responsible according to law:
Panayiotis Paschalis

ص.ب : ٤١٧٩ .
هاتف : ٥١٢٤ / ٥١٥٧١ .
نقوسيا ، قبرص .

Printed at: Printco LTD
P.O. Box 2048,
Nicosia — Cyprus

ثمن العدد:
٨ دولارات امريكية او ما يعادلها ، يضاف اليها أجور الشحن. الاشتراك السنوي : ١٥٠ دولاراً، او ما يعادلها، للمؤسسات ، و١٠٠ دولار امريكي او ما يعادلها ، للأفراد.

الفهرست

شعر

شهادات

النصوص والآراء تعبر عن وجهة نظر كاتبيها .

حلم مسيّج بالمدى المفتوح

محمود درويش

من نيقوسيا ، هذه المرة، يأتي صوتنا . من عنوان مؤقت في سياق الرحيل الطويل على ارض البشر . لا نبدأ من صفر، بل نواصل البدايات من خلاصة التراكم ؛ تراكم التجارب، والتضحيات، والانجازات ، التي تصوغ تقاليدها وليست كلماتنا أثقل من هذا الوطن الساحر والمسحور، الذي يحمله الفلسطيني، حتى آخر الشرط الانساني، روحاً وجسداً وفكرة . لذلك لا نلتفت الى الوراء الا لنتعلّم ، مرةً أُخرى ، كيفية إضفاء الديمومة على ما صَحَّ من وسائلنا في العمل، وفي القول، وفي تصويب الخطى، دون أن نحذر الدخول في جحيم النقد الذاتي، الذي يطمح الى تحقيق تطابق أرقى بين طهارة الرسالة وبين أيدي حامليها . وقد يكون الصليب الذي وُلدنا عليه جميعاً ، بين مساميره والخشبة ، شيئاً من قَدَر الذين اختاروا أن يذهبوا في طريق النبوءة ، والبشارة ، في نشر رسالة الحرية ، وتغيير المساحات، والعلاقات، والقيم، فرفعوا علامة اختلافهم عما يسود من حولهم ، هويةَ حياتهم أو جوهرها . لهذا، لن يكون لنا مؤقت أَخير ، أو غربة أَخيرة ، أو منفى أَخير، إلا داخل الوطن الذي نحلم بإبداعه على شاكلة الحلم المسيَّج بالمدى المفتوح ، القادر على استيعاب الاختلاف والآخر، والتفوق على مذاق المرارة، التي تزودنا بها مسيرة هذا الحلم الشرس، المفترس، المقدّس. ونحن الذين حاورنا ساحة قدرنا، في اكثر من مكان ، بتحويلها الى ميدان امتحانات فذّة، لا ننظر الى الوراء الا لنختبر

اليقين بفاعلية الطريقة ، والرسالة، اللتين حاولنا بهما أن نصوغ حريتنا ، ونُحَرّرَ ما يجاورنا من انحطاط، وأن نشدَّ خيط الضوء الطالع من دمنا حتى مداه الأوضح، ليهتز، أو ينهار، المفهوم الخامل الذي احتلَّ فكر القارَّة السائد حول المعالجة ـ النظرية ـ لموازين القوى، التي يتكىء على توازنها، الراهن او المرتقب، كسالى الخيال والإدارة. . في محاولة بريئه او متهمة، لقتل فكرة الحرية الحية في تلَهُّف هذا الجيل وحرمانه من حيوية الاختبار، ولاغراء السلاح الحديث ـ الذي كتب علينا أن يملكه سوانا، لاسباب لا تُشرح، ولا تُوَضَّح ، لأن الأمر لا يعنينا ـ بالقدرة على نشر الفكرة الميتة في أعدائنا ، وفينا، معاً . وهذا ما يعنينا حين نُطِلُّ من منافينا الجديدة على بيروت ، التي صارت بعيدة، على ما يبدو، عن لبنان وفلسطين وعن ذاتها . نعم ، لقد تمكنّا . . لقد تمكن أطفالنا من القتال مائة يوم متواصل، بما امتلكت ايديهم من سلاح تقليدي حولته طاقاتهم الروحية الى سلاحٍ حديث وفتّاك، وعلى مساحة من الأرض لا تزيد عن ثقب الابرة، قياساً الى مساحة القارة العربية التي يغط عليها عملاق مادي عاجز . نعم ، استطعنا واستطاع أطفالنا أن يتحدَوا آلة السلاح الحديث، او الأحدث، التي يدثر بها الفكر الميت، وأن يوجعوا، حتى البكاء، جنرالات الظلام البشري ـ أو الحيواني ـ في أطول حصار عرفه تاريخنا المعاصر، حتى نقلوا وعي الحرية الفلسطينية الى داخل البيت الاسرائيلي ـ بيتنا سابقاً ـ والى داخل الفكر الصهيونى

الذي اضطر للانقسام على نفسه بين : وعي زائف ووعي شقي. فهل كنا نعلم أن أحداً لن يتحرك، ليس من أجل تحسين شروط الصمود، بل من أجل إقناع واشنطن بتوسل تل ابيب أن تفرج، لمدة ساعة واحدة في الأسبوع ، عن مياه بيروت المعتقلة ؟. وهل كنا نفتقر الى حاسة انتباه أكثر يقظة لما استطاع النظام العربي الواحد. . نعم الواحد أن يحدثه من شرخ بين الناس، وبين توثّبهم الى حريتهم التي صار دمنا أحد معاييرها ؟ نعم. كنا ندرك، ولكننا لم نقبل الاكتفاء بصمود الإذاعة وحدها، لأن ذلك معناه أننا كنا نلعب كما كان سوانا يلعب. وهكذا وطّدنا الفكرة والاشارة وصواب لغة الصراع. اما الامر الذي لم ندركه بدقة فهو أن لنا أبناء بهذه القوة، التي حولت معارك لبنان ، ومعارك بيروت، بخاصة، الى اساطير بطولة، وأن المحارب الاسرائيلي المدرع هشّ وفاسد الى هذا الحد، لأنه يدافع عن شيء مات فيه، ولأن صراع الفكرة الحية مع الفكرة الميتة، الذي يدور بيننا وبين الاسرائيليين المسيّجين بحلفاء السرّ العربي، والمنطوي على حاسة المصلحة المشتركة على مستوى الأفكار الميتة ، المرشحة للانبعاث من جثة الفلسطيني، بلغ حالة من نضج الوعي، المحلي والعالمي، جعلت السّلاح قاضياً من درجة ثانية، لا يقوى على احتلال المسرح. لقد امتدت الفكرة الفلسطينية وانتشرت، خلال هجومها الاسطوري في حصار بيروت، الى مساحة كامل الكون الانساني، دافعةً بالفكرة الصهيونية الانعزالية ـ مع أخواتها العربيات الشقيات . . الى اضيق حدود

الجيتو. وهكذا كان صليبنا، الذي حولناه الى أرض معجزة ، مسرحاً في حجم الكرة الأرضية ، شاهده سُكّانُ القرن العشرين، في صالوناتهم ومقاهيهم وغرف نومهم. وصار الموقف من عدل الفلسطيني ـ الضحية المقاتلة ـ أحد المقاييس التي لا تُدحض لمدى ما يستحقه المواطن العالمي من مؤهلات حرية . لذلك، أيضاً، لا تتخذ النظرة الى الوراء قليلاً شكل الدمعة إلاّ على ما تهدره الامكانية العربية من طاقات نصر، وما توفره من شروط عبودية واستعباد. وهكذا أيضاً لم تكن بيروت رهينتنا، بل كانت ساحة اختبارنا المشترك . ولماذا تكون رهينة ؟ وهي مدينة تبحث معنا، ونحبث معها، عن حرية ممكنة، وديموقراطية محتملة، لا لانها مدينة عربية، فذلك مصطلح يخلو تدريجاً من الجدوى والمعنى، بل لانها كانت تتزوّد بالدلالة الدموية، وتتحرر بقدر ما تقاتل للحرية، ولانها كانت مشروع حرية يتبلور في الصراع.

كانت . . وكانت، ولم تكن هي، ولا نحن فيها، المسؤولين عن تحولها الآن الى رهينة في ايدي الصهيونيين ـ اليهود، أو الصهيونيين ـ العرب الذين يفتقرون الى ادوات الذبح التكنولوجي فيلجأون الى البلطة لأنها توفر وقتاً للنشوة !. . كانت. . وكانت . . وقد يُقام الآن بوتيك جديد على قبر كل شهيد. وقد يضع الاسرائيليون بضائعهم الى جانب جثثنا.

وقد تنشط خيانة بعض المثقفين، الذين يشعرون بأن شارون جاء لانقاذهم من الضحالة، فشربوا له، ولدميته المحلية، كأس الانتصار علينا، كما شربوا معنا من قبل. وراحوا يؤمنون الآن بحيوية دورهم،

ويؤسسون مشروعهم الثقافي. كلّ شيء ممكن ، كل شيء جائز في هذا العالم العربي الخرافي الذي أعاد بيروت الى الحظيرة . ولكن بيروت قالت معناها. قالت محاولتها الملحمية . وما زالت تقول في شرطها الجديد. الاحتلال في كل مكان عربي. وكل وطنٍ منفى. وكل إقامةٍ رحيلٌ في الغربة في شروط هذه العلاقات. وفي منفانا الجديد الذي هو فصل آخر من فصول البحث الفلسطيني الاوديسي عن صخرة يثبت فوقها، من جديد، قدم آشيل مواصلاً دورة الصراع سويةً مع نصفه المزروع في أرض فلسطين، التي هي موقعنا الراسخ، سنهزم مرة أخرى احساس النفي بالادراك ان المنفى الحقيقي ليس وضعاً جغرافياً. المنفى هو انفصال الوعي. سنواصل السير في أضيق الممرات وأشد البحار هياجاً. ونحن لا نحمل ذاكرة الورق، فقد لملمنا بعض أوراقنا عن شوارع بيروت. بعضها احترق. بعضها ضاع. وبعضها مزقناه عن عمد. مزقنا فيه الاوهام، ولم تكن قليلة. وصحيح، اننا ، في المنافي الجديدة، لا نملك ارضاً نزرع فيها غرسنا أو شهداءنا، ولكننا نملك ما هو هدف العلاقة بين الأرض والانسان : الحرية، ورسالة الحرية . ونملك ما هو هدف العلاقة بين الانسان والارض والتاريخ : إنتاج ثقافة الحرية، وشيئاً من شهادة الأنبياء على عصرهم ، حتى تخلق كل قطرة دم لغتها الجديدة، ونشيدها الجديد، الذي يعيد انتاج حوافز الحرية، فتكون اللغة ما تكونه وما تقوله معاً. وتكون الحرية في الوطن وفي المنفى معاً. ولا تكون الحرية الا ذاتها . . لا تكون الا الحريّة .

شعر

خمس لحظات من لبنان

يانيس ريتسوس

الاسود :

هذا الصيف أسودُ من دخان اللهب .
أبحث لأجد غير كلمة « أسود » ، فلا أجد .
أسودُ . أسودُ . آهِ يا أمي السوداء فلسطين ، أضرب مَطَرَتكِ الفارغة كما أضرب الطبل ، صائحاً : أفِقْ أيها العالم ، أفَقْ .

الفقدان :

أشعارٌ ركيكةٌ ، أشعارٌ عزلاء ، تبحث بين الأنقاض عن سكين مطبخ . قطعة شوكولاته ذائبة في قبضة الطفل القتيل . الشرخ ، الفتيل ، الكبريت ، لا شيء . تضع السُّلَّم على الشجرة المعمّرة . تصعدُ . تفلق عينيكَ . ماذا ترى من مُرْتَفَعِ القتلى ؟ النيرانَ ، الحديدَ ، ماذا تقطف من ثمار أشعارٍ ركيكةٍ ، أشعارٍ عزلاء ، لا عتاد لها ؟ .

إلى درويش :

درويش ، درويش ، أخي
عندما تُهَدَّم البيوتُ ، ويسيل الدم في الطرقات ،
ماذا في وسعها أن تفعل الأشعار لنا ؟
ماذا في وسعها أن تفعل اوراق الزيتون الشفيفة ايضاً ،

والكؤوس التي تلمع ، في ألقٍ شفيفٍ ، على طاولة الحديقة البالية ؟ .

في مستشفى بيروت :

فتى أسمر ، جميل ، في الفراش ،
قدمه اليسرى مبتورة من الرّكبة ،
صدره مكشوف ، وعلى إحدى يديه ضماد .
مال عليه رفيقه ، وقبله ، فَعَدَدْت واحدة ، اثنتين ، ثلاثاً ، ستاً ، سبعاً من القبلات . عَدَدْتُ وبكيت ، أمام شاشة التلفاز حين رفع الفتى يده الأخرى ، راسماً باصبعيه علامة النصر .

في المستشفى ذاته :

وجهها محروق بأكمله .
شعرها محروق ،
لكن عينيها لم يَمَسُّهما ضَرَرٌ ، فهما تنظران الى ما لانهاية ، وتمطران حزناً لا ينفد في هذا الكون ، من خلف نظارتين مستديرتين كبيرتين .
غير أن وميضَ غضبٍ ارْفَضَّ فيهما ، مضيئاً الشاشة ، والكون ، من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ .

إهداء بسيط إلى البطولة الفلسطينية :

آه فلسطين ، فلسطين ، اسمك هو الأول الأول في قاموس قلبنا . الأول الأول .
عندما نقول ، في حزننا ، في افتتاننا ، في حبنا : الإنسان ، النهر ، السماء ، فإنما نعنيك أنت . نقول : الضوء الغامر ، السلام سينتصر ، العالم سيبتسم ،

فنتذكرك أنت ، نفكر بك أنت ، نؤمن بك أنت ، حينما نراك تعبرين الدخان واللهب وظلام الغازي ، رافعةً روحك الحرة عالياً كراية كبيرة ، كبيرة ، ملطخة بدم أطفالك ، بدم اطفال تشيلي ، والسلفادور ، وقبرص .

مضيئةً ، بأضحياتِكِ ونوركِ ، المعمورةُ كلُّها .

آه ، قديس أيامنا ياسر عرفات . في قلبك رنين أجراس الحرية المتألمة ، الصَّخَّابة .

ثم مرحباً يا ياسر ، مرحباً إخواننا الفلسطينيون ، مرحباً إخوان العالم . بمثل هؤلاء الابناء الباسلين ، بمثلكم ، فلسطين ستنتصر . ستجد ترابها ثانية ، وبيتها ، وشجرها ، وأغنيتها .

قبرص ستنتصر . السلفادور والتشيلي ستنتصران .

الحق سينتصر يوماً ما ، أما هؤلاء ، ذوو الصلبان المعقوفة ، الذين أرادوا صلبكم ، فسيصلبون ،هم ، أنفسهم على صلبانهم مثل نازيي أمس الأول .
سلامٌ على العالم من أقصى الأفق الحر الى أقصاه .

هذه القصائد خاصة ب « الكرمل » وقد ترجمت مباشرة عن اليونانية .

شعر

إلى ياسر عرفات

سعدي يوسف

لي وردةٌ بيديكَ
قد أحببتها حتى بلغتُ منازلَ العشاقِ ،
لكن الحبيبة سوف تبقى في يديكْ .

لي وردةٌ في الروح
كمْ غنيتُها حتى غدوت مغنيَ الطرقات ،
لكن الأغاني سوف تبقى في يديكْ .

لي وردةٌ في الأرض كم حاولتها
حتى بلغتُ مواقع الثوارِ ،
لكن المواقعَ سوف تبقى في يديك .

□

قُلْ : إنها تذوي ،
قلْ إن الرمالَ تدور حولكَ ،
والثلوجَ تحاصر الطرقَ البعيدةْ
والنساء يَنُحْنَ ، والابناءَ يضطربون في الآفاق

قُلْ إنّ السماءَ تضيق أيضاً ،
إنّ خبزَ الأهل مرٌّ ،
إنّ متراس الفقير الفَقْر ؛
قلْ يا أيها الملك المتوّجُ بالشظية ما تقولْ
. . . لكنني أدرى بما خبأت تحت الجلْدِ ،
أدرى بالتي تنوي إذا ما اسودّتِ الآفاقُ ،
وانقطعت بك الطرقاتُ :
تذهبُ للبداية من نهايتها ،
وتقول للعشاق : هذي وردتي الأولى
لِنَضْفُرْها على خصْلاتِ قنبلةٍ ، لندخلْ في النهايه .

شعر

مديح الظل العالي

محمود درويش

بحرٌ لأيلولَ الجديدِ . خريفُنا يدنو من الأبوابِ . .
بحرٌ للنشيدِ المرِّ . هيَّأنا لبيروتَ القصيدةَ كُلَّها .
بحرٌ لمنتصفِ النهارِ.
بحرٌ لراياتِ الحمامِ ، لظلِّنا ، لسلاحنا الفرديِّ
بحرٌ، للزمانِ المستعارِ
ليديكَ، كمْ من موجةٍ سرقتْ يديكَ
من الإشارةِ وانتظاري
ضَعْ شكلنا للبحرِ . ضَعْ كيسَ العواصفِ عند أول صخرةٍ
واحملْ فراغَكَ . . وانكساري
. . واستطاعَ القلبُ أن يرمي لنافذةٍ تحيَّتَهُ الأخيرةَ ، واستطاع القلبُ أن
يعوي ، وأن يَعِدَ البراري
بالبكاءِ الحُرِّ . .
بَحْرٌ جاهزٌ من أجلنا
دَعْ جسمك الدامي يُصَفِّق للخريفِ المُرِّ أجراساً .
ستتّسعُ الصحاري
عمَّا قليلٍ . . حين ينقضُّ الفضاءُ على خطاكَ .
فرغتُ من شَغَفي ومن لهفي على الأحياءِ . أفرغتُ انفجاري

من ضحاياك ، استندتُ على جدارٍ ساقطٍ في شارعِ الزلزال. أَجْمَعُ صورتي من أجل موتكَ.
خُذْ بقاياكَ، اتخذني ساعداً في حضرة الأطلالِ . خُذْ قاموس ناري
وأنتصرْ
في وردةٍ تُرمى عليكَ من الدموعِ
ومن رغيفٍ يابسٍ ، حافٍ، وعارِ
وانتصرْ في آخر التاريخِ .
لا تاريخَ إلّا ما يؤرِّخه رحيلُكَ في ا نهياري
قُلنا لبيروت القصيدةَ كُلَّها ، قلنا لمنتصفِ النهارِ
بيروتُ قلعتُنا
بيروتُ دمعتُنا
ومفتاحُ لهذا البحرِ. كُنَّا نقطة التكوينِ ،
كنا وردة السور الطويلِ وما تبقَّى من جدارِ
ماذا تبقَّى منكَ غيرُ قصيدةِ الروحِ المحلِّقِ في الدخان قيامةً وقيامةً بعد القيامةِ . خُذْ نُثاري
وانتصْر فيما يُمَزِّق قلبكَ العالي،
ويجعلكَ انتشاراً للبذارِ
قوساً يَلُمُّ الأرضَ من أطرافها . . جَرَساً لما ينساهُ سُكَّانُ القيامةِ من معانيكَ . انتصرْ،

إنَّ الصليب مجالُك الحيويُّ ، مسراكَ الوحيدُ من الحصارِ الى الحصارِ.
بحرٌ لايلولَ الجديدِ. وأنتَ إيقاعُ الحديدِ تدقُّني سُحُباً على الصحراء، فلتمطرْ لأسحبَ هذه الارضَ الصغيرةَ من إساري .
لا شيء يكسرنا ،
وتنكسر البلادُ على أصابعنا كفُخَّارٍ ، وينكسرُ المسدَّسُ من تلهُّفِكَ . انتصرْ،

هذا الصباحَ، ووحِّد الرياتِ والامَمَ الحزينةَ والفصولَ بكُلِّ ما أُوتيتَ من شبق
الحياةِ،
بطلقةِ الطلقاتِ
باللاشيء .
وحِّدنا بمعجزةٍ فلسطينيَّةٍ . . .
بيروت قصَّتُنا
بيروت غُصَّتنا
وبيروت اختبارُ اللّهِ . جرَّبناكَ جربناكَ . من أَعطاك هذا اللُّغز ؟ من سَمَّاكَ ؟
من أعلاك فوق جراحنا ليراكَ ؟ فاظهرْ مثل عنقاء الرماد من الدمارِ !

نَمْ، يا حبيبي، ساعةً
لنمُرَّ من أحلامك الاولى الى عطش البحار الى البحارِ.
نَمْ ساعةً ، نَمْ يا حبيبي ساعةً
حتى تتوب المجدليَّةُ مرة اخرى، ويتضح انتحاري .
نَمْ، يا حبيبي، ساعةً
حتى يعود الرومُ، حتى نطردَ الحرَّاسَ عن أَسوار قلعتنا ، وتنكسرَ الصواري .
نَمْ ساعةً. نَمْ يا حبيبي
كي نصفِّق لاغتصابِ نسائنا في شارع الشَّرف التِّجاري .
نَمْ يا حبيبي ساعةً، حتى نموتْ
هيَ ساعةٌ للانهيارِ،
هي ساعةٌ لوضوحنا
هي ساعةٌ لغموضِ ميلادِ النهارِ

أَتموتُ في بيروت ـ لا تُوْلِمْ لبيروتَ الرغيفَ ـ عليكَ أن تجد انتظاري
في أَناشيدِ التلاميذِ الصغارِ ، وفي فراري

من حديقتنا الصغيرةِ في اتجاه البحرِ ـ
لا تُوْلِمْ لبيروتَ النبيذَ ـ عليك ان ترمي غباري
عن جبينكَ. ان تُدَثِّرني بما أَلِفَتْ يداك من الحجارةِ ، أن تموت كما يموت
الميتونَ، وأن تنامَ الى الأبدْ
وإلى الأبدْ . .
لا شيء يطلعُ من مرايا البحرِ في هذا الحصارِ، عليكَ أن تجدَ الجسدْ
في فكرة أُخرى، وأن تجد البَلَدْ
في جُثَّة أخرى، وأن تجد انفجاري
في مكان الانفجارِ.
أينما وَلَّيْتَ وجهكَ :
كلُّ شيء قابلٌ للانفجارِ.

ألآن بحرٌ،
الآن بحرٌ كُلُّهُ بحرٌ،
وَمَنْ لا بَرَّ لَهْ
لا بحرَ لَهْ .
والبحرُ صورتُنا
فلا تذهبْ تماما
هي هجرةٌ اخرى، فلا تذهبْ تماما
فيما تفتَّحَ من ربيعِ الارض، فيما فجرَّ الطيرانُ فينا
من ينابيعٍ . ولا تذهبْ تماما
في شظايانا لتبحث عن نبيٍّ فيكَ ناما.
هي هجرةٌ أخرى الى ما لستُ أعرفُ . .
ألفُ سَهْمٍ شَدَّ خاصرتي ليدفعني أماما .

لا شيء يكسرنا
ومَنْ أدمى جبين اللهِ، يا ابنَ اللهِ، سَمَّاهُ، وأنزلهُ كتاباً او غماما.

كمْ كُنْتَ وحدك ، يا ابن أُمِّي ،
يا ابنَ أكثرَ من أبٍ،
كم كُنْتَ وحدكْ
ألقمحُ مُرٌّ في حقول الآخرينْ
والماءُ مالحْ
والغيم فولاذٌ. وهذا النجمُ جارحْ
وعليك ان تحيا وأن تحيا
وأن تعطي مقابلَ حبَّةِ الزيتون جِلْدَكْ.
كَمْ كُنتَ وحدكْ .

لا شيء يكسرنا ، فلا تغرقْ تماما
فيما تبقّى من دمٍ فينا . .
لِنَذْهبْ داخلَ الروحِ المحاصرِ بالتشابهِ واليتامى
يا ابن الهواء الصَلْبِ، يا ابنَ اللفظةِ الأولى على الجزر القديمةِ؛ يا ابنَ سيدةِ البحيرات البعيدةِ، يا ابن من يحمي القُدامى
من خطيئتهم، ويطبع فوقَ وجهِ الصَّخر برقاً أو حماما.

لحمي على الحيطان لحمُكَ، يا ابنَ أُمِّي
جَسَدٌ لاضراب الظلالْ
وعليك أن تمشي بلا طُرُقٍ
وراءً ، أو أماماً، او جنوباً أو شمالْ

وتحرِّكَ الخطواتِ بالميزانِ
حين يشاء مَنْ وهبوكَ قيدَكْ
ليزيِّنوك ويأخذوكَ الى المعارض كي يرى الزُوَّار مجدَكْ.
كَمْ كنتَ وحدكْ !

هي هجرةٌ أُخرى . .
فلا تكتب وصيتكَ الأخيرةَ والسلاما.
سَقَطَ السقوطُ، وأنت تعلو
فكرةً
ويداً
و. . شاما !
لا بَرَّ إلَّا ساعداكْ
لا بحرَ إلَّا الغامضُ الكحليُّ فيكْ
فتقمَّصِ الاشياءَ كي تتقمَّصَ الأشياءُ خطوتَكَ الحراما
واسحبْ ظلالكَ عن بلاطِ الحاكمِ العربيِّ حتى لا يُعَلِّقها وساما
واكسرْ ظلالك كُلَّها كيلا يمدُّوها بساطاً او ظلاما.

كسروكَ، كم كسروكَ كي يقفوا على ساقيك عرشا
وتقاسموك وانكروك وخبَّأوك وأنشأوا ليديكَ جيشا
حطُّوك في حجرٍ. وقالوا : لا تُسَلِّمْ
ورموك في بئرٍ . وقالوا : لا تُسَلِّمْ
وأَطَلْتَ حربَكَ، يا ابن أمِّي،
ألف عامٍ ألفَ عامٍ ألفَ عامٍ في النهارِ.
فأنكروكَ لأنهم لا يعرفون سوى الخَطابة والفرارِ.

هم يسرقون الآن جلدكْ
فاحذرْ ملامحهم . . وغمدَكْ
كم كنتَ وحدكَ، يا ابن أمِّي ،
يا ابنَ اكثرَ مِنْ أبٍ،
كَمْ كُنتَ وحدكْ ! .

والآن، والأشياءُ سَيِّدَةٌ، وهذا الصمتُ عالٍ كالذبابهْ
هل ندركُ المجهول فينا ؟ هل نُغَنِّي مثلما كنا نُغَنِّي ؟
سقطتْ قلاعٌ قبلَ هذا اليومِ ، لكن الهواء الآن حامضْ .
وحدي أدافعُ عن جدارٍ ليس لي
وحدي ادافع عن هواءٍ ليس لي
وحدي على سطح المدينة واقفٌ . .
أيُّوبُ ماتَ، وماتتِ العنقاءُ، وانصرفَ الصَّحابَهْ
وحدي. أراود نفسيَ الثكلىٰ فتأبى أن تساعدني على نفسي.
ووحدي
كنتُ وحدي
عندما قاومت وحدي
وحدةَ الروحِ الأخيرةْ . .

لا تَذْكُرِ الموتى، فقد ماتوا فُرادى أو . . عواصمْ
سأراكَ في قلبي غداً، سأراك في قلبي
وأَجهشُ يا ابن أُمِّي باللُّغَهْ
لغةٍ تُفَتِّشُ عن بنيها، عن اراضيها وراويها
تموتُ ككُلِّ مَنْ فيها ، وتُرمىٰ في المعاجمْ .

هي آخرُ النَّخل الهزيلِ وساعةُ الصحراءِ،
آخرُ ما يَدُلُ على البقايا
كانوا ، ولكنْ كُنتَ وحدكْ
كم كنتَ وحدكَ تنتمي لقصيدتي، وتمدُّ زندكَ ، كي تُحوِّلها سَلالِمَ، أو بلاداً،
أو خواتمْ
كَمْ كنتَ وحدكَ يا ابن أُمي
يا ابن اكثرَ من أبٍ
كَمْ كنتَ وحدكْ !. .

والآن ، والاشياءُ سَيِّدَةٌ، وهذا الصمت يأتينا سهاما
هل ندرك المجهول فينا . هل نغني مثلما كنا نغنِّي ؟
آه ، يا دمنا الفضيحة، هل ستأتيهم غماما ؟
هذه أُمم تَمرُّ وتطبخ الازهار في دمنا
وتزدادُ انقساما.
هذه أُممٌ تفتِّش عن إجازتها مِنَ الجَمَل المزخرفِ. .
هذه الصحراءُ تكبر حولنا
صحراءُ من كل الجهاتْ
صحراءُ تأتينا لتلتهم القصيدةَ والحساما.
هل نختفي فيما يُفَسِّرُنا ويشبهنا
وهل. . هل نستطيعُ الموتَ في ميلادنا الكحليِّ
أمْ :
نحتلٍّ مئذنةً ونعلن في القبائلِ أَنَّ يثربَ أَجَّرتْ قرآنها ليهودِ خَيْبَرْ ؟
الله أكبرْ
هذه آياتنا ، فاقرأ

باسم الفدائيِّ الذي خَلَقَا
مِنْ جَزْمَةٍ أُفُقَا.
باسم الفدائيِّ الذي يَرْحَلْ
من وقتِكم . . لندائهِ الأوَّلْ
الأولِ الأوَّلْ
سَنُدَمِّرُ الهيكلْ.
باسم الفدائيِّ الذي يبدأْ
إقرأْ
بيروتُ ـ صُورتُنا
بيروتُ ـ سورتُنا.

بيروت ـ لا
ظهري امام البحرِ أسوارٌ و. . لا
قد أخسر الدنيا . . نَعَمْ !
قد أخسرُ الكلماتِ . .
لكني أقول الآن : لا .
هي آخر الطلقاتِ ـ لا .
هي ما تبقَّى من هواء الأرضِ ـ لا .
هي ما تبقَّى من نشيجِ الروحِ ـ لا .
بيروت ـ لا .

نامي قليلاً ، يا ابنتي، نامي قليلا
الطائراتُ تعضُّني . وتعضُّ ما في القلب من عَسَلٍ
فنامي في طريق النحل، نامي

قبل أن أصحو قتيلا.
الطائراتُ تطير من غُرَفٍ مجاورةٍ الى الحمَّامِ ، فاضطجعي على درجات هذا السُلّم الحجريِّ ، وانتبهي إذا اقتربتْ شظاياها كثيراً منكِ وارتجفي قليلا.
نامي قليلاً.

كُنَّا نحبُّك، يا ابنتي،
كنا نَعُدُّ على أصابع كفِّك اليُسرى مسيرتَنا
ونُنقِصُها رحيلا.
نامي قليلا.

الطائراتُ تطيرُ، والاشجارُ تهوي ،
والمباني تخبز السُكَّانَ، فاختبئي بأُغنيتي الأخيرة ، أو بطلقتيَ الأخيرة ، يا ابنتي
وتوسَّديني كنتُ فحماً أم نخيلا.
نامي قليلا.

وتَفَقَّدي أزهارَ جسمكِ،
هل أُصيبتْ ؟
واتركي كفِّي ، وكأسَيْ شاينا، ودعي الغَسيلا .
نامي قليلا.

لو أستطيع أعدتُ ترتيب الطبيعةِ :
هٰهنا صفصافة .. وهناك قلبي

هُهنا قَمَرُ التردُّد
هُهنا عصفورةٌ للانتباهِ
هناكَ نافذةٌ تعلِّمكِ الهديلا
شارع يرجوكِ أن تَبْقَي قليلا.
نامي قليلا.

كُنّا نحبكِ، يا ابنتي،
والآنَ ، نعبدُ صمتَك العالي
ونرفعهُ كنائس من بَتُوْلا.
هل كنت غاضبةً علينا، دون ان ندري.. وندري
آهِ مِنّا.. آهِ ماذا لو خَمَشْنا صُرَّةَ الأُفقِ.
قد يَخْمِشُ الغرقى يداً تمتدُّ
كي تحمي من الغَرَقِ.

بيروت ـ لا.
ظهري أمام البحر أسوارٌ و.. لا.
قد أُخسر الدنيا، نَعمْ،
قد أُخسر الكلماتِ والذكرى
ولكني أقول الآن: لا.
هي آخرُ الطلقاتِ ـ لا.
هي ما تبقَّى من هواءالأرض ـ لا.
هي ما تبقَّى من حطامِ الروحِ ـ لا.
بيروت ـ لا.

أشلاؤنا أسماؤنا. لا . . لا مَفَرٌّ.
سقط القناعُ عن القناعِ عن القناعِ،
سقط القناعُ
لا إخوةٌ لك يا أخي، لا أصدقاءُ
يا صديقي، لا قلاعُ
لا الماءُ عندكَ، لا الدواء ولا السماء ولا الدماءُ ولا الشراعُ
ولا الأمامُ ولا الوراءُ.
حاصِرْ حصَارَكَ . . لا مفرٌّ
سقطتْ ذراعك فالتقطها
واضرب عَدُوَّك . . لا مفرٌّ.
وسقطتُ قربك، فالتقطني
واضرب عدوكَ بي . . فأنت الآنَ حُرٌّ
حُرٌّ
وحُرٌّ . .
قتلاكَ، او جرحاك فيك ذخيرةٌ
فاضربْ بها. أضربْ عدوَّكَ . . لا مَفَرٌّ.

أشلاؤنا أسماؤنا
حاصرْ حصارَك بالجنونِ
وبالجنونِ
وبالجنونْ
ذهبَ الذين تحبُّهم، ذهبوا
فإمَّا أن تكونْ
أو لا تكونْ،

سقط القناعُ عن القناعِ عن القناعِ
سقط القناعُ
ولا أَحدْ
إلّاكَ في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيانِ،
فاجعل كُلَّ متراسٍ بَلَدْ
لا . . لا أَحدْ
سقط القناعُ
عَرَبٌ أطاعوا رُومَهم
عَرَبٌ وباعوا رُوحَهم
عَرَبٌ . . وضاعوا
سَقَطَ القناعُ
واللهُ غَمَّسَ باسمك البحريِّ أُسبوعَ الولادةِ واستراحَ الى الأَبدْ
كُنّ أنتَ. كُنْ حتى يكونْ !
لا . . لا أَحدْ
يا خالقي في هذه الساعاتِ من عَدَمٍ تَجَلَّ !
لعلَّ لي رَبّاً لأَعبدَهُ
لَعَلَّ !
علمتني الأسماءَ
لولا
هذهِ الدولُ اللَّقيطةُ لم تكنْ بيروت ثكلى !
بيروت ـ كلاّ .

بيروت ـ صورتُنا
بيروت ـ سورتُنا

فإمّا أن نكونْ
أو لا تكونْ.

أنا لا أُحبكِ،
كم أحبكِ !
غيمتانِ أنا وأنتِ، وحارسان يُتَوِّجان الانتباه بصرخةٍ ،
وُيُمَدِّدان الليلَ حتى آخر الليلِ الأخيرِ. أقول حين أقولُ
بيروتُ المدينةُ ليست امرأتي
وبيروتُ المكانُ مُسَدَّسي الباقي
وبيروتُ الزمانُ هُوِيَّةُ «الآنِ» المضَّرجِ بالدخانِ.

أنا لا أُحبكِ،
كم أُحبكِ !
غمِّسي باسمي زهورَك وانثريها فوق من يمشي على جُثَتي ليتسع السَّرايْ
لاتسحبيني من بقاياكِ، اسحبيني من يديَّ ومن هوايْ
ولا تلوميني ، ولومي مَنْ رآني سائراً كالعنكبوتِ على خطايْ
هل كانَ من حقِّي النزولُ من البنفسجِ والتوهجُ في دمايْ ؟
هل كان من حَقِّي عليك الموت فيكِ
لكي تصيري مريماً
وأصيرَ نايْ ؟
هل كانَ من حقِّي الدفاعُ عن الاغاني
وهي تلجأُ من زنازين الشعوب الى خُطايْ ؟
هل كان لي أنْ أطمئنّ الى رؤايَ
وأن أُصدِّق أنَّ لي قمراً تُكوِّرُهُ يدايْ ؟

صَدَّقْتُ ما صَدَّقتُ، لكنِّي سأمشي في خُطايْ.

أنا لا أُحبُّكِ
كَمْ أحبُّكِ، كم أحبكِ، كَمْ سَنَهْ
أعطيتني وأخذتِ عمري. كَمْ سنهْ
وأنا أُسمِّيكِ الوداعَ، ولا أُودِّع غير نفسي. كم سَنَهْ
وَعَدُوْكِ بالآتي وحين أتاكِ واتاكِ الحنينُ الى السفينةِ. كم سَنَه
لم تذكري قرطاجَ ؟
هل كنا هواءً مالحاً كي تفتحي رئيتك للماضي،
وتبني هيكلَ القدسِ القديمةِ. كَمْ سَنَهْ
وعدُوْكِ باللغةِ الجديدةِ واستعادوا الميتين مع الجريمةِ.
هل أنا أَلِفٌ، وباءٌ، للكتابةِ أَمْ لتفجير الهياكلِ ؟
كَمْ سنةْ
كنا معاً طَوْقَ النجاةِ لقارَّةٍ محمولةٍ فوق السرابِ،
ودفتر الاعراب ؟
كم عَرَبٌ أتَوْكِ ليصبحوا غَرْباً
وكَمْ غَرْبٌ أتاكِ ليدخلَ الاسلامَ من باب الصلاة على النبيِّ، وسُنَّةِ النفطِ المُقَدّسِ ؟ كم سنه
وأنا أُصدِّقُ أن لي أُمماً ستتبعني
وأنكِ تكذبين على الطبيعة والمسدَّس. كَمْ سنةْ !

بيروت ـ منتصف اللغةْ
بيروت ـ ومضةُ شهوتينْ
بيروت ـ ما قال الفتى لفتاتهِ

والبحرُ يسمعُ ، أو يوزِّعُ صوتَهُ بين اليدينْ .

أنا لا أحبكِ
غمِّسي بدمي زهورَك وانثريها
حول طائرةٍ تطاردُ عاشقينْ
والبحرُ يسمعُ ، أو يوزِّع صوتَهُ بين اليدينْ .

وأنا أُحبكِ
غَمِّسي بدمي زهورك وانثريها
حول طائرةٍ تطاردني وتسمع ما يقول البحرُ لي
بيروت لا تعطي لتأخذَ
أنت بيروتُ التي تعطي لتعطي ثم تسأم من ذراعيها ،
ومن شَبَقِ المُحِبْ
فبأيِّ إمرأةٍ سأُومنْ
وبأيِّ شُبَّاك سأُومنْ
مَنْ تُزَوِّجني ضفائرَها لأشنق رغبتي
وأموت كالأمم القديمة . كم سَنَةْ
أغريتني بالمشي نحو بلادي الاولى
وبالطيران تحت سمائي الاولى
وباسمك كُنتُ أرفعُ خيمتي للهاربين من التجارة والدعارة والحضارة. كم سنةْ
كُنَّا نَرُشُّ على ضحايانا كلام البرقِ :
بعد هُنَيْهَةٍ سنكون ما كنا وما سنكونُ
إمَّا أن نكون نهارك العالي
وإما أن نعود الى البحيرات القديمة . كم سنةْ

لم تسمعيني جَيِّداً . لم تردعيني جيداً. لم تحرميني من فواكهكِ الجميلةِ . لم
تقولي : حين يبتسم المخيَّمُ تعبس المدن الكبيرة . كم سَنَةْ
قلنا معاً : أنا لا أشاءُ، ولا تشائين . اتفقنا. كُلُنا في البحر ماءٌ. كم سَنَةْ
كانت تُنَظِّمنا يَدُ الفوضى :
تَعبنا من نظامِ الغازِ،
من مطرِ الأنابيبِ الرتيبِ،
ومن صعودِ الكهرباءِ الى الغُرَفْ . .
حريتي فوضاي. إني أعترفْ
وسأعترفْ
بجميع اخطائي، وما اقترفَ الفؤادُ من الأماني
ليس من حَقِّ العصافير الغناءُ على سرير النائمينْ ،
والإيديولوجيا مهنة البوليس في الدول القويةِ :
من نظام الرقِّ في روما
إلى مَنْعِ الكحولِ وآفةِ الأحزاب في ليبيا الحديثةِ.
كَمْ سنهْ
نحن البدايةُ والبدايةُ والبدايةُ. كم سَنَهْ
وأنا التَوَازُنُ بين ما يجبُ ؟
كُنَّا هناكَ. ومن هنا ستهاجرِ العَرَبُ
لعقيدةٍ أُخرى. وتغتربُ
قَصَبُ هياكلنا
وعروشنا قَصَبُ
في كُلِّ مئذَنةٍ
حاوٍ، ومغتصبُ
يدعو لأندلس

إنّ حُوصرتْ حَلَبُ.
وأنا التوازُنُ بين مَنْ جاءوا ومن ذهبوا
وأنا التوازُنُ بين مَنْ سَلَبُوا وَمَنْ سُلِبوا
وأنا التوازُنُ بين من صَمَدُوا وَمَنْ هربوا
وأنا التوازُنُ بين ما يَجِبُ :
يجبُ الذهابُ الى اليسارْ
يجب التوغُّلُ في اليمينْ
يجب التمترُس في الوسطْ
يجب الدفاعُ عن الغلطْ
يجب التشكُّك بالمسارْ
يجب الخروجُ من اليقينْ
يجب الذي يجبُ
يجب انهيار الأنظمةْ
يجب انتظار المحكمةْ
.. وأنا أُحبك، سوف احتاج الحقيقيةَ عندما أحتاج تصليح الخرائط والخططْ
أحتاجُ ما يجبُ
يجبُ الذي يجبُ
أدعو لاندلسٍ
إن حُوصرتْ حَلَبُ .

بيروتُ ـ صُورتُنا
بيروتُ ـ سورُتنا.

بيروت / فجراً :

يُطلق البحرُ الرصاص على النوافذِ. يفتح العصفورُ أُغنية مبكرةً . يُطيّرُ جارنا رَفَّ الحمام الى الدخان. يموتُ مَنْ لا يستطيع الركض في الطرقات : قلبي قطعة من برتقال يابسٍ . اهدي الى جاري الجريدةَ كي يفتّش عن أقاربه . أُعزّيه غداً. أمشي لأبحث عن كنوز الماء في قبو البنايةِ . أشتهي جسداً يضيُّ البارَ والغاباتِ . يا «جيم» اقتليني واقتليني واقتليني !

يدخل الطيران أفكاري ويقصفها . .

فيقتلُ تسعَ عشرةَ طفلةً.

يتوقف العصفور عن إنشاده . .

عاديَّةٌ ساعاتنا ـ عاديَّةٌ ،

لولا صهيل الجنس في ساقيك يا «جيم» الجنونْ .

والموتُ يأتينا بكلِ سلاحه الجويِّ والبريِّ و البحرِيّ.

ألفُ قذيفةٍ أُخرى ولا يتقدم الأعداء شبراً واحداً.

«جيم» اجمعيني مرةً ،

ما زلتُ حيّاً ـ ألفُ شكرٍ للمصادفةِ السعيده .

يبذل الرؤساء جهداً عند امريكا لتُفْرِجَ عن مياه الشربِ .

كيف سنغسل الموتى ؟

ويسأل صاحبي : واذا استجابت للضغوطِ فهل سيسفر موتنا عن :

دولةٍ

أم خيمةٍ ؟

قلتُ : انتظرْ ! لا فرق بين الرايتينْ

قلت: انتظر حتى تصب الطائراتُ جحيمها !

يا فجرَ بيروتَ الطويلا

عَجِّلْ قليلا

عَجِّلْ لاعرفَ جيِّداً:

إن كنتُ حيّاً أم قتيلا .

بيروت/ ظهراً .
يستمرُّ الفجرُ منذ الفجرِ.
تنكسر السماءُ على رغيف الخبزِ.
يَنكسر الهواءُ على رؤوس الناسِ من عبءِ الدخانِ ولا جديد لدى العروبةِ :
بعد شهرٍ يلتقي كُلُّ الملوكِ بكل أنواع الملوكِ، من العقيدِ الى الشهيد،
ليبحثوا خطر اليهود على وجودِ اللهِ . أما
الآن فالأحوال هادئة تماماً مثلما كانت . وإن الموتَ يأتينا بكل سلاحه الجويِّ
والبريِّ والبحريِّ. مليون انفجار في المدينة. هيروشيما هيروشيما
وحدنا نُصغي الى رعد الحجارة، هيروشيما
وحدنا نصغي لما في الروحِ من عبثٍ ومن جدوى
وأمريكا على الأسوارِ تهدي كل طفل لعبةً للموتِ عنقوديةً يا هيروشيما العاشقِ
العربيِّ أمريكا هي الطاعون، والطاعون. والطاعونُ امريكا نعسنا . أيقظتنا
الطائرات وصوتُ أمريكا لأمريكا
لأمريكا سنحفرُ ظِلّنا ونشخُّ مَزِّيكا
وأمريكا لأمريكا

وهذا الافق اسمنتٌ لوحشِ الجوِّ

نفتح علبة السردين، تقصفها المدافعُ
نحتمي بستارةِ الشباك. تهتز البناية. تقفزُ الابوابُ. أمريكا وراء الباب امريكا

ونمشي في الشوارع باحثين عن السلامة،
من سيدفننا إذا متنا ؟

عرايا نحن، لا أفقٌ يُغَطِّينا ولا قبرٌ يوارينا

ويا . . يا يومَ بيروتَ المكسَّرَ في الظهيرةْ
عَجِّلْ قليلاً
عَجِّلْ لنعرفَ أين صَرْخَتُنا الاخيرةْ.

بيروت / عصراً :
تكثر الحشراتُ .
تزداد الرطوبةُ .
ترتخي العضلاتُ .
نشعر ان للأرض احتقاناً في مفاصلنا،
فنصرخ: ايها البطل انكسِرْ فينا !

مساء / فوق بيروت :
الرخامُ
ينزُّ دماً، ويذبحني الحمامُ
إلى مَنْ أرفعُ الكلماتِ سَقفاً
وهذي الأرضُ يحملُها الغمامُ ؟
ويرحل، حين يرحلُ، نحو تيهي
أُحدِّق في المسدَّس، وهو ملقىً
على طَرَفِ السرير، وأشتهيهِ
وينقذني، وينقذني الكلامُ.
ظلامٌ كُلُّ ما فينا . . ظلامُ.

بيروت / ليلاً :

لا ظلامَ أشدَّ من هذا الظلامِ
يُضيئني قَتْلي.
أمِنْ حَجَرٍ يقدُّون النُعاسَ ؟
أمِنْ مزامير يصكُّون السلاح؟
ضحيَّةٌ
قَتلتْ
ضحيَّتها
وكانت لي هويَّتها ،
أنادي اشعيا : أخرجْ من الكتب القديمة مثلما خرجوا، أزقَّةُ اورشليم تُعَلِّقُ
اللحم الفلسطيني فوق مطالع العهد القديم،
وتدَّعي أن الضحية لم تُغيِّر جلدها.
يا إشعيا . . لا تَرْثِ
بلِ أُهجُ المدينةَ كي أُحبك مَرَّتين
وأُعلنَ التقوى
وأُغفَر لليهوديِّ الصبيِّ بكاءه . .
اختلطت شخوص المسرح الدمويّ :
لا قاض سوى القتلى

وكفُّ القاتل امتزجت بأقوال الشهودِ،
وأُدخل القتلى الى ملكوت قاتلهم
وتمَّتْ رشوةُ القاضي فأعطى وجهه للقاتل الباكي على شيء يُحَيِّرُنا . .
سَرَقْتَ دموعنا يا ذئب
تقتلني وتدخل جُثَّتي وتبيعها !
أُخرجْ قليلاً من دمي حتى يراك الليلُ اكثر حُلْكةً !
واخرجْ لكي نمشي لمائدة التفاوض، واضحينْ،

كما الحقيقةُ:
قاتلاً يُدلي بسكِّينٍ.
وقتلى
يدلون بالأسماء:
صبرا ،
كفر قاسم.
دير ياسين ،
شاتيلا!

بيروت / ليلاً:
لا تنامي كل هذا الليل
لا تتحدَّثي عما يدور وراء هذا البابِ
لا ترمي ثيابك
لا تعريني تماماً
لا تقولي الحبَّ
لا تعطي سوى فخذيكِ
لا تتأوهي فالحرب تسمع زهرة الجسدَيْنِ.
إني ارتديك على الشظية قربَ باب البيت،
نبقى واقفين، وواقفين الى النهايةِ.
واصلي سرقات هذا المشْهد،
زُجِّيني بشهوتك السريعة قبلما يأتي الينا موتُنا الخلفيُّ،
إني أوثِرُ الموتَ الذي يأتي الى كتفيَّ . . نحلا !

بيروت / ليلا :

مثل باذنجانةٍ . .
قمرٌ غبيٌّ مَرَّ فوق الحربِ
لم يركبْ له الاطفالُ خيلا.

بيروت / ليلا:
أمْسِك الآنَ الهواءَ الاسودَ الصخريَّ،
أكسره بأسناني. أَعضُ عليهِ. أُدميهِ. وأركلهُ
أكاد أُجَنُّ مما يجعلُ الساعات. . رملا.

بيروت / ليلا:
قالت امرأةٌ لجنديٍّ قبيحِ الوجهِ :
خذني للرُّكامِ وفُضَّني
لأصير. . أحلى.

بيروت / ليلا :
لم أَجد فيك الخليَّةَ والجزيرةَ.
أين ماتَ الشعر !
أين استسلمت للزوجِ ليلى ؟

بيروت / ليلا:
يقصفون مقابر الشهداء، يدَّثرون بالفولاذ، يضطجعون مَعْ فتياتهم، يتزوجون، يطلِّقون، يسافرون، ويولدون، ويعملون، ويقطعون العمر في دبَّابةٍ . .
أهلاً وسهلاً !

بيروت / ليلا:
يخرج الشهداء من أشجارهم، يتفقّدون صغارهم ، يتجولون على السواحل، يرصدون الحلم والرؤ يا، يُغطّون السماء بفائض الالوان، يفترشون موقعهم، يُسَمُّون الجزيرةَ، يغسلون الماء، ثم يطرِّزون حصاراً قططاً. . ونخلا.

بيروت / ليلا:
وحدنا، واللهُ فينا وحدنا
الله فينا قد تجلّى !

بيروت / ليلا:
يمدح الشعراء قَتْلي في مجالسهم،
ويرتعدون مني حين أطلع بينهم صوتاً وظِلّاً.

بيروت / ليلا:
آهِ، يا أفقاً تبدّى
من حذاءِ مقاتلٍ
لا تنغَلِقْ
لا تنغلقْ أبداً
لئلّا. .

بيروت / ظهراً:
اليوم يَنْشَقُّ الحصانْ.
اليوم ينشقُّ الحصانُ الى نهارَيْنِ،
المدينةُ والقصيدةُ تخرجان

من خصر أجملنا، سميرْ درويشْ،
ليحتفل المكانْ
بنا . . وينسبنا الى أحَدٍ
ليعطي العائلَهْ
شجراً وأسماءً . .
أتعرفُ مَنْ أنا حتى تموت نيابةً عنّي ؟
ستمضي القافلَهْ
جازاكَ ربُّكَ . . سوف تمضي القافلَهْ
لا . ليس شعراً أن ترىٰ قمراً ينَقِّطُ خارطهْ
لا . ليس شعراً ان ترتِّب ذكرياتي الساقطَهْ
فانهض على فَرَس الدخانْ
وارحلْ معي، من أجل أُمكْ . . .

•

بيروت / عصراً:
زَمَنٌ مضى
لكنه لا ينتهي

بيروت / فجراً:
ألشاعرُ افتُضِحَتْ قصيدتُهُ تماما
وثلاثةٌ خانوهُ:
تموزُ
وإمرأةٌ
وإيقاعُ
فَنَاما . .

لا يستطيع الصوتُ ان يعلو على الغارات في هذا المدى
لكنه يُصغي لموجتهِ الخصوصيَّهْ.
موتٌ وحريّهْ
يصغي لموجته ويفتحُ وقتَهُ لجنونِهِ
من حقِّه أن يُجلس السأمَ الملازمَ فوق مائدةٍ
ويشرب قهوةً مَعَهُ
إذا ابتعد الندامى.

ألشاعرُ افْتُضِحَتْ قصيدتُهُ تماما
بيروتُ تخرجُ من قصيدتهِ
وتدخل خوذَةَ المُحتلِّ،
مَنْ يُعطيه دهشتَه
ومَنْ يرمي على يَدِهِ
أُرُزًّا أو . . سلاما.

ألشاعرُ افْتُضِحَتْ قصيدتُهُ تماما.

في بيته بارودةٌ للصَّيدِ،
في أضلاعه طَيْرٌ
وفي الأشجارِ عُقُمٌ مالحُ.
لم يشهدِ الفصلَ الأخيرَ من المدينةِ.
كُلُّ شيء واضحٌ منذ البدايةِ،
واضحٌ

أو واضحٌ
أو واضحُ.
وخليلُ حاويْ لا يريد الموتَ ، رُغماً عنهُ
يُصغي لموجتِهِ الخصوصيَّةْ
موتٌ وحريّهْ
هو لا يريد الموتُ رغماً عنهُ
فليفتحْ قصيدتَهُ
ويذهبْ . .
قبلَ أن يُغريه تموزٌ، وإمرأةٌ، وإيقاعُ
. . وناما

ألشاعرُ افْتضِحَتْ قصيدتهُ تماما.

بيروت / فجرا
بيروت / ظهراً
بيروت / ليلا:
يخرج الفاشيُّ من جسدِ الضحيَّةْ
يرتدي فصلاً من التلمود: أُقتُلْ - كي تكونْ
عشرين قرناً كان ينتظرُ الجنونْ
عشرين قرناً كان سفّاحاً مُعَمَّمْ
عشرين قرناً كان يبكي . . كان يبكي
كان يخفي سيفَهُ في دمعتِهْ
أو كان يحشو بالدموع البندقيهْ
عشرين قرناً كان ينتظر الفلسطيني في طرف المخيَّمْ

عشرين قرناً كان يعلَمْ
أن البكاءَ سلاحُهُ السريُّ (والذريّ).

صبرا ـ فتاةٌ نائمهْ
رحل الرجالُ الى الرحيلْ
والحرب نامت ليلتين صغيرتينِ،
وقدَّمَتْ بيروتُ طاعتها وصارتْ عاصمَهْ . .
ليلٌ طويلٌ
يرصدُ الأحلامَ في صبرا،
وصبرا ـ نائمهْ.

صبرا ـ بقايا الكفِّ في جسدٍ قتيلِ
ودَّعتْ فرسانها وزمانها
واستسلمتْ للنومِ من تعبٍ، ومن عَرَبٍ رَموها خلفهم . .
صبرا ـ وما ينسى الجنودُ الراحلون من الجليلِ
لا تشتري وتبيعُ إلاّ صمتها
من أجل وردٍ للضَّفيرهْ
صبرا ـ تغني نصفَها المفقود بين البحرِ والحربِ الأخيرهْ:
لِمَ ترحلونَ
وتتركون نساءَكم في بطنِ ليلٍ من حديدِ ؟
لِمَ ترحلونْ
وتعلّقون مَساءكم
فوق المخيّم والنشيدِ ؟

صبرا ـ تُغَطِّي صدرها العاري بأُغنية الوداعْ
وتَعُدُّ كفَّيها وتخطيءُ
حين لا تجد الذراعْ :

كَمْ مرةً ستُسافرونْ
والى متى ستُسافرونْ
ولأيِّ حُلْمْ ؟
واذا رجعتم ذات يومْ
فلأيِّ منفى ترجعونَ ،
لأيِّ منفى ترجعونْ ؟

صبرا ـ تُمَزِّق صدرها المكشوفَ :
كم مَرَّةْ
تتفتَّحُ الزهرةْ
كم مَرَّةْ
ستُسافر الثورةْ ؟

صبرا ـ تخافُ الليل. تسندهُ لرُكْبتها
تغطيهِ بكحلِ عيونها. تبكي لتُلْهيهِ :

رحلوا وما قالوا
شيئاً عن العودهْ
ذَبلوا وما مالوا

عن جمرةِ الوردهْ !
عادوا وما عادوا
لبداية الرحلهْ
والعمرُ أولادُ
هربوا من القُبلَهْ .

لا . ليس لي منفى
لأقول : لي وطنُ
أللّهُ، يا زَمَنُ ! . .

صبرا ـ تنامُ . وخنجرُ الفاشيِّ يصحو
صبرا تنادي . . مَنْ تنادي
كُلُّ هذا الليلِ لي، والليلُ ملحُ
يقطع الفاشيُّ ثدييها ـ يقلُّ الليلُ ـ
يرقص حول خنجرهِ ويلْعقهُ . يغني لانتصار الأَرْزِ موالاً ، ويمحو
في هدوءٍ . . في هدوءٍ لحمَها عن عَظْمِها
ويمدِّدُ الأعضاءَ فوق الطاولَهْ
ويواصل الفاشي رقصتَهُ ويضحك للعيون المائلَهْ
ويُجَنُّ من فرحٍ ، وصبرا لم تعد جسداً :
يُرَكِّبها كما شاءتْ غرائزهُ ، وتصنعها مشيئتهُ .
ويسرق خاتماً من لحمها ، ويعودُ من دمها الى تلمودهِ :
ويكون ـ بحرُ
ويكون ـ برٌّ
ويكون ـ غيمُ

ويكون ـ دَمْ
ويكون ـ ليلُ
ويكون ـ قتلُ
ويكون ـ سبتُ
وتكون ـ صبرا .

صبرا ـ تقاطُعُ شارعيْنِ على جَسَدْ
صبرا ـ نزولُ الروحِ في حَجَرٍ
وصبرا ـ لا احدْ
صبرا ـ هوية عصرنا حتى الابدْ . . .

بيروت/ أمسِ / الآنَ/بعدَ غدٍ :
نشيدٌ للخريفِ
صُوَرٌ لما بعد النهارْ
وظلالُ إمراةٍ غريبةْ .

وطني حقيبةْ
وحقيبتي وطني
ولكن . . . لا رصيفَ ،
ولا جدارْ .

لا أرضَ تحتي كي أموتَ كما أشاءُ ،
ولا سماءْ

حولي
لأُثقبَها وأدخلَ في خيام الأنبياءْ .

ظهري الى الحائطْ
الحائطِ/ الساقطْ !

وطني حقيبةْ
وحقيبتي وَطَنُ الغَجَرْ
شعبٌ يُخَيِّمُ في الأغاني والدخانْ
شعبٌ يُفَتِّش عن مكانْ
بين الشظايا والمطرْ .

وجهي على الزهرةْ
الزهرةِ/ الجمرةْ .

وطني حقيبةْ
في الليل أفرشها سريرا
وأنامُ فيها ،
أخدعُ الفتياتِ فيها
أدفن الأحباب فيها
أرتضيها لي مصيرا
وأموتُ فيها .

كَفِّي على النجمةْ

النجمةِ/ الخيمةْ

وطني حقيبةْ
من جلدِ أحبابي
وأندلسَ القريبةْ
وطني على كتفي
بقايا الأرضِ في جسدِ العروبَةْ .

قلبي على الصخرةْ
الصخرةِ/ الحرَّةْ .

يا أهلَ لبنانَ . . . الوداعا
شكراً لكُلِّ شجيرةٍ حَمَلَتْ دمي
لتضيءَ للفقراءِ عيدَ الخبزِ ، أو لتضيء للمحتلِ وجهي كي يرى وجهي
ويرتديَ الخداعا .

شكراً لكُلِّ سحابةٍ غَطتْ يديَّ
وبَلَّلَتْ شفتيَّ ،
حتى أعطت الأعداء باباً . . . أو قناعا .
شكراً لكُل مُسَدَّسٍ غطَّى رحيلي
بالأرُزِّ وبالزهور ،
وكانا يبكي أو يزغرد ما استطاعا .
يا دمعةً هي ما تبقىّ من بلادٍ

أُسندُ الذكرى عليها . . . والشُّعاعا .
يا أهلَ لبنانَ الوداعا !

اليوم أكملتُ الرسالةَ
فانشروني ، إن أردتم ، في القبائلِ توبةً
أو ذكرياتٍ
أوْ شراعا .
اليومَ أكملتُ الرسالةَ فِيكُمُ
فلتطفئوا لهبي ، اذا شئتم ، عن الدنيا ،
وإنْ شئتمْ فزيدوهُ اندلاعا
أنا لي ، كما شاءتْ خطايَ
حملتُ روحي فوق أيديكم فراشاتٍ ،
وجسمي نرجساً فيكمْ ،
وموتايَ اندفاعا
يا اهلَ لبنانَ . . . الوداعا .

هذا دمي ، يا اهلَ لبنانَ ، ارسموهْ
قمراً على ليلِ العَرَبْ .
هذا دمي ـ دمُكم خذوه ووزّعوهْ
شجراً على رمل العربْ .
هذا رحيلي عن نوافذكم وعن قلبي انحتوهْ
حجراً على قبرِ العربْ
هذا بكاء رصاصنا ، هذا يتيم زواجنا ، فلترفعوهْ
سهراً على عُرس العربْ .

هذا نشيجي . مزِّقُوه وبعثروهْ
مطراً على ارض العربْ .
هذا خروج أصابعي من كفِّكمْ
هذا فطام قصيدتي ، فَلْتكتبوهْ
وتراً على طَرَب العربْ .
هذا غبار طريقنا ، فلترفعوهْ
لهمو حصوناً ، او قلاعاً ، أو ذراعا .
يا اهلَ لبنانَ الوداعا .

سيجيئكم مَطَرٌ
ويغسلُ ما تركتُ على شوارعكممن الكلماتِ ، يطردُ ما تركتُ على نوافذكم من الشهواتِ . يمحو ما لَمَسْتُ من الصَّنوبرِ في جبالكمُ وينسيكمْ فتىً كسرَ الهواءَ على موائدكم قليلاً ، أو أضاع يديهِ في أيديكم سَنَةً ، وضاعا .
يا اهلَ لبنانَ . . . الوداعا .

حدَّقتُ في كَفِّي
لابصرَ ما وراء البحرِ ـ
تلك وسيلتي لتَبَصُّر الاشياءِ ـ
بحرٌ ، ثم بحرٌ ، ثم بحرٌ
مَنْ رآني
عَدَّ أكفاني
وغطي جرحكم كي يشتري جبلاً
ويبتاعَ الصراعا .
يا أهلَ لبنانَ . . . الوداعا .

لا جوعَ في روحي ،
أكلتُ من الرغيف الفذِّ ما يكفي المسيرَ الى نهايات الجهات .
عشاؤكم ليس الاخيرَ
وليس فينا من تراجَعَ ، أو تتابعَ ، أو تداعى .
يا أهل لبنان . . . الوداعا .

جَسَدانِ في تابوتِ هذا الشرق نحنُ
يزوِّدان المزوَدَ المنسيَّ بالصرخاتِ ،
نحن بشارة الميلادِ نحنُ
وصورتانِ لحظوةٍ قد حاولتْ
قد حاولتْ
قد حاولتْ
أنْ تَهْديَ الشرقَ المَشَاعا .
يا اهلَ لبنانَ . . الوداعا .

إسمان للتوحيد نحنُ :
على مشيئتنا أردنا أن نكونَ
ولا يكونَ الناسُ في الدنيا متاعا .
يا اهلَ لبنانَ . . الوداعا .

والآن ، أكملنا رسالتنا
إذِ اتَّحدَ الشقيقُ مع العدوِّ
ولم نجد أرضاً نُصوِّب فوقها

دَمَنا
ونرفعه قلاعا .
يا اهلَ لبنانَ . . الوداعا .

بيروت ـ مزودُنا
بيروت ـ مولِدُنا

اليوم إنجيلُ السوادْ ،
اليومَ تابَتْ مريمُ عن توبةِ التوباتِ وارتفع الحدادْ
الى جبين اللهِ
واختفتِ الملائكةُ الصغيرةُ
في أكاليلِ الرمادْ . . .

والبحرُ أبيضُ
هذه سُفني الأخيرةْ
ترسو على دمع المدينة ، وهي ترفع رايتي ،
لا رايةٌ بيضاءُ في بيروت
شكراً للذي يحمي المدينة من رحيلي
للّتي مَدَّتْ ضفيرتها لتحملني الى سفني الأخيرةْ
ـ أين تذهبُ ؟
ليس لي بابٌ لا فتحهُ لفارسيَ الاخيرْ
ـ والسبتُ أسودُ ،
ليس لي قلبٌ لاخلعَهُ على قدميكَ يا ولدي الصغيرْ

ـ أنا لا أُودِّع ، بل اوزِّع هذه الدنيا
على الزَّبد الاخيرْ
ـ وأين تذهبُ ؟
أينما حَطَّتْ طيور البحرِ في البحرِ الكبيرْ .

ألبحرُ دهشتنا ، هشاشتنُا
وغربتُنا ولعبتُنا .
والبحرُ أرضُ ندائنا المستأصلَةْ
والبحرُ صُوْرتُنا
ومَنْ لا بَرَّ لَهْ
لا بحرَ لَهْ . . .

. . . بَحْرٌ أمامكَ ، فيكَ ، بحر من ورائكَ .
فوق هذا البحر بَحْرٌ ، تحتهُ بَحْرٌ
وأنتَ نشيدُ هذا البحرِ . . .
كَمْ كنا نحبُ الأزرقَ الكحليَّ لولا ظلنا المكسور فوق البحرِ ؛
كم كنا نُعِدُّ لشهرِ ايلولَ الولائمَ .
ـ عَمَّ تبحثُ يا فتىً في زورق الأدويسةِ المكسورِ ؟
ـ عن جيشٍ يحاربني ويهزمني فأنطق بالحقيقةِ ثم أسأل : هل اكونُ مدينةَ الشعراءِ يوما؟
ـ عَمَّ تبحث يا فتىً في زورق الأوديسةِ المكسورِ ؟
ـ عن جيشٍ أُحاربهُ وأهزمهُ ،
وعن جُزُرٍ تُسمِّيها فتوحاتي ، وأسأل : هل تكون مدينةُ االشعراءِ وَهْما ؟
عَمَّ تبحث يا فتىً في زورق الأوديسة المكسور ، عَمَّ ؟

ـ عن موجةٍ ضيعتها في البحرِ
عن خاتَمْ
لأ سيِّج العالمْ
بحدود هذا البحرِ
ـ هل يجدُ المهاجر موجةً ؟
ـ يجد المهاجر موجةً غرقتْ ويُرجعها مَعَهْ
بحر لتسكن ، أم تضيعْ
بحر لأيلولَ الجديدِ أم الرجوع الى الفصول الأربعَةْ
بحر أمامك ، فيك ، بحرٌ من ورائكَ .
تفتح الموجَ القديمَ : وُلدتُ قرب البحر من أمّ فلسطينيةٍ وأب أراميٍّ . ومن أمٍّ فلسطينية وأب مؤابيٍّ . ومن أمّ فلسطينية وأب اشوريٍّ . ومن أمّ فلسطينية وأب عروبيٍّ . ومن أمٍّ ، ومن أمٍّ . . . على حجر يُقَيِّدُ فوقه الرومانُ أسرى حربهم ويُحررون جمالهم مني . . .
أنا الحجر الذي شدَّ البحار الى قُرون اليابسهْ
وأنا نبيُّ الانبياءِ
وشاعرُ الشعراءِ
منذ رسائل المصريِّ في الوادي
الى أشلاء طفل في شاتيلا .
أنا أوَّلُ القتلى وآخر مَنْ يموتْ .
إنجيلُ أعدائي وتوراةُ الوصايا اليائسةْ
كُتِبَتْ على جسدي
أنا ألفُ ، وباءُ في كتاب الرسم ، أعني الكهفَ يشبهني ويقتلني سوايْ
كُلُّ الشعوب تعوَّدتْ أن تدفن الموتى باضلاعي

وتبني معبداً فيها

وترحلَ عن ثرايْ
وأنا أضيقُ أمام مملكتي
وَتَتَّسعُ الممالك فيَّ ،
يسكنني ويقتلني سوايْ .
كلُّ الشعوب تزوَّجت أمي ،
وأمي لم تكن إلا لأمي
خصرها بحرٌ . ذراعاها سحابٌ يابسٌ
ونعُاسُها مطرٌ ونايْ .
وأنا أفيض أمام أغنيتي
وتحبسني خناجرها
يؤاخيني ويقتلني سوايْ .

. . وأنا نشيدُ البحرِ .
لا أرضى بما يرضي دمَ الاغريقِ من ريحٍ تهبُ لتنتهي المأساةُ بالمأساة . قد
ذبحوك كي يجدوك كرسيّاً فلا تجلسْ
لانَّ جميع آلهتي كلابُ البحرِ
فاحذرها ولا تذهب الى القُربانِ . .
إن الريح واقفةٌ كخازوقٍ
فلا تلمسْ يدَ القرصانِ ،
لا تصعد الى تلك المعابدِ
لا تصدِّقْ
لا تصدِّقْ
لا تصدِّقْ
فهي مَذبحةٌ

ولا تخمدْ هجيرك عندما يتقمَّص السجَّانُ شكل الكاهن الرسميِّ ،
إنَّ جميع آلهتي كلابُ البحرِ
فاحذرْها .
وإن الريح إنْ هَبَّتْ فمن أجل الجيوش تَهُبُّ لا من اجلنا .
دَعْ كلَّ شيء واقفاً
وأخرجْ من النصِّ المُعَدِّ وُعدَّ أسماءَ الملوكِ ،
وقادةَ الجيش المدجَّج بانتحاركَ وانحناءات القضاةِ تَجِدْ
قراصنةً ،ووجهاً واحداً .

•

من يستحقُّ البحرَ ؟
دعهم يسقطونَ على السواحل وحدهم . . .
من يستحقُّ الفجرَ ؟
دعهم يسقطونَ على فراغكَ وحدهم . . .
من يستحقُّ النصرَ ؟
دعهم يعبدون عدوهم وقيودهم . .
دع كُل ما ينهارُ منهاراً ،
ولا تقرأ عليهم أيَّ شيءٍ من كتابكْ ! . .

والبحرُ أبيضُ
والسماءُ
قصيدتي بيضاءُ
والتمساحُ ابيضُ
والهواءُ
وفكرتي بيضاءُ

كلبُ البَحر أبيضُ
كل شيء أبيضٌ :
بيضاءُ دهشتُنا
بيضاءُ ليلتُنا
وخطوتنا
وهذا الكونُ ابيضُ
أصدقائي
والملائكةُ الصغارُ
وصورة الأعداءِ
أبيضُ ، كل شيء صورةٌ بيضاءُ . هذا البحرُ ، مِلءالبحرِ ، ابيضُ . .

لستَ آدمَ كي أقول خرجتَ من بيروتمنتصراً على الدنياومنهزماً أمام اللهِ .
أنت المسألَهْ
الأرضُ إعلانٌ على جدران هذا الكون ،
حَبَّةُ سُمْسُمٍ قتلاكَ
والباقي سدى
فاعطِ المدى
إسم العيونِ المهملَهْ
لك أن تكون ـ ولا تكونْ
لك أن تُكَوِّنْ
أو لا تُكَوِّنْ . .
كل أسئلة الوجودِ وراء ظِلّك مهزلَهْ .
والكونُ دفترهُ الصغيرُ ،
وأنت خالقُهُ ،

فدوِّن فيه فردوس البداية ، يا أبي
أو لا تُدَوِّنْ
أنت . . . أنتَ المسألَهْ .

ماذا تريدُ ؟
وأنت من أُسطورةٍ تمشي الى أُسطورةٍ علماً ؟
وماذا تنفع الأعلامُ . .
هل حَمَتِ المدينةَ من شظايا قنبلَةْ؟ .

ماذا تريد؟

جريدةً؟
أتفقِّسُ الاوراقُ دُوريّاً
وتغزلُ سنبلَةْ ؟

ماذا تريدُ
أشرطةً ؟
هل يعرف البوليسُ أين ستحبل الأرضُ الصغيرةُ بالرياح المقبلَةْ ؟

ماذا تريدُ؟
سيادةً فوق الرمادِ ؟ وأنت سَيِّدُ رُوحنا يا سَيِّد الكينونةِ المتحوِّلَهْ .

فاذهب . . .

فليسَ لك المكانُ ولا العروش/المزبلَةْ .
حُرّيَّةُ التكوين أنتَ
وخالقُ الطرقاتِ أنتَ
وانت عكسُ المرحلَهْ .

واذهبْ فقيراً كالصلاةِ
وحافياً كالنهر في درب الحصى ومُؤَجَّلاً كقرنفلَهْ .

لا . لستَ آدم كي اقول خرجتَ من بيروتَ أو عمانَ أو يافا ، وانت المسألَةْ
فاذهبْ اليكَ ، فأنتَ اوسعُ من بلاد الناسِ ، أوسعُ من فضاء المقصلَةْ
مستسلماً لصواب قلبكَ
تخلع المدنَ الكبيرةَ والسماءَ المُسْدَلَةْ
وتُشيدُ أرضاً تحت راحتك الصغيرةِ ،
خيمةً
أو فكرةً
أو سنبلَهْ .
كم من نبيٍّ فيك جَرَّبَ
كم تعذَّب كي يُرَتِّبَ هيكلَهْ .
عبثاً تحاول يا أبي مُلْكاً ومملكةً
فَسِرْ للجلجُلَهْ
وأصعدْ معي
لنُعيدَ للروح المُشَرَّد أوَّلَهْ
ماذا تريد ، وأنت سَيِّدُ روحنا
يا سَيِّدَ الكينونة المتحوِّلَهْ ؟

يا سَيِّدَ الجمرةْ
يا سَيِّدَ الشُّعلَةْ
ما أوسع الثورةْ
ما أضيق الرحلَةْ
ما اكبر الفكرةْ
ما اصغر الدولةْ ! . . .

شعر

الفراشة تكتشف النار

عائشة أرناؤوط

١ ـ فجر الجمعة ١٧/ ٩/ ١٩٨٢

ايها الفجر المتوهّج ،
الهارب من سجلات التاريخ المزوّر ،
يا بوصلة روحي المتانّية في خروجها .

أيها الفجر الهائم ، تعال احتذِ جسدي المهترىء ،
وتسكّع في روث الزمن ،
في ركام الجثث المتخبطة بالحجارة .
تعال نحو موتنا الطِّلَّسْمِ ،
جثثنا سريعة العطب ،
وغدا لن يكون بامكاننا استقبالك بلا رائحة .

أيها الفجر النبيل لا تخفْ
اعبر الهواء الذي ما زال موشوماً
بالنظرات الاخيرة لرعبنا الأبيض .
تعال ، تأبط حلمي الصغير المحفوف بالمخاطر .
لا تخف ، إنه من فصيلة الريح ،
خذه ايها الفجر تحت ابطك ،

لا أريد أن تقتله وفود الاستغاثة الدولية ،
وبعثات العويل الاجوف .
معك . . . لن يكون عاجزاً عن الحركة ،
معك . . . سيتضاعف ،
ولن يخضع للتقادُم .

أيها الفجر النابت كالآس الفضي
في صباح الخرائب ،
تعال احتذِ اصابعي ،
وتسلّق احشائي قليلاً ،
وزقزق مقلداً عصفوري الصغير ،
الذي يرتع في دمه المتوهج ،
بعيداً عن العش ، في قفص .
وبمنقارك ، أيها الفجر البهي ،
أعد عيني الى تجويفها
كي استطيع ان اراك بوضوح ،
للمرة الاخيرة .
ودْع قطرةً من الندى فيها
اذ لم يعد بامكاني البكاء .

١٩٨٢/٩/١٧ ـ باريس

٢ ـ المتاع

على شوكة صبّار
مددت غلاف قلبي .
متاعي كفني اينما ذهبت .

متاعي موتي الذي احمله ،
في علبة من الشمع ، وانا اجتاز الحجيم .
وحجابي الحاجز ما بين الهواء والارض
متورّم بهدير الماء الملتهب ،
الذي يستعد للولوج في بحاركم المالحة .

ما بين الذي مات
ومن سيولد
يترجلِ الخط العمودي
زوبعةً من الاجنحة البللورية ،
يتأهب لاجتياز الرمال كلها ،
ملتحماً بابراج الحصار ،
يدوّن آثار اظلافكم
على طرائدِكم ـ الشعبِ .

ما بين الذي مات ومن سيولد
جناحٌ واحد
يصطفي النظرةَ الخاطفةَ للبرق ،
يحتجز مثلثَ الرعد الكامن
ويتكوّم على مهلٍ ، مزدوجاً ، مضاعَفاً ،
كي يُلْصِقَ المشيمةَ بالرحمِ ـ الامِ .

ما بين الذي مات
ومن سيولد
يتوهّجُ وريثُ اللهبِ والماء .

٢٧/٩/١٩٨٢ ـ باريس

شعر

قصيدة ينقصها شهيد

ممدوح عدوان

هي ورقة من توتْ
كان اسمها بيروتْ
سقطت ، فما عرّت سوى التابوتْ .

□

ما غادر الشهداء في بيروت من متردمِ
وقصيدتي لم تكتمل ، ما زال ينقصني شهيدْ
ما زال نصف القول محتقناً ، ويحرق لي فمي
ما زال باب الجرح مفتوحاً ، وهذي الارض لم تشرب دمي
والشعر يطلب جثة معروفة ،
تأتيه قافلة من الشهداء من بيروت ،
لكن لم يزل عندي يطالب بالمزيدْ
أحتاج من وطني شهيداً كان يعرفني
وتعرفه حوارينا العتيقةُ ،
حين أبكي فَقْدَهُ ، أبكي بلادي فيهِ
(دمعي كان يملأني على مرأى بلادي ،
كنت محتاجاً الى عذر لاسكبهُ)

فلا يكفي احتكار الموت في الجسد الفلسطينيِّ ،
صار عليَّ ان اجد الشهيدَ لأهل قريتنا ،
وإلا فلنشمر للسباق لحضن ملجئنا الطريدْ .
سأعبىء الكلمات أضرحةً
تليق بمجد من صنعوا لنا في الشعر
ديوانَ المفاخر والتهاجي والوعيدْ .
الحزن يَسْرَحُ في الوجوه ولا يليقُ
الحقد يُسجن في القلوب ولا يطيقُ
الضيق أقرب لاختناقي
كنت أتقنت الخسارة

وسط حشد هائم خلف المغانمِ
والجميع يهللون.الآن اصراري على هذا الرهانِ
كأنني ، جهلاً ، غَشَيْتُ لهم وغىٰ
وعَفَفْتُ عند المغنم
وتهلل الشعراء حين تيقنوا من أنهم
ما غادروا في االشعر إلا مأتمي
وأنا اليقين بأنه
ماغادر الشهداء لي
ولمن يغض الطرف عن بيروت من متردمِ
وقصيدتي لم تكتمل . . . ما زال ينقصني شهيدْ
يا أيها الأهل الذين يعبئون عكاظ يلزمني شهيدْ
يا أيها الأهل الذين تزاحموا في السوقِ
ساقهمُ الولاة كما تُساق النوقُ

حولهم دعاة الأمر جوفاً صارخين كما
كما يصيح البوقُ ، يلزمني شهيدْ
يا أيها الاطفال ، والأصحاب ، والأزهار ، والشجر المغرد في دمي
مازال ينقصني شهيدْ
يا أيها الأولاد ، والأحفاد ، والأجداد ، يلزمني شهيدْ
يا أيها الشعب المكبل بالقيودِ
وأيها الشعب المقبَّل في الوعودِ
وايها الصحفي ، والمذياع ، والاستاذ ، يلزمني شهيدْ
ولتسألوا في كل ميدان قريب ، او بعيد ، خلف ماضينا التليدْ
بيروت أعرفها ولكني سأعرف :
هل هي النبع الوحيدْ
كوم من الأشلاء ، أعرفها ، واحصيها وينقصها شهيد
واريده من خارج الأسوار في بيروتَ ،
من غير المنابر ، والدفاترِ ،
غير أسواق النخاسةِ ،
غير قافلة البريدْ
وأريده من غير من دُهسوا ،
ومن ماتوا بأقبيةٍ ،
وغير الغارقينَ ،
وغير من ماتوا بغيظٍ ،
او بطلقات من الحراسِ ،
أو ماتوا على الجدران مصفوفِيْنَ ،
أو ماتوا بأطواق الحديدْ

أني سألت شوارع المدن التي هُدِمتْ
ـ كما قد تفعل الحرب الضروس ـ
فلم تجبني
كان فيها الف طفَل دونما أهلٍ ،
وألف سبية يأتي اليها العار من أهلٍ ،
وفيها كل قتلاها وموتاها وأشلاء العبيدْ
لكنها لم تعطني من اجل اغنيتي شهيدْ
هل كنت محتاجاً الى بيروتَ ،
محتاجاً إلى تمزيقها ،
لاقول اني عشت هذا العمر في تابوتْ
جثث على مرآتنا ،
هل كنت محتاجاً الى هذي الدماء لكي أوضّح بصمتي ؟
الصمت ينبئني بأن الموت يأتي نحو أحياءٍ ،
ولا يأتي إلى من يستريح على حدود الموتْ
لكنني ما زالت أصرخ جامعاً كل العنادِ ،
إني أريد بأن يكون معي شهيد من بلادي
كي أشارك إن تفاخرت المصائب
بين « أسماء » و « خنساء » و « هند »
حين ضاع الندب في حمى المزادِ ،
جيش واوسمة وقتلى . . . ما الذي نشكو ؟
قذائف وانتهاكات وابنية تُهدَّم ما الذي نشكو ؟
جراح ، كبرياء أهدرت ،
وبلادنا تسبى كما قد يفعل الأعداء ،

أرض لا حدود لها ،
ونَقْعٌ كالهجوم . . . فما الذي نشكو ؟
خطابات ، تصاريخ ، اقامات ، واسلاك مكهربةٌ ،
سجون ، قاتلون ، فما الذي نشكو ؟
صلاة ، ثم ادعية على الاعدءِ
« بسم الله » في الانباءِ ،
مال كالمياه يفر من الاصابع ،
ثم للفقراء أوْدٌ دونه خرق القتادِ ،
لي اصدقاء واقفون وباسمون أمام موتهمُ
يجيء الى مسامعهم ضجيج الحربِ ،
تغلي في العروق دماؤهم ،
تدمى الشفاة من الحماسةِ ،
يمتطون ذرى البروج لكي يدقوا بالكعوب حجارها
إذ يشتهون الخيل والغارات ،
لكن تمنع الحرب التي يبغونها
أو يمنع الموت الذي يبغونهُ
لكأن فينا من يصون صناعة الموت المحلي الاصيل .

فيمنع استيراد ذاك الموت من اعدائنا .
وأصيح : حلوا القيد عن زندي
ولعلَّ لا أموت مقيداً
ولعلي موتي لا يولِّد كل هذا الخزي ،
لا يرث اليتامى منه خوفاً
فالسجون لدى العدو ، اليوم ، أجمل من سجون بلادنا

والأسر أرحم من تجبُّر أهلنا
(إذلالُ ذي القربى أشدُّ مضاضةً)
والقتل قتل إينما أهوى
لكي لا نشتهي عيشاً مع الأعداء
صرنا نشتهي موتاً على أيديهمُ
وشوارع المدن الصغيرة في القتال اعز
من دول تخاف كرامة الأبناء ،
تحمي ثغرها الخطبُ ،
فيجيبني الطاغوت إنّا ها هنا عربُ
واقحاح من النبض العريق مع الوثين ،
الى التدفّق في الوريدِ
الطامعون بأرضنا ـ أو عرشنا ـ عربُ
لذا أعداؤ نا عربُ
والموت لانرضاه مما يصنع الغرباءُ ،
بل نرضاه مما يصنع العربُ ،

عربٌ أُباة الحيف ،
أهل السيفِ
يفرحنا قدوم الضيفِ
في عشق نخاف حرارة الاجسادِ
لكنا يذوِّبنا مرور الطيفِ ؛
للانجاب والنزوات تكفينا جوارينا ،
ويكفينا من الدنيا ، رحيل للتجارة في الشتاء
ومثله في الصيفْ .

إنّا ها هنا عربُ
شعوب الأرض ترهبهم إذا غضبوا
وشمس المجد تشرق حيثما ذهبوا
وهم أهل المضارب والمضائق والكفاف الحمرِ ،
أرض الله واسعة لملعبهم إذا لعبوا
وأدهش أيُّهم عربُ
هنا عَرَبانِ اعرابٌ وعربانٌ ،
واني منهم في الضيق عريانٌ
ولكن أيها الجيش النظامي الذي اختلفتْ عليك مدينتان ،
قتلتني في الجولة الأولى ،
وبعدُ قتلتني كي لا اغيث الثانيهْ
وتقول أنك تصطفيني للحروب التاليةْ ؟
هل كان هذا كل ما أبقى لنا الطاغوتْ
هل كان هذا كل ما عرته من اوساخنا بيروتْ
من كان يعرف أنها بضجيجها في السلم ،
أو بصراخها في الحرب ،
تخفي ذلك التابوتْ
وغداً سنعرف قيمة الواحات
حين نجابهُ الصحراء
كالحسرى ننخُّ . . . نموتْ

يا ورقة من توتْ

كان اسمها بيروتْ

سقطت فلم يسقط سوى التابوتْ .

□

ماذا أساوي فيك يا بيروت ، إذ ضاق الحصارْ
بالأمس أفردها الكُماة على المضائق
تستجير فلا تجارْ
هَلاّ سألت القصف يا ابنة مالك
هّلا سألت الطائراتْ ؟
الأرض تغزر بالكمائن ،
والسماء تهل صاعقةً فصاعقةً
يجيء إليّ قصف كالزوابع ،
يجبر الأرض العزيزة أن تُرِي اثقالها
والقصف يغزر حولنا
وروائح العفن الاليف تفوح من حولي
فهل كانت قذائفهم معفّنة
أمَ انَّ القصف فجرَّ كل أوساخٍ
أحاطتني من الميلادِ ؟ ،
إني قد وقفت اقول للدينا امنحيني لو مكاناً واحداً
هل تم تجميعي بهذي الواحة الخضراء ،
كيما تحرق الأشجار والأعشاب ؟
كان البرد يقتلني
وكنت أريد دفَءأخوَّةٍ . .
شكراً لهذا القصف عرّاني ،

وأخرج كل ما في جوف مزبلة الأخوَّةِ
من روائح او عواطف مخجلةْ
بصراخ ثكلى حين أيقظني
رأيت النبض ، أبصرتُ الهواءَ
ولم تكن حرباً ،
ولكن حكم إعدامي يُنفَّذُ ،
والذين تعلموا أنشودتي
كانوا بلا خجل هنا قد علَّقوا انشوطتي .
خصمي يريد الأرض خاليةً
ودنيا تستريح مع القتيلِ
يقض مضجعها الجريحُ
لذا تطالب ان أموت لكي تحل المشكلةْ .
جثث على المرآة ،
هل حُوصرتُ في المرآة أمْ انا جثةٌ
ما زلتُ اضربُ في البلاد مهاجراً
فكانني كُنت المكلَّفَ
أن أقيسَ الأرضَ شبراً بعد شبرٍ ،
أن أقيسَ الأهلَ غدراً بعد غدرٍ
أن أقيسَ العمرَ صبراً بعد صبرٍ
كان حولي الصمتُ يطوي كل شيء غيرَ حشرجتي ،
وكان النزْعُ أطلقه رعوداً
كان صمتُ العالم المرتاحِ يسترخي أمام مشاهد التلفازِ
كانت بينها صوري مكرَّرةً

أقاتلُ ، ثم أُقْتلُ ، ثم انهض ، ثم أرفضُ
ثم أرحل ، ثم أُقتلُ
كم وددت لو انني قدمت عذري
لو أتى موتي إلى المتفرجين مهدئاً
لكن أعدائي أبوا ،
لم يقتلوني مرة مثل التي سلفت
ولم يتعود الجمهور موتي .
لو أتى موتي إلى المتفرجين مسلياً
ما كنت أرغب أن أموت المعذرةْ
يا زائراً بيتي تقبل عذر صعلوك تلحّف بالردى
يا زائراً صبرا وشاتيلا تمهل أستمحيك معذرةْ
يا زائراً بيروت من درب المخيم ،
من طريق المتحف ، البربير ،
من عند المطار ، طريق خلدةَ ،
ماالذي سأقول إلا ، المعذرةْ
إنّا قُتِلْنا بغتة ، لم نُستَشرْ
لم ندرِ كيف نعدُّ أنفسنا لهذي المجزرةْ
يا زائراً لا تمتعضْ ،

إن الذباب يحط فوق جسومنا المتبعثرةْ
لم نلق عطراً كي نرش على تفسُّخ هذي الجثث التي
تُرِكَتْ بعرض الشارع المهدومِ
لم نجد الاذاعات التي تعتاد قصف الخصم في خطب
لتستر العار الذي في العسكر المهزومِ .

لم نلق البكاء لنختفي في دمعة المظلومِ ،
ما أبقى لنا الاعصارُ إلا هذه الصورَ الممزقةَ

التي تحوي العوائلِ ،
والبلاد مدمَّرةْ
لم يمهلونا كي نلمَّ دمارنا . . . فالمعذرةْ
ما كنت أرغب أن أموتَ أمام أهلي ،
غير ان القاتلين تعجلوا
والنادبين تعجلوا
لم يمهلوني كي أغطي جثتي وألم أشلاء الصغارْ
ما كنت أرغب أن تراني عارياً من قبري المعهود في ضوء النهارْ
ما كنت أرغب أن أموت ،
صرخت حتى فاق صوتي غارة الطيرانِ
حتى فاق صوتي كل زمجرة القنابلِ ،
واخترقتُ بعنف صرْخاتي جدار الصوتِ ؛
إني قد صرخت لمن يجيء بنجدةٍ ،
ولمن يطوّل باله في القتلِ .
لم يسمع صراخي عابر أو شاهد أو قاتلُ
وطلبت أن يتوسع الميدان ، أبقى في القتالِ ،

طلبت أن أحمي صغاري أو بلادي
وامتشقنا بعض اوجاع المخيم ، والمنافي ،
كي نفلَّ بها حديداً
غير أن الأرض ، كل الأرض خافتْ من سلاحي

أقفلتْ آذانها عمداً لتغفل عن صياحي
في ضجيج الصامتين أتت إليَّ المجزرةْ .
ما كنت أرغب أن أموتَ ،
رجعتُ أكبُر في الصغارِ ،
رأيتُ أشباحاً بشارعنا ،
سمعت كلابنا في العتمِ
حشرجةً من الجيرانِ ،
أضواءً تهل من السماءِ ،
سمعتُ غرغرةَ الذبيحِ ،
صراخَ جارٍ ، صَلْيَةً
(وتمطُّ أرجلها الدقائق تستحيل الى دهورْ)
خطوهم يدنو إلى بابي
وطفلي شبَّ نحوي
زوجتي ألقتْ علينا نظرةً مفجوعةً ،
والكلبُ يشرس ،
ثم ضَرْبات على الأبوابِ . . . أهربُ ؟
من سأترك من صغاري بينهم ؟
من سوف أحمل منهمُ ؟
ماذا سأحمل من بلاد عشتها ،

وتجمعتْ في القلب تطلب نجدتي
وخرجت بالاطفال والنسوان والجارات والحارات والأيتام والطرقاتِ والطلقاتُ تتبعني
أهمُّ إلى نجاةٍ لا أراها ،

أو دروب لا أراها
استقبلتنا عتمةُ الصرخاتِ والآهاتِ ،
فاجأنا الرصاصُ ،
ولم يكن أحد يشاهدنا
ولا أحد يساعدنا
فمتنا . . .
لم نستّر ما تعرّى من مباذلنا ،
وما عرَّتْهُ تلك الليلة الليلاء من عورات ماضينا
ومن كل المخازى خلف ابواب المخيم عند أهلينا
ومتنا
دون ترتيبٍ وتنظيفٍ ، فللزوار والسياح والأغراب منا المعذرةْ
لم يمهلونا كي نغطي بعض سوءاتِ المخيمِ
نرتدي بعض « الغلاليب » التي تستلفت السياحَ ،
أو بعض « التنانير » التي صارت تميّزنا .
لأول مرة ألقى نساء من حمولتنا
عرايا في الطريق ممددات ٍ دونما خجلٍ أمام العابرينَ
ولم يقمْ رجلٌ غيور إذ يرى عُرْياً يسازع نحوه كي يسترهْ
ألمعذرةْ
هي ليلة القَدْر التي قَصُرَتْ وصارت كالثواني في حَوارِيْنا
ظننّا بوق اسرائيل يدعو للنشور ، فلم يقم موتى القبورِ ،
وكان ، كما خشينا ، جيش إسرائيل يزعق بيننا
فتساقط الأموات من أحيائهم
وتعبأت صبرا وشاتيلا

ومُرّغَتِ العواصمُ من كرامتها (وأعني من عروبتها)
وكانت جمعةً ملغومةً
لم يستطعْ أحدُ وصولاً للمساجدِ
كي يصلي ، للثوابِ ، جماعةً
لشيوخنا الابرار والاطهار منا المعذرةْ
هي جمعةٌ صنعت لدى أهل الكتابِ
وحين جاء السبتُ كان العُرْبُ مقتولين في كل القبائل والطوائفِ ،
والفلسطينيُّ في كل العواصم شاهدٌ مُنِعَتْ شهادتهُ التي تدعو إلى مجد الكفاحْ
في كل عاصمةٍ أراها أقتفي أثري الذي ضيعتهُ
فيقودني للمقبرةْ
وأغوص في التاريخ أبحث عن ملاحمهم ، فألقاها وقد صارت دكاكيناً لبيعِ لحومنا ، حيث اللحوم مسعّرةْ
وأنا أطالب بالشهيد ولا يجيء ،
ولست أدري بينهم من أخَّرَهْ .
يا أيها المتسلقون على حبال نحو غيمات الرشيدْ
يا أيها المتبعثرون من الفرات الى ذرى اوراس لليمن السعيدْ
أدعوكم جمْعاً إلى موت رغيدْ
عَلَّي أرى فيكم شهيدْ
جثثٌ على المرآةِ ، والأرض الفسيحة تحته سطح جليديٌّ تحرك تحته الاعداءُ فانكسر الجليدْ
إنا نغوص وليس يجدي مَنْ تشبَّث بالشظايا
كل سطحٍ من جليدٍ ذائبٌ

والكل غرقى في الصديدْ .
جثثٌ على المرآةِ
والارضُ المجيدةُ حولنا مستنقعٌ نتنٌ .
أمر على تناثر هذه الاجساد أبحث عن ملامحي الشهيدة لا أراها
عن توابيتي القديمة لا أراها
لا أرى الا مطايا أسرعت نحو الخليفة بالسبايا
لا أرى فيها سوى نَطْعٍ ورأسٍ عند أقدام الخليفةِ .
رحت أسال رأسي المقطوع في حسدٍ
ترى هل كنت في بيروتَ ، هل كان التراب شقيقك التوأمْ
حوصرْت حتى صار من ظمأٍ كمينك إذ تجفّف حولك الماء اليتيمُ ،
فرحت تشرب كي تبلّ الريقَ من علقمْ
هل كنت في بيروت ؟
فتعود نحو الأرض في مطر وترفض ان تموتَ ،
وترفض الاذعان حتى للردى الموقوتْ
إني رأيتك تستعد لصنع معجزةٍ ،
وضعت يديك تحت مدينة كان اسمها بيروتْ
وأردت ترفعها الى الكتفين كي تمشي بها ، فتشبثتْ كل الأراضي والمدائنِ والتواريخ الكئيبة تبتغي قربى لبيروت الصغيرةِ . كيف ترمقها وترفع باسمها الدنيا

تنخّ وأنت ترفعها ولا تهزمْ
وتقلّبُ الطّرْفَ الكسيرَ بهذه الدنيا الوسيعةَ
أين تمضي ؟ لم تعد تعلمْ
هل تفهم الأمواج والسفنُ   ان الذي نسعى له وطنُ

وطن صريح كالرغيف لنا — لن ننثني مهما غلا الثمنُ
وطن الغراس ونحن نُنْبتها — نعطي دماً إن ضنَّتِ المُزنُ
ما زلت ألتمسُ الشهيدَ له — فألَمُّ ما جادتْ بهِ الفِتَنُ
أبغي دماً يزكو ويسكرني — لكن هنا يُسْتَنْبَتُ العفنُ
أنا عابد الوطن العليِّ وفي — صلواته يتسلل الوثنُ
هل ضاقت الدنيا على حلمي ؟ — أم ضاق بي ؟ أم جُفِّف الزمنُ

□

أبداً تسير إلى المنافي عارياً
في كل منفى ترتدي مدناً مهلهلةً تجدِّدها لتصبح مثل درعك ،
أو تسير الى المنافي تائهاً فترى المدينة لُخِّصَتْ في السجنِ والسوقِ الرخيصةِ والبغايا.
أنت تغسلها من الرجسِ القديمِ ، تصيرُ طاهرةً ، كما المدن التي يتجندل الفرسان في أبوابها
ويجيئك الأهل الذين رأوك واكتشفوا بها أمجادهم
ويجيئك الأعداء إذ عرفوا بها أسلابهم
أبداً تضيقُ الأرضُ ، ينحسرُ الترابُ أمام مدِّ الرملِ والأمواجِ ، تسقط عن وجوهِ الناس أقنعةٌ ، وفي شبر من الخصبِ الشهيدِ تحوم زوبعةٌ هي الدنيا التي بقيتْ ، وقد صار اسمها بيروت
وتمرُّ من بين المفاصلِ ،
نحو رائحة المقابرِ
نحو قافلة القبائلِ
تسأل كل جلاد تمنى موتها في السر كيف تموتْ

أبدا تضيق معابر النفَس الأخير فليستردُ النّزْعُ نبضتهُ
ويمسحُ آخر الشّبّابِ في المتراسِ دمعتهُ
وينهضُ أول القتلى وفي عينيهِ رايات من الأزهار مشرعةٌ
وفي شبر تجمَّع من أراد الموتَ ،
صارَ الشبر ساريةَ الخلاصِ وقبلةَ الفرسانِ والملكوتْ
أبداً تسير الى المنافي تاركاً مدناً تعرت منك فانْتُهِكَتْ .
وأنت تسير ،
قلبك حين يرجف باسمها
قد غافل الأعداء والأصحاب في صمتٍ
ليسرق منهم بيروتْ
في كل أرض حَظٌ تبرز راية حملت سنا بيروتْ

هيا تعالي يا رياح ، وعربدي في القلبِ
هيا ان قافلة من القتلى مهيأة ومسرعةٌ
وأن تأوهاتِ الطالقِ الثكلى قُبَيْلَ الوضع تحت القصف مبدعةٌ
وان الرأسَ يهمسُ وسط ذاك النطع سِرَّ كلامهِ الياقوتْ
هي ورقة من توتْ
كان اسمها بيروتْ
سقطت فلم يسقط سوى التابوتْ .

□

من كان يخفي كل هذا الموت عن عينيّ ، يدفعني إلى التنقيب في الأنقاض ، يغريني بقيمة هذه الأعراض ، قيمة أننا ننجو بأيام مهلهلةٍ ونحن تحت حمولة كسرت ظهور الناس ، ثم يبيِّن الاعداء حين أتوا لسلب الارث أنَّا نحمل

التابوتْ

أني لأغمض مقلتيّ لكي أضمهما على طيف البلادِ

فلا أرى غير السوادِ

أودِّع الأسرى الذين تحملوا نحو المنافي حيث أسواق النخاسة في بيوت الأهلِ

أبقىْ واقفاً مثل المدينةِ كي نغني للوداعِ و للصدى المكبوتْ

يا راحلينَ عن الحمى	هذا النوى فضّاحْ
لا تحملوا معكم إلى	منفاكم المفتاحْ
ان الذي تبغونهُ	قد ظل في الشياحْ
والعنق تخرج من هنا	لتقابل السفاحْ

□

يا راحلين مع الدجى	قلبي لكم مصباحْ
ان الغريب المُبْتَلي	صفصافُه نوّاحْ
هل لي عزاء بعدكم	في أدمع التمساحْ
الأهل كانوا حولنا	سكرى وكنت جراحْ
اني أراهم من دمي	قد عبأوا الاقداحْ
هلا سألتِ القصفَ يا ابنة مالكٍ	إن كنتِ عاتبةٌ فَمَوْتي في العتبْ

يخبرْكِ من شهدَ الوقيعةَ أنني

قاومت حتى انزاحت الأستار عن كل العربْ

وشهيدي المطلوب معروف من الفقراءِ

عرّاهُ الولاةُ من الشهادةِ
ثم غطوا الأمر إذ رفعوا العقيرة في الخُطَبْ
وشهيدي المطلوب مطعونٌ من الصدر الفسيح بحربة الاعداءِ ،
مطعونٌ من الظهر المُعَّرى بالقرابةِ ،
لم يزل يشتاقُ رغم العسف للصهوات يعلوها إذا جاء الطلبْ
وشهيدي المطلوب مستترٌ
يُشيع بكاءه فيخاله السُّمَّار نجوى أو طربْ
هلا قصدت الأهل يا ابنة مالك

ونقلت للنخاس بشرى
سوف يأتيه الزبائن يطلبون مسلحين مدجَّنين ، ويدفعون لأجلهم
إبلًا وأغناماً ونسواناً تشهين الذهبْ
ولتبلغي أنى صرخت وسط الحرب ،
يا أعداءنا لي عندكم هذا الطلبْ

إن حَمَّ من حولي القضاءُ
وضاق في عمري الفضاءُ
فقدِّورا هذي الشجاعة واقتلوني في الوغى
لا تُسْلموني للعربْ
لا تُسْلِموني للعربْ .

□

هي ورقة من توتْ
كان اسمها بيروتْ

سقطت فلم يسقط سوى التابوتْ .

□

بيروت تلك لحافنا في زمهرير الغادر العربيّ
لكني أنا المغدور سلّمني العِدى إلى بلوى بني عبسٍ
بيروت تابوت تكسَّر عن رفاتي فانزويت ألُمَّ بعضي
وأنزويت لشخذِ بغضي
فاستوتْ فيَّ الهمومُ كلوعةِ القدسِ .
ما من عظيم أتّقيه وقد عبرت النار في بيروت .
أنا لست غيماً للرشيد يجيئه مني الخراج إذا نُفيتُ
أعود ، حين أعود وحدي
إنني الطير الأبابيل التي عادت بحقدٍ صارخٍ ؛
إني أطارد قاتلي
من نامَ يوم مذابحي سيظل كابوسي على أحلامهِ
أمي تطارد قاتليها منذ بدء الغدر في مستنقعٍ
وانا اطارد قاتلي
فلتحذروا الريح التي اقتلعت خيامي منكمُ
لم يبق ما أخشاه بعد مجازري
سمك يُجَفَّفُ حوله ماءُ
تعلم ان يعيش بغير ماءٍ
او تعوَّد ان يعيش مع الغبار
لانهم قد حولوا الأنهار مثل الاضرحةْ

لا تعجبوا والماء أشراك إذا ما رفرفت فيه الزعانف أجنحةْ

أو أطلقتْ منه الحراشفُ كل أنواعِ القذائفِ ، واستحالَ الرملُ في قاعِ البحارِ
لهُ مخابىءَ أسلحةْ
ولتحذروا
إني سأرفع رايتي من وسط هذا الرَّدْمِ ،
أرفع هامتي من عمق هذا الذلِ
أنهض حاملاً بيتي الذي أبقاه لي زمني
والثياب الحمر ، من جرحي ومن نزف العدو ، ونقع ميداني ،
غدتْ كفني
ثيابي لم تعد تخفي عن الأعداءِ إلاَّ جثتي
وسلوا عدوكمُ الذي تخشون كم قد ذاقَ من بأسي
سيخبركم باني قد الاقي الموتَ في فرحٍ لكي لا ينحني رأسي
وبأنني أبقى مع الاملِ الكبير بأنَّ في الدنيا مكاناً لي
وأنَّ غدي يجيء إليَّ في ضوءٍ يبدِّدُ ظلمةَ الأمسِ .
إنْ لم يكنْ لي من غدٍ
فلتحذروا يأسي .

شعر

بيـــروت ١٩٨٢

إيتـيل عدنـان

آه يا بريَّة القلب الناعمة
يومَ ماتتْ بيروتُ تحت
وابلٍ من الورد الاحمر !

« أم كلثوم » فارقتنا :
تعودت الغناء للملائكة والاحصنة . . .
ثم تبعها فلسطينيون صامتون في موكب
كما في جدرانيات اجدادهم .

الوحوش ليست في حديقة الحيوانات . . . .

و : باء بيغين
الذي وطأ اسطورة الشل
مع ثلاثة بلايين دولار
لكي يقتل طفلاً
لكي يقتل غابةً من الرجال .

جاءَ وقتٌ ترفض فيه الكلماتُ
المستعارةُ ان تغادر هوة احزاننا .

لوجوهنا تجعداتٌ اكثر عمقاً من مهاوي
وادي روم
وعظامُ انسانيةٍ لَوَّثتْ
شوارعَ بيروت ،
عظام ممتزجة بفضالة الحيوانات . . .
فلنسمِ اطفالنا :
دير ياسين
قلقيلية
صبرا
وشاتيلا
لئلا ننسى . .
ما اعتقدتُ ابداً
ان الانتقام شَجَرَةٌ ،
تنبتُ في حديقتي .

□

الاشجار تنبت في كل الاتجاهات
والفلسطينيون ايضا :
مقتلعون
وبعكس الفراشات
دُونَ اجنحة ،

ملتصقون بالارض
يرزحون بحب اراضيهم
ومآسيهم .

لا شعب يقضي عمره
خلف القضبان
أو تحت الامطار
الى الابد .
رفاقهم هم شعراء من روسيا واميركا
وهم هنود غواتيمالا . . .

ايها البركان المطفأ
اين هي جدرانك اذا
لم تكن محترقة ،
واين هي النار اذا
لم تلتهم الجبال
بمرارة اكبر من الطوفان ؟ !
لن نبكي دمعاً
بل دماً .

حين خلقنا ملاك الصحراء السورية
ظهر بلباس الريح : لا اوراق
في الادغال اليابسة

بالجزيرة العربية
عندها نادينا عازف الناي
في القبيلة
وطلبنا منه
ان يُسمر امواج المتوسط :
الامواج اجابتنا بنشيد جنائزي .

شاركنا في جنازات عديدة
في سنوات عديدة
وحده الثلج
يمحو خطايانا
ولا ثلج في اريحا

أحمد ومحمد
يدقان على الباب النووي :
« تعالوا ننقذِ العالم ، قالوا ،
مثل واجب ملح ،
لنكنْ مجانين » .

لا مقاعد شاغرة
للذين لا هويات لهم
في تكسيات بيروت
ولا اسم حتى لأحمد .

أحمد أزرق مثل شجر الموز
في صيدا
أصفر مثل البرتقال الذي
زرعه والده في يافا
الا ان محمداً مضطرب
يهلوس
كل ليلة
عند سماع الراديو
ويتقيأ الاخبار .

تعالوا ندفنه بصحبة موكب طويل
من الازهار .
هل عرفتم ؟ هل سمعتم ؟
هل قالوا لكم ان الناس
كانوا يلهثون
في الشوارع
بحثاً عن اقدامهم لاعن احذيتهم ؟
ولا في الكابوس بل
امام التلفزيون ؟

الشمس ساطعة
في لبنان
لدرجة ان الكاميرات احتجبت . . .

هل عرفتم ؟ هل قالوا لكم
ان جلود الافيال نبتت فوق عيوننا
وشعراً أسود خلف الآذان ؟

آه كم هو جميل الهواء
بين غيمتين
فوق جبل صنين
خلال ايام تشرين !

الا ان المجزرة حدثت في العتمة .

كالوقت الذي قضاه المسيح في قبره .

اقتضى ذلك منهم ثلاثة نهارات وثلاث ليالٍ

اجل ، الرومان واليهود
ينتظرون خارج
سور الحزن الكبير
الذي يطوق مخيمات الفلسطينيين
يا ايها اللاجئون الذي لا ملجأ لهم
حتى في القبر
بل في مجارير بيروت !
لا تحثوا الخطى صوب الهلاك

توقفوا
وتأملوا البحر .

انا أتكلم من مملكة الموتى
وانظر الى بهاء السماء
غير المدنس ،
الى امنا

نعرف مقدار عطش القمم
وجفاف القلوب .

لا لغة لوصف الوحشي الآدمي .

لانطلب شيئاً
لا نأمل شيئاً

بعد نشرة الاخبار
نستحم ونستفسر عن الطقس .
تسلقتُ درجات جبل « تامالبايس »
على عكازات لرؤ ية شروق الشمس .
الا انني وقعتُ في مجارير صبرا
وشاتيلا المفتوحة .
البشرُ اكثرُ من الحشرات
والمبيدات لا تنفع .

اذن
ستكون هناكَ تصفيةٌ نهائية ،
تصفية تلو تصفية ،
فوق شواطىء الارض المجنونة .

ايتها الغيومُ اقول لكِ بان تحذري :
انهم سيطلقون النار عليك .

صنوبرة تقف امام بابي
كملاك الهلاك
الا انني قلت له :
أنت لا تحرسُ الا ظلي

أشجارُ الموز في صيدا
زرقاء ومجروحة
والعدوُ تمرن على حرب الدبابات
في الحقول
لكي يمنع الحصاد .
لا تنسوا لون البحر .
ايها الشعراء اختفوا
او غيّروا العالم !

□

مباركٌ هو الذي يقاتل الطائرات
بقبضة !
مباركٌ عدسه وقبره !
اكتبوا :

سنُبعث احياء !

□

السماءُ رماديةٌ
مثل رماد مراكب الحرب
والاشجار خضراء من اليأس
نحن محاطون بمتسع من المياه ،
والمشيئةُ الربانَّيةُ ما عادت تتوجَّهُ الينا
بالنار والكلمات .
الا ان بيروت تحت الحصار
دعت نساءها لمتابعة الرقص ،
نعم
رقصة هز البطن ،
البطن ـ الام
الام ـ البطن
وظل شرفها مصانا
بيروت رقصت تحت وابل
من القنابل الفوسفورية .

كبرياءُ هذه المدينة اغنيةٌ عربية .

كثبانُ الرمل البدائية
تستعيد مسيرتها من جديد
أمُّنا الارضُ كفنٌ .

تركتمونا مع اناشيد الموت
لكنها أجمل من جنودكم .
تركتمونا تحت المطر مطعونين
بالسكاكين في البطون
لكن طفلاً ميتاً من « عين الحلوة »
يستحقُ منا القتال
حتى تبصقَ نساؤكم
دماً
في نهر الاردن .

لن نبذر الحب فوق المقابر
ولا فوق كفٍّ يدي
نحن غضبى كالعاصفة .

ترجمها عن الانكليزية
بالتعاون مع الشاعرة : شربل داغر .

شعر

بيروت ١٩٨٢
كتاب الأساطير

جمال الدين بن شيخ

أقول لجميع الاشخاص
الذين لن يقرأوا قصائدي
« قصائدي جزيرة مقفرةٌ على الرّصيف »
أصغي ليلا الى المرآة التي تكرّر لي :
« على الكلام أن يكون مفيداً » .
وأكتب لليمام كي يطيَر في صمت .

١ ـ أسطورة النبيّ

إلى خليل حاوي

أين أنت ، يا مَنْ يصلب ذاكرتنا
أين أنت ، أيها المنطوي على ذاته ، يا من كنت
تغطّي رأسك تحت الصّخب ؟
تميمةٌ منسوجةٌ في خبايا صمتك
ضدَّ نبوءة الملح .
المتحسِّرُ ذو العينين الملوّنتيْن بالغسَق
مَنْ كان يجلو على الحدقة، ارتعاشه في الريح
مُحاربوك أخذوا المدينةَ وشريعتك في كل مكانٍ

تَطارِدنا
الجدران معتمة
وعلى المرأة في الصباح أن تعلن الدّم
كلامك استصلب في النّار كالحربة
الجامع انغلقَ على كلام النّهار
وعهدكَ على الرّكب
نتقدّم نحو المنفى الذي أتيتَ منه
سنبحث في منحدر الجبل
حجراً بعد حجر
لكي نَسْتكشفَ علامات الصّخر
ونحظى بالكتابة المنسيّة
بالشهادة المقتولة .

٢ ـ أسطورة الصوان

إلى ادونيس

لا أحول قلبي الى خرَقٍ لكي أتكلّم .

في كلّ شارع رجلٌ يُحرّك أصابعه إشارةً مُهمَلة . ليس البحر ، في رئتيه ، إلاّ ذكرى زمنٍ تأخذ فيه التحوّلات عادات الموت . الظّلال تتطاول نحو الصّحراء . كلّ كلمةٍ تَتَسيّجُ بالحذر . والشّقاءُ لا لكي يقال .

لا أحوّل قلبي الى خِرَقٍ لكي أتكلم .

السّاعة تُضاعف الضيّق . من تحت الأسرة تخرج الحشرات المسلّحة . الأرض ترفض الأثر . المدّ ، بعكس النّهر ، ينتفخُ بالرّعب .

لا أحول قلبي الى خرقٍ لكي اتكلّم .

تستلقي المرأة وتستقبل اللّيل . في مكان ما ، يدٌ تقطع خيطاً كان يستبقي الغَسَق . بعد خمسةٍ وثلاثين مليوناً من السّنوات سيعود البحر لكي يغطّي بالمرجان الكلمات التي انطفأت وكان لها معنى .

٣ ـ محمود درويش : أسطورة المستنقعات

كانت كلماتكم تُسَنِّنُ الجدران
كانت نظراتكم تكدّس الحُزَم
كانت أيديكم تبتكر شفافية النّسيج
وكان عبور الأحلام المهاجرة
يتعرّف على نفسه في ثنايا الغصون .
ماذا تأملون منّا ؟
من عيوننا تسيل صوركم المنطفئة
وكوابيسُنا تحت أظافركم
الملح يجمّد المياه
وكلّ غثيانٍ يُضْحِك الموت .
نهربُ القَهْقرى من مسيرتكم
نتأصّل في أكاذيبنا
تمضون في المستنقعات نحو مركز الحُمّى
نحو سمُوم الأصل
والدّمُ يتجرّد من سلاحه
أين الأفق ؟ أين ؟

أين إن لم يكن محفوراً في الجسم
الذي يجب أن نكتَشفه
أن نعرّيه
أن نغز أيدينا بين الجلد والعظم
أن نَتَحرّى الشّحْم والمنيّ
أن نحفر مَحْجِرَ العين

أن نعجنَ الدّماغ
أن نَسْحَق أصغرَ عَظْمةٍ
ونَسبر أصْغرَ عِرْقٍ
أن نمزّقَ اللُّيَيْفَةَ
لكي نطردَ الدّاءَ الخسيسَ ، الخليّة
المختلّةَ التي أخذت تعكس وِجْهةَ الحياة
تَتسَلّلُ سمّاً حارقاً وتحمل تباشيرَ الجنون .

أين ؟
في الرأس ؟ في العضو التناسليّ ؟
ماذا بقيَ لكي نَبتّه ؟
أيّ خَتْمٍ سرّي في الكُلْيَة ؟
أيّ دُمّلٍ في الرِّئة ؟
أيّ حريقٍ يصطفقُ كالباب
وإشاراتٌ تَنْسابُ في اللّيل
على مدىً ممكن
أين ؟

(تنشر هذه النصوص في « مواقف » ، و « الكرمل » ، معا في آنٍ .)

شعر

بعد القيامة

سميح القاسم

صحراء
لانهائية ، بقدر ما تشتهين
وليكن هذا التوهج المدهش
شَمسَكِ الجديدة
إنما الأزل
يظل أزلَك
وجموحُ الشوق ،
هذا المنطلق بلا ضوابط
يظل اسمه الأبد !

لم ينته كل شيء .
تحدثوا عن القيامة
عن بدايات كبرى
وبمحض إرادتهم
أشعلوا النار في اطرافهم . .
حين أوشكتْ على الخمود
أججوها بالحسرة

منكفئين على وجوههم
لائذين من برودة اليأس
بشهوة جامحة للاحتراق
فاصعدي ، نأمةً أخيرة
واذهبي أدراج الرياح
من أقصى الوجود
إلى أقصى العدم
حيث تنتظر على أحر من الجمر
رغبةٌ لا تُردّ
في اكتساح المغاليق
بدوّاماتها الغامضة المستدرجة
هناك فيما بعد القيامة
الشيء الذي طالما تحدثوا عنه .

يرتعش كثيب حار
تتحرك رمالهُ الحياديّة
هي ذي تتشكل وتتضح تقاطيع الجسد
تتماسك التداعيات الهلامية
ببطء ، إنما بإصرار .
لحظات ،
ينبلج من خفقان الصحراء ،
جسدٌ يكون اسمه المرأة
مرحىً
مرحىً أيتها البدوية السمراء ،

وما من كلام .

أتطلع حولي مصعوقاً
أبحث عن جسدي
ولا أجده .
أيتها الأشياء الغامضة
أعينيني على امتدادك الباهر
على هذا الهدوء الموبِّخ
مثل إله ساخط
يرقب العصاة
غير آسفٍ لمصيرهم الرهيب .

اتحسس أطرافي
ولا أعثر عليها .
أستجير بحاسة البصر
ولا شيء .
غير الشحوب المحايد .
فجأةً ،
تشعّ حرارة منعشة
في الرمال المكتظة على روحي
فجأةً ،
أكتشف يديّ وساقيّ
هي ذي أطرافي
تتكامل في أكداس الرمل

فجأةً ،
يُبصر بي جسدي
أنذا أخلقُ صورتي على صورتي
أنذا الانسان الأول
على كوكب ثانٍ
يكون اسمه « دير ياسين » .

إذن يجوز القول بثقة تامة
إن الخليقة تعيد النظر في ذاتها .
في البدء
تكون إعادة النظر .
يرى المرء أن ذلك أحسن
ويعيد النظر
في القوانين
وقوانين القوانين
يَحْمل الظواهر على محمل الجدِّ
تحسّبا لما يخبِّئه المستقبل من مفاجآت
في دوّامة المجرّة الساحرة
ذات الأَجرام الأرضيّة
المندفعة من أرحام البراكين
ليتلقفها علماء الفضاء
مباركينها بأجمل الأسماء :
ليديتسي
كفر قاسم

صبرا
شاتيلا
قيس وليلى
ماي لاي . . .
ولا يسع المرء
إلا أن يكابد الدهشة
إزاء الاختلال الرهيب
في الأعراف والمعايير
سقوط المعادلات دفعة واحدة
ناهيك عن ورقة التوت
التين ،
البانكنوت ،
تباليغ الشرطة ،
ضريبة الدخل ،
تذاكر السفر ،
الأنباء التي وردتنا في هذه اللحظة ،
بيانات الانقلابات ،
الإقامات الاجبارية
ثم شهادات الميلاد ،
والزواج ،

والشهادات المدرسية ،
ثم المواثيق الدولية ،
وفق الخانات الصحيحة :
العالم الثالث ،

السوق الاوروبية المشتركة ،
الانحياز وعدم الانحياز ،
السلاح النووي ،
نزع السلاح ،
المياة الاقليمية ،
البورصة ،
شهادات الموت . . .

أيتها البدوية
يا التي لم تنطق بعد
هلمي إليَّ
نمنح الاشياء الجديدة
أسماءَها الجديدة
لتمنحنا بدورها
اسمينا القديمين .
وكل شيء يسميك حواءَ الكارثة
وكل شيء يدعوني آدم الانبعاث .
ألم يكن ثمة مناص من تلك الكأس ؟
هل كانت التجربةُ مرضاً طفولياً ،
لا تسأليني النسيان
المستقبل نُضجُ الماضي
والسنبلةُ مرهونةٌ بحفنة التراب
حفنة التراب وديعة الريح
الريح توأم الموجة

وما أنت من دوني ؟

باسمي تقومين من بين الأموات
باسمك
أجعل الموت معقولاً ،
تحيةَ صباحٍ أليفة ،
إنحناءَةً على سياج الجيران ،
من أجل وردة صغيرة
للياقة المشبعة بعرق الكدح .
ايتها البدوية العذراء ،
يا مفتوحة الفم ،
وما من كلام
ها أنتِ تحملين عتاد الدهور
على كاهلك الغضّ
وعبر جدار القيامة الشفاف
تبصرين كل شيء ،
الأعاصير
الأيدي الملطخة بالدم ،
الأطفال المتشبثة لثاتهم
بنهود أماتهم المقطوعة ؛
كل شيء :
الأشجار الملويَّة في الوحل ،
العمارات الشاهقة السوداء ،
النوافذ المخلّعة ،

الهياكل العظميّة المتفحّمة على مقاعدها ،
وقد وضعت ساقا على ساق
وأشعلت سجائرها
قبالة جهاز التليفزيون
الذي يواصل تحت الانقاض
عملية البث المباشر
من الجلسة الطارئة
في هيئة الأمم المتحدة
مؤتمر القمة
القيادة العامة
الهيئة العليا
وهلمجرا . . .

تُبصرين
عبر جدار القيامة الشفاف
كواتم الصوت
على فوهات المسدسات السرّية ،
الكلبشات المطليّة بالنيكل ؛
هراوات الشرطة ؛
الدبابات ،
قنابل الغاز المسيل للدموع ،
المظاهرات ؛
إطارات السيارات المشتعلة ،
والرصاص الذي يُطلق في الفضاء ،
يعتذر للملائكة ،

ويختار طريقه المستقيم
إلى صدور طالبات المدارس . . .

آنذاك
تُهرع الهيئات الدولية
لمحاصرة التداعيات وردود الفعل ،
أما عصابة السخط المزمن
فتمارس حريتها المطلقة
في أكبر عملية سطو مسلّح
عبر التاريخ !

الحاضر أكذوبة بريئة
ولكي نرى المستقبل
فلا بدّ من التعامل المنطقي
مع الماضي ،
الماضي الماثل أمامنا دائماً
عملاقاً أخطبوطياً
خرزاً معلقاً فوق القلب
ونُدبة على الشفة السفلى .

أيتها الصحراء
أيتها البكارة
ها نحن هنا

وحيدين غريرين
مكلفين رسمياً
من جهة القلب والعقل
باعادة بناء العالم ،
باعداده من جديد
للقيامة القادمة . .

في مجاهل ما قبل الرمل
قامت على التخوم
مملكة تدعى آر . بي . جي .
كان شعبها من الأطفال
وكانت مليكتُهم
سنونوةً تطير دوما نحو الربيع ،
أما الملك
فكان حجراً .
مات الحجر
فصار وردةً
ماتت الوردة
فصارت تفاحةً .
من رماد الموتى .
انطلقت عنقاء جديدة
تطير دوماً نحو آسمها .
والأطفال يتصايحون
تحت جنازير الدبابات التوراتية :

« ها نحن
تحترق النهاية
ها نحن نبدأ
نهذّب الحجر
نكتشف النار
ونقتصد بالبذار
إنما نُسرف في الحُب ! »

حذار يا صحراء الجسد ،
حذار يا بدوية الروح ،
ندجّن الريح ،
نروّض الينابيع ،
أما النسور والببغاوات والفهود
فعلى رِسلها ،
وللعصافير ان تبني أعشاشها
كيف شاءت
في تجاويف الجماجم المتناثرة
على مدّ النظر . . .

جذعاً إلى جذع
حجراً إلى حجر
وتكون العلاقة .
من هنا نبدأ
تُساورُنا الشكوك أحياناً

يفتقد أحدنا الآخر
ولا نخشى النظر خلفنا .

بَونٌ شاسعٌ بيننا
هل نُحمّل أنفسنا تبعة ما جرى !
أيتها الحبيبة
حَسْبنا تبعةُ ما سيجري
أيتها الحبيبة الغالية
يا من يتسلل الضوء عبر شَعرك
متلألئاً على قطرات الندى
مُتمّماً اللوحة الأولى
على وجه البسيطة !

خذي ما طالته يدي
وليكن اسمه الثمرة
ولينعم روحك
ومن بعد أناديك
إليّ ! .

وليكن آسمك الأُنثى .
إليّ .
نَخِبُّ نحو ما ينبغي أن يكون
معاً .
باتجاه الومضة الأولى

على مفترق الطرق
بين العتمة والنور
بين تلويث الفضاء والرمال الطاهرة
في ملتقى البصيرة بالبصر .
إليّ ،
أيتها المتكاملة بلا شطط
إليّ .
نحفظ التوازن
في دوّامة الحركة والسكون
والرائح والغادي

الممكن والمستحيل . .

يتضرَّعُ القلب
لنهارٍ اغتَسَلَ لتوّه بالمطر
مُقْدِماً على مغامرات صغيرة
لا تُقدّم ولا تؤخّر في موازين العالم
وينتظر بلا هوادة
ينتظر سبعة اعوام متتالية
على الرصيف
قبالة الدكان المغلق
المعلقة على واجهته لافته باهتة :
« اعود بعد قليل » . .

حكومات تسقط
« اعود بعد قليل » . . .
تثار فضائح
« اعود بعد قليل » . . .
تنشب حروب
يتم التوقيع على اتفاقيات لا حصر لها
وهو ينتظر
قبالة الدكان المغلق
الذي « سيعود بعد قليل » .
صاحبُهُ الميتّ بالسكتة القلبية
منذ سبعة أعوام
في غرفته المجهولة على السطوح . . .
ليتقدَّس اسمك أيها الموت
لتكن مشيئتك
أيها الفرح
ليأتِ ملكوتك
أيتها القيامة . . .

وبعد ،
نَلُفُّ الميت بفراشه
نعدّ له جنازة مناسبة
ثم ننكص على أعقابنا
إلى المنازل المهجورة في السهوب
حيث ترنّ أجراس القطعان
ويغني الرعاة العصريون

ما علق بالذاكرة
من أغاني الحب السالفة !

وبعد ،
يولد أطفال آخرون
يسألون آباءَهم بقسوة :
لماذا ؟
لمن ؟
متى وكيف ؟
لن يكون آنذاك من يجيب

غير المياه الجوفية :
أنا الحزن
أُعلن براءَتي
أنا الشهوة
أبسط نفوذي .

أنا الحب
أنشر قلوعي على اليابسة ،
وأنثر بذاري في اثلام البحر
أنا الكراهية ،
ناركم . . . ناركم المقدسة !

لن يظل شيءٌ على حاله

ثمة تفاعلات بعيدة المدى
تفرض نفسها
وتقيم سُننها الجديدة
على الرمال الطاهرة
الآخذة بالتلوث
بزيوت المصانع ،
بالحرائق ،
بقيء المحزونين والمرضى ،
والضجيج البشريّ . .

بعد استنطاق الظواهر الطبيعية
والنار
والأنصاب
والآلهة المعجونة من التمر ؛
بعد استنزاف الشجيرات المحترقة ؛
بعد الخد الأيسر والخد الأيمن ؛
بعد أسنان المشط ؛
والتقوى ،
بعد عُمّال العالم المدعوين إلى الاتحاد ؛
لا بد من الجزاء خيراً
ذلك أن الأطفال
موشكون على الذهاب إلى مدارسهم
فلتهدأ العاصفة قليلاً ،
وليفسح الظلام جانباً من الطريق

لأجلهم
لأجلهم فقط ،
لأجل الأطفال
الذاهبين إلى مدارسهم
بعد القيامة !

٨٢/١٠/٢٨

شعر

بين غيرنيكا وصبرا

شوقي عبد الأمير

بين اسبانيا وفلسطين
بين جورنيكا وصبرا
دمٌ مرَّ
ولم ينتظر .
لجورنيكا جُثةٌ ممددة تحت جبال البيرينيس
ولصبرا جثةٌ ممددة بين رأسها وقدميها .
لجورنيكا عيونٌ تسهرُ علىٰ أبوابها
ولصبرا عيونٌ أُغمِضتْ الىٰ الابد .

لجورنيكا حدائق وميادين عامة
ولصبرا ساحاتُ إعدام جماعية .
لجورنيكا اشجار ونصب تُزيّنُ شوارعها
ولصبرا مخالب التركْتُرَات تُمزِّقُ بشرتها .
لجورنيكا متطوعون يتوافدون من وراء الحدود
ولصبرا ذئاب تتربصُ من وراء الحدود .

في ٤٥ عاماً

صار أطفال جورنيكا رجالاً
وموعداً لجيل قادم .
وفي ٤٨ ساعة
شاخ اطفالُ صبرا
في الطريق الىٰ مخيم قادم .

لجورنيكا نوافذُ علىٰ الفجر
ولصبرا توابيت على الفجر .

تقع جورنيكا في إسبانيا
ولا تقع صبرا في فلسطين.

لجورنيكا جبل
ولصبرا خيمة .
لجورنيكا مدينة ومقبرة
ولصبرا مقبرة ومقبرة .

جورنيكا معركة
وصبرا مذبحة .

لجورنيكا صبرا .
ولصبرا جورنيكا .

شعر

يوميات خليل حاوي في الجحيم

علي الجندي

.. خليل شاعري المفضل في الستينات ، وصديقي الأمين خلال عشرين عاما. أنهى حياته، بعيد الغزو الاسرائيلي للبنان ، كما كنت أتوقع: في هذه القصيدة رفضت موته ، تلبسته وتركته يعيش بي بقية ما حدث . لهذا ، فإننا نتحدث معاً، غالباً، ويبدو كلامنا مختلطاً ومشوشاً حتى الهذيان أحياناً .

لكنه في النهاية، اذا كانت هنالك نهاية، يصير رمزاً : قضية، ومشكلة .

- .. حواليّ شمسٌ وأقنعة وصهيل مدافع ،
خلقٌ كثير وحشدٌ من الحدأات تحوّم ناشرة كهرباء من الموت يومض في الليل..
أمسك عكاز نومي فيصدمني حائط باهتٌ ..
لا أرى،
أتحرّك صوب النوافذ
تصفعني نسمة من جنوب البكاء البعيد،
أجاهد حتى أصير على الشرفة الصامدَهْ،

أرى وَبَرَ البحر خَلف الدخان المحيق ،
فأذكر كيف تخلّت ملوحته عن حياتي
وكيف استمرّ برغم الجنون يبعثر ألوانه القزحية في الأفق همهمة الموج بين

البيوت القريبة ،
كيف توارى كثيراً وراء الدخان الترابيِّ معتذراً عن صداقة أصحابه الشعراء
وأبنائه الفقراء وأخفى وراء السفائن نضرته البائدةْ!
. . كان بحراً شديد العذوبة يرعى الجوار بزرقته
فتخلّى .
تخلّيتُ،
لا شيء يربطني للحياة وللبحر والموج والشمس
والحدأات الطويلة :
إني . . أموت على قدمٍ واحدَهْ!!

ـ . . قالوا إن صديقاً في الشامِ رثى بيروت،
قال الشاعر : «كانت ورقة من توتْ
كان اسمها بيروت
سقطت فلم تفضح سوى التابوت!»
و. . كثيرون انتقموا بالكلمات وبالدعوات وبالمرثيات؛
انتقموا من عاصمة الحزن
أباحوا حاضرة الثورَهْ. .
قالوا فيها المرثيات وما زالت حيَّه. .
. . إني أغفر للناعين وللعشاق
وأدعو من ملكوتي لجميع الناس بموتٍ فاخر!!

ـ . . ما زلت أداري موتي وهو يرافقني منذ بداية أعوام القتل الأولى . .
ودّعت البيت وجدران الضيعة،
بعض قبور الموتى المنفيّينْ،
وقصدت البرية أصطاد

وأدخل في المجهول
- من يعرف في البرية وجه أو اسم خليل الحاوي؟..
أصطاد وحيداً في الصبح وآكل صيدي طول اليوم،
حتى غدت الافكار طيوراً خائفةً والشعر فراشاتْ..
وغدوتُ الفزّاعةَ ينفر منها حتى الأمواتْ!
.. لم يبق من الصيد سواي،
فنكصت إلى البيت أقلبّ أوجُهَ أحبابي في الطرقاتْ،
وأراني في أوجههم
فأعود لأحرق أوراقي وتصاويري
وقصائد عمرٍ.. مات!!
-.. عدتُ إلى عاصمة الأحزانِ،
وصحراء الفرح المنسيْ
أبحث في شارع بيتي عن أصحاب السنوات الشقراءْ،
ما من أحدٍ إلا العسس الخائف وبقايا ضجة أحياء
.. كان لنا في هذا الركن مكان نتلاقى فيه
وكان عليٌّ صديقي القادم من برِّ الشام
أمير المنفيّين!
كان ينزُّ قصائد تلهج بالشهوه
و.. جفانا بعد سنينَ إلى الفيحاء يساهم في تغيير العالم!
فتفرقنا بَدَداً.
نسمع أحياناً صوت عليٍّ عبر هواء الشوقِ
وخلف المذياعْ
لكنّ عليّاً ما عاد يُرى
أرسل بعد سنينَ إلينا خبَرهْ!

فلماذا أرسلت الخبر ولم ترسل كلماتٍ
وعصافير وموسيقا؟؟
.. نحبّ « بلاغتك» وغربتك الضاحكة،
نحب الكَلِمَ الفاضلَ والعمل الفاضل
ونفخر أنّا أصحابك في الشدّةْ
فلماذا أرسل صاحبنا الشاعر بدل الشعر الفاضل.. خبَرَهْ؟!

وأحسُّ خواءً داخل جمجمتي
ودماراً أقسى من ذبح الأبنية بقلبي، ويدي ترتعش، النوم يغادرني
والأصوات تدمدم بين عظامي!!
ودُوار يتملكني حتى لو سرت الى الشرفة
أهي بداية آخرتي؟!

.. أين «جيل الجسر» فتيان الغد السمر الطوال؟
كلُّ أحلاميَ كانت كذباً في كذبٍ!
عمراً من الوهم المحال!
هاهمو اليومَ لصوصٌ، قَتَلَهْ!
فابن عمي جزَّ عنق ابن أخيه،
وابن خالي في صفوف العملاءْ!
.. أيها الموت اقتربْ، أسرع
وإلا.. فعروقي تنفجرْ
إنني أعجز عن فهم تصاريف القدر
عاجز عن فهم أشكال البشر
أنا.. ما عدت أنا!!

. . وعمّار بن ياسر راحلٌ في برٍّ بيروت الطويل
جند الفداء مشرّدون!
الكل يبحث عن رغيف يأبس أو كوب ماءْ.
و. . بحثت في بيروت عن مأوىً يقيني هذه الأمطار
من نارٍ ونارْ،
فرأيتُ في النّفق البعيد بصيص ناسْ،
شيب وأطفال! نساءْ،
موتى وجرحى. .
ليس من ماءٍ سوى وشلٍ
ولا نار سوى شُعلٍ ملوّعةٍ ، هنا. . فصل الجحيم. .
لو كل آلهة الجنون تضافرت
لصناعة البؤس الذي. .
لكنّ سكان الجحيم تضافروا أيضاً
لكي لا يخذلوا أبناءهم في الخندق العالي
وكانوا. . صارمينْ؟!
لكنهم أقوى من القهر المحيقْ،
يتبسّمون. .
يمحون أدمعهم على ضوء الشموع الذّاويات
و. . يبسمونْ
ألله. . ما أقسى الجنونْ!!

. . . لا ، هذا ليس الوطن الكان صديقي
ـ حتى لو كنت أُقبّهُ بالسوق أو الفندق ـ
هذا من جهتين جهنّمْ ،

والناس شياطين وغولات وثعابين !
ما بيني - رغم وجودي في النار - وما بين
الناس فراغ من ذعر وجنون ،
كلماتي تهطل في أرض قفراء فما تلتقطُ
ولا يأكل شهد اناشيدي الفقراء
ولا الطير ولا العشب ،
احترقت كل الأطيار وكل الأفكار .
اندثرت أعمدة الهيكل ، سيقان الفتيات . . .
طفولة احلامي . . . صارت رملاً مشوياً وعناكبْ !
أيتها الأرض الوطنية ،
أجيبيني :
كيف غدوتُ فلسطينيا في الحلم واسرائيلا في الواقع ؟ !

[كوابيس]

. . . تنينٌ يعبر قلب الشارع ،
ينفث لهباً ودخاناً وأناشيد حماسيَّةْ . .
تتقدمه خمس أفاعٍ إيقاعيَّةْ ،
تتبعه عشر أرانبْ
- و « الخضر » بعيد في أحلام الأطفال
وأوهام النسوة والمرضى . . . -
يتماثل تحت الشرفة منتشياً من آثار الدم
والموسيقا والصرخاتْ
تأتيه الطلقاتْ

لا تصرعهُ
تصرعني واحدة عمياءُ !
فأراني في جوف التنين :
قرقعة وزعيق وظلامٌ ،
دمدمة ، ريح ماجنةٌ ،شائكةٌ ، قاتلةٌ
تدخلني في الملكوتْ
فأحس بأني سوف أموتْ !
.. لكني ما زلت سليماً في بطن الحوتْ
أدخل دنيا ضيّقةً ، مترفةً ؛
.. أسكن تابوتْ !!!

... قلتُ يوماً : « إخلعوا هذه الوجوه المستعارةْ ..
نحن لم نخلع ولم نلبس وجوهاً
.. نحن من بيروت مأساة ولدنا
بوجوه وعقول مستعارة ؛
تولد الفكرة في « السوق » بغيّاً
ثم تقضي العمر في لفق البكارة !! »
فلماذا اليوم تبدو لي بيروت جمالا وجلالا ؟؟
حزنها يبدو لعينيّ إلهياً
هي العنقاء بعد الاحتراق ...
من رماد السنوات السبع
عادت طائراً ...
يحضن بالجنحين حلم الفقراء ...

أعشق بيروت الآن
أكثر من بيروت الغانيةِ ، المتبرجةِ الساحرة الألوان . . .
أعشقها في البؤس وفي الضرّاءْ .
حتى لو صارت صحراءْ.
أحنو بالقلب على كل بينها الفقراءْ
أتمنى لو أملك ماءً وطعاماً لأوزعهُ في كل مكان
في الأقبية وانتقل من المتراس إلى المتراس . .
أسمع في الوحدة والقهر على البعدِ
أنين الجرحى وثغاء العطشىٰ
من أطفال الأحياء الغربيّةْ
لكني وحدي ؛
كهلٌ لا يملك إلا الكلمات المطفيَّةْ
ودموعاً يابسة وخيالاً ينهكني
والقصف يزيد ، يزيد فيقتلني !
فلماذا أسهم في اطفاء جهنّم والنار تداهمني ؟ !

البحر بعيد عن مدّ يدي والجبل بعيدْ
وأنا . . . في هذا الحجر الكامد أسعى
مشتعلا بالحمى والخوف وحيد !
أسمع من بعد كيف يصير الشعب الواحد شعبين ،
والجيش الواحد جيشين ويخطر لي :
« ما من جيشين اقتتلا الا كانا جيشاً ينتحرُ . . . »
أسمع عن كثب لغة حوار الإخوةْ ؛
طلقاتٍ ، زخّات من نار ؛

قصفاً ، قصفاً ، موتاً ، موتاً ، تدميراً ، جوعاً ، عطشاً . .
وأنا في صف أولاء لأني لست مع الأعداءْ . . .
نصف الوطن غدا أعداءْ
والنصف الآخر صحراءْ
أسكنها وحدي
يسكنها ، يسكنني الفقراءْ . .

. . . إنها جثتي في الخلاء
تنفر الطير من لحمها المتفسّخ
تأكل النار أطرافها الخامدَةْ
تقسو عليها العصافير إذ تتناتف
أعصابها الباردةْ !
وتحوّم في الجوّ طائرة فأراها بكل ثقوبي ،
إنها صدأٌ او ورقْ ،
إنني . . . أحترقْ !
تمرُّ حذائي دبّابة دون صوتٍ
فأحدق مرتعداً برؤوس أصابعي التالفةْ
. . إنها الأرض تحملني في العراءْ . . .
جثةً موصدهْ !
وأطلب ألّا أظلّ وحيداً ؛
خذوني فجرّوني مع الجثث الموصدةْ
أدخلوني في مهرجان العويل وفي
معمعان الأيادي التي بتُرت
والرؤوس التي سقطت
والخوار الذي يملأ الرحبَ

مبتدأً من عمودنا الفقريّ الى حيّ صبرا
إلى اخر المهزلةْ !!

. . . إنني سامع في جميع الاذاعات قهقهةً شامتةْ
وأغاني مائعةً تترهّل عند حدود الوطنْ ،
أسمع الخطب العنترية عن بلد العشب والنار
أسمع أسمع حتى يخيّل لي لحظةً
أن زحف جيوش العروبة قد صار قربي
وحرّرني من إسـار الجثثْ
ولكني إذ صحوت من الموت كانت جيوش العدوّ تدوس بقاياي
تحمل جسمك أمَّ خليل وتهرس رأس أخي وصديقي ،
تقيم الخيام على صحن داري ،
تدقّ بصدريَ أوتارها الشائكةْ

فيا . . . أيها الأرض ميدي
ويا أيها القبر زلزلْ حجارَك فوقي
ويا أيها الله . . . لو كنت أومن أنك شيء لحطمتهُ . . .
أو طلبت إليه يؤكّدُ نعمتَهُ باحتمالي إلى عالمٍ آخر ؛

جنة أو جحيم . . .
ألا أيها الله خذني إليك بلا رحمةٍ
ولا تحفلوا بدموعي السكيبة يا . . .
أيها الناس
غلّوا رفاتي في باطن الارض . . .
ظاهرها صار قيحاً ونتناً بوجة صديق ووجه عدوّ . . . . يشاطرني المهزلَةْ

... نحن سافرنا إلى القدس وصلّينا على كل دروب القدس آهٍ،
واكتشفنا ،
عندما صرنا على مرمى ابتسامَهْ!
انه لم يبق منها غير آثار هباب و. . علامَهْ!
واتجهنا صوب مكّهْ،
فالتقينا وجه «يوحنا» الصديقْ،
قال: عودوا ليس من أهل لكم،
قال من حيث أتيتم!
فجيوش الغزو صارت عند جدران الحَرَمْ!
وشيوخ البدو من شاءٍ وأنعامِ غنمْ
و. . رجعنا فتلمّسنا طريق الشام بحثاً
عن ضياء الفجر أو نور السماءْ
فإذا كل طريق العاصمةْ
فرقٌ من أسلحةْ
وتوابيتُ وأرتالٌ من الناس بلا مأوى
ولا قوتٍ وماءْ
فتوقفنا وأمّلنا بأن تَفْجَأنا رؤ يا «الرسول»
لم نرَ غير الخرابْ
وبدت جلّق في البعد التماعات سرابْ
فرجعنا. .
و. . «دخلت في بيروت من بوّابة اليأس العظيم. . »

. . . ودمشق ساقية من الذهبِ
يرتادها أفّاقة العربِ،
والكل يحلم في مفاتنها

وفتونها للواحد الأحدِ
الوالغ الكفين بالزبدِ. . .
فاستسلمي يا قينة الاعجامِ
والاسلامِ والعربِ

. . عدت من بريّتي بعد حديث دار ما بيني
وما بين الشجرْ،
وحوارٍ طال ما بيني وما بين الحجرْ. .
ولقد صادفت آلاف الفرائسْ،
من طيورٍ وجنونٍ وزواحفْ
وتجولت بصحراء المدنْ،
دون أن أطلق طلقَهْ،
ليس في جعبة صيدي غير طلقَهْ،
إنها وقف على صيدي الكبيرْ،
و. . لقد آن لنا أن نلتقي في شاهقٍ مثل . . النسورْ!

. . وأدركت شيئاً من السرّ عن هذه الكائنات وهذي الحياةْ،
«إذا متُّ فادفني إلى جذع كرمة . . .»
و. . بعد لقاء الرياح وصحبة وحش الفلاةْ. .
غدا زمنٌ خارج من يدي، داخل في دمي
وجاءت إليّ بزيّ فتاةْ
حكيمة عصر مضى من زمان بعيدٍ،
لتنقل لي بعض ما قرأت أو رأت
من مرير الحقائقْ: «عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى»،

ولكنّ.. موتاً أموت لأَفْضَلُ من عزلةٍ تالفَهْ..
ومن لغةٍ ناصلَهْ..
وفي الأرض عشب نضير وفي كل جنبٍ رفوف شقائقْ..
وأعين ناسٍ مضوا في مروءه
تعاتبني لسماعي الى الحِكَم البائدَهْ..
وما.. بيدي غير هذي الرصاصةْ
لأعلن أني شهيد وشاهدْ
وأني احتجُّ ضدَّ الخيانة والغدر،
أعلن أن الشباب قضوا أبرياء ومثل الحمائم مثل الدماء صفاءً وشعراً..
وليس لعمكمُ الشاعرِ الكهلِ إلا وصيَّةْ!
امنحونيَ حدَّ الفدائيّ قبرا..

.. «قلبي يحدثني بأنك مُتْلِفي..»
يا أيها الوطنُ،
وأراك قدّامي تموتُ
وليس ظني أن أعيش ليوم بعثك
أيها الزمنُ
لو متُّ هل سأعود للدنيا ولو لهنيهةٍ
حتى أعيش قيامة الوطنِ..
..ويلي على وطني
اليوم يتلفني والأمس يقتلني
والحلم في مستقبل أرجوه.. يخذلني
فلم البقاء كجثةٍ تمشي على فَننِ؟!

..للريح طعم الزعتر المنحاز للموتى،

وللماء البعيد مرارة: طعم الترابْ،
لوجوه أحبابي قناع من ترابْ،
وأنا.. ترابْ
وجميع أفكاري لها طعم الترابْ
كل الأنام إلى .. ترابْ!
القاتل، المقتول، والطغيان والطاغي .. ترابْ!!
فلم احتمالي للعذابْ؟!
وتحمُّلي هذا الجحيمَ معلّقاً مثل العناكب في الفراغ
وليس من قبسٍ ولو.. لمع السرابْ؟!

..نفخوا في الصورْ،
زحفوا فاحتلوا صور!
واحتلوا صيدا
وتمادوا فاجتاحوا الدامورْ
ونفخنا في الصورْ
فتقدم جيش الأعداء الى بيروتْ!
.. كان الناس يجيئون الى قادته أفواجاً
فيقتّلُ ما شاء ويأسر كل الأحياءْ..
في كل إذاعات العرب النجباءْ
ضحك وخطابات وبكاءْ!
.. لمع الليل فجاءَهْ
ضاءت في الظلمة أرواحِ المغتالينْ،
فرأيت على البعد جنوداً من برق يختطفونْ.
يعتمرون محارم حمراءْ،

أعطوني حسّاً بالأشياءْ. .
. . صار الليل نهاراً،
قصف من أرجاء البحر وقصف من أعماق البرّ
الأرض اشتعلت والآفاق غدت ناراً
وأنا. . في أعماقي الجمْر!
لو كان لديّ سلاح أو . . خمرْ!
ـ عندي بارودة صيد،
ـ هذي لا تنفع في الحرب الدائرة
وتنفع في الحرب مع النفس!
ـ أنا لا استمع الى المذياعْ
يبدو عن كثب أفعى أو عقرب
لكني اسمع لغطاً ومظاهر عجباً عند الجيران؟
عائلة. . كانت يوم البارحة على سفرٍ!
أنظر للشرفات فلا يبدو لي أحدٌ
. . يبدو اني صرت وحيداً في هذا الشارع إلا من بعض الفقراءْ!
وسألت زميلاً عمّا يحدث في هذي الأيام،
قال: على عجلٍ «خليها على الله. . .»!
ـ خلّيها؟
الله بعيد عنا،
يبدو لي صار مع الطرف الآخر!
يلبس اقنعةً ويقاتل في صف الأعداءْ!

و. . ذكرت البحر حتى لو جفاني،
كان لي أمّاً من الماء وانثى من زبدْ
فلأعُدْ للملجأ الأزرق حتى لو غدا نصف الأبدْ

ووداعاً يا ضجيج الشارع الفارع
يا بيتي وأشيائي الصغيره
هل لنا بعدُ لقاء؟!

. . يبدأ البحر من نهاية خط الموت،
ينهي تجواله عند كرسيّ المدلّى . .
فوق جرف الأحباب . .
يبدو ليَ البكاء والابجديّهْ!
هو لونٌ مجعّد،
وهو ملحٌ مبعثرٌ . .
وهو طير من البياض المواتي . .
. . . آهِ يا بحر كيف أهجر عينيك وقد
سملوا بؤبؤيْ لغتي فيك
كيف أبدي حفاوتي بثدييك
وأنت الجنون والأبديَّهْ؟!
. . ركبتْ ظهرك البواخرُ ملأى
بحياتي وسافر الأصدقاءُ . . !
من لبيروت بعدهم؟
سأولّي أنا أيضاً . .
تجتاحني الأنواءُ . .
. . خنت ميثاقتنا من البدء يا بحرُ
وخان الرفاق والأعداءْ!
فوداعاً بيروت،

ـ قد نلتقي يوماً ـ
انا . . سيّد الموت
وأنت الشفاه والأثداءْ!!

. . حتى البحر جفاني،
البحر الممسك من سنواتٍ
بشقائي وحناني!
. . البحر الأزرق يبدو بنيّاً محترقاً،
البحر المتماوج في القلب على شطآن الوطنِ
للبحرِ ـ الزمنِ
أعلن ميقاتي وجنوني!
أسرع في تصفية الزرقة والأسيجة البلّورية من أعراقي
وأسافر في بحر يسبقني . .
. . يا بحر الدمعة والرقصة والموسيقا المزبدةِ

ويا . . .
سنواتي الشقر خلال المدنِ . .
ها . . نحوك تركض ضحكاتي الهيستيريَّهْ
فتقبلّها جثة ضحكةْ
واحملها حتى آخر شطآنك
بين ذراعَيْ طِفلٍ محترقٍ
في بيروت الغربيَّةْ . .

يا . . بحر الظلمات أحبك حتى الموتْ
فاجعلني في ألوانك . . صوتْ!!

.. ليس من نغم يمكن الإستماع اليه،
طغى قصف أعمدة الحكمة..
رعداً يغطيّ عزيف الدماءْ!
و.. فتحّ في القلب دمّل رعبٍ..
وزهرة حقدٍ وصار السكون بكاءْ!
و.. أجفلتُ من شدة النور في الجوّ..
فاجأني طائر أرجوانيْ
يحوّم حول دماغي بأجنحةٍ من دخانِ..
ويزعق..
تهتزُّ أعمدة الليل، أرغفة الخبزِ،
راحات أطفال حارتنا..
فأميدُ وأسقط في الفاكهاني..
.. بصيص من النور تحت الخرائبِ..
أشباحُ ناسٍ خفيّين مسرعةً تتغامز، تحمل آنية وثياباً وموتاً وأنسجة من رصاصٍ..
فأهمد عند جدارٍ حطيمٍ،
و.. أنهَدُ من ضجعتي المقبريَّة
.. أدخل في المهرجانِ!!

.. ساد صمتٌ حواليَّ،
غامرت بالنوم..
أيقظني من سباتي الطويل عليٌّ،
قال: قم يا خليلُ نباحث هذا السكون المريب!..
لم أستطع أن أحدّثه بكلامٍ جميل ولا بالدماءْ!

قال : يا صاحبي ، إن بيروت قد أقفرت من رعاياها
ومن كل أفعى وكل نبيٍّ صغيرٍ
وهاجر أهل البساتين نحو الشمال ونحو الجنوب، إلى الشرق والغربِ، قُمْ يا خليل،
أقول: استفقْ
نسرق المصرف المركزيّ
ونسرق رمّان ضاحية الحزن،
ننهب أشعار «ريلكه وييتس»
فلسفة الباطنية والظاهرية . .
قم نتقرّى جدار البكاءْ!
و. . لم أستفق،
كان صوت الرصاصة ما زال
مستيقظاً في وريدي . .
وصوت البكاء الخفيّ القديم يخدرني . .
ولكنّ عينيّ حدقتا في بكاء عليٍّ
وواصلتا الرعب والصمت والاختفاءْ . .
. . صاح صوت ورائي : أنا قنبلَهْ،
رنَّ شيء قريب: أنا المشكلهْ!
جُنَّ صوت أمامي : أنا يا صديقي . . عليٌّ ،
أنا . . المقتلَهْ!!
و. . انتهاءً «بوجه عليٍّ» مروراً بظلِّ الصليب المدمىّ . .
وبدءاً بوجهي ومرآة صوتي . .
تفتّحت المهزلَهْ. . . !!

] . . وطائرةٍ بيضاء تفتح فرجها

فتحرق بيروت الجميلة بالثلج
وتدفن تحت النار شعراً وثورة،
وأحلام أطفالٍ وشيبٍ من الزنجِ[!!]

.. فجأةً:
.. «أصيح بالخليج يا .. خليجْ
يا واهب المحار واللؤلؤ والردى..»
.. «أصيح بأفريقيا يا .. مكادي، ألا يا مكادي
يعود إليّ الصدى..»
.. «أنا يا صديقة متعب حتى العياء فكيف أنتِ؟
وحدي أمام الموت لا شي سوى.. قلقي وصمتي!»
.. «كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا..»
.. «خذاني فجرّاني ببردي إليكما..
وخُطّا بأطراف الأسنّة مضجعي..
ورُدّا على عينيّ فضل ردائيا»
.. «أموت فلا تبكي عليّ غمامة
ولا عابرٌ في الدرب يسأل عن قبرِي..»
.. «O! mort , vieux Capitaine..»
... «رنين المعول الحجري.. في نبضي!»
... وتعارفا وتقابلا
وجهاً إلى وجه !
هذا خليل بوجهه النسريّ
ذاك.. بوجهه الحجريِّ
ذَا.. وجه بلا شكلِ وهذا عالم القتلِ!!

. . . لفن التلامس بين الكليمات
والأحرف الناشزات . .
طلاوة فتنة في الشعورْ
وللنقطة الواحدَهْ،
على صفحة الورق الهشّ ومض الشهاب
وللفاصلَهْ،
شهامة تفسيرها في الضميرْ . .
. . لعينَيْ خليلٍ وقد ماتَ منفرداً
صورةٌ لا تريم من القلب
فهي عنوان كارثةٍ وقعت
وكارثة لم تقع بعدُ . .
عنوان ملحمة الموت والكبرياء . .
وعنوان مجزرة لم تقع بعدُ،
وحشية عمّت الأرض! .
مجزرة وقعت . . وأبادت
بقايا الحلمْ!!
و . . خليلٌ توارى عن العين والناس
قال: انتهيتُ، انتهيتُ، انتهيتْ،
وألقى بميتته فوق كلِّ الوطنْ
غطاء من الخجل المتفشى بكل القلوب
من الماء للماء حتى نهاية خط الزمن!!

. . وسافر وجه خليل بعيداً، عميقاً
فلم يشهد المجزرةَ!

.. يوم طاف المقنّعون بكل البيوت الحطيمة
فاستوقفوا أهلها بالدماءْ،
وقتّل بعضهمُ ألف طفلٍ
وأعلن حكمته المرعبَةّ!
وخبرة كل السنين الأخيرةَ قال:
إذا شئت قتل فلسطين فابدأ
بأطفالها.. وبأقلامِ كتابها
و.. بأطيارها السائبةْ..
.. وفارت سيول الدماءِ
وهامت خلال الليالي
طيوف النساء الخضيبات..،
أشباح موتى مشوّهة..
يطلبون الأمان وقبراً أنيساً!..
.. كان صوت استغاثاتهم لونه..
أحمرٌ، أسودٌ، صارخٌ،
باهتٌ، ميّتٌ..
وما.. من مغيث ولا من حليف،
قفارٌ من الناس
تيهٌ من الحجرِ المتكسّر..،
.. إن القيامة معلنةٌ،
والجيوش مدمّرةٌ،
وقعقعة الطائرات تثير
الزوابع والأسئلَهْ!..

.. لمن تركت كل هذي الخرائب

هذي الجموع اليتيمة . .
يا صاحبي المتفرّد في الشعر والموت .
يا من بلوت الحياة وألغازها المعضلهْ؟!
. . لقد كنتَ توشك أن تستطيل على الأرض،
أن تفهم المشكَلْه . .
فسارعتَ ترحل من دوننا . .
و . . تركت علينا ـ ولا حيلةٌ ـ
عبء ذي المهزلةْ!
و . . من هذه اللحظة الفاصلةْ،
نشمُّ على البعد رائحة الجثة الموحلَهْ . . .
قضيتنا وقضية موتك صارت ركاماً . .
من البشر الميّتين،
ركاماً من الأسلحَهْ!
مشاهدَ من أذرعٍ وأيادٍ
وأشلاء فِكْرٍ طريحٍ . .
ونارٍ وأصوات جيل من الخلق
ينهزمون بلا هدفٍ
يبحثون عن الأضرحَهْ . .
فيا ،يا . . خليل اتّئدْ في مسيرك
تحت القنابل،

حاذر من اللغم تحت قميصك! .
عالج قضايا الجحيم وحيداً!
فنحن هنا في جحيم أشدَّ،
طويل الليالي . .

نخبِّىءِ أوجاعنا بالبكاءوبالخمر. .
نُعوِلُ في ريبةٍ!!. .
خوفنا. . صارَ أكبرَ من كلِ شيء. .
و. . قد نختفي بالنهاية لو أقبلتْ،
ففيها الخلاصُ الوحيدُ. .
مِنَ. . المهزلَةْ!!!!

شعر

سلام لبيروت

عبد الكريم كاصد

لِيَقْتسم الفاتحون الغنائم عند جدارِكِ
لا . . لستِ بوّابةً للعبور
وأمواتكِ الآن يأتونَ
مختلطين بأحيائهم ،
يعبرون الشوارع والواجهات ،
يُزيلون عن وجههم حجراً ما يزالْ
وقد يتعبونْ
يدقّون أبوابهم ويعودون . . . بيروت ، ماذا ؟
أعدّك بيتاً فبيتاً
وأطرق أبوابك الألف
منتظراً رجْعَ موتاك : لا أحدٌ .
هل أقول : الحواجز مطفأة النارِ

يجتازها الليل
والناس أمتعةٌ رُبطتْ بالحبالْ . . ؟
الحواجز تجتازها الشاحنات
تغادر شاحنةٌ ثم أخرى
وتبقين نافذةً
ذات يومٍ قَدِمْنا إليها ،

بأحذية الوحل ، ننفضها ، ثم نصعد نحوك ،
كنتِ تجسّين مذعورةً نبْضَ من حملوا صور الميتين وأطفالهم ،
والبيوتَ التي استندتْ كالبنادقِ ؛
كنتِ تجسّين نبضَكِ ، بيروت ،
دائرةً بين موتاكِ ، مجنونةً ، ترتدين البياضَ
وتحصينهم واحداً واحداً
وتصيرين شاهدةً
للقبور التي آتسعتْ كالشوارع ،
لن يستبيحوا قبوركِ بيروتَ ،
فلْيدخلوا بين أطفالك النائمين وأفراسكِ الخشبيّةِ ،
لا . . . لستِ بوّابةً للعبورْ
وأطفالك ، الآن ،
يأتون في كَفَنٍ من غبار الملاجىء
يطوون رايتهم ثم يمضونَ
(جيشٌ صغيرٌ تقهقرَ . . .)
أيُّ حفيفٍ لصمتكِ ؟
أيُّ جدارٍ يحاورني
ويُسند ظلّي إليهِ ؟
تُرى غادر القتلهْ ؟
يجرّون أسلابَهم : كومةً من خرائبَ .

أسودُ موتُكِ بيروتُ ،
أسودُ كالماءِ ،
يغمرني بالرماد فأهوي إلى القاعِ ،
كالظلّ يعبر بين الطحالبِ ،

أصغي لنبضي وأنصتُ :
أسمع همهمةً ،
وقْعَ أحذِيةٍ ،
وخطىً تتقدّم في الصمتِ . .

أقنعةٌ للوليمة يفزعها الضوءُ .
أقنعةٌ تتقافز بين السكاكين راكضةً في الأزقّةِ .
أقنعةٌ للنمورِ الأفاعي الكلابِ الثعالبِ
تشحذُ أنيابها والمخالبَ . . . جائعةً
ـ أين تمضين يا خالةُ آمّ نزيهٍ ؟
تفرّ الأصابع من راحتيكِ
تدورين
صرّتك آنتثرتْ
وآنزوى الميّتون من الضوء يغمرهم لحظةً ثم ينطفيءُ . . .
آنطفأت كلُّ بيروتَ .

سأروي شهادة موتي

أنا الطفل االساهر بين الموتى . أطرافي ترتجفْ . أرفع الغطاء . السماء حلبةٌ للخوفْ ، مهاميز للخوفْ ، دمٌ مفروشٌ بالرمل ، تنطبعُ عليه الاحذيةْ .
أنا القادم ، أثوابي كالجلد تفوح برائحة الموتى ، وروحي سردابٌ ، تنهال عليه رفوشٌ ومعاول . مصلوبٌ لسريرٍ . أنهض فوق شراشف حمراء . أنا الطفل الزاحف بين الموتى .

● ليس بين المساء والمساء خيط دمٍ بل صحراء من الدمع ، وتاريخٌ ينزف ، وجهُهُ للجدار . ونهارٌ طويل ، فيه صبرا المخيّم يحمل أطفالَهُ ويزور المقابر ، محتفلاً بالزهور القليلة ثم يعود بلا زهرةٍ .

ذلك اليوم عند الضحى إستوحش الميّتون .

● وللجمعة في شاتيلا يحتفي الهواء بالمآذن ، والنهارِ بالغبار ، لامعاً في سلاحٍ نظيفٍ ، في خطىً تتوهج ، راكضاً خلف ظلٍ يدور كقطٍّ ويختفي في البيوت . . . النهار النهار الجميل آختفىٰ .

● وفي شاتيلا أدخل مبنىً وأجلس منتظراً ، يحملني باصٌ كالحجر ويمضي . للمبنىٰ ، أذكر ، بضعُ شجيراتٍ ومدافعُ غائصةٌ في الرمل وشمسٌ يحملها باصٌ كالحجر ويمضي .

أصدقائي
أصدقائي
سلام لاحجارنا وهي تمضي
سلامٌ لبيروتَ ،
للجالسين إلى طاولات المحبّةِ ،
يلهون محتفلين بنَرْد الشجارِ
(ألمْ يلمحوا الموتَ يخبط رجليهِ . . ؟)
للغجريِّ آبنِ فودةَ خلّفني
بين نيرانهِ في الهجيرة يرجفني البردُ
(أوحشني حجرُ لِعَليٍّ) ،
لباقة زهرٍ على قبر « شمران » ذابلة الروحِ ،
للأمّهات آرتدين السواد بأعيادهنّ ،
لصمت المنازل ،
للمْيت مستقبلاً زائريهِ ،
(ويجلس مرتبكاً كالغريبِ)
لظلٍّ « رشادٍ يمرّ خفيفاً ويعبرني
ساخراً بين صمت الفناجين

(وردتْه والرماد حملتُهما وآعتذرتُ على عَجَلٍ)
للصديق الذي سرتُ خلْفَ جنازتهِ
بين صفٍّ المظلّات يصفعنا مطرٌ
ثم طالعني وجههُ . . .
للعذابات عن وجهها الدمع .
للركن في حانةٍ يتوقّف فيها المسافر ،
يُودعها صمتَهُ وحقيبَتهُ ، ويغادر ،
للطفل مستنداً للجدار ويبكي . .
سلامٌ
سلامٌ . . .

اربع ساعات في شاتيلا

جان جينيه

[في شاتيلا وصبرا، أشخاص غير يهود ذبحوا أشخاصاً غير يهود، ففي أيّ شيء يعنينا ذلك؟
مناحيم بيغن(أمام الكنيست)]

لا أحد، لا شيء، ولا أية تقنية للكلام، يستطيع أن يقول ما كَانَتْهُ الشهور الستة التي أَمضاها الفدائيون في جبال جرش وعَجْلون بالأردن، وما كانته الأسابيع الأولى منها، بصفة خاصة. لقد قام آخرون بتقديم وصف للأحداث وتَسَلْسُلها، والحديث عن نجاحات منظمة التحرير وأخطائها . . وبالإمكان أن نُصور سَمْتَ الزّمن، ولون السماء والأرض والأشجار، لكننا لن نستطيع أبداً أن نَنْقُل إلى الإحساس: الثَّمَلَ الخفيفَ، والخَطْوَ فوق الغبار، وَأَلَقَ العيون، وشفافيةَ العلائق، ليس فقط فيما بين الفدائيين، بل بينهم وبين رؤسائهم . كل شيء، الجميع، تحت الأشجار كانوا مرتعشين، ضاحكين مُعجبين بحياة تحمل الجِدَّة إليهم جميعاً . . وداخل هذه الارتعاشات، شيء ثابت بطريقة غريبة، مُتَرَصِّد ، مُتحفِّظ ، مَصُونٌ ، مثل شخص يُصلي من غير أن يتلفّظ بِبِنْتِ شفة . كل شيء كان في مِلْك الجميع . وكل واحد كان في ذاته وحيداً، وربَّما لم يكن كذلك. على العموم، كانوا مُبتسمين، زائغي النظرات . وكان طول محيط المنطقة الأردنية التي انسحبوا اليها، باختيار سياسي، يمتدّ من الحدود السورية الى السلط، ويحدها نهر الأردن وطريق

جرش والإرْبَد . ستّون كيلومتراً طولاً، وعشرون أُخرى عمقاً، داخل منطقة جبلية وَعْرة مُغطاة بأشجار البلوط الخضراء، وبالقرى الأردنية الصغيرة، وبزراعة ضئيلة .

وسط الغابات وداخل الخِيَام المُدَارَاة عن عيون العدو، كان لِلْفدائيين وحداتُ من المقاتلين، والأسلحة الخفيفة، ونصف الثقيلة . ولما أخذ سلاح المدفعية، مكانه، وهو موجّه خاصة ضد عمليات أُردنية محتملة، شرع الجنود الشبان في إنجاز صيانة أسلحتهم، فأخذوا يَفكّونها لتنظيفها وتشحيمها ، ثم يعيدون تركيبها بسرعة مفرطة. كان بعضهم ينجح في فكّ الاسلحة وتركيبها وعيْناه معصوبتان، حتى يتمكن من أن يفعل ذلك في ظلام الليل. كان قد نشأ بين كل جندي وسلاحه علاقةُ حبّ وافْتِتان. فَبِمَا أن الفدائيين كانوا قد تَخطّوْا المراهقة حديثاً ، فإن البندقية ، باعتبارها سلاحاً، كانت تكتسي علامة الرجول المنتصرة، وتحمل إليهم يقينَ الكينونة . كانت العدوانية تختفي من وجوههم ، والابتسامة تكشفُ عن الأسنان .

فيما يتبقّى لهم من وقت، كان الفدائيون يشربون الشاي وينتقدون الرؤساء والأغنياء ، فلسطينيين وغير فلسطينيين، ويشتمون إسرائيل. . ولكنهم كانوا يتكلمون، تخصيصاً ، عن الثورة التي يخوضون غمارها، وعن تلك التي سيشرعون فيها .

بالنسبة لي ، أن تكون كلمة «فلسطينيون» موضوعة في العنوان ، أو في صلب مقالة، أو على منشور سرّي، فإنها تَسْتحضر في ذهني مباشرةً الفدائيين في مكان معيَّن هو : الأردن ، وخلال فترة يمكن تحديدها بسهولة : اكتوبر، نوفمبر ،ديسمبر من العام ١٩٧٠ ، ويناير ، فبراير، مارس، أبريل من العام ١٩٧١ . ففي هذه الفترة وفي ذلك المكان، عرفتُ الثورة الفلسطينية.إن الوضوح البديهي العجيب لما حَدَثَ، وقوّة تلك السعادة المرافقة لوجودهم، يُسمَّيَان أيضاً: الجمال .

مرّت عشر سنوات ولم أعرف عن الفدائيين شيئاً سوى أنهم كانوا في لبنان . كانت الصحافة الأوربية تتحدث عن الشعب الفلسطيني، بوقاحة ، بل وباستخفاف. وفجأة: بيروت الغربية .

للصورة الشمسية بُعْدان ، وكذلك لشاشة التلفزيون، إلاّ أنهما كلاهما لا

يمكن أنْ يَعْبُرهما الإنسان أو يطوف داخلهما . من جدارٍ إلى جدار، داخل زقاق، الأَرْجُل مُقوَّسة أو مدعمة تَدفع الحائط، والرؤوس مُتَّكِئة بعضها على بعض، والجثث المسودّة المنتفخة ، التي كان عليَّ أن أَتخطَّاها، كلها كانت جُثث فلسطينيين ولبنانيين. بالنسبة لي، كما بالنسبة لِمَنْ بَقي من السكان، التجوُّل في شاتيلا وصبرا يشبه لعبة النَّطَّة(علينا أن ننط فوق الجثث !). وقد يستطيع طفل ميِّت أحياناً، أن يَسُدّ الأزقة لأنها جدُّ ضيِّقة ، والموتى كُثُرٌ . ولا شك أن رائحتهم مألوفة لدى الشيوخ : فهي لا تُضايقهم . لكن، ما أكثر الذُّباب. كنتُ ، إذا رفعت المنديل، أو الجريدة العربية الموضوعة فوق رأس ميّت، أُزْعجه، فكان ، وقد أغضبتْه إشارتي ، تأتي جماعاته لتحط فوق ظهر يدي، محاولةً أن تَقْتات منها .

أوَّل جثَّة رأيتُها كانت لرجل في الخمسين، أو الستين من عمره . وكان مهيَّأً ليكون له إكليل من الشعر الأبيض، لولا أن شرخاً(ضربةُ فأس فيما خُيِّل إليّ) قد فتح جُمْجمته . جزء من النُّخاع المسوَدّ كان ملقىً على الأرض إلى جانب الرأس. وكان مجموع الجسد مسجى فوق بقعة من دمٍ أسود ومُخثَّر. لم يكن الحزام مشدوداً، والبنطلون ممسوك بِصَدَفَة واحدة. كانت رِجْلا الميّت وساقاه عارية، سوداء، بنفسجيّة وخُبازية اللون : ربما فُوجىء في الليل أو عند الفجر ؟ هل كان بصدد الهرب ؟ لقد كان مسجى في زقاق صغير، مباشرة على اليمين من مدخل مخيم شاتيلا المواجه لسفارة الكويت . هل تمَّت مذبحة شاتيلا وسط الهمسات، أو في صمتٍ مطبق، ما دام الإسرائيليون، جنوداً وضباطاً ، يزعمون أنهم لم يسمعوا شيئاً، ولم تُثِرْ ظنونَهم شكوكٌ ، بينما كانوا يحتلون ذلك المبنى منذ ظهر يوم الأربعاء؟

إن الصورة الشمسية لا تلتقط الذباب، ولا رائحة الموت البيضاء والكثيفة. إنها لا تقول لنا القفزات التي يتحتّم القيام بها عندما ننتقل من جُثة الى أخرى .

إذا نظرنا بانتباهٍ الى ميّت ، فإن ظاهرة غريبة تلفت نظرنا : فغِياب الحياة في هذا الجسد يُعادل الغياب الكُلي للجسد، أو بالأحرى، يُضاهِي تَقَهْقُرَه المسترسِل إلى الخَلْف . ويُخيّل إلينا أننا، حتى إذا ما اقترَبْنا منه،لن نمسه قط . هذا إذا ما

تأمّلناه . لكن إشارة نقوم بها في اتجاه الموتى، أن نَنْحني بالقرب منهم، أو أن نحرك ذراعاً أو اصبعاً من جُثثهم، وإذا بهم ، فجأةً، جد حاضرين،ويكادون يكونون وُدّيين .

الحبّ والموت . هاتان الكلمتان تَتداعيان بسرعة كبيرة عندما تُكْتَبُ إحداهما على الورق. لقد تحتّم عليّ أن أذهب إلى شاتيلا لِأُدرك بذاءةَ الحب وبَذاءة الموت . فالأجساد، في الحالتيْن معاً، لم يعد لها ما تُخفيه : وِضْعَة الاجساد، تَشنُّجات العَضَل، الاشارات ، العلامات ، وحتى الصمت، كلها تنتمي الى عالميْ الموت والحب. كان جسم رجل فيما بين الثلاثين والخامسة والثلاثية مُمدّداً على بطنه، وكأن مجموع الجسد لم يكن سوى مَثَانَةٍ في شكل رَجُل: تنتفخ المثانة تحت تأثير الشمس، وكيمياء التّحلُّل الى درجة توتير البنطلون الذي يهدِّد بالانفجار عند الألْيَتيْن والفخديْن . الجزء الوحيد من وجهه، الذي تَمَكَّنْتُ من رؤ يته ، كان بنفسجياً وأسود. وفوق الرُّكبة بقليل، كان فَخذه المثنيَّة تكشف جُرحاً تحت الثوب الممزّق. ما أصل الجرح : حَرْبَة ، أم سكين ، أم فأس، أم خنجر ؟ ذباب فوق الجرح وحوله . والرأس أكبر من بطيخة ، بطيخة سوداء. سألت عن اسمه ، كان مسلماً :

ـ مَنْ هو ؟

ـ فلسطيني، أجابني رجل فرنسي كان في الأربعين من عمره، انْظُر ما فَعلوا .

ثم سحب الغطاء الذي كان يستر الرِّجْليْن ، وجزءاً من الساقيْن، رَبْلَتاهما عاريتان ، سَوْداوان، ومُنتفختان . القدمان مُنْتَعِلَتَان حذاءيْن كبيرين أسوديْن بغير رباط، والعُرْقوبان مَتَضَامّان بِقُوّة بواسطة عُقدة حَبْلٍ متين . كانت مَثَانَته واضحة . طوله حوالى ثلاثة أمتار، أَزَحْته قليلاً لتتمكن السيدة س. (أمريكية) من أن تلتقط صورة فوتوغرافية دقيقة. سألت الرجل الفرنسي عما اذا كان باستطاعتي أن أرى الوجه :

ـ إذا شئت، لكن انظره انت بنفسك .

ـ هلاّ ساعَدْتَني في إدارة رأسه ؟

ـ لا .

ـ هل جرُّوه بهذا الحبل عبر الأزقّة ؟

ـ لا أدري يا سيدي .

ـ مَنْ رَبَطَه ؟

ـ لا أدري ، يا سيدي .

ـ هل هم رجال القائد حداد ؟

ـ لا أدري .

ـ الإسرائيليون ؟

ـ لا أدري .

ـ الكتائب؟

ـ لا أدري .

ـ هل كنت تعرفه ؟

ـ نعم .

ـ هل رأيته وهو يموت ؟

ـ نعم .

ـ مَنْ قتله ؟

ـ لا أعرف .

ابْتَعَدَ عن الميِّت وعني بسرعة . من بعيد نظر إليّ ثم اختفى داخل زُقاق يُقَرِّبُ المسافة .

أي دربٍ سأسلكه الآن ؟ كنتُ موزعاً بين رجال في الخمسين ، وشبان في العشرين، وامرأتيْن عربيتين عجوزين، وكان لديّ انطباع بأنني في مركز دوَّارة الرّياح، التي تحتوي اشعتُها على مئات الكلمات .

أسجل الآن ما يلي ، دون أن أعرف لماذا أفعل ذلك عند هذا المستوى من جليتي : «اعتاد الفرنسيون ان يستعملوا هذه العبارة الفاقدة الطَّعم : «الشُّغل الوسخ » (le sale boulot) ومثلها ، إذاً، أن الجيش الاسرائيلي قد أوْعز إلى الكتائب أو الحدَّاديين بتنفيذ« الشغل الوسخ » ، فكأن حزب العمل الإسرائيلي قد جعل حزب الليكود، وخاصة بيغن، وشارون ، وشامير، يُنجزون « الشغل الوسخ » . . ، إنني أورد هنا ما قاله لي الصحفي الفلسطيني ر. الذي كان ما يزال موجوداً ببيروت يوم الأحد ١٩ أيلول .

وسط جميع الضحايا التي تعرضتْ للتّعذيب، وبالقُرب منها ، لا يستطيع ذهني أن يتخلَّص من تلك «النَّظرة اللاَّمرئية»: كيف كان شكل ممارس التعذيب؟ من هو؟ إنني أُراه ولا أراه . إنه يَفْقَأُ عيني ، ولَنْ يكون له أبداً شكلٌ آخر سوى الشكل الذي ترسمه وِضْعة أجساد الموتى، وإشاراتهم الخشنة ، وهم ملقون تحت الشمس، تَنْهَبُهُمْ أسراب الذّباب .

إن قُوات الفصل الدولية، في لبنان، الامريكية والفرنسية والإيطالية (هذه الأخيرة وصلت بالباخرة متأخرة عن موعدها بيوميْن ، ثمَّ فَرَّت راجعة على متن طائرات هيركليس !) قد رحلت بسرعة قبل أن يَحين موعد رحيلها الرسمي بيوم ، أو ٢٤ ساعة، وكأنها تنجو بجلدها، وذلك ليلة اغتيال بشير الجميّل. . فهل الفلسطينيون على خطأ إذا تَسَاءَلُوا عمَّا إذاً لم يكن الأمريكيون والفرنسيون والإيطاليون قد أُخبروا بأن عليهم أن يَفْرَنْقِعوا، حتى لا يبدون مشاركين في تفجير بَيْتِ الكتائب ؟

ذلك أن تلك القوات قد رحلت بسرعة كبيرة، وقبل الأوان . وإسرائيل تَتبجَّح وتمتدح فعاليتها في المعركة، وإعدادها لالتزاماتها، وحذاقتها في الاستفادة من الظروف، والقدرة على خلق هذه الظروف. لننظر إلى المسألة عن قرب : منظمة

التحرير الفلسطينية تغادر بيروت، بكرامة ، فوق باخرة إغريقية ترافقها حراسة بحرية. بشير الجميل يزور بيغن في إسرائيل مُتخفياً ما أمكن . تدخّل القوات الثلاث(الأمريكية والفرنسية والإيطالية) ينتهي يوم الاثنين . يوم الثلاثاء يُقْتَلُ بشير، وصباح يوم الأربعاء تدخل القوات الاسرائيلية إلى بيروت الغربية. وبما أنّ الجنود الإسرائيليين أتَوا من جهة الميناء، فَقَدْ كانوا يزحفون على بيروت صباح دَفْن بشير الجميل. ومن الطابق الثامن للعمارة التي أسكنها، كنتُ أراهم ، بواسطة مِنظار مُقَرِّب، يَصِلُون في شكل صفٍّ هِنْدي: صف واحد. تعجبتُ من أنْ لا شيء آخر يحدث، لأن بندقيَّة منظار جيدة كانت قادرة على أن تُسقطهم جميعهم . . **لكن وحشيتهم كانت تَسبِقهم** . ووراءهم كانت الدبابات ، ثم سيارات جيب .

بعد أن تَعبوا من المشي المبكر الطويل، توقفوا بالقرب من سفارة فرنسا، تاركين دباباتهم تتقدّمهم لتدخل شوارع الحمراء جهاراً . كان الجنود الإسرائيليون، على مسافة كل عشرة أمتار، يقعدون فوق الرصيف وبنادقهم المسنَّنة أمامهم، وظهورهم مُسندة إلى حائط مبنى السفارة. ولأن جذع أجسامهم ضخم، فقد كانوا يَبْدُون لي وكأنهم ثعابين لها ساقان مُمَدّدَتان أَمَامَها .

كانت إسرائيل قد تعهدت أمام فيليب حبيب، ممثل الحكومة الامريكية، بألّا تَدْخل بيروت الغربية، وتعهدت بالأخص أن تحترم سكان المخيمات الفلسطينية المدنيّين . وقد وعد حبيب عرفات بإطلاق سراح تسعة آلاف سجين معتقلين في اسرائيل. . ويوم الخميس بدأت مذابح شاتيلا وصبرا. «حَمَّام الدّم الذي زعمت اسرائيل بأنها تريد أن تَتجنّبه عن طريق فرض النظام في المخيمات ! . . .» قال لي ذلك كاتب لبناني .

« سيكون جدَّ سهل على إسرائيل أن تتخلّص من كل الاتهامات. فقد شرع، ومن الآن ، صحفيون ، في جميع الصحف الأوربية، في تَبْرِئة ذمّة الإسرائيليين : لا أحد منهم سيقول بأن الحديث ، خلال لَيْلَتيْ الخميس والجمعة ، كان يدور باللغة العبرية داخل مخيم شاتيلا» هذا ما قاله لي كاتب لبناني آخر .

كانت المرأة الفلسطينية ـ لأنني لم أكن أستطيع الخروج من شاتيلا دون أن

أتنقل من جثة إلى أخرى، ولُعْبة الوَزَّة هذه ستنتهي حتماً إلى هذه المعجزة : شاتيلا وصبرا يُمْحَيَان ، وتبدأ المعارك العقارية من أجل بناء العمارات فوق هذه المقبرة المسطّحة ـ كانت المرأة الفلسطينية مُسِنَّةً، في غالب الظن، لأن الشَّيْبَ كان يمازج شعرها. كانت ممدّدة على ظهرها، موضوعة أو متروكة هناك فوق حجر الدّبش والآجُر، وفوق قُضبان حديديّة معوجَّة، دون اهتمام بِرَاحَةِ جُثّتها . اندهشتُ ، أول الأمر، لوجود جَدِيلة غريبة، مِنْ قُماشٍ وحبل، مُمتَدّة من مِعْصم إلى معصم آخر، رابطةً بذلك الذّراعين المتباعدتَيْن، الأفقيتيْن، وكأنهما مصلوبان . والوجه الأسود المنتفخ مستدير نحو السماء، كاشفاً عن فمٍ مفتوح ملأتْه قتامة الذُّباب ، وأسنانه ظهرت لي جد بيضاء. كان هذا الوجه يبدو، دون أن تتحرك عضلة فيه ، إمّا كأنه يُقَطِّبُ، أوْ يَبْتَسم، أو يصرخ صرخة صامتة مُسترسلة . كانت جواربها من الصوف الأسود، والفُستان ذو الأزهار الوردية والرمادية مُشَمَّراً قليلاً، أو أنه جد قصير، لست أدري، مِمَّا يجعله يكشف عن أعلى رَبْلَتَيْ الساقيْن السوادوين المنتفختَيْن ، ودائماً مع بُقَع خفيفة خبازية اللَّون يَتَجاوَبُ معها لون خُبازي وآخر بَنَفسجي مُشَابِه في الوَجْنَتَيْن . هل كان ذلك كَدْمٌ أم أنه الأثر الطبيعي لِلتَّعَفُّن تحت الشمس ؟

ـ هل ضَرَبُوها بِعُكَّاز ؟

ـ انظر يا سيدي، انظر الى يديْها .

لم أكُنْ قد لاحظت ذلك، فأَصابع يديْها، كانت مِرْوَحيَّة الشكل، والأصابع العشرة مقطوعة وكأنّما حَسَكَسَها مِقَصٌّ بُستاني. لا شك أن جنوداً قد استمتعوا وهم يكتشفون هذا المقص ويستعملونه، ضاحكين مثل أولاد وهم يُغنون فرحين .

ـ انظر يا سيدي .

كانت اطراف الأَصابع والأَنامل، بأَظافرها، داخل التراب. وقام الشاب، الذي كان يَدُلُّني على نَكَال الموتَى بطريقة طبيعية خالية من التّشَدُّق، بوضع قماش على وجه المرأة الفلسطينية ويديْها، ثم وضع قطعة كَرْتُون خَشِن على ساقيها . لم أعد أُمَيّز سوى ركامٍ من قُماش وردي ورمادي يحلق فوقه الذباب .

قادَنِي ثلاثة شبان داخل زقاق صغير :

ـ ادخل يا سيدي ، فإننا سننتظرك في الخارج .

كانت الغرفة الأولى هي ما تبقىّ من منزل ذي طابقيْن. غرفة جد هادئة، بل ومُرَحِّبَة، محاولة للسعادة، وربما كانت سعاده ناجحة، صُنِعَتْ من بقايا، مما تبقىّ من بيت مُتداعٍ داخل جزء من جدار مُتهدّم . . ومِمَّا ظَنَنْتُه في البِداية ثلاثة كراسي كبيرة، وما هو في الواقع سوى ثلاثة مقاعد لسيارة(ربما كانت مرسيديس دون قيمة) ، وكَنَبَّة بِمخدات مغشاة بقماش رُسِمَتْ عليه ورود ذات ألوانٍ صارخة، ورسوم مُؤَسْلَبة، مع جهاز راديو صامت، وشمعدانين مُطْفَأيْن. غرفة جد هادئة، حتى مع وجود بِساطٍ من أظرفة طَلَقَاتِ الرصاص. . وباب يِدقُّ كأنما كان هناك تيار هواء يُحركه . تقدمتُ فوق أظرفة الرصاص، ودفعت الباب الذي انفتح باتجاه الغرفة الأخرى، لكن كان يتحتم عليّ أن اضغط اكثر: ذلك أن كَعْبَ حذاء كان يمنعه من أن يَتْركني أمُرّ ؛ كعب جثة ملقاة على الظهر، بالقرب من جثتين أُخريَيْنِ لرجليْن نائميْن على البطن، ومستريحين جميعاً فوق بساط من أظرفة نُحاسية. كدتُ أسقط عدة مرات بسبب تلك الأظرفة .

في نهاية تلك الغرفة باب آخر مفتوح دون قفل ولا مزلاج. بدأت أتخَطَّى الموتى مثلما نجتاز الهَاويات . كان في الغرفة، فوق سرير واحد، أربع جثث لرجال مُكوّمين بعضهم فوق بعض، وكأن كل واحد منهم كان حريصاً على أن يحمي مَنْ كان تحته، أو كأنما استولى عليهم نَزْوٌ شَبَقِيّ آخِذٌ بالتلاشي. كانت هذه الكومة من الأجساد ذات رائحة قوية، ولكنها لم تكن كريهة . **وخُيِّل إليّ أن الرائحة والذبابات مُتَعَوِّدَان عليّ** . لم أكن أُقْلِقُ، في شيء، هذه الخرائب وذلك الهدوء .

فكرت في نفسي: لا أحد سَهِر بجانب هؤلاء الموتى ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأحد .

ومع ذلك أحسست كأن أحداً قد مرّ قبلي بالقرب من هؤلاء الموتى بعد موتهم . كان الشبان الثلاثة ينتظرونني بعيداً عن المنزل، وقد وضعوا منديلاً فوق أُنوفِهم .

لحظتئذ، وأنا خارج من المنزل، اعتراني ما يشبه نَوْبة جُنون مُباغتٍ وخفيف، جعلتني أكاد أبتسم : قلتُ في نفسي إنهم لن يحصلوا قط على ما يكفي من الألواح والنَّجارين لصنع النُعوش. ثم، لماذا النعوش ؟ فالموتى، رجالاً ونساءاً، كلهم مسلمون يوضعون داخل الأَكفان . كم يلزم من الأَمتار لِتَكْفين مثل هذا العدد الكبير من الموتى ؟ وكم من الصلوات ؟ وتَنبْهت إلى أن ما كان ينقُص، في هذا المكان، هو ترتيل الصلوات .

- تعال يا سيدي، تعال بسرعة .

آن الأَوان لأن أكتب بأن ذلك الجنون المباغت، والمؤقت، الذي جعلني أحسب عدد الأمتار اللاّزمة من الكَتان الأبيض، قد أُضْفَى على مشيتي حيوية تكاد تكون خفيفة رشيقة، والتي ربما كانت ناتجة عن فكرة سمعتها أمس من صديقة فلسطينية :

«- كنت أنتظر أن يحملوا إليّ مفاتيحي(أية مفاتيح : مفاتيح سيارتها أم منزلها ؟ لم أعد أذكر سوى كلمة مفاتيح) فَمرَّ رجل عجوز وهو يسرع الخطو- إلى أين أنت ذاهب ؟- لأبحث عن مُسَاعَدَة. إنني حفّار قبور، وقد قَنْبلوا المقبرة، فَتَناثرتْ في الهواء جميع عظام الموتى. يجب أَن تساعدوني في جَمْع العِظام» .

أظن أن هذه الصديقة مسيحيّة .قالت لي أيضاً :

«- عندما قَتَلَتْ القنبلة. . . المسماة. . . مائتين وخمسين شخصاً، لم نكن نحصل سوى على صندوق واحد. وقد حفر الرجال حفرة مشتركة داخل مقبرة الكنيسة الأورثوذكسية. كانوا يملأُون الصندوق ويذهبون لتفريغه . وكان الذهاب والإياب يتم تحت القنابل، محاولين إجلاء الجثث قدْر ما نستطيع » .

منذ ثلاثة أشهر، صار للأيدي وظيفة مزدوجة : في النهار تلتقط الأشياء وتلمسها، وفي اللَّيل تُبصر. وكانت انقطاعات الكهرباء تُرغم الناس على اتّباع تربية العُميان هذه، مثلما حدث معي وأنا أتسلق مرتين، أوْ ثلاثاً، في اليوم، جرف الرخام الأبيض لدرجات السلم على امتداد الطوابق الثمانية. تَحتَّم أن تُمْلأ جميع

أواني المنازل بالماء. وتعطلت التيلفونات عندما دخل الجنود الإسرائيليون الى بيروت، وكذلك تعطلت الطرقات المحيطة ببيروت الغربية . وكانت ناقلات الجند المدرعة في حركة دائمة لتشير إلى انها تُراقب مجموع المدينة، وفي الوقت نفسه كنا نُخَمِّن أن راكبيها فَزِعُون لكون الناقلات أصبحت هدفاً ثابتاً . لا شك أنهم كانوا يخشون نشاط« المرابطون»، والفدائيين الفلسطينيين ، الذين تمكنوا من البقاء في أحياء بيروت الغربية .

في اليوم التالي لدخول الإسرائيليين أصبحنا سجناء، إلّا أنه خُيِّل إلي بأن الغزاة لم يكونوا موضع خشية بقدر ما كانوا موضع احتقار، وكانوا يبعثون على الغَثيان اكثر ممّا كانوا يُحدثون الرعب. لم يكن أي جندي يضحك أو يبتسم. والزمن هنا لم يكن بالتأكيد زمناً لِنَثْر حبات الأرز والورود .

منذ انقطعت الطرقات ، وصَمَتَ التيلفون ، وحُرِمْتُ من الاتصال بالعالم، أَحَسَسْتُني، لأول مرة في حياتي ، **أَصير فلسطينياً وأكرهُ إسرائيل** .

في «المدينة الرياضية»، بالقرب من طريق السفارة الكويتية ـ شاتيلا، وهو الملعب الذي تهدّم تقريبا بسبب قصف الطائرات، كان اللبنانيون يسلمون للضباط الإسرائيليين أَكْداساً من الأسلحة، كلها مخربة عن قصد فيما يظهر .

وفي الشقّة التي أسكنها، كل واحد له جهاز راديو. نستمع الى اذاعة الكتائب، وإلى إذاعة« المرابطون»، وإذاعة عمان، وإذاعة القدس (بالفرنسية)، وإذاعة لبنان. ولا شك أن الشيء نفسه كان يتمُّ في كل بيت .

قال لي فدائي فلسطيني :

«نحن مَوْصولون بإسرائيل بعِدّة قنوات تحمل إلينا القنابل، والدبابات، والجنود، والفواكه، والخُضر، وتحمل الى فلسطين جنودنا وأبناءنا . . في جيئة وذهاب متواصلة لا تنقطع، مثلما أَننا، كما يقولون ،مرتبطون بهم منذ الرسول إبراهيم، في سلالته ولغته ، والأصل نفسه» . ثم أضاف: «باختصار، إنهم يَغْزُونَنا، ويخنقونَ أنفاسنا ، ويريدون أن يحتضنُونَا. يقولون بأنهم أبناء عَمّنا. هم جِدُّ

حَزَانَى، إذ يَرَوْنَنَا مُنصرفين عنهم. إنهم بالتأكيد غاضبون منّا. وغاضبون من أنفسهم».

إن التأكيد على وجود **جمالٍ** خاص بالثوريين يطرح صعوبات كثيرة. من المعلوم - من المُفْتَرض - أن الأولاد الصغار، أو المراهقين، يعيشون في أوساط عتيقة قاسية، ولهم جمال في الوجه والجسد والحركة والنظرات، يَقْرُبُ كثيراً من جمال الفدائيين. وقد يكون تفسير ذلك هو الآتي: بِتَكْسيرهم للأوامر، والقيود العتيقة، أخذت حريّة جديدة تشق طريقها عَبْرَ الجُلود الميتة، وسيجد الآباء والجدود مشقّة في إطفاء بريق العيون، وكهرباء الأَصْداغ، وحُبور الدّم في النُّسوغ.

خلال ربيع العام ١٩٧١، عندما كنتُ أزور القواعد الفلسطينية، كان الجَمال منتشراً بذكاء وسط غابة تُنعشها حرية الفدائيين. وفي المخيّم كان الجمال مختلفاً، مَكتوماً بعض الشيء، يَنْشُرُ ظلاله من خلال سيادة النساء والأطفال. كانت المخيمات تتلقى نوعاً من الضوء الصادر عن قواعد القتال. أمّا عن النساء وجمالهن، فإن تفسير تَأَلّقهن سيستلزم مناقشة طويلة ومعقّدة. أكثر من الرجال ومن الفدائيين في المعركة، كانت **النساء الفلسطينيات** يَبْدين قادرات على مساندة المقاومة، وتَقبُّل التجديدات التي تحملها الثورة. كُنَّ قد عَصَيْنَ العادات: نظرة مباشرة مساندة لنظرة الرجال، رَفْضٌ للحجاب، شعورهن مرئية، وأحياناً مكشوفة تماماً، أصوات دون تصدُّع. إن أقصر وأبسط مَسْعى من مساعيهن، كان جزءاً من زَحْفٍ يسير بخطىً واثقة نحو نظام جديد، وإذاً فهو مجهول لديهن، لكنهن يَسْتَشْعِرنَ التحرير وكأنه حمَّام مُطهر بالنسبة لهن، وافتخار مُضيء بالنسبة للرجال. كُنَّ مستعّدات لأن يُصبحن، في آن، زوجاتٍ وأُمَّهاتٍ للأَبطال. مثلما كُنَّ كذلك، من قبل، بالنسبة لأزواجهن.

في غابات «عجلون» كان الفدائيون يحلمون، ربما، بفتيات.. ويبدو أن كل واحد منهم يرسم فوق جسده - أو يُسَوّي ذلك بإشارات مِنْ يده - فتاة ملتصقةً به.. ومن ثَمَّ ذلك اللطف وتلك القوة - من خلال ضحكاتهم المسْتَمْتِعة - اللّذان يصدران عن الفدائيين المسلحين. لم نكن فقط داخل طرفٍ من غابة ما قبل الثورة، بل

داخل شَبَقِيَّة غير مُميَّزة . وكان جليد خفيف يُسبغ على كل إشارة تَصلُّباً يَمْنَحها حلاوتَها .

كل يوم ، خلال شهر كامل، ودائماً في «عجلون»، رأيت امرأة نحيفة لكنها قوية، مُقَرْفِصة، في البرد، إلّا أنها تشبه في انْثناءتها هنود الآند، وبعض الأفارقة السُّود، ومحصني طوكيو، والغجريات على ساحة سوق . . . وكانت في وضع الاستعداد لانطلاقٍ مفاجىء إذا أَلَمَّ خطرٌ ما، وهي جالسة تحت الأشجار أمام مقر الحراسة الذي كان منزلاً صغيراً مشيداً من الطوب بسرعة بادية. كانت المرأة تنتظر وقدماها عاريتان ، مرتدية فُستانها الأسود المزيّن بشراط على حافته وعند الاكمام . كان وجهها قاسياً، لكنه لم يكن حقوداً، مْتعباً لكنه ليس مُضْجراً . كان المسؤول عن المغاوير يهيىء غرفة خالية تقريباً. ثم يُشيرُ إليها فتدخل الى الغرفة ، وتُغلق الباب، لكن دون مفتاح . ثم كانت تخرج من غير أن تَتفوَّه بكلمة، ومن غير ابتسامة على محياها . . كانت تعود على قدميها العاريتين، وهي منتصبة، الى جرش، حيث مخيم «البقعة». وقد عرفت ، فيما بعد، أن المرأة كانت عندما تدخل الى الغرفة المخصصة لها في مقر الحراسة، ترفع فُسْتَانيْها الأسوديْن وتفكُّ جميع الأظرفة والرسائل التي كانت مخاطة داخلهما ، ثم تصنع منها رزمة، وتطرق الباب طرقاً خفيفاً لتسلم الرسائل إلى المسؤول، ثم تخرج وترحل دون أن تتفوّه بكلمة. كانت تعود في الغد .

نساء أُخريات، متقدّمات في السن على تلك المرأة ، كن يضحكن لأنه لم يكن لهن، كَمَلْجأٍ، سوى ثلاث أحجار مُسْوَدّة كُنَّ يُسمينها (في جبل الحسْين بِعَمان) : «دارنا». يا لَهُ من صوت طفولي، ذلك الذي كان يصدر عنهن وهُنَّ يُرِيَنني الأحجار الثلاثة، وأحياناً الجمرة المشتعلة ، قائلات، ضاحكات : «دَارْنَا». لم تكن تلك النسوة العجائز يَنْتَمِين لا إلى الثورة، ولا إلى المقاومة الفلسطينية : **كُنَّ المسَرَّة التي لم تَعُدْ تُؤَمِّل** . كانت الشمس فوقهن تُواصل السير في مُنْحَناها. وكان ذراع ، أو أُصبع ممتدٌ ،يقترح ظِلاً دائماً اكثر نحافةً . لكن أية أرض ؟ إنَّها أردنية نتيجة تخييل إداري وسياسي قررته فرنسا، وأنجلترا، وتركيا وأمريكا . . «المسرة التي لم تَعُد

تُؤَمِّل»، الأكثر فرحاً وانشراحاً لأنها الأكثر يأساً. كنّ ما يَزَلْنَ يُبصرن فلسطيناً لم تكن توجد عندما كان عمرهن ست عشرة سنة، لكن كانت لهن، على كل حال، ارض. لم يَكُنَّ لا تحتَ ولا فوق، بَلْ داخل فضاء مُقْلِق حيث أَبسط حركة ستبدو مزيفة. هل كانت الأرض، تحت الأقدام العارية لتلك الممثلات التراجيديات، الثَّمانُونيات، الأَنيقات الى أقصى حد، صلبةً ؟ كانت صحة ذلك في تَنَاقُص. فعندما هَرَبنَ من مدينة الخليل، تحت التهديدات الاسرائيلية، كانت الأرض هنا تبدو صلبة، وكان كل واحد يحس بنفسه خفيفاً فوقها، متلذذاً بالحركة داخل اللسان العربي. الأَوقات تَمرّ، وكان يبدو ان هذه الأرض تُعاني ما يلي: تَحمُّلُ الناسِ للفلسطينيين كان في تَنَاقُص، وفي الوقت نفسه اكتشف هؤلاء الفلسطينيون، والفلاحون: السيولة، والسير، والسباق، ولعبة الأفكار المُعَاد توزيعها كل يوم تقريباً، وكأنها أوراق لعب، واكتشفوا الاسلحة المركبة والمفكوكة والمستعملة. كل واحدة من تلك النسوة تأخذ الكلمة بالتناوب. يَضحكن. نُقِل عن واحدة مِنْهُنَّ الكلمات التالية:

«- أبطال ! يا لها من كذبة. لقد أنجبتُ خمسة أو ستة هُم في الجَبَل. ربّيتُهم وضربتهم على أردافهم، ونظّفت ملابسهم. أعرف قيمتهم وأستطيع أن اصنع آخرين مثلهم».

في السماء الزرقاء دائماً، تُتَابعُ الشمسُ مُنْحناها، إلاّ أنها ما تزال ساخنة. وتلك النساء، مُمثلات التراجيديا، يتذكّرن ويَتخيَّلْنَ في آن. ومن أجل أن يَكُنّ أكثر تعبيريّةً، فإنهن يَضَعْنَ السَّبابة على نهاية الجملة ويَضْغَطْنَ على الحروف الصّوامت التفخيميّة فيها. ولو أَن جندياً أُردنياً كان مارّاً أمامهن لاحس بِالغبطة: فقد كان سَيَجِد في إيقاع الكلمات، إيقاعَ الرقصات البدوية. ولو أَن جندياً إسرائيلياً رأى تلك الإلاهات لأطلق على جَماجِمهن طلقات رشاشَته دون أن ينطق بكلام.

هنا في أطلال شاتيلا لم يعد يوجد شيء. بعض العجائز، صامتات، أغلقن على أنفسهن وراء باب عُلِقَتْ عليها خرقة بيضاء. وفدائيون، جد صغار، سأقابل بعضهم، فيما بعد في دمشق.

إن اختيارنا لعشيرة بشرية نُؤْثِرُها على غيرها، بغض النظر عن مولدنا، وبينما يكون الانتماء لذلك الشعب بالولادة، فان ذلك الاختيار يتم بفضل انتماء غير مُفَكَّرٍ فيه، ولا يعود ذلك الى كون العدالة ليس لها قِسطها في الانتماء، وانما لكون هذه العدالة، والدفاع عن تلك العشيرة، يتحققان نتيجة انجذاب عاطفي، بل ربما نتيجة انجذاب حسي وشهواني. **إنني فرنسي، غير أنني، كُلّياً، ودون حكم، أُدافع عن الفلسطينيين**. إنهم مُحقون فيما يُطالبون به ما دمتُ أُحبهم. لكن، هل كنتُ سأحبهم لو أن الظلم لم يصنع منهم شعباً مشرَّداً؟

تكاد تكون جميع عمارات بيروت قد أُصيبت، وبخاصة فيما يسمى ببيروت الغربية. إنها تَنْهار بطرائق مختلفة: مثل حلوى أَلْفيَّة ضَغَطَتْها أصابع قِردٍ عملاق لَا مُبالٍ ومفترس؛ أو في أحيانٍ أخرى، تَنْحني الطوابق الثلاثة أو الأربعة الأخيرة من العمارة بطريقة مهذبة، وَفْق إنْثناءة جد أنيقة وكأنها نوع من الجوخ اللبناني المسدل فوق العمارة. وإذا رأيتم واجهةً سليمة، أَتِمُّوا جولتكم حول البيت، لأن الواجهات الأخرى مُتهدّمة. وإذا بقيت واجهات العمارة الأربع دون شروخ، فلأن القنبلة التي أطلقتها الطائرة قد وقعتْ على وسط البيت، وحفرتْ بئراً في مكان الدرج والمصعد.

قال لي س ، في بيروت الغربية، بعد دخول الاسرائيليين:

«كان الليل قد خَيمّ، وكانت الساعة تشير إلى السابعة. فجأة، قَعْقَعة حديد عالية، حديد، حديد. الجميع هرع إلى الشرفة: أختي، وصهري، وأنا. ليل حالك السواد. ومن فينةٍ لأخرى ما يشبه الوميض يلمع على أقل من مائة متر. أنت تعلم أنه يوجد بمواجهة بيتنا تقريباً، نوع من محطة للقوات الاسرائيلية: أربع دبابات، ومنزل يحتله جنود، وضباط، وحراس. الليل. وقعقعة الحديد تقترب. الوميض: مشاعل مضيئة، وحوالى أربعين أو خمسين طفلاً في سِنّ الثانية عشرة، او الثالثة عشرة، يضربون بإيقاع فوق صفائح حديدية صغيرة، مستعملين أحجاراً، أو مطرقات، أو أشياء أخرى. كانوا يصيحون مع إيقاع شديد: لا إلاه إلاّ الله، لا كتائب ولا يهود».

وقال لي هـ. : «عندما جئت إلى بيروت ودمشق سنة ١٩٢٨، كانت دمشق محطمة، وكان الجنرال غورو، وقناصته منَ الجنود المغاربة والتونسيين، قد أطلقوا

النار ، ونظفوا دمشق . فلِمَنْ كان السكان السوريون يوجّهون التّهمة ؟

أنا ـ كان السوريون يتهمون فرنسا ، ويلقون عليها تبعةَ المذابح ، وتبعة تخريب دمشق .

هو ـ إننا نتهم إسرائيل ، ونلقي عليها تبعة مذابح شاتيلا وصبرا . فلا داعي لوضع هذه الجرائم على ظهر معاونيهم من الكتائب وحدهم . فإسرائيل مذنبة لكونها أدخلتْ إلى المخيمات فرقتينْ من الكتائب ، وأصدرت لهم الأمر ، وشجعتهم طوال ثلاثة أيام وليالٍ ، وقدّمت لهم ما يشربونه ويأكلونه ، وأنارتْ لهم المخيمات أثناء الليل » .

قال لي أيضا هـ . ، وهو أستاذ تاريخ :

« في سنة ١٩١٧ أُعيد طبع قصة النبي إبراهيم ، أو إذا شئت قلت إن الله كان هو التشخيص الأَولي للوّرد بلْفور . فقد كان اليهود يقولون ، وما يزالون ، بأن الله وَعَد إبراهيم وَذُرِيّتَه بأرض من عسلٍ وحليب ؛ إلاّ أن هذا الصّقْع الذي لم يكن في ملك إله اليهود (فتلك الأراضي كانت مليئة بالآلهة) كان يَسْكُنُه الكنعانيون ، الذين كانوا يحصلون ، أيضاً ، على آلهَتِهِمْ ، والذين كانوا يُحاربون جيوش يوشع ، إلى أن تمكنُوا من أن يسرقوا منهم تابوت العهد الشهير ، الذين لَوْلاَهُ لما حقّق اليهود الانتصار . وفي سنة ١٩١٧ لم تكن أنجلترا تمتلك بَعْدُ فلسطين (تلك الأرض التي من عسل وحليب) ، لأن المعاهدة التي تُخوّلهم الانْتداب لم تكن قد وُقعتْ بعد .

ـ بيغن يزعم بأنه جاء إلى هنا .
ـ هذا عنوان فيلم سينمائي : « غَيْبَة طويلة جدّا . هل تَتصوَّر هذا البولوني وريثاً لملك سليمان ؟ » .

في المخيّمات ، وبعد عشرين سنة من المنفى ، كان اللاَّجئون يحلمون بفلسطينهم ، ولم يكن أحد يجسر أن يعرف ، أو أن يقول بإن إسرائيل قد خَرَّبَتْها ، وبأنه قد صار في موضع حقل الشعير بَنْك ، وانْتَصبتْ محطة توليد الكهرباء مكانَ كَرْمَةٍ زاحفة .

ـ سيغيّرون حاجز الحقل ؟
ـ سيتحتم أن نُعيد بناء جزء من الجدار بالقرب من شجرة التين .

ـ لا بُدّ أن كل الطناجر قد صَدِئَ ت : علينا أن نتشري وَرَق الصنفرةِ للصَّقْل .

ـ ولماذا لا نضع أيضاً الكهرباء في الأَصطبل .

ـ أوه ، كلا ، لقد انتهى زمن الفساتين المطرّزة باليد : عليك ان تعطني آلة للخياطة ، وأخرى للتطريز .

كان سكان المخيمات المعمّرون في السن بؤساء ، وربما كانوا كذلك في فلسطين قبل الهجرة ، إلا أن الحنين يفعل فيهم فعله بطريقة سحرية . إنهم معرّضون لان يظلّوا أَسْرَى لِفَاتِن المخيّم البائسة . وليس من المؤكّد أن هذه الفئة الفلسطينية ستغادر المخيمات مُتحسّرة عليها . بهذا المعنى يكون العُرْي الأَقْصى مَاضَوِيّاً ، فالإنسان الذي جَرَّبَه في الوقت نفسه الذي عرف المرَارة يكون قد أَحسَّ فَرحة بالغة ، مُتوحّدة وغير قابلة للتّوصيل . إن مخيمات الأُردن المعلقة بمنحدرات مليئة بالأحجار ، عارية ؛ لكن توجد في محيطها أنواع من العُرْي أكثر إقفاراً : بيوت من القصدير ، وخِيَم مثقوبة تَسْكنها أُسَرٌ كِبْرياؤُها مُضيء . لا نكون قادرين على فَهْم القلب البشري إذا أَنْكَرْنا بأَن أُناساً يستطيعون أن يتشبثوا بالبؤس المَرْئي ، وأَن يَزْدَهُوا به ؛ وهذه الكبرياء ممكنة ، لأَن البؤس المرئي يُقابِله مجدٌ مُسْتَتر .

كانت وحدة الموتى ، في مخيم شاتيلا ، أَكثر بروزا لان لهم إشاراتهم ، واوضاع لم يَهتمّوا بتحديدها . ماتُوا كَيْفَمَا اتّفق . مَوْتَى مهمَلُون . ومع ذلك كُنّا نُحس ، داخل المخيّم ، ومن حَوْلنا ، كل عواطف المودّة والحنان والمحبّة لدى الاشخاص ، الذين يتنقلون باحثين عن الفلسطينين الذي لن يردّوا أبداً على تلك العواطف .

كيف نُبْلغ أقاربهم الخبر ، أقاربهم الذين رحلوا مع عرفات ، واثقين بوعود ريغان ، وميتران ، وبيرتيني ، الذين طمْأنوهم بأن أي سوء لن يُصيب سكان المخيمات المدنيين ؟ كيف نَقُولُ بأن هناك مَنْ ساعد على ذَبْح الأطفال والشيوخ والنساء ، ثُمَّ تركوا جثثهم بدون صلاة ؟ كيف نُبْلِغهم بأَنّنَا نجهل أَيْنَ قُبِروا ؟ .

إن المذابح لم تَتمّ في صمتٍ ، وتحت جُنح الظلام ، فقد كانت الآذان الاسرائيلية ، مُضَاءةً بصواريخها المنيرة ، مُصْغية الى ما يجري في شاتيلا ، وذلك منذ مساء يوم الخميس . يا لها من حفلات ومن مآدب فاخرة تلك التي أُقيمت حيث الموت كان يبدو وكأنّه يشارك في مَسَرّات الجنود المنتشين بالخمرة وبالكراهية . ولا شك انهم كانوا منتشين ، أيضا ، بكونهم قد نالوا اعجاب الجيش الاسرائيلي ، الذي كان

يسْتمع ، وينظر ، ويشجع ، ويوبّخ المترددين في قتل الابرياء . إنيّ لم أرَ هذا الجيش الاسرائيلي رؤ ية العين والأذن ،غير أنني رأيتُ ما فعله .

مقابل الحجة التي تقول : « ماذا ربحتْ إسرائيل بقتل بشير الجميّل ، وبدخول بيروت ، وإقامة النّظام ، وتجنّب حمّام الدم ؟ وماذا ربحتْ من وراء مذبحة شاتيلا ؟ يكون الجواب :« وماذا ربحت إسرائيل من دخول لبنان ؟ وماذا ربحت من وراء ضرب السكان المدنيين طوال شهريْن بالقنابل ، ومن طرد الفلسطينيين وتحطيمهم ؟ ماذا كانت تريد إسرائيل أن تربح في شاتيلا ؟ أن تحطم الفلسطينيين » .

إن إسرائيل تقتل الرجال ، تقتل الموْتَى . تَمسح شاتيلا . إنها ليست غائبة عن المضاربة العقارية بالمساحات المعدّة للبيع : خمسة ملايين فرنك قديم للمِترْ المربَّع وهو ما يزال مُهدّماً . إلاّ أنه سيكون « نَظِيفاً » ؟ . . .

إنني أَكتب هذا الكلام في بيروت ، حيث كل شيء أَكثر صدقاً مما هو عليه في فرنسا ، ربما بسبب مجاورة الموت الذي ما يزال يكسو وَجْهَ الأَرض : كل شي يبدو وكأَنة يجري بما يوحي ان اسرائيل وقد تَعِبَتْ من أن تكون نموذجا ، ومنيعةً ، ومن أن تَسْتَغل ما تظن انها قد اصبحتْ عليه : عصبة التحقيق والانتقام المقدّسة ، فانها قررتْ ان تسْتَسلم للمحاكمة ببرودٍ .

وتبقى اسئلة عديدة مطروحة :

فإذا كان الإسرائيليون لم يزيدوا على أن أنَارُوا المخيم ، واستمعوا الى الطَّلقات النارية التي تشير الى وجود ذخيرة كبيرة لكثرة ما دُسْتُه من كَبْسولات الرصاص (عشرات الآلاف) ، فَمَنْ كان يطلق النار حقيقة ؟ مَنْ كان ، وهو يَقتل ، يُخاطر بجلده ؟ الكتائب ؟ الحدَّاديون ؟ مَنْ ؟ وكم عددهم ؟

أين ذهبت الأسلحة التي خَلَّفتْ كل هؤلاء الموتَى ؟ وأين هي أسلحة أولائك الذين دافعوا عن أنفسهم ؟ في الجزء الذي زُرْتُه من المخيم ، لمْ أرَ سوى قطعتيْن من السلاح المضاد للدبابات ، غير مستعملتيْن .

كيف دخل القتلة الى المخيمات ؟ هل كان الاسرائيليون موجودين في جميع المخارج المتحكّمة في مخيم شاتيلا ؟ في جميع الحالات ، لقد كانوا منذ يوم الخميس بمستشفى عكّا ، مُواجهين لأحد مخارج المخيمّ .

لقد نشرت الصحف بأن الاسرائيليين دخلوا الى شاتيلا بمجرد ما علموا بالمذابح ، وبأنهم أوقفوها حالا ، أي يوم السبت ، لكن ، ما الذي فعلوه بالقتلة ؟ وإلى أيْن ذهبوا؟ .

بعد مصرع بشير الجميل وعشرين من أتباعه ، وبعد المذابح ، جاءت السيدة ج ، وهي من بورجوازية بيروت الرفيعة ، لزيارتي ، بعد ما علمتْ انني كنت في مخيم شاتيلا . صعدت الطوابق الثمانية على رجلها لانقطاع الكهرباء ، وهي في الستين من عمرها كما أقدر .

قلت لها : كنت محقة عندما قلت لي ، قبل موت بشير ، وقبل المذابح ، بأن الأَسْوَأَ كانَ في الطريق . ولقد رأيت .

ـ لا تحدثني عما رأيت في شاتيلا ، أرجوك . فأعصابي جد هشّة ، وعليَّ أن اصونها حتى أتحمل الأَسْوأ الذي لم يحدث بعد .

إنها تعيش مع زوجها (سبعون سنة) في شقة كبيرة ، واقعة في رأس بيروت ، ومعها خادمة . جد أنيقة ، ومعتنية بجسدها . وأثاث بيتها من طراز لويس الرابع عشر فيما أظن .

ـ كنا نعرف أن بشير قد ذهب إلى اسرائيل . لقد أخْطأ ، فعندما يكون المرء رئيسا مُنتخباً لدولة ، فإن عليه ألَّا يعاشر مثل هؤلاء . لقد كنت متأكدة من أنه سيتعرضُ لِسُوء . لكني لا أريد أن أعرف شيئاً ، إن عليّ أن أُصونَ اعصابي لتحمُّل الضربات الفظيعة التي لم تأت بعد . لقد كان يتحتم على بشير أنْ يُرْجع تلك الرسالة التي يخاطبه فيها بيغن بصديقي العزيز .

إن للبورجوازية الرفيعة ، وخَدَمها الصامتين ، طريقتها الخاصة في المقاومة . والسيدة ج . وزوجها لا « يؤمنان تماما بتناسُخ الأرواح » . فماذا سيحدث لو أنهما وُلدا من جديد في شكل اسرائيليين ؟

كان يوم دفن بشير هو نفسه يوم دخول الجيش الاسرائيلي الى بيروت الغربية . الانفجارات تقترب من العمارة التي نُوْجَد فيها ، واخيراً نزل الجميع إلى المخبأ ، داخل قَبْوٍ : سفراء ، أطباء ، زوجاتهم وبناتهم ، ممثل لهيئة الامم المتحدة بلبنان ، ثم الخدم .

ـ كارلوس ، احمل لي مخدّة .

ـ كارلوس ، نظارتي .

ـ كارلوس أعطني قليلا من الماء .

الخَدَم ، لأنهم أيضا يتكلمون الفرنسية ، فإنهم مسموح لهم بالنزول الى المخبأ . وربما كان من الواجب المحافظة عليهم ، والاهتمام بجروحهم ، وحملهم إلى المستشفى ، أو الى المقبرة . . . يالها مِنْ قضيّة ! .

لا بد مِنْ أن نعلم بأن مخيّميْ شاتيلا ، وصبرا ، هما عبارة عن عدة كيلومترات من الأزقة الضيّقة ـ لان الأزقة ، هنا ، جد ضيقة ، الى درجة لا يستطيع شخصان ان يتقدما فيها الأ اذا سار أحدهما مُجانباً ـ المزدحمة بالحصى ، والأحجار ، والطُّوب ، والخِرَق البالية القَذِرة ، والمتعدّدة الألوان . وفي الليل ، تحت ضوء الصواريخ الاسرائيلية التي كانت تُنير المخيمينْ ، فأن خمسة عشر رَامِياً ، أو عشرين ، ولو بأفضل الأسلحة ، ما كان بوسعهم أن ينجحوا في تحقيق هذه المجزرة . إن قاتلين قد أنجزوا العملية ، لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب هي ، في غالب الظن ، التي كانت تَفْتح الجماجم وتُشَرحُ الافخاذ ، وتَبْتُرُ الأذرعة والأيدي والاصابع ، وهي التي كانت تَجرُّ ، بوساطة حبالٍ ، محتضرين مُعاقين ، رجالاً ونساءاً كانوا ما يزالون على قيد الحَياة ، ما دام الدم قد سال أمداً طويلاً من الأجساد ، الى درجة انني لم أتمكن من أنْ أعرف مَنْ هو الذي ترك داخل مَمَرّ أحد البيوت ، ذلك الجدول من الدّم المتَيَبّس الممتدّ من قاع الممرّ ، حيث كانت البقعة ، إلى عتبة البيت ، حيث اختلط الدّم بالتراب . هل كان دم فلسطيني ؟ أم دم امرأة ؟ أمْ هو دَمُ كتائبي أجهزوا عليه ؟

انطلاقاً من باريس ، يمكن ، عملياً ، أن نشك في كل شيء ، بخاصة إذا كنا نجهل طوبوغرافية المخيمات . يمكننا أن نترك إسرائيل تؤكد بأن صحفيي القدس كانوا أول من أعلنوا عن المذبحة . كيف أوْصَلُوا الخبر إلى البلدان العربية ، وبأية لغة ؟ باللغة الانجليزية، وبالفرنسية ، كيف ؟ وبالضبط متى ؟ عندما نفكر في الاحتياطات التي تُتَخَذُ في الغرب ، بمجرد ما تُلْحَظُ وفاةٌ مشبوهة : البصمات ، موضع اثر الرصاص ، التشريحات ، تقارير الخبرة المضادة ! وفي بيروت ، لم تكد المذبحة تُعرفَ حتى أخذ الجيش اللبناني على عاتقه ، رسمياً ، المخيمات ، فَبَادَر إلى مَحْوِها ، مُخفيا بذلك أطلال البيوت ، وبقايا الجثث . من أمَر بذلك التعجيل ؟ وقد تَمّ ذلك

بعد التأكيد الذي أذيع عبر أنحاء العالم ، وهو أن المسيحيين ، والمسلمين ، قد تقاتلوا فيما بينهم ؛ وبعد أن سجلت الكاميرات وحشية القتال .

إن مستشفى عكا المحتل من قِبَلَ الأسرائيليين ، والواقع مقابل أحد مداخل شاتيلا ، لا تفصله عن المخيم مائتا متر ، بل أربعون متراً فقط ، لا أحد رآه أو سمع ، أو فهم ؟

ذلك ما أعلنه بيغن أمام الكنيست : « أشخاص غير يهود ذبحوا آخرين غير يهود ، ففي أي شيء يعنينا ذلك ؟ » .

بعد أن أوقفتُ وصفي لمخيم شاتيلا لحظة ، علي الآن أنْ أتابعه . سأتحدث غن الموتى الذين كانو آخر مَنْ رأيت يوم الأحد ، حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ،عندما دخل الصليب الأحمر الدولي بِجَرَّافاته . لم تكن رائحة الجثث تخرج من مَنزل ولا من جسد مُنَكَّلٍ به : بل كان يبدو لي ان جسدي وكياني هما اللذان يبعثان تلك الرائحة .

في زقاق ضيّق ، وداخل ستار مصنوع من شوك الأشجار ، خُيل إليّ أنني لمحتُ ملاكماً أسود طريحاً على الأرض وهو يضحك ، متعجبا من أن يكون مصروعاً . لا أحد واتَتْهُ الشجاعة لكي يغمض له جفونه ، فظَلَّتْ عيونه الجاحظة ، عيون من خزف شديد البياض ، تنظر إلي . كان يبدو مخذولاً ، وذراعه مرفوعة ومستندة إلى تلك الزاوية من الجدار . كان فلسطينيا ميتاً منذ يومينْ أو ثلاثة . وإذا كنت قد حسبتُه ، أول الأمر ، ملاكماً أسود ، فلأن رأسه كان ضخماً ، مُنتفخاً ومُسْوَدّا مثل جميع الرؤ وس والاجساد ، سواء أكانت في الشمس ام في ظِلّ المنازل . مررتُ بالقرب من رجليْه . التقطتُ من التراب طاقم أسنان لِلْفكّ الأعلى ، وضَعتُه فوق ما تَبقى من الارطار الخشبي لاحدى النوافذ . تجويفةُ يده الممدودة نحو السماء ، فَمُه المفتوح ، فَتْحة بنْطلونه الذي يَنْقُصه الحزام : كأنها خلايا كان الذباب يقْتاتُ منها .

أجْتَزْتُ جثة أخرى ثم ثالثة . وفي ذلك الفضاء المُغْبرّ ، وبين الميّتيْن ، كان هناك ، آخر الأمر ، شيء في منتهى الحيوية ، غير مخدوش وسط هذه المجزرة ، لَوْنُه وردي نصف شفاف ، وكان ما يزال في وسعه أن يُفيد : ساق اصطناعية من البلاستيك ظاهريا ، وتَنْتعل حذاء أسود ، وَجوْرباً رماديا . وبتَدْقيق النظر ، اتّضح أنها قد انْتُزعت بخشونة من الساق المبتورة ، ذلك أن الأحزمة التي تشدّها إلى الفخذ ، كانت مقطوعة كلها .

كانت تلك الساق الاصطناعية للميّت الثاني ، لذلك الذي لم أرَ منْهُ سوى ساق ورجل منتعلة لحذاء أسود ، وجَوْرب رمادي .

في الزقاق المتعامد مع الزقاق الذي تركتُ فيه الموتى الثلاثة ، كان يوجد ميّت آخر . لم يكن يعرقل المرور تماماً ، إلاّ أنه كان يوجد ممدّداً في أول الطريق ، مما اضطرّني إلى أن أتخطّاه ثم ألتفتُ لأرى هذا المنظر : جالسةً على كرسي ، محاطة بنساء ورجال ما يزالون شاباً ، ويلفهم الصمت ، كانت امراة تَنْتَحب . ظهر لي أنها في السادسة عشرة أو في الستين من عمرها . كانت تبكي أخاها الذي كان جسده يكاد يسدُّ الطريق . اقتربتُ منها . اخذت أنظر جيداً . كان لها وشاح معقود فوق العنق . كانت تبكي وتنوح على موت أخيها الممدّد إلى جانبها . كان وجهها وردياً ـ مثل لون طفل ، متشابه تقريباً ، وجدّ ناعم وليِّن ـ لكنه دون أهداب ، ولا حاجبيْن ، وما ظَنَنْتُه وردياً لم يكن هو البشَرة ، وإنما الأدَمَة يحيط بها قليل من الجلد الرمادي . كان مجموع الوجه محروقاً . لم أستطع أن أعرف بأي شيء انْحرق ، لكنني أدْركتُ مَنْ حَرَقَه .

كنت أبذل جهداً لِعَدّ الموتى الأوائل ، فلمّا وصلتُ إلى الميّت الثاني عشر ، أو الخامس عشر ، لم أعُدْ قادرا على الاستمرار في العَدّ ، وقد غَمَرَتْني الرائحة والشمس ، وأخذتُ أتعثر عند كل حفرة . . كان كل شيء يختلط أمام بصري .

لقد سبق لي أن شاهدت بيوتاً مبقورة تَتَدَلَّى منها لُحُفٌ مِنْ ريش ، عمارات مُنهارة ، فلم يُحرك ذلك في نفسي ساكناً ؛ لكنني وأنا أشاهد بيوت بيروت الغربية ، ومخيم شاتيلا ، فإنني كنت أشاهد **الرعب** . إن الموْتَى الذين أجدهم ، عادةً ، وبسرعة ، مألوفون ، بل ودّيون ، ولم أستطع أن أميز فيهم ، وأنا أنظر ألى قَتْلَى المخيمات ، سوى كراهية وسرور أولائك الذين قتلوهم . حفلة وحشيَّة جَرَت هناك : سَمَر ، نشوة ، رقص ، غنَاء ، نداء ، عويل ، تأوّهات . . . على شَرَف مُتفرجين كانوا يضحكون وهم جالسون في الطابق الأخير من مستشفى عكا .

قبل حرب الجزائر ، لم يكن العرب ، في فرنسا ، جميلين . كانت حركاتهم بطيئة ، مُتلكّئة ، وَوَجْهُهُم جانبيا باستمرار . . .وفجأة ، تقريباً ، جمَّلهم الانتصار ، لكن قبل أن يصير مُعمياً ، وعندما كان اكثر من نصف مليون جندي فرنسي يَنْهَدُّون ويهلكون في جبال الأوراس ، كانت هناك ظاهرة غريبة ملحوظة في مجموع الجزائر ، تؤثر على وجوه العمال العرب ، وعلى أجسادهم : شيء مثل اقتراب ظُهور جَمال ما

يزال هشّاً ، إلّا انه سيُعشي أبصارنا عندما ستَتَساقط ، أخيراً ، القِشْرةُ من جلودهم ، وتنجلي الغشاوة عَنْ عُيوننا . كان من الضَّروري قبول ما هو بَدهَي : كانوا قد تَحرروا سياسياً لكي يظهروا لنا على الصورة التي كان يجب ان نَرَاهُم عليها : جدّ جميلين .

على الشاكلةنفسها ، كان الفدائيون الفلسطينيون ،وقد انْعَتَقُوا من مخيمات اللّاجئين ، ومن أخلاق المخيّم ونظامه ، تلك الأخلاق التي فرضتها ضرورة الاستمرار في العيش ، وانعتقوا في الآن نفسه من العار ، جد جميلين . ولمّاً كان ذلك الجمال جديداً ، أي مُبتكراً ، أي ساذجا ، فَقَدْ كان طازجاً وحيّاً الى درجة أنه كان يكشف فَوْرا عمّا كان يجعله مُتفقاً مع جميع جمالات العالم المُنْتَزِعَة لِنَفْسها من العار .

كان كثير من الجزائريين ، الذين يتعاطون القوادة في حي « بيغال » بباريس ، يستعملون مؤهلاتهم لفائدة الثورة الجزائرية ، فكانت الفضيلة موجودة هناك أيضا . وأظن أن المفكرة « **حنَّا أراند** » هي التي تُميّز بين الثورات بحسب تطـلّعها إلى الحرية ، أو إلى الفضيلة ، أي الى العمل ، وربما سيتحتم علينا أن نُقِرَّ بأن الثورات ، أو حركات التحرير ، تَتخّذ غاية لها ، بكيفية مبهمة ـ العثور ، أو الالتقاء ، من جديد ، بالجمال ، أي **باللّاملموس** الذي لا يمكن أن نَنْعته بغير هذه الكلمة . أو بالأحرى يمكن أن نُحدّده كالتالي : نقصد بالجمال وقاحة ساخرة تَزْدَري البؤس المنصرم ، والأنساق ، والناس المسؤولين عن البؤس والعار ، إلّا أنها وقاحة ساخرة تدُرك بأن التّفَجُر ، خارج العار ، أمرّ سهل .

لكن ، في هذه الصفحات ، يتعلق الأمر ، على الخصوص ،بما يلي : هل تكون ثورةً ما ثورةً عندما لا تُزيل عن الوجوه والأجساد الجلد الميّت الذي يُرَهِّلها ؟ إنني لا أتحدث عن جمال أكاديمي ، وإنما عن ذلك اللّاملموس ـ اللّايسَمى ـ في فرحة الأجساد ، والوجوه ، والصرخات ، والكلمات ، التي تكُفُ عن أن تكون كئيبة مغمومة ، وأعني تلك الفرحة الحسّية التي تبلغ درجة من القوة تجعلها تريد أن تطَرد كلَّ شبقـيّة .

ها أنذا أعود ، من جديد ، إلى عجلون في الأردن ، ثم في إربد . أنزع ما أظُنّه إحدى شعراتي البيضاء ، سقطتْ على صدريّتي الصّوفية ، ثم أضعها فوق رُكْبَة حمزة الجالس بالقرب مني . يأخذها بين أبهامه وأصبعه الوسطى ، ينظر إليها ويبتسم ، ثم يضعها في جيْب قميصه الأسود ضاغطاً عليها بيده ، قائلا :

ـ شعرة من لحية النّبي تُساوي أقل من هذه .

تنفّس بعمق قليلا ثم أضاف :

ـ شعرة من لحية النّبي لا تُساوي اكثر من هذه .

لم يكن عمره يتجاوز الثانية والعشرين ، وكان فِكْرهُ يَثِبُ مُرتاحا إلى مرتفعات لا يطولها الفلسطينيون البالغون سنّ الاربعين ، آلاّ أنه كان يحمل فوقه (فوق جسده وعبر اشاراته) العلامات التي تَشُدُّه ألى الأقْدَمين .

قديماً ، كان الفلاحون يَتَمخَّطون في أصابعهم ، ثم يأتون بأصابعهم فرْقَعة ترمي المخاط إلى أشواك العوسج . كانوا يمرِّرُون تحت أُنوفهم أكمْامهم المصنوعة من القطيفة المضلَّعة التي تغدو ، خلال شهر ، مُغطاةبما يُشبه طبقة خفيفة من الصَّدف . هكذا كان يفعل الفدائيون . كانوا يتمخطون مثل الماركيزات والأساقفة : ظهورهم مُتَحدّبة قليلاً . وقد فعلتُ مثلما كانوا يفعلون ، وكما علّموني أن أفعل .

والنساء ؟ يُطَرّزْنَ ليلا نهاراً الفساتين السبعة (واحد في كل يوم من أيام الأسبوع) لتحضير جهاز العروس الذي يُهديه زوج يكون ، عادة ، متقدماً في السّن ، وتختاره العائلة . يقظة مُكَدّرِة . فالفتيات الفلسطينيات يُصبحْن جد جميلات عندما يَتمرَّدْنَ على الأب ، ويُكسّرْنَ إبَرَ التطريز ومقصّاته فوق جبال عجلون والسَّلط وإربد . وعلى الغابات نفسها ، كانت قد تَرَسَّبتْ كل الحساسية الشهوانية التي حَرَّرَتْها الثورة والبنادق . علينا ألاّ ننسى البنادق . فقد كانت كافية ، وكل واحد كان مُفْعَم الرغبات . لقد كان الفدائيون ، دون أن ينتبهوا (حقّا ؟) يُركّزون جمالا مُبتكراً : حيويّة الأشارات وَعياءهم الواضح ، سرعة العين وتألُّقها ، ونَبْرة الصوت الاكثر وضوحاً . . كل ذلك كان يتآلفُ مع سرعة الجواب ، وإيجازه ؛ ومع دِقَّتِه أيضاً . ذلك أنهم طَلَّقُوا العبارات المسهبة ، والبلاغة العالِمَة الذّلْقَة .

في شاتيلا مات الكثيرون من هؤلاء الفدائيين ، ولكن صداقتي ومودّتي لِجُثثهم الآخذة بالتّعفّن ، كانت أيضاً كبيرتيْن . لانني كنتُ قد عرفتهم من قبل . إنهم ، وقد انْتفخُوا ، واسودّوا ، وعفَّنَتْهم الشمس والموت ، **يَظلّون فدائيين** .

يوم الأحد ، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، اقْتادَني ثلاثة جنود لبنانيين ، وقد رفعوا بنادقهم ، إلى سيارة جيب حيث كان ضابط يَغْفُو . سألته :

ـ هل تتكلم الفرنسية ؟
ـ الانجليزية .

كان صوتُه ناشفاً ، ربما لانني أيْقَظتُهُ مفزوعاً . نظر في جواز سفري ، ثم قال لي بالفرنسية :

ـ هل جئت من هناك ؟ (كانت أصبعه تشير إلى مخيم شاتيلا) .
ـ نعم .
ـ وهل رأيت ؟
ـ نعم
ـ وهل سَتَكتُب ما رأيت ؟
ـ نعم.

أعاد لي جواز السفر ، ثم أشار إليَّ بأن أنصرف . انخفضت البنادق الثلاثة وأفسح لي الجنود طريق المرور .

لقد أمضيتُ أربع ساعات في شاتيلا ، وما يزال في ذاكرتي أربعون جثة تقريباً . وهي كلها ـ ألحُّ على أنها كلها ـ قد تَعرضتْ للتَّعذيب غالبا ، وسط نشوة المعذِّبين ، وأغانيهم ، وضحكاتهم ، ووسط رائحة البارود .

لا شك أنّني كنتُ وحيداً ، أقصد أنني كنتُ الأوروبي الوحيد (مع بعض العجائز الفلسطينيات الّلائي ما يَزَلْنَ يَتشبثن بخِرقة بيضاء مُمزّقة ، ومع بعض الفدائيين الأشبال دون أسلحة) ، لكن لو أن هؤلاء الأشخاص الخمسة ، أو الستّة ، لَمْ يكونوا موجودين هنا ، واكتشفتُ وحدي تلك المدينة الصريعة المُجَنْدَلة ، والفلسطينين الممدّدين أُفقياً بجُثثهم السوداء المنتفخة ، لكنتُ قد صِرْتُ مجنوناً . أم أنّني صرت بالفعلِ مجنوناً ؟ هل تلك المدينة المهشّمة المحطّمة التي رَأَيْتها ، أو ظَنْتُ أنني رأيتها ، وتَجوّلت فيها ، وهي محمولة على رائحة الموت القوية ، كانت ، بالفعل موجودة ؟

إنّني لم أرْتَدْ ولم أسْبُر جزء محدود من شاتيلا وصبرا ، ولست متأكداً من أنني فعلتُ ذلك بالقدر الكافي . إلاّ أنني لم أزر مخيم بئر حسن ، ولا مخيم برج البراجنة .

ليست مُيُولاتي هي التي جعلتني أعيشَ فترة إقامتي في الأردن وكأنها مشاهد مذهلة ، فاتنة ، بل أن أوروبيين وعرباً مِنْ شمال إفريقيا هم الذين حدَّثوني عن الرُّقى السحرية التي شَدَّتهم إلى تلك البقعة . وخلال وجودي ، طوال ستة أشهر لَيْلُها قصير ، عرفتُ خِفَّة الحدَث ، وخَبْرتُ الخصال الاستثنائية لدى الفدائيين ، غيرأنني كنتُ أستَشعر هشاشة البِنَاء . في كل الأماكن التي تجمعت فيها القوات الفلسطينية ، بالقرب من نهر الأردن ، كانت توجد مراكز للمراقبة ، حيث الفدائيون يبَدُون مُتأكدين من حقوقهم ، ومن سُلطتهم ، لدرجة أن وصول زائر ، ليلاً أو نهاراً ، إلى أحد مراكز المراقبة ، كان مناسبة لحضور الشاي ، وتبادل الحديث المصحوب بالضحكات ، والقبلات الأخوية (الشخص الذي كانوا يُقبلونه كان يرحل تلك الليلة ، ويَخْتَرق نهر الأردن لـيَضع قنابل داخل فلسطين ، وفي غالب الأحيان لم يكن يعود) . وجُزُر الصمت الوحيدة كانت هي القُرى الأردنية : كان الفدائيون يغلقون أفواهم عندما يصلون إليها . كانوا جميعهم يظهرون وكأنهم محمولون قليلاً فوق سطح الأرض بتأثير كأس نبيذ نَفّاد ، أو بِفعل جرعةٍ من مُخَدّر . ما الذي كان يُسبغ عليهم ذلك المظهر ؟ إنه الشباب اللاَّمبالي بالموت ، والذي كان يحصل على أسلحة تشيكية وصينية تتيح له أن يُطلق الرصاص في الهواء . محْمِيّين بأسلحة لها دويّ عالٍ ، لم يكن الفدائيُّون يخشَوْن شيئاً .

إذا كان أحد القراء قد رأى خارطة جغرافية لفلسطين ، والأردن ، فإنه يعلم بأن الأرض ليست ورقَة كتابة . فالأرض ، عند شَط نَهر الأردن ، ذات تضاريس كثيرة . من ثم فإن تلك المغامرة التي عشتها كان يلزم أن تحمل عنواناً جانبياً : « حُلم ليلة صيف » ، بالرغم من الكلمات القاسية التي كانت تصدر عن المسؤولين البالغين سنَّ الأربعين . كل ذلك كان ممكناً بسبب الشباب ، ونتيجة لشُعورهم بالفرح تحت الأشجار ، واللعب بالاسلحة ، ووجودهم بعيدين عن النساء ، أي أن هؤلاء الفدائيين الشباب كانوا في حالة تجعلهم يَتجنّبون مواجهة مسألة صعبة وهي أن يكونوا النقطة الأكثر إضاءة ، لأنَّها الحادَّة أكثر داخل الثورة ، وأن يحظوا باتفاق سكان المخيمات ، وتكون وجوههم صالحة للتصوير مهما فعلوا ، ثم إنهم كانوا يَستشعرون ، ربما ، أنّ هذه المشاهد الفاتنة ، ذات المحتوى الثوري ، قد تتعرض بعد قليل للتّدمير : لم يكن الفدائيون يريدون السلطة ، فقد كانوا يَمْتلكونَ الحرية .

عند عودتي من بيروت ، وفي مطار دمشق ، قابلتُ فدائيين شباباً نَجَوا من الجحيم الاسرائيلي . كان عمرهم ستُ عشرة أو سبع عشرة سنة : كانوا يضحكون ، وكانوا شبيهين بفدائيي عجلون . إنهم سيَموتون مثلهم . فالمعركة من أجل البلاد يمكن أن تملأ حياةً جد غنيّة ، لكنها قصيرة . وهذا ، كما نَذْكُر ، هو اختيار أشيل في ملحمة الإلياذة .

ترجمة : محمد برادة

أقفال البحر

سليم بركات

لشوقي خيولُ ذاتُ قوئمَ زرقاءَ ، فابتعدْ ايها الموج الواشي ، ابتعدْ . سأقطفُ المدينةَ من شجرتها العالية ، لا بسُلَّمٍ ، بل بقفزةِ نمرٍ .

لشوقي خيولُ . . . لشوقي خيولُ كسرتِ السياجَ ، فما مِنْ امرأةٍ احببتها الاَّ سأحبها ثانيةً ، وما من ركنٍ بكيت فيه الاَّ سأبكي فيه ثانيةً ، وما من حانة ثملتُ فيها الاَّ سأثمل فيها ثانيةً ، وما من قهقهةٍ أطلقتها إلاّ سأطلقها ثانيةً ، وما من خديعةٍ اصابتني الا سأدعها تصيبني ثانيةً ، وما من حقول سرقتني الا سأتغافلُ عنها ثانيةً .

بصريرها الذهبيِّ فَلْتَصطفقْ ورائيَ بوابةُ المنفى .

قد التفتُ مراراً ، وانا اجرُّ عربتي ذاتها ـ عربةَ المكانِ الموصَد على فضاءٍ واحدٍ ، وبرقٍ واحدٍ . قد التفتُ وفي عينيَّ شرفاتُ ملتفتةٌ ، وشعبُ يسكبُ المساءَ من اباريقهِ ، لكنني سأترك لمشيئة الحديد ، وحدها ، ان تذروَ حديدي في ممرّ الملوك .

بصريرها الذهبيِّ فَلْتَصطفقْ بوابةُ المنفى .

بصريرهِ الذهبيِّ لَيَصطفقْ بابُ قلبي .
غير اني سأجعل الابديةَ كقُمعٍ ، يتساقط من فوّهتهِ السُّفلى ازلُ بأكمله .

هذا كلامُ المنفى .

هذا كلامُ المنفى :
كلامُ يقولُهُ الغبارُ ، او تقولهُ العاصفةُ .

ضربات الالم الصامتة تتفتح في الزبد وراءك ، واليابسة تتضاءل حتى تختفي ، لتبقى وحدكَ ، انت والماء ، وقطعة مضحكة من الاسطول الامريكي تواكبكَ الى الفراغ الجديد .

هادىء متمدِّد انت والاخرون يلقون بنظراتهم الى ما اختفى ، من سطح الباخرة . وما الذي تنتظر ان ترى اذا حاولت ان ترى ؟ يكفيكَ ما رأيت . تكفيكَ الموجة الحية التي رفعت يدها مودِّعةً على طول الشارع الى الميناء . تكفيك الشبابيك التي بكتْ ، والعيون التي لثمتكَ فامتلأتْ بكَ قطرة قطرة .

وداع يليق ببطل . وداع صاخب كمعركة . وداع فريد ترفعه مدينة فريدة اعطتكَ كل شيء فبسطتْ سلطانها عليكَ ، واخذتْ منكَ كل شيء فوددتَ ان تأخذكَ ، انت ، ايضاً ، لتبقى فيها اسيراً أو شهيداً .

لا يهم ما تقوله الآن . هي حمى بيروت تعاودكَ في كل متر ، فلتبق بطلاً ، او شبه بطل ، برغم تمدُّدك قرب قبر يسع المكان كله ، وتمهّلْ في القاء خطابك الصامت ، فالدّوي الذي انتهبَ الحلم ما يزال مرفرفاً على الحلبة .

اتسأل من أين تبدأ ؟ ابدأ من أي لعبة . ابدأ كيف تستطيع أن تكون مهرّجاً في لحظة ، وحكيماً صارماً في أخرى ؛ ان تكون بسيطاً في لحظة ، ومعقَّداً في أخرى ؛ سطحياً في لحظة ، وعميقاً في أخرى . هذا ما تذكره على الأقل ، وتذكر - على الاكثر - أنك انتظرت ، مع المنتظرين ، ظهور الديك الشارد الذي اختفى بعد قصف جوِّيٍّ لكلية الهندسة في بيروت .

لكن المشاهد تتزاحم . الالغام والرمال غطت الاسفلت ، كأنما مَدٌّ غامرٌ غطى المدينة لترى خطواتك في الأرض ، فالأرصفة لم تكن لتتركَ اثرأ لكَ عليها ، من قبل .

ما همَّ . في كل قصف تكون هناك . في كل اتساع للموت تكون هناك . و « ابو خالد » يسأل عن الديك !! لقد هرب « عربي » تاركاً حماماته ، ودجاجاته ، وديكه الوحيد ، في ساحة البيت المجاور لكلية الهندسة . جاءت الطائرات ، في هدوء ، كعادتها ، فتناثر الركام . انهارت عمارة ، وتصدعت مبانٍ ، كالعادة ايضاً .

كان الحديث ساخنا حين توجهتُ مع صديقي « ج » الى الموقع ، ولم يكن عن الطائرات ، بل عن الديك : « شَرَد ولم يَعُدْ . رأينا ريشةً حول فم كلب فأطلقنا عليه النار » . ديك افضل من أُمَّة . كل اللهب الذي أقام معسكراته ، في أرض بيروت ، لم يُذِبْ ملمترا من الجليد العربي . الديك أفضل إذاً . والحديث عن الديك أفضل

من الحديث عن أُمَّة . غير أن الديك الشارد عاد بعد يومين ، ثم ضاع ، ثانية ، إلى الأبد . عاش الديك .

« قل لي ، بحق الجحيم ، لماذا ننجو ؟ » ، لا تسألُ سواكَ . صياغة مُرَّةٌ لعظمة مُرَّةٍ . فأنت تهبُ من هنا الى هناك ، ومن هناك الى هنا ، بعد نصف زجاجة فودكا ، برغم الصيف الرطب الذي يبلّل العالم ، وعليك ثياب المحارب وعتاده . وتمازج الاصدقاء قائلا : « لن أكفَّ حتى ارى الطائرةَ ذبابةً ، والذَّبابةَ صرصاراً » . لكن الطائرة ، خارج قلبكَ الذي يهذي ، هي طائرةٌ ؛ والذَّبابة ، خارج جسدكَ الملتفّ على مداك الأمبراطوري ، هي دبابةٌ ، وهذا ما يحدو بك الى الخروج من تعبكَ ، لتشاركَ العمارات تعب اساساتها ، كأنما اقتصرت الحرب على الحجر ، لا عليكَ ، وكنت صائباً في ظنك : حرب عليٍ الحجر . . . حرب على الحجر . انهم يغيِّرون ملامح الشارع ، ويقدِّمون أو يؤخِّرون في ترتيب البيوت . سطور تمَّحي فواصل تتطاير ، وأنصاف كلمات مقضومة : « بربِّكَ ، قل لي ما ترى ، لاقول لكَ من انتَ » . حرب على الحجر . حرب على الحجر . وأنت عنيد ، لا تريد أن تضيع إذا ضاع الشارع ، وتشير الى الأمكنة بأسماء عمارات لملمت أثاثاتها ومضتْ .

كل شيء على حاله ، إذاً ، في عينيك ، فلا حاجة بك الى أن تنظر من الباخرة . آبقَ هادئاً ، متمدداً على السطح الصفيحي الأخضر ، ناظراً الى القبطان اليوناني في بنطاله الأبيض القصير ، يتمختر بين أنقاض مطلية بلون ثياب الحرب . أما هذه القطعة المضحكة ، حقاً ، من الأسطول الأمريكي ، فماذا تفعل في محاذاة سفينة منفاك الجديد ؟ أنها تحميك !! تطردك وتحميك . تحميك من نفسها اشفاقاً على عالم لم يَحْمِكَ ، والأمر جدّيّ : نحن خطرون . تكتشف ، للمرة الأولى في عمرك ،أنك تهدد الأرض . كم نظرتَ الى صورتكَ النحيلة في المرآة ، وأغمضتَ عينيكَ أسىً على هالة العبث المحيطة بجبينك ، فكُدْتَ تستسلم للمرآة .كَمْ نظرتَ ، آهِ كم نظرتَ.لكنك لم تعرف ، قط ، أن هذه الصورة كابوس يقلق أمريكا . كان مسدسك البارد تحت قميصك ، أبداً ، في السلم وما بين بين ، ينتظر خصماً صغيراً ؛ خصماً في حجم شتيمة أو نظرة شزرة ؛ خصماً في حجم مُخْبر أو أجير . . . لكنه ينتظر قارة ، الآن .

يكبر المسدس ايضاً ؛ يكبر الحديد البارد ، كالكائن ، وهذا ما لم تكن تعرفه .

تميل الشمس إلى الغرب ، فيميل قلبك أيضًا. مُغِيْبٌ يترك المسافة للريح الرطبة ، ولثمانمائة محارب يلتفون ببطانيات عسكرية ، في ليلة البحر الأولى . لقد تناولوا وجبة واحدة من طعام يشبة « الهمبرغر » ، ولم يكملوها . تمددوا فما عدتَ تعرف

مواقع الرؤوسِ من الأرجل إلاّ من خَلَلِ الوهج الخافت لِلُفافاتِ التبغ .

« هيا أيها البحر ، هيا غريمي ، أوثقني جيداً » لا . حَرَّرني حيٌّ « الفاكهاني » مرةً . حرَّرني مخيم « صبرا » ، و « شاتيلا » . حرَّرتني مخيمات صغيرة بمقدار صغير كان يكفي حاجة انسانيتي الصغيرة ويفوقها . اعتقلتكَ الأمكنة الحرَّة ، وحرَّرتكَ الأمكنة المُعْتَقَلَة . لقد اخترتها واختارتكَ . يالَنُبوَّةِ المكان . نشوةٌ أن ترى السلاح في يد القادرين عليه . قيل الكثير عن فوضى ذلك ، فلم تَر الاّ القليل منه . لا سخريةَ حيث يتسع الموت ، لا انتقادَ . عبقريةٌ مطلقة هنا ، عبقريةُ الحديد الرحيم : ها هو برهانك الآن : الكمائن في كل منعطف ، والمحاربون لا يَزِنُون أرواحهم في حرب لا شهامة فيها للمُغيْرِ ، بل يتفكَّهونَ .

لثلاث ليال كانت الفكاهة على أشدها ، والقهقهة تضرب العمارات الفخمة في « الرملة البيضاء » . لقد كَمَنْتُ هناك في ثلاث مناوبات . كنا مجموعات صغيرة ، نمضي ليلاً ونرجع نهاراً . وكذلك كانت تفعل الزوارق الحربية الاسرائيلية .

لقد بلغت السخرية أن يقذف حاملو ال « ب ٧ » الزوارق بقذائفهم التي لا تبلغ مدى بُعْدِها . تحديات ، قُلْها . السلاح الذي نملكه لن يجابه إسرائيل وأمريكا معاً ، لكن أعين المحاربين الغضبى قادرة على التحديق في استخفاف المتحدِّي . يضربون فنضربُ . لا فرق في المدى الذي تبلغه القذيفة . كانوا جبارين في السلاح ، صغاراً في حربهم ؛ صغاراً الى درجة الرعب : « أخاضوا حرباً واحدة ضد العرب ، حقاً ، من قبل؟ . . . آه لو حارب العرب » .

« أنا سأحارب » يقول « ج » . و « ج » لم يحمل سلاحاً من قبل .

« إنزاااال » .

« الرملة البيضاء » حي في مواجهة البحر ، وقد ترددت كلمة « انزال » في عماراته ، وشوارعه المختومة بالمتاريس . القذائف غطت الهواء من البحر . دليل الإنزال ألاّ يترك المهاجم لكَ أن تلتقط عينيكَ . كثافة نار مذهلة . شظايا ، وخشخشة حجر ، وركام . غبار يعلق بشحمة الأذن ، ويدغدغ الرقبة تحت القميص :

« إهدأي . إهدأي يا عانسةَ البحر » . ما من استراحةٍ يجب أن تخرج إذاً . يخرج المحاربون فيوقدون الموج . كل شيء أحمر مطرز بشآبيب برتقالية وزرقاء . كان ذلك إنزالاً وهمياً ، في اليوم الثاني من مناوبتي هناك . بعد ذلك اخترت « الفاكهاني » .

« أنا سأحارب » يقول « ج » . لقد بكيتُ ، في الشاحنة ، حين ودعني . أمضيت شهرين في بيته بعد قصف منطقة « ابي شاكر » بالطائرات ، حيث يقع بيتي .

« إرفع يدكَ بإشارة النصر » يقول المحارب المجاور لي . لم أعد أرى . كلما ازدادات حماستي لهذا الجمع الأبّهي ، الذي يودعني ، شهقت بالبكاء . أعين باكية تلتقي فتود أن يحضن بعضها بعضاً ألى الأبد . ما من ميراث يفوق هذا . لقد عاتبنا البسطاء ، وغير البسطاء ، في فترات ما ، على تجاوزات لم تكن من صنعنا ، بل من صنع التاريخ الحديث ، الذي تمليه القبعات العسكرية على كتبتها الركيكين ، لكننا عدنا ، ثانية ، لحظة رحيلنا ، إلى مخادعنا التي كانت في أعماقهم : «نَمْ قريراً . الآن ، هذه ساعة الجوهر ، فاتركِ الشَّكلَ للبحر » .

أحدهم يرتطم بي . يعبر سطح السفينة التي تتمايل فيرتطم بي . لا باس . لقد تمايلتُ ، من قبل ، أيضاً . تمايلتُ كثيراً مع عصف الطائرات على « الفاكهاني » . كنت على مقربة من « بناية الصادق » . هدوء عميم . محاربون ينقلون المياه الى مواقعهم . أناس يتفقدون ما تبقى من بيوتهم . لا قطط . ما من طعام للقطط إلّا عند « ابي خالد » . تسع منها تتلقي وجباتها ، من يديه ، بانتظام ، ولا تبارح المكان قرب « مطابع الكرمل » . إنها استثناء ، لذلك لا قطط .

جاءت طائرتان ؛ جاء العار المدوّي الذي غطى رُتَبَ الزعماء المفطومين على توجيه النصائح الينا . ضربتْ احداهن الكلية العسكرية لأحد التنظيمات ، وقصفت الأخرى « المدينة الرياضية » . كان ذعرنا متبادلاً ، نحن والطائرتين . لجأنا إلى ما لا يُلْجَأ إليه ، ولجأتْ ، هي ، إلى رمي البالونات الحرارية لتضليل صواريخنا .

لم يكن للعمارة التي دخلتها من ملجأ . لَقَّمْتُ البندقيةَ كأَنْ ستحميني . سقطت قربي أصصُ وردٍ ذابل . سقط بابُ نافذة في عويل قمريٍّ بارد . هرول المكان ، برمَّته ؛ كشبح ، فاختلطت الجهات . لم يبق سقف أو حائط . كنت في العراء المترامي . مددت يدي الى الطائرة وقضمتها كأجاصة . آه .

حامضٌ طعمُ الحياة ساعةَ الرعب . حامضةٌ هي القذائف العنقودية التي انهالت بعد ذلك : تنفجر على دفعتين ، لكنك تنجو .

« إرفع يدكَ راسماً إشارة النصر » يقول المحارب المجاور لي ، فأرفع يدي . « إرفع عينيكَ » تقول المدينة ، فلا اطيق وداعاً ، لكنني حين أصل الى مدخل مرفأ بيروت ، أزداد صبيانية جَسُوْرةً مع المزدادين : « المارينز » على المداخل

المهدمة . صارمون بوجوههم الصارمة كالأوامر التي تلقوها : لا تتحدَّثوا الى أحد . « خُذْ » أقول لأحدهم ، رافعاً خنصري . يوجة الآخرون إليهم فوهات بنادقهم في حركة استفزازية ، فيقلقون . نلوح بحطاتنا : « Goto hell » . يركض أحدهم ، خلسةً ، في اتجاة الشاحنة : « أريد حَطَّة » . مفاجأة . نعطيه واحدة فيخبئها تحت قميصه .

« أنت أمريكية » . أهمسها بين ودٍّ وتجريح ،تقول : « لا . أنا فلسطينية » . هذه نصف مأساتي ،فأنا حذر من مكان ولادتها ، وهي حذرة من حكمتي التي لا تظهر إلاّ كالنيزك ، كل الف عام .

« أنت أمريكية ، تحملين الجميع محمل جدٍّ لا تملكينه . بسيطة أنت كالهمبرغر » . « لا » تصرخ في احتداد . قابلتها ذات ليلة ، في فندق يقدم الجعة الباردة أيام الحرب . لم أكن رأيتها من قبل . كان معي آخرون . دخَلَتْ وصافحَتْهم . التقطتُ اسمها من الأفواه الُمرحِّبة ، فمقتُ ، بدوري ، وصافحتُها كشخص حميم ، ثم قبَّلتها كَمَنْ يُقَبِّل صديقاً . قلتُ ، فلأ كُنْ مهرِّجاً ، لكن احداً لم يلاحظ الأمر .

:هب الآخرون ، وبقينا معاً . قالت لي : « أتعرفني ؟ » ، قلت : « لا » . قالت : « لم أُرِدْ أن أنفعل من مفاجأة القُبْلة أمامهم . لماذا قَبَّلتني ؟ » . قلتُ : «رأيت فيك بعض الجنون » . ردَّتْ « انت المجنون » ، قلتُ : « نعم » ، وكَرَّت من فمي سلسلة مجنونة ، حقاً ، من الكمات والجُمَل ، في انكليزية نصف ركيكة . دفعت الكرة الى أقصاها . أزمعتُ على ربح تلك الليلة ، أو خسارتها بجدارة . للمرة الأولى أجلس إلى امرأة في الحرب . كم أحس بضعفي ؛ وكم أشتد ضراوة في ربح لحظة واحدة . مهرج حقيقي . جَسُوْر مُتَفَكِّهٌ . استفزازي محترف حين أحس بالأمر يتفلَّتُ على نحوٍ لا أشتهيه .

كانت لحظة صراع ، وكأنَّ ما تبقَّى يعتمد على مهاراتي . شحذتُها كلها ، وبين الحين والآخر وقفتُ مذهولاً من صبري الأخرق على الاستمرار .

أخيراً ، ركنتُ الى نعاسي ، فقلت لنفسي : « أَغْلق الملفّ ، يا بني ، ونَمْ » . التفتتُ أليها ، نصفَ حكيمٍ ، هامساً : « لقد تعبتُ ، حاولتُ أن أربح ليلة مع أمراة ، فقد أموت غداً » . نظرتْ إلي وكأن الأمر لم يفاجئها : « أنت حمار » قالتها بعربية ذات رطانة . «أتريد أن تشرب البيرة في غرفتي ؟ » . «نعم . . . نعم » ، فابتسمت من لهفتي في قول « نعم » بالانكليزية .

لم يحصل شيء تلك الليلة . ظللنا ساهريْن حتى الرابعة صباحاً ، جادَّيْن ككهلَيْن .

وبرهة بعد أخرى كان يصعد من أعماقي عويل خافت . عويل حنون ، تمتمتُ على أثره : « أنتِ ابنتي » . قالت : « أنا في الخامسة والعشرين ، وأنت لا تكبرني بكثير لتدعوني ابنتك » . آه . رأيت طفولةً مُرَّة في عينيها . رأيتُ حاضراً مُرَّاً ، وموتاً ما .

لم تمهلني كثيراً لتقول انها مصابة بسرطان الدم .

« ويحك أيها البحر . اسألني قبل أن تأخذني . كن لطيفاً في سَبْيِكَ » .

. . .والبحر مشاع كعادته . زوارق اسرائيلية تضرب الشاطىء ، ومحاربون يضربون الموج ، أسفل « المنارة » . وهناك ، حيث البيت العالي ، المطل على مدىً كروحٍ شاردةٍ ، كانتْ تسكن « آمال » الكردية ، مع زوجها المحارب ، وابنها « هڤال » .

كان البيت لموظف في السفارة الانكليزية . تركهم يسكنونه كَحُمَاةٍ . وقد اعتدتُ ان ازورهم . أنا وأمريكيتي الطفلة . والقذائف ، كذلك ، كانت تزورهم بين الحين والآخر ، من جهة البحر ، بيد أن الأمر لم يَرُقْ للاسرائيليين ، فتدخلت الطائرات لطرد « هڤال » الصغير . و« هڤال » لايخاف . طفل في الثانية من عمره . لا يخاف . إذا قلت له « مرحبا » ردَّ عليكَ « طاخ طاخ » ، وقد مَدّ سبّابته كمسدس . يفتشكَ أولَ دخولك الى المنزل . يستدير من حولكَ باحثا عن سلاح في حزامكَ . طاخ طاخ . . . . ولم يَرُقْ الأمر للأسرائيليين . ركضتُ حين رأيتُ الدخان يصعد من حول « المنارة » ، بضع قذائف بحرية سقطت هناك ، ايضاً ، بعد رحيل الطائرات ، ولم تكن ذات شأن .

ما من احد هناك ، كان آخر عهدي ب « هڤال » وأمّه . هم في خير على ما أعتقد ، لكنَّ فتاتي تلومني : « أطلتَ في غيابك عنهم » . لا بأس . أذكر « هڤال »وأنا في الشاحنة إلى المرفأ . يحضر بالي ، فجأةً ، بوجهه العابس أبداً . طاخ طاخ . أضربُ على يده فيضربُ على يدي . أدفعه معنِّفاً فيبكي وينقضُّ ليعضَّني . مهما دفعتَ « هڤال » لا يرتَد . شرس كالولادة المرعبة لجيل الرعب ، جيل الموت الشاسع كعيني فتاتي ، وكَدَمِها المزدهر بالسرطان . « أنتِ ابنتي »أقولها . فتردّ : « آوه . أنا أمك » . لم أصدق قط أن جذراً نحيلاً من الأبوة سيشق الكريستال الأسود في جحيمي . أنا أبٌ كونَبيٌّ . أبٌ ضيَّع ابنته منذ خمس وعشرين سنة ، ثم عادت إليه ، رشيقة ، حلوة ، مرحة ، حنونة كأمٍّ . . . متلألئة كسرطان في الدم . يا للمديح الذي سأمتدح به نفسي : ها هي تتلفت من حولها في غضب . ما من أحد في الغرفة ، لكنها تتلفت كمن يستنجد ، ودمعتان تتمددان في الحدقتين : « ماذا سأفعل أذا أصابك شيء ما ؟

لن أدع أحداً يأخذك مني . تغافلني وتمضي ، كل يوم ، من دوني ؟ خذني معك »
تقولها متوسلة ، فأذعن للأمر كما ينبغي لأبٍ أن يذعن .

« لن أنظر ورائي أيها البحر . هذا أول عناق لنا ، فَلْتَشْتَغِلْ عينايَ بكَ » .

في كل يوم تتبعني « طفلتي » بسلاحها ، وقد التصق شعرها بجبينها المبتلّ ، ونفرَ العرقُ من صدارة قميصها ، وكم أود أن أحمل عنها هذا العناء ، لكنها راضية ، مبتسمة ، مما يشعل فيَّ الغيظ إشفاقاً ، فأستحثّها متهراً : « عجِّلي قليلاً ، ألا تسمعين ؟ استفاقت المدفعية » . تبتسم أكثر : « أتخاف ؟ » . « لن أحمل هذا الهم مرة ثانية » أقول لها مُغْضباً : « ما الذي يدعوني الى اصطحاب سلحفاة ؟ » . تهرول وتقبلني من كتفي : « أنا أمزح . لا تكن عصبياً » .

حوار يومي . قُبَل على الكتف ، وسط الخراب الممتد من طلعة « ابي شاكر » حتى كلية الهندسة . وقلّما يلتفت المحاربون الذين يمرون بنا ، لكن « ابنتي » تشغلهم ، في المكمن الذي نقضي مناوبتنا فيه ، بمسدسها الصغير ، مسدس النساء كما يسمونه : « $\frac{1}{2}$ ٥ مم » ، الذي لم يحمل من الطلقات إلا أربعاً ، وكان شريكي في أقاليم المنفى الجديد ، بعد خروجنا من بيروت .

أتحسس المسدس الصغير ، أيضاً ، وأنا في الشاحنة إلى المرفأ . أتحسس حَطّتها التي أعطتنيها ، حول عنقي . يا الله ، وضعت حقيبتي وسلاحي على الأرض ، حين نزلنا من الشاحنة ، أما الحطة فوضعتها على حافة سور هناك ، ثم ركضت الى خربة صغيرة لأتبول . أكان لا بد أن أتبول في تلك اللحظة ؟ عدت فحملت الحقيبة والسلاح ، لكنني نسيت الحطة . سامحيني يا « ابنتي ».

« سامحيني » كلمة يشتغل بها قلبي كل يوم . أركض بهذه الطفلة ، في بيروت ، من شارع الى شارع ، بحثا عن طعام يليق بها ، لكن المطاعم تقفل ، الواحد تلو الآخر ، في الحصار . لا خبز ، لا ماء ، أتدبر الأمر ، أحياناً ، مع المحاربين ، فآخذ حصة من الخبز ، والخبز وحده لا يكفي . كان في استطاعتها أن تبقي رأسها على كتفي ساعات ، فأخالها نامت ، وحين أذكِّرها بوجوب البحث عن طعام تتأفف . أمازحها : « أريدك ممتلئة أكثر . أحبُّ المرأة الممتلئة » ، فترد : « سأصبح ممتلئة بعد الحرب » .

بعد الحرب ؟ . . . من سيعبر هذه الحرب ؟ لا نريد عبورها . نعم . فليتفضل الاسرائيليون وآلهتهم .ما من رعب هنا . الرعب حال أبدية ، غامضة ، في مدى

تاريخنا ، لكن ما من رعب هنا ، الآن ، في برهات الحرب . أسانا أسى الناظر إلى أهل بيروت المحرومين في الحصار ، لا غير . أسانا أسى عمارات تتهاوى كالورق على ساكنيها . أسانا أسى الغضبان من سماء مقفلة ، وأرض مقفلة . تاريخ تحت المجهر بترَّهات بطولاته الماضية . عرب صامتون . عجم صامتون . أمم تتلهى بكرة القدم . مجدٌ بائس مجدُ الكلام . بعضهم يطالبنا بالانتحار ، من بلاده المطمئنة بنعمة السجن . بعضهم يطالبنا بدحر اسرائيل ، كما فعل هو !!!! بعضهم يسألنا القبول بأي شيء . . . فليتفضل الاسرائيليون وآلهتهم . فليتفضل الجند المدرَّع بواقي الرصاص من رأسه حتى قدميه . نحن عراة كالمياه . نحن عراة الى درجة لا يمسكنا الموت فيها . الموت يمسك بالثياب أوَّلَ ما يمسك . الأكفان تحت الآباط . مقاتلو حركة « امل » يصطحبون أكفانهم الى مثلث « خلدة » ، وحين يسقطون لا يتمكنون من ارتدائها ، كأنما يتركونها لفوج آخر . كم قاتلوا . يا ل« برمودا » خلدة المكشوف .

الإنزالات تتوالى . سفن برمائية تنقل المدرعات الى الشاطىء كل ليلة ، بعد تمهيد من القصف البحري المجنون ، ومن الحوَّامات . خمسون إنزالاً . مائة إنزال ، ألف إنزال . تاريخ اسرائيلي من الإنزالات . « يهوه » يعض الرمل عضّاً : « من أين يظهر هؤلاء العراة ؟ » . أرض خلدة رمل مكشوف تأتي الطائرات فتقلب سافله عاليه ، نهاراً ؛ وتأتي الزوارق فتطحن ما تبقى ، ليلاً .

يقول المحاربون : « نراها . نرى المدرعات هابطة من السفن البرمائية فلا نحرك ساكناً . ندعها تقترب ، و . . . خذ يا ب ٧ . تتطاير الدبابة الاولى فيجن الاسرائيليون . لاتبقى رملة بجوار رملة في انسحابهم المذعور . والاسرائيليون لا يلوون جهداً في استخدام القنبلة الذرية لسحب جثث قتلا هم » . بيد أن جثث شهداء حركة « أمل » ظلت هناك قرب أكفانها . وذهب بعضهم إلى القول بأن « الحركة » لم تسمح بسحبها ، لتقول كَمْ دفعت ، لا تفاخراً ، بَلْ تدليلٌ على شراكةِ الدم . . . نِعْمَ الدَّمُ ، كما قاتلوا .

« ملاذي أيها البحر ، لا تقلْ شيئا الآن » .

« ماذا يا أبا خالد ؟ ادفنوه على الأقل » . و« أبو خالد » كهل ثرثار . حارس « لمطابع الكرمل » لا غير . أسأله أن يدفن الميت هناك ، فينظر الي مبتسما ، ثم يواصل إتمام وجبته . أذهب فأرفع بعض الأنقاض من الصفيح والخشب المهترىء فأراها ؛ جثة متفحِّمة لا ملامح لها ولا رائحة . انها جزء من أرض الموقع . انفجر اللغم المضاد للاليات فاحترق الشخص قربها . الطريق الممتدة من « جسر الكولا »

حتى السفارة الكويتية ملآى بالألغام . احترق الشخص فلم يجدوا مكانا لدفنه إلّا تحت الأنقاض . أقول : « لماذا تحت الرَّمم ، وليس تحت الرمل ؟ » ، فيرد الكهل : « متفحِّمة لا رائحة لها » . لقد وجدت مكاناً للدفن ، على الأقل ، لكن الستة الآخرين ظلوا في العراء .

لافتة الطريق صريحة : « لا تمروا . ألغام » . لكن السيارة العسكرية المسرعة لم تُعِر اللافتة انتباهاً . وكنا ، حين نسمع حركة في الطرف الآخر من الشارع نهرول صائحين : « ألغام » . رَدَدْنا الكثير من الناس والآليات بتحذيراتنا ، في أيامنا هناك . غير أن السيارة سبقت تحذيرنا ، طمرنا وجوهنا في الهضبة الرملية الصغيرة لئلا نرى . استقر الهيكل السفلي ، فقط ، على الأرض ، أما البقية فتناثرت على مدى ثلاثمائة متر .

ظل الدوي في أعماقنا طويلاً ، فحاولنا تناسي الأمر بإطلاق النار على الجرذان التي أكلت زغاليل حمام « عربي » في الأيام الأولى من الحرب . جرذان متوحشة ، تنظر الى فوهة بندقيتك في غضب .

« أتريدين أن تري الجثث ؟ » ، ترد : « لا » . أحاول تعذيبها ؟ لست ادري . « لم أسألك ، من قبل ، عن مدى خطورة سرطانك » . تردّ : « أيهمك الأمر ؟ » . أكاد أبكي : « لا » . يهمني الأمر ، بالطبع . انا ضربة ذعر . أنا البحث الساحر عن مفقود ، أو عما سيصبح مفقودا . « يقول الأطباء قد اعيش حتى الثلاثين ، وإذا جاوزتها فقد أعيش طويلاً » . إنها تبادر الى الأجابة المُرَّة بتخفيف حكيم . يا للمديح الذي سأمتدح به نفسي .

« أعزلُ أنا أيها البحر ، كُنْ شهماً ، وأجِّل تحدِّيك إلى وقت آخر » .

« إبنتي » معي . ورائي كعادتها . لا أعرف لماذا أسبقها دائماً . نحن ذاهبان الى « قرطاسية الكرمل » في « صبرا » .

على مدى ايام ذهبنا الى « قرطاسية الكرمل » . أخذت الطائرات نصف المكان بقنابلها ، وأخذت المدفعية ربع ما تبقى بقذائفها . هياكلُ عمرانٍ منقرضٍ . وقتٌ يتلصَّص من ثقوب الوقتِ على الملهاة . غير أن للمكانِ بهجةً ما : الماء . الماء . أنابيب مكسورة يتدفق ماؤها كالنوافير . مرحٌ أن ترى الماء على هذا النحو ، وقد اعتدتَ صفوفاً على صنبور ، أطفالاً ورجالاً ونساء ، ينتظرون دورهم ، وفي أيديهم الأوعية الفارغة . ما من جسارة تصمد أمام هذا : الماء . أيُّ حصارٍ حاقد يضرب

بخطاطيفهِ المدينةَ ؟ أيُّ جيشٍ يحتمي بمصادفة أن تكون مفاتيح الماء في الطرف الآخر ؟ . لم نُهزم قط . لم يُهزم المحارب . هزمنا الأسى المتلألىء في العيون الواقفة أمام صنبور الماء الشحيح ، فخرجنا من بيروت .

تعالي يا ابنتي ـ أمرأتي ، تعالي .

. . .و« ابنتي » مبلَّلة من رأسها حتى خصرها ، فنحن ننقل بقايا « قرطاسية الكرمل » في « صبرا » الى شاحنة صغيرة . سننقذ ما يمكن انقاذه ، ونودعه مكاناً آمناً . لكلّ شيء مكانٌ عندنا ، لجثثنا ولأنقاضنا : شهداءِ المنفى ، موطئاً بعد آخر .

في كل مرة ، بعد أن نفرغ من تحميل الشاحنة ، نرجع من الشارع المتفجر ماء . اخلع قميصي وأستحم في البنطال ، أما « ابنتي » فتبلل حطتها ، وتضعها على رأسها .

استحمام في الخراب . شرايين مقطوعة على مدى الشارع ، وركام يؤلف المراثي.

الماء . . . الماء . أملأ يدي بالماء وأرش« ابنتي » . تتفجر دلالاً حلواً :« أبو دباح ،أنت أبو دباح » تقولها بالعربية الركيكة . أركض اليها نصف عار فتهرب . سأحتضنها لتبتلّ أكثر . أحبها مبتلة في هذا الصيف الجاف حتى نخاعه ، وتردعني بعض الأعين التي تطل من مداخل الانقاض ، مبتسمة ، مرحة ، بدورها . مشهد حنان أخرق ، والمحاربون يفهمون الأمر بفطرتهم فلا يطيلون النظر .« هاتي قميصي » . ألبس القميص ، بينما تجفف « ابنتي » وجهي وعنقي بحطتها .

« سأذهب إلى المطار » أقول ل « ابنتي » . « سأذهب معك » تقول لي . « المكان ليس للنزهة هناك » أقول لها ،« أتظنني أستنزه معك وسط هذه الأنقاض ؟ » تقول لي .« لا » أقول لنفسي ، لن آخذها إلى تلك المنطقة ، حيث المحاربون يقيسون خطواتهم في انفاق المجارير . أما الطريق إلى المطار فلا تَسَلْ . الألغام تملأ الأرض من مستديرة « شاتيلا » حتى هناك ، والشهداء يدفنون في الرمل ، على جانبي الطريق ، لا أكثر .

الإسرائيليون يدكّون مدارج المطار ، لكن بينهم وبين المطار مثلث « خلدة » . رعب الرعب . التاريخ يلتفّ بعضه على بعض ، حياءً من ذاته التي لم ترَ ، من قبلُ ، مثلثَ « خلدة » . الطريق ليست سالكة بعد . العراة ذوو الأكفان يموِّهون الطريق بأيديهم فتضيع المصفّحات . لا طريق إلى المطار . خذوا « خلدة » أولاً .

ويح الأرض . لم يبق سلاح امريكي إلا تَغَاوى على الشاطىء الصغير . اخذوا

« خلدة » لا بأس . أكفانٌ ترفرفُ في الهبوب العظيم لانكسارٍ عظيم . وحدكَ ، وحدكَ . ويح الأرض . بهاءٌ يستلُّ أنفاسَه ويترقرقُ على الحاضر المستقبل . ما مِنْ حاضرٍ لأحدٍ ، الآن . ما مَنْ حاضرٍ إلا للكفن المُتْرَفِ ، والعربُ يذوبون .

« سأذهب إلى المطار » أقول لابنتي ، « إنه آخر جدار للمخيم » . « سأذهب معك » تقول« ابنتي » . « سأذهب من دونك » تضيف . أراها جادة ، إذ ثمت نساء في خنادق المطار أيضاً ، وفي وسع « اتحاد المرأة » أن يأخذها .

عليَّ بالتموية ، إذاً : « سأخذك معي غداً » . تجيب ،وكأنها أدركت اللعبة : « سأبقى معك الليلةَ ، ونمضي ، معاً ، في الصباح » . يا للجحيم .

ليلة مجرَّات في الظلام . شموع رخيصة تذوب بعد دقائق ، و« ابنتي » الى جواري : « أين نظارتي ؟ » تقولها وهي تتلمَّس الطاولة بيديها . أرد : « دعي النظارة ، لا أحب أن ترتديها » . تهمس : « أريد أن أراك » ، أجيب : « رأيتني بما فيه الكفاية ، من قبل ، دعي النظارة جانباً » . « أريد أن أراك » تقولها نصف منتحبة . يا الله : « لماذا تشهقين ؟ » . « أريد أن أراك » وتتلمس الطاولة ، والكرسي الصغير ، في لهفة جارفة بحثا عن نظارتها .

لماذا تريد أن تراني الآن ؟ لا أحد يرى الآخر ، بنظارة أو من دونها ، في هذا الظلام . « أريد أن أراك . أريد أن أراك » ، صوتها يتعالى مذعوراً . « أنا هنا » أصرخ صرخة مكتومة ، مرتعداً من لهفة طلبها . « أنا هنا » ، واحتضنها غامرا وجهها وعنقها بالقبل .

بحث يائس عن تأجيل الضربة .

« يا بحر النبات ، يا بحرَ شتلةٍ تلتفُّ على جذعٍ أكبر ، دَعْ لبرعمي أن يَتَغَاوَى » .

يقول مهدي : « لا أستطيع اصطحابك إلى منطقة المطار . المحاربون كفاية ، والاستطلاع غير ممكن من صعوبة التنقل » .

محيط المطار مكشوف بدوره . المحاربون يتنقلون في المجارير الضخمة المحفورة عميقا . تموينهم سردين معلَّب وبصل . قنص وقنص مضاد من كل جهة . بضعة نساء يستطلعن ، من الحفر البرميلية ، جهة « الشويفات » تاركات للمحاربين ان يستريحوا قليلاً .

الطائرات لا تهدأ . الأسرائيليون ينفشون المكان كالريش لاحتلال المطار ، اذ

يجعل سقوطه مخيمي « برج البراجنة » و « شاتيلا » على مرمى طلقات خفيفة .

« لن نذهب » أقول ل « ابنتي » ، « الأمر ليس بيدي »، « حسنا ، فلنكتف بموقعنا في « الفاكهاني » .

تنفلت ضحكة صغيرة من فمي . أفقتُ وليل البحر لم يزل على سواده . بعض اللُّفافات تشتعل في زوايا سطح الباخرة التى تقلنا الى « لارنكا » . لا كلام . لا همس . أعتقد أن نصف المحاربين لم يناموا ، أو هم أفاقوا مثلي . هدوء جنائزي يقطعه صوت المحرك الكسول . نعم ، أفقت ضاحكا ، كأنما يقظتي امتدادٌ لحلم ، والسبب تُرَّهات صغيرة تذكَّرتها توًّا : كم كنت عصبيا مع صديقي « ج »الذي قاسمته بيته . كان مهووساً باغاني الجاز الصاخبة ، ففي أول دخوله إلى البيت . عائدا من مناوباته في الموقع ، يضع شريطا في المسجّل . ويرفع الصوت . أكاد آكل نفسي من الغيظ ، أتأفف في وضوح ، فيتصنع برودا قاتلاً . والأمر الثاني أنه يستحم بمقدار وافر من الماء الذي أجمعه في الهدنات ، حيث يسمح الاسرائيليون بتدفقه قليلاً قبل أن يقطعوه . . . كعادتهم . وهوسي بالماء لا يعادله شيء اخر . أملأ كل وعاء في البيت . أملأ الزجاجات الفارغة ، والكؤوس ، وفناجين القهوة ، ولو كان في جلدي جيوب لملأتها أيضاً . أقول لنفسي :« هذا بيته يا بني ، من حقه ان يكون سلطاناً فيه » ، لكن حكمتي تذوب قطرة قطرة وأنا أسمع خشخشة الماء في الحمام . سطل . سطلان . بحق الجحيم أهو آت من منجم فحم ؟ صدقاً ، إنه آت من منجم رمل . أرى ثيابه وحذاءه . أرى أرض الغرفة التي تتضرج بنثار أحمر . إنها الحرب ، أفيق كلَّ برهة على حقيقتها الصارمة . أفيق على هذه الصرامة الحمقاء التي تجمع في اعماقي ، عاداتي ، الصغيرة ، التي لن اتخلى عنها ، الى جوار الموت الذي أجعله هَيِّنا بعد نصف زجاجة فودكا .

« إنها الحرب يا بني » أردِّدها ،« تَخلَّ عن حمَّامك اليومي ، في الأقل » ، فأردُّ على نفسي :« لا . معاً لِتَمْضِ الأمورُ كلها . معاً لِتَبْقَ » . تُرَّهات يومية ، زنابق صغيرة للذكرى . إضحكْ إضحكْ ، فعلى سطح الباخرة متَّسع للملهاة .

« الخمسة الأكثر هدوءاً يقتربون الآن .
الخمسة الواثقون ، في خطواتهم الواثقة يشعلونَ لفافاتهم ، بعيونٍ نصفِ مُغْمَضَةٍ
على شهوةٍ مُغَمِضَةْ .
لايلتفتون إلى أحد ،
مُمْتَنُّونَ لأنفسهم التي ارتضتْ ان يكونوا خمسةً ، لا واحداً ؛

مُمْتَنُّونَ للنعمةِ الممتزجة بغضبٍ خفيفٍ على الجباهْ .

الخمسة يقتربون ، رويداً رويداً ، ويطوِّقون النهار » .

« اركضي » أصرخ في « ابنتي » . الدخان يتصاعد من أمام ، في المدى المواجه لكلية الهندسة غرباً . « اركضي ». علينا أن نركض في اتجاه القذيفة لنحتمي . ما من دليل على أن القذيفة الثانية لن تسقط وراءكَ ، أو فوقكَ . في قصف كهذا تنجو بنعمة النجاة وحدها ، لكن عليكَ أن تحتمي أولاً . وصلنا ، ركضاً ، من أمام مسجد الجامعة العربية الى الموقع ، فوق « مطابع الكرمل » . الآخرون كانوا مُحْتَمِيْنَ . مَرت لحظاتُ صمتٍ وتوجُّس ، أعقبتها لحظات تملمُلٍ ، ثم انفجرت الثانية . كانت قريبة إلى درجة ارتطام الشظايا بمدخل العمارة . لحظات أخرى ، طويلة ، من التوجُّس . هدوء طويل . تملْملَ المحاربون ، فبدأوا استطلاعهم الخجول الحذر . خرجنا بدورنا . تقدمنا مع المتقدمين في اتجاه الهضبة الترابية المشرفة على امتداد « جسر الكولا » الجنوبي . كان واضحا أن الدويَّيْن لم يكونا ناتجيْنِ عن قذائف . ماذا جرى ، إذاً ؟ . . . الألغام . . . نعم . لُغْمان آخران انفجرا . من زرع هذه الألغام غير الصبورة ، بحق الموتى ؟ .

« ساطلق النار . أريد أن أطلق النار من بندقيتي ، لمرة واحدة في الأقل » تقول « ابنتي » . « اذهبي الى الساتر الترابي ، وأطلقي ما تشائين » أردُّ عليها . تقول نصف متوسلة : « تعال معي ». « اذهبي وحدكِ . أنت سيرسيْهْ الساحرة ، هرقْلُ النساء » ، وأضيف : « لا تسأليني أن أنظف لك البندقية بعد ذلك » . تنخفض البندقية المرفوعة في يدها : « أووه . . . كردي » .

« خذي إذا » ، وتجفل « ابنتي » . القطة ، وراءها ، ترتعش ثم تهدأ . أجبتها قبل أن ترفع عينيها الممتلئتين استنكاراً : « قطة مريضة من قطط ابي خالد . لقد ارتاحت » . اخترقت الرصاصة رأسها ، وخرجت من الذيل . « أووه . كردي . أبو دباح » تتمتم مُقطّبه .

تلوح تباشير الفجر . أضواء تنبض كقلب عادي في الغرب . لم نَنَمْ كثيرا ، والباخرة تبطىء . أقف ويداي في جيبي . أُخرج يدي اليمنى بحلقة تتدلى منها بضعة مفاتيح : مفتاح بيتي ، مفتاح « دار النورس » ، مفتاح مكتب « الكرمل » ، مفتاح بيت « ج » ، مفتاح آخر صغير نسيت موقع قفله . تنزلق يدي على حافة السفينة الرطبة ، في بطء « أرقدي في سلام » ، وتسقط المفاتيح في البحر .

« كنْ بارداً أيها المنفى الجديد ، ليبقى غضبي ساخناً » .

« تفضلوا يا سلالة الجحيم » . لم نُبْقِ لكم ذريعةً ، لا من أجلكم ، بل من أجل هذا الشعب الواقف أمام صنبور الماء . قلنا سنخرج من بيروت فأضافوا شروطاً مهينة الى شروطهم . قلنا سنخرج رأفةً بما تبقّى ، فتقدموا من محور المتحف في اتجاه مستشفى « البربير » . « تفضلوا ، إذاً . لن يلومنا أحد على بسالة لن ندَّخرها » .

أرتال المدرعات شقت طريقها الى الشارع ، بعد نسف أسوار « سباق الخيل » ، وتقطيع ثلاثة ارباع اشجاره . حرب على الشجر بدأتها إسرائيل ، قبل أسبوع من محاولة التقدم هذه . كانت تخاف حرش الصنوبر الصغير ، الذي يقف فاصلاً . دكّتِ الصنوبر بالطائرات . دكّتِ الصنوبر بالمدفعية الحارقة . كانت تطلق النار على شجر الصنوبر بمناسبة ، وبغير مناسبة ، خوفا من رماة الـ ب ٧ . يتعالى فرح خفي . يقيناً ما من محارب يريد الخروج من بيروت . السياسة والحصار يجعلان من التصريح بهذه الرغبة مُسْتَمسكاً في يد المتهافتين على إنهاءالحرب بأي ثمن . ونحن لا نريد إنهاءها ب « أي ثمن » . وحدنا وحدنا . حتى الأصدقاء يسألوننا الخروج . نفهم الأسئلة ، لكن أي جواب سيقدمه المنفى ؟ .

فرحٌ يتعالى إذاً . الأسرائيليون يبادرون الى جعل رغبتنا في البقاء خياراً وحيداً . فَلْنسترسلْ شهداءَ ، أو أسرى .

الحرب هي مبالغةُ الواقعِ ، فأيُّ مبالغةٍ ستقولُ الواقعَ الذي لا يستنفدُهُ الشعرُ ؟ وأيُّها للحرب ؟ يجفل الكلام : تهدَّم شارع المتحف على جانبيه . تطاير ما تطاير ، وهوى ما هوى ، وبرغم ذلك لم يتقدم الاسرائيليون ثلاثمائة متر . الحيُّ حيٌّ . أجْفَلتِ المدرعة من حامل ال ب ٧ العاري . المحاربون يفاجئونهم من بين الأنقاض ، والاسم العربي الصامت يضيق . الملحمة تتّسع ، والأُمَّة تضيق . رماةٌ أطلقوا ثماني قذائف ب ٧ ، حتى تفجَّر الدم من آذانهم . لبنانيون وفلسطينيون فقط . خمسة كيلومترات مربعة ، وفرح يتعالى : « فَلْتتفضلْ سلالة الجحيم » .

أين« ج » ، بالله أين « ج » ؟ كان على محور المتحف قبل أيام ، ثم انتقل إلى « سباق الخيل » ،لكن الطائرات دمرت المكان ، قبل الزحف المصفَّح كتمهيدٍ . ذهبتُ في اليوم الثاني . وهو يوم هدنة كبقية الهدنات القصيرة ، فرأيت الموقع خَرِباً .

عشت قلقاً حقيقياً في الأيام التاليه . « ج » لم يعد .

من أين أطوِّق هذا السَّرَيانَ الأعمى للرعب ؟ أرى لطعات زرقاءَ داكنةً على ساقَيْ « ابنتي » . أسألها : « مِمَّ هـذا ؟ »، فتنظر إلى نفسهـا كطفـل اتسخ مـريولـه بالحلوى : « دمي يحتقن بعض الأحيان » . من أنا لأطوِّق هذا ؟ . . . و« ج » لم يعد .

أقطع مسافة طويلة في صباح اليوم الثالث من الهجوم على المتحف ، باحثاً عن « ج » . ربما أعثر على أحدِ رفاقه ، أو على خبر ما . المكان قَفْر . أثرُ المعركة يجعل المحاربين حذرين فلا تراهم. يترصدون الموجة المقبلة كأشباح . مرارتان : اختفاء « ج » واللطعات الداكنة على ساقي فتاتي . أبٌ كوكبيٌّ أنا ، أقول لنفسي : « لا ترجع بعد الآن . ابقَ مع المحاربين ، في الموقع ، ليلاً نهاراً ، ولا ترجع الى بيت « ج ». أتجه بعتادي من « البربير » إلى « الفاكهاني » . أبقى إلى المساء ، لكن الحنين المبتل بأسى موجع يشدني ، فأرجع من هناك ، مشياً على قدمي ، حتى شارع « الحمراء » . أدع سلاحي في البيت ، وأنزل الى الفندق الذي يقدم الجعة الباردة .

يقول لي النادل الباكستاني : « سألت اختك عنك مراراً » . غاب قليلاً ، ثم رجع قائلاً ، وكأنما نسي الأمر : « سألت زوجتك عنك مراراً » . . . ضحكت منه ضحكة عالية . أعرف من يعني. أختي وزوجتي شخص واحد : « ابنتي » . لقد اختلط الأمر على ثلاثة آخرين ، من قبل ، فسألوني إن كانت هذه الفتاة أختي أم زوجتي ، دون التفات إلى لغتينا المختلفتين . الرفقة تعني انها زوجتي ، والشبه يوهم بالقربى .

سألت « ج » مرة ، إن كانت هذه الفتاة تشبهني فتأملنا معاً ، صارخاً : « يا الله ، كأنكما أَخَوانِ » . غمازة في الذقن . عينان واسعتان . وجه نحيل . أنف أقنى . قد لاتعرفَ ما الذي يشبه الآخر في وجه أحدنا ، تحديداً ، لكن فيهما طباقاً ما .

ألتفت إلى حركة خافتة ، يساراً ، وأنا جالس إلى البار ، فأراها تتقدم في هدوء . تجلس من دون أن تقول شيئاً . أنظر الى زجاجتي الملآى ، مومئاً للنادل ، فيأتيها بواحدة . عيناها تتفرَّسانني من غير أن أراها . أحس النظرة تنزلق من صدغي حتى ذقني . لا ألتفت . يدها تمتد في هدوء إلى يدي ، كأنما تقدم اعتذاراً لا موجب له . من منا عليه أن يتعذر إلى الآخر ؟ فَلْتعتذرِ الحياةُ .

قالت في صوت خافت ، بعد دقائق صامته : « أنت تقتلني » . أحسُّ أن لا داعي لهذه المُجافاة الخرقاء التي أتصنَّعها الآن ، لكنني أريد أن ألوم أحداً . ألومها ؟ لا . ألوم نفسي ؟ لا . مرارةٌ غامضةٌ ، وعتبٌ أشدُّ عموضاً على أُفق لا يُرى .

أقطع الطريق على جملة من الأسئلة قد تبادرني بها ، نصف صارخ : « ما الذي

يعجبُكِ فيَّ ؟ ها ؟ » . ترد مبتسمة : « أنت تتصيَّد السمك » . أتصيَّد السمك ؟ « ماذا تعنين باني أتصيَّد السمكَ ؟ » أسألها في فضول . ترد : « يعني أنك تبحث عن كلمات إعجاب » . « لا . صدقاً لا أريد ذلك ، بل أريد جواباً صريحاً » ، فترد مبتسمة أيضاً : « تعجبني مشيتك . إنها جذابة » . مشيتي ؟ . إنها تحسن تبديد شيء لم يعرفه كلانا : غمٌ ثقيل يصعد من تاريخ ثقيل . ضربات في الروح ، عميقاً ، تهتز منها أيدينا الممسكة بزجاجات الجعة . . . و« ج » لم يعد .

تعالي . تعال أيها الليل : تقضمني وأقضمها . عذبٌ أن ترى نفسك شهيةً ، إلى هذا الحد ، في عَيْنَيْ فتاةٍ ، بل تغسلك العذوبة فتتشظّي بهاءً . غير أن النشوة تعيد الى جسديْنا حدودهما ، فيرجعان متعانقين فقط ، هشَّيْنِ أمام عصف العقل بأسئلته الغبية ، وأجوبته الأكثر غباءً . تهمس : « خذني معك إذا رحلت . سألحق بك مهما كان جوابك . لديَّ خمسة آلاف دولار عند أقربائي » . سأفعل . . . لدي . . . خذني . . .

« اجمعْ أقفالك كلها أيها البحر ، فهذه ساعةُ الزَّبدِ الهاربِ من زنازينه » .

« اهدأي فتاتي » أقول لها . « لدينا موتٌ كثير قبل ان نخرج من بيروت » . . . و « ج » لم يعد . الجيران يسألونني عنه . بعض اصدقائه في العمارة يسألونني عنه . يحضر والده ، فجأة ، ويسألني عنه . أكذب عليهم جميعا : « رأيته البارحة . رأيته اليوم . . . إنه مشغول بتتبع الأخبار على الجبهات من أجل الصحيفة الفلانية » . لكنني أزداد ارتباكاً كل يوم ، فأتلعثم .

مضى أسبوع على الهجوم الاسرائيلي على المتحف ، قبل أن يفاجئني « ج » داخلاً ذات ليلة . « ألم تستشهد أيها الحمار ؟ » بادرته بعتب مشفوع بالوِدِّ . « لا . ليس بعد » ردّ ضاحكاً . كان في حال يرثى لها من الاتساخ . « كنت في حي السُّلَّم طوال الوقت » بادرني قبل أن أسأله ، وأضاف : « انتقلت من محور سباق الخيل بيوم واحد قبل الهجوم » ، ثم خلع جعبته الصدرية ، وهم بالخروج من الباب مسرعاً ، فسألته : « إلى أين ؟ » ، رد : « سأجلب بعض البيرة لنحتفل » . « نحتفل بماذا ؟ » سألته ثانية ، فأجاب : « بعودتي » .

الهدنة تنهار . كلهم مع إسرائيل ، ومن حق اسرائيل أن تبرِّرَ انهيار الهدنات : بعض الشاحنات العسكرية الاسرائيلية اقتربت من طريق صيدا القديم ، فأطلق المحاربون عليها قذائف ب ٧ ، فقُتِلَ جنودٌ ، وجُرِحَ آخرون . مجابهات القناصة ، في محيط المطار ، أوقعت إصاباتٍ في صفوفهم أيضاً . تحديات طويلة حول كُل

العلوم ، في « الشويفات » .... الخ . أسباب معلنة ، أما الخفية ـ العلنية فهي هي : تصفية بندقية ، وإبادة شعب . جُنَّ شارون . جُنَّ « يهوه » المدرَّع بصفيح أمريكي ، فأقفلَ سماءَ بيروت : ثماني ساعات متواصلة من الجبروت المضحك ، والرعب المضحك . طائرات تأتي ، وأخريات تمضي ، والمعنى يشق الغلالة ، المعنى الأعمى كخُلْد يدور فوق مائدة الأرض الحاضرة : الموقع العسكري والعمارة المدنيّة يتساويان . مستشفيات انهارت ، فنُقِلَ ما تبقّى من جرحاها إلى أخريات لم تتمكن من استيعابهم . المرافق العامة تُدكُّ دكًّا ، والوقتُ مُجْفَلٌ كحمار .

لا حركة إلّا لسيارات الإسعاف ، كأنما تنقل الكرة الأرضية ، برمَّتها ، إلى مكان آخر . الأكباش الخضراء، أكباش سهول خفية ، تهز قرونها في الدخان الذي يعلو الأبنية ، والأشياء تتمايل مثل سطح سفينة المنفى . فَلْيَعْلُ صوتُ هذا الصوتَ ؛ فَلْيَعْلُ هذا السَّبيَ بوقُ نجدةٍ لن نراها .

« هاتِ ، أيها النادل ، ما يكفي مائة قرنٍ من شرابك » .

كنت و « ابنتي » ، ذلك النهار ، في قبو الفندق الذي يقدم الجعة الباردة ، حيث المطعم ، لكن ما من طعام فيه . لا اعرف من جاءنا بلحم معلَّب ، فأكلناه ممتزجاً بالدوي . ما من مجال للخروج ، إذاً . « هاتِ ، أيها النادل ، ما يكفي من الشراب لأشباحنا » .

كنتُ في البيت أول الغارات . حملتُ الناظور العسكري الى الشرفة ، وتتبَّعت الطيور النشوى من الصمت العربي . القصف على كورنيش البحر ، يمين « المنارة » وشمالها . هذا ما أراه، غير أن ما أسمعه يشير الى قصف على أماكن أخرى ، بل على كل مكان . خرجت من البيت واتجهت الى مطعم الفندق ، فأنا أعرف أن « ابنتي » ستكون هناك . وها نحن معاً ، نقهقه كلما ارتجت العمارة . مرحى ، لقد بدأت من جديد . نريد الأمور ان تسترسل ليكون خيارنا البقاء . الهدنات قاتلة . الهدنات تتيح للصَّلف الإسرائيلي شروطاً جديدة مذلة . فليدخلوا ، بالله ، فليدخلوا .

« هذه تسع قذائف ب ٧ » يقول لي عصام . « وهذه هي البندقية المُعَدَّلة ، وست قذائف أنيرغا » ، يضيف . لا بأس . ثمت مِدقَّات أيضاً ، ولُغمان أرضيان . الذخيرة كفاية . لن يجد عصام بجنونه متهوِّراً أكثر مني . « سيُخْلُون الموقعَ كما ترى » يقولها بعينيه العصبيتين ، فأرد : « لا يهم . سأطلق القذائف التسع حتى لو نفر الدم من إحليلي » .

في هدنات الأيام الأخيرة تناقص المحاربون في الموقع ، بقي اثنان فقط . الأحاديث على الخروج بَلْبَلَتْنا كثيرا . شروخ صغيرة تضرب الحماسة الطاغية للقتال . أصوات محاربين تعالت : « فَلْتَقُلْ لنا القيادة قرارها واضحاً » . ولأن الأمور لم تكن واضحة لأحد ، فقد بدأ العديد من المحاربين يتجهون الى هنا ، أو هناك، في الهدنات ، بحثا عن جواب .

إسرائيل لا تريد خروجنا أيضاً ، فهو سيحفظ لنا ، في الأقل، كبرياء السلاح الذي سنُقِلُّهُ معنا ، لكنها لا تستطيع الدخول إلى بيروت ، لا رفقاً بالمدنيين (صرَّحتْ طائراتهم كم ترفَّقوا بالمدنيين) كما تدَّعي ، بل خوفٌ من الزلزال ، وقد تذوَّقوا بعضه على محور المتحف . إذن عُصابٌ هذا؛ امتدادٌ لدونيَّة الخَصِيِّ هذا . لو حاولوا تقدماً لنسي المحاربون أسئلتهم ، وكمنوا للموت ، لكن موتى التاريخ لا يتقدمون الى التيه الذي ينتظرهم ، ثانيةً ، بل يروِّعون المدينة بحديدٍ قدريٍّ ؛ بحديدٍ تنافست فيه عقول المُتَرفين كعقابٍ للعُراة الجَسُوْرِيْنَ .

يا لَذُلِّ يهوهَ الأخير . أين منشوراته : « استسلموا أيها المحاربون ، سيترأَّف جيش الموتى بكم . . . أخلوا المدينة أيها المدنيون ، لسنا مسؤولين، بعد الانذار ، عنكم . . . الخ » ؟ . شهامة التائه ، من بوابة سيناء حتى الجحيم ، تقطر من ورق مطبوع في شرقي بيروت . موسى . . . موسى ، اكسرْ ألواحك الآن ، « وانتَ ، أيها النادل ، هاتِ من شرابك ما يكفي ابنتي ويكفيني » .

بعد ثماني ساعات أُعلنت الهدنة الأخيرة . ثمانية قرون من العواء الإسرائيلي أمام سور الدم. ثمانية آلاف سنة تربط التاريخ ، بعضه إلى بعض ، كسيور الحذاء العسكري . رقم الشيطان « ٨ » . ثمانية . ثمانية . ثمانية . آخر ثمانية في الذاكرة . آخر غضبٍ مُنْجَزٍ كاملٍ ككمالِ إلهٍ ، سيؤرِّثُهُ المَنِيُّ للفرجِ الطاهرِ كالأبدية .

اسمعوني . اسمعوني .

« استمعي ابنتي » ، ترفع عينيها متسائلة : « ها ؟ » . استرسلُ : « باتَ الرحيل أمراً واقعاً الآن . لم يتحدد مكان النفي بعد ، لكن الأمور في طريقها إلى الوضوح . اخرجي من بيروت قبلي لأطمئن . اذكريني قليلاً ، وانسي ما تبقّى » . تنفجر فجأة . كنتُ أظن أنها تترقب كلاماً كهذا بعد كل ما جرى . كنت أظن الأمر بدهية مثل دمعٍ سيترقرقُ في العينين وداعاً . تنفجر فجأة ، أنثى غضبانة . جمعٌ هائجٌ يطأُ الأكاليلَ التي وضعها « العربيون » على نعشكَ وأنت حيٌّ . « قاتلٌ . قاتلٌ » صرختْ ملءَ فمها ،

فذهلتُ. أمسكتْ بجُمْعِ قميصها ، في الغرفة ، وشقَّتْهُ على أزراره . صدّر طفوليٌّ . ثديان صغيران كَدرهمْينِ معدنيَّينِ . هي، لذلك ، لا تريدي حَمَّالةً . كم كنتُ أغيظها سائلاً : « أين ثدياكِ يا صبيٌّ ؟ » ، وأقبِّلهما فتهدأ .

ما دهاها؟ تضرب الطاولة بقدمها فترتطم بالحائط . تفتح حقيبتها وترميني بثيابها العسكرية : «خُذْ أيها الهارب » . آهِ أأنا من أشعل الحرب وأطفأها ؟ فليأخذ غضبُها مداه.

تدور على نفسها في الغرفة الضيقة : « كلابٌ »، لا أعرف من تقصد . « شياطين » لا أعرف من تقصد . « سأعيش حتى أضع حذاء ، بدل الورد ، على قبورهم » . تنقبض نفسي . كلمة « سأعيش » ترفرف كالمراوح على رئتي . « ابنتي »، قلبي ، مجرتي المتلألئة في النخاع . حبيبةَ الحبيبات ، امرأتي ويأسي ، ذهبي ، بابي على الحرب ، شُبَّاكي على العرس ، شتلةَ الذرةِ ، فراءَ الفراءِ ، جسارتي كلها، آهِ ، لا تقولي هذا . أبٌ كوكبيٌّ أنا ، لا تقولي هذا .

«تدثَّرْ بي أيها البحر . لاهدابي حدودكَ ، ولسلاحي طمأنينةُ السحاب » .

اسمعوني . اسمعوني .

« استمعي ابنتي » . لن تسمعني قط . ذاهلة ، مُرَّة كفقْمة قُتِلَ وليْدُها . ! إشرافات على الخاتمة : ياَ لَلْيقين الُمْربِكِ .

تجثو ، بعد قليل، أمامي، وأنا جالس على الكرسي، واضعة يديها على فخذي ، ناظرة الى وجهي نظرة انكسار . سبيٌّ هذا . لا بد من فَقْدٍ ، أو طريق إلى الفَقْدِ . « كوني قوية يا سيرسيه» أمازحها ، فلا ترد . المزاح ثقيل الآن . باهتٌ وبليدٌ . كلانا مطعونان . « فلنجعل ما تبقّى جميلاً يا ذهبي » أقول لها . تحاول أن تبتسم فلا تستطيع . تشهق وترتمي عليَّ . سنة من البكاء تبلل قميصي . ترفع رأسها ، بعد ذلك ، متمتمة : « فلنجعل ما تبقى جميلاً يا حمار » .

الخمسة الهادئون ، الذين طوقوا النهارَ ، يقتربون ثانيةً .

مشتعلةً لفافاتُهم ، مُمْتنّون لمدىً يجعل خطاهم واثقةً اكثرَ ؛

مُمْتنُّونَ للغضب الذي يجوِّفُ المكانَ كالقبَّعة .

الخمسة الهادئون يجلسون على حافة اليابسة ، ويرسمون المياهَ وأقدارهاَ .

يا للمديح الذي سأمتدح به نفسي : سقف الغرفة مغلقٌ على فضاء الموت ، وجسدان يومضان كنجمتين لا يراهما أحد . جسد يعاقبُ جسداً على استسلامه . خَفْقٌ كالفضيحة . غزوٌ وسبيٌ ، والأثداء تُدلي بشادتها . « دعني دعني أيها المُبارح الغريب . سأبقى » . احتضنيني ، احتضنيني ، سأتقطَّرُ شارعا شارعاً ، زقاقاً زقاقاً ، طبقةً طبقةً ، شقةً شقةً بهواً بهواً ، غرفةً غرفةً ، شرفة شرفة ، كتاباً كتاباً ، وأشياء تستعصي على المنفى .

« ما بك أيها الحديد ؟ » . السرير يئن ، لا من حركتنا ، بل من ذاته . الأنين يتواصل فنصغي : أنين الحديد يدلي بشهادته كالأثداء الحية ، أيضاً . « هاتِ ، أيها النادل ، من شرابك ما يكفي البحر » .

واقفون نحن . تهيُّؤ مشدودٌ كالخذلان ، والباخرة تلقي بالهُلْبَةِ في المياه . بابٌ صفيحي ثخين يضرب حافة المرسى ، وعَسْكَرٌ على الجانبين : هذا ميناء « لارنكا » .

حين صعدنا السفينة ، في ميناء بيروت ، أُمِرْنا بوضع أسلحتنا في قاعها . وحين وصلنا لارنكا سألنا عن أسلحتنا فقيل : . « ستمضون إلى المطار ، وتصلكم الاسلحة ، في شاحنات ، هناك » . موجعٌ هذا . الفطرة أن تمضي بهراوتك إلى نهاية العالم : كهوفٌ مديدةٌ ، وصيدٌ مُحْتَكَرٌ . سهوبٌ للاقوى ، وينابيع يَرِدُها المحظوظون : « أبي ، أبي ، مُتَّ ولم تَرني مخفوراً بحذر العالم هذا . مُتَّ ، أنت الاكثر اتساعاً من ميناء ، ولم ترني في ميناء . قلْ لعتاليك ، ولحصَّادي قمحك ، وقراك التي كانت ، ومتاخمي تخومك ، أن ينظروا : لا مملكة لي ، لكنني شديدٌ في المنفى بحذرِ الذين يتوجَّسون جسارتي في المنفى . تليقُ بي أبي ، وأليقُ بكَ : اخترتُ الضربةَ الأشدَّ كما اخْتَرتَها » .

« هاتِ لشعبي المنفيِّ شيئاً آخرَ ، غيرَ هذا الشرابِ ، أيها النادل » .

ابنتي - امراتي توقظني في الصباح : « اشتر لنفسك حقائب الرحيل » . « لا يهم » أقول « ساشتريها غداً ، وليكن اليوم لنا » . أوه ، كم هربت منها هذين الشهرين ، وها مدينة تهرب مني الآن . أي شِبَاكٍ لي بعدُ ؟ . ذهاب واياب بين البيت والمطعم . لا وقت لدينا إلّا للنهب المبلل بعرق الصيف على الجسدين ، لكن الخيبة تكبر بعد كل حصاد من هذا . مشدوهان حنيناً ، بل مفجوعان . يتأمل احدنا الآخر كأنه لم يره من قبل . نُلملم التفاصيل التي تكفي ذاكرة جيل : « هذه شامة كرأس الدبوس تحت العين اليسرى . هذا أثر خدش قرب الشفة السفلى . خطوط اليد . . . تجاعيد

الركبة . عدد الشعرات في الحاجبين . انسياب الرقبة وثناياها. شكل الأظافر ، واستطالات أصابع القدم . فقرات الظهر ، والنمش ، أو الزؤان ، على الكتفين » . تنقيبُ للحِفْظِ ، لهوُ أطفالٍ يضلّل تاريخَ الحكمةِ كلّه .

نُنَقّب وننسى أين وصلنا ، نَعُدُّ ، ونعيدُ العَدّ . نرهقُ القُبَل بالقبل حتى الأعياء . قدومٌ جارف يشبه الفرار . الفرار . الفرار .

مَرَّةً رأيت قسماً من « المدينة الرياضية » ينهار . ضربتها الطائرة ، وحين ولَّتْ خرجنا من المَكْمَن ، فرأيت قسماً ينهار ، كأنما تمالك على نفسه ، في الضربة ، ثم انهار بعدها بدقائق . مرة رأيت طابقا يتفحم في إحدى عمارات « الرملة البيضاء » ، المواجهة لامتداد شارع « الكولا » جنوبا ، ثم ينحني ببطء ، على نفسه . مرة رأيت شبح رجل يسقط من الزاوية الشرقية من « الملعب البلدي » ، بعد سقوط قذيفة ، ثم ينهض راكضاً ، ثم يسقط في هدوء . مرأة رايت حمامة شاردة ، مسرعة في جنون ، ترتطم بجدار مبنى ، وتسقط على الشرفة . مرة سقطت قذيفة على شرفة تطل على موقعنا ، فتهاوى ناطور العمارة ، وسطنا ، من الذعر . مرة كنت أعبر « كورنيش المزرعة » ، مشياً ، فتطايرت أشلاء سيارة واقفة على مبعدة . كانت الإصابة مباشرة على سطحها . مرة رأيت سيارة إسعاف ترتطم بزاوية مقهى « أُم نبيل » فيتدلى يد السائق من الباب ، ويخرج اثنان ، من المؤخرة ، دائخين ، ثم يركعان وسط الشارع . مرة حاولت سرقة بطارية من إحدى السيارات المصابة قرب مستودع ورق محترق ، من أجل تشغيل التلفزيون في بيت « ج » ، فانهار علي جزء من الحائط المتداعي ، لكنه استقر على سطح السيارة ، فلم يكمل هبوطه ليسحقني ، ولم أكملْ ، بدوري ، السرقةَ . مرة أطلقنا النار ، أربعة معاً ، على « بيضة » من محتويات القنابل العنقودية ، فما أصبناها ، فأومأ الينا « بهول » مكتب إحدى الجبهات بالتوقف ، ثم مشي فحملها ، ومن ثم رماها داخلِ سور الجامعة فتشظَّت . (كان بهلولاً خَدُوْماً ، قضى الحرب ، كلها ، في قبو قرب كلية الهندسة) . مرة . . . مرة شممت اللهاث الأكبر للأساسات ، ورأيت الدويَّ المديدَ لإجفالة التاريخ . بعد هذا انْقَضَضْنا ، نحن الكَوْكَبةَ المحزونةَ ، على الألغام التي زرعناها بأيدينا ، فأشبعناها نَسْفاً ، من بعيد ، بطلقاتنا ، حين باتت الهدنَة الاخيرةُ هدنةً أخيرةً .

نزلنا في طوابير من الباخرة . انقسمت الطوابير الى مجموعات . كانت شاحنات عسكرية تنتظرنا على أرض ميناء لارنكا . لم يكلِّمْنا أحدٌ . ولم نكلِّمْ أحداً، صعدناها في هدوء خاشع : للمنفى هيبة الخراب . تمتمنا : السلاح ، السلاح . فرأينا جنودا

قبارصة ينقلونه ، جُملةً ، من قاع السفينة الى شاحنات اخرى . بضعة أيد ارتفعت ، في الطريق ، تلوح لنا ، راسمة علامة النصر . وفي إحدى الشرفات ارتفعت أعلام فلسطينية . إلهي، فلتتبارك هذه الشرفة الوحيدة .

لم تكن الطريق طويلة إلى المطار ، حيث ربضتْ مركبات الحديد الطائرة ، لِتُقِلَّنا الى الحقيقة ، في الجهة الأخرى من سياج الغيوم .

« اسمعني » تقول « ابنتي »،« سألحق بك مهما كلفني الأمر . لن أفقدك بعد أن وجدتك » . أنظر إليها في إشفاق :« كنتِ نصيبي من الحرب ، وهذا يكفي . عشتُها جَسُوْراً بطمأنينة من يملك باكيْنَ عليه ، أما الآتي فحسابٌ شخصيٌّ » . لن أقول لها هذا الكلام . لن أعيش مرارتين أخريين : المنفى ، وارتقاب موتها . اللطعات الزرقاء الداكنة تتماوج أمام عيني كأفق من الأجنحة المقصوصة التي تقطر دماً . فأيُّ قِسْمةٍ ستُجْلِسُني أمامَ فضاءِ البقيةِ : دمِها ؟ .

« بأقاصيصي سألجمُ موجَكَ حتى ينام ، ولتبقَ ، أيها البحر ، ضَجِراً من يقظتك » .

« اسمعيني ابنتي . اسمعيني أيتها الضربة المحبوكة من قَذَرٍ وحرير ، سأدع لك خيار وداعي ، وسأجعله سهلاً كلقائنا ، لنجلسْ على أرض الغرفة ، مثلما اعتدنا ، ولتنظري في عيني من دون نظارتيك هاتين . سآخذ دموعك بلساني عذبةً كرائحة الكرفُس ، وخذي أنت ، جبيني لَثْماً كأمٍّ أنجبتني . لن يمتدَّ جسد إلى جسد ليجفلَ الوقتُ ، لا ، لِنَبْقَ غاضبيْنِ من برهاتٍ يمكنُ قَنْصُها ، ولا نقتنصها » .

« اسمعيني ابنتي ، اسمعيني يا نشيد أميرٍ سكرانَ في بلاطٍ سكران ، قَرِّبي شفتيكِ من شفتي ، لكن لا تلثميهما . اقتربي مسافةَ زفيرٍ ولا تحتضنيني ، ليبقى لنا ربحٌ لم نربحه بقرارنا ، حتى لا نستنفدَ الربحَ كله : جاهلٌ من يقتنص طريدةً لا تهرب من مرماه . ثابتان نحن ، مكشوفٌ أحدنا للآخر كَذُعرٍ مكشوفٍ ، فعلى مَ تبحثُ الشفاه ؟ على مَ يبحث جسدٌ حكيمٌ في جهالةِ جسدٍ ؟ » . هذا ما أحاور به نفسي ، واقفاً على الشرفة المطلة على بضع محلات حطمها انفجار عبوة ناسفة .

آه « ابنتي » ، جئت ، توّاً ، بحقائب عسكرية للسفر ، وقد ساعدني صديق ، لم يهاجر، في انتقائها .

كان مقابل بيتي ، الذي عصفت الطائرات بشبابيكه وبابه ، في منطقة « أبي شاكر » ، جار من « المرابطون » ، عنيف محارب في الحروب الصغيرة والكبيرة التي

تتالت ، وَدُوْدٌ مبالغ في الودّ في الهدنات الصغيرة والكبيرة التي تتالت . وكان لديه سربُ حَمامٍ يطيِّرهُ في الصباح الباكر فيغيظني ، ويطيِّره في القيلولة فيغيظني . صفيرٌ ، وطقطقةٌ مرْقاعٍ يوجِّهه الى السماء بحبَّاتِ برتقال صغيرة حتى يعلو السرب اكثر .

قبل أن نصبح وَدودَيْن ، لم أكن أعيره انتباهاً . كان محض جار في الطرف الآخر من الشارع المقابل لشرفتي ، ولم يكن يعيرني انتباهاً ، بدوره ، بحسب اعتقادي . اسمه خليل ، ويلقبونه ب « أبي الدراويش » .

عدت ، ذات ظهيرة ، في العام ١٩٧٨ الى بيتي فوجدته شبه محطم : رصاص اخترق الشرفة ، وبعثر النوافذ قطعة قطعة ، بزجاجها واسمنتها . كان الأمر على شيء من الريبة حين عدت ، فثمت جنود من « الكفاح المسلح » أمام العمارة ، وثمت محاربون « مرابطون » في الشارع . قلت الأمر إشكالٌ صغيرٌ من إشكالات المنطقة الغربية من بيروت ، لكن غُرَفَ البيت أنبأتني بشيء آخر . خرجت الى الشرفة صائحاً : « من أطلق النار ؟ » ، وكان « ابو الدراويش » جالسا أسفلَ ، على ناصية الشارع ، ينظر إليّ مبتسماً ، فأثارني . أخرجت بندقيتي من خزانة الثياب ، ووضعت الجعبة على خاصرتي ، ثم نزلت الى الشارع : « أيُّ كلب أطلق النار على بيتي ؟ » . تدافع رجال « الكفاح المسلح » وهم يرون البندقية المُلقَّمة في يدي . أحاطوا بي قائلين : « نحن نتدبَّر الأمر . ثمت سوء تفاهم ، وسينجلي » .

كان سوءتفاهم حقاً ، غير أنه قد يطول الابرياء : أحد « المرابطون » أطلق النار على بيوتنا ثاراً من شخص في الحركة التي ننتمي اليها ، لكن هذا « الشخص » لم يكن في العمارة ، انذاك . طُوِّقَ الأمرُ في سرعة ، فلم يكن من ضحايا غير نوافذنا .

أشرت إلى « أبي الدراويش » منفعلاً : « أنت أطلقت النار . ستعيد شبابيكي كما كانت » ، فظل مبتسماً . شدني رجال « الكفاح المسلح » ، وانتهى الأمر عند هذا الحد ، ثم سُوِّيَ نهائياً .

بعد يومين رأيت « أبا الدراويش » من جديد . كنت هادئاً فاقتربت منه ، فمد يده مصافحاً . « أأنت من أطلق النار على شرفتي ؟ » ، سألته وأنا أصافح اليد الممدودة . رد : « لا . والله » . « من كان ؟ » سألته مبتسماً ، رد : « لا أعرف . والله » .

مذ ذاك بات جاراً ودوداً ، حلو المعشر على بساطته التي تقارب السذاجة . أذكر « أبا الدراويش » في برهتي الآن ، لأنني كنت عائداً ، في الهدنة الاخيرة ، إلى بيتي في « أبي شاكر » فوجدته متمدداً قرب باب المصعد ، في بهو العمارة ، معتمراً خوذته ،

ومرتدياً ثياب الحرب كأكمل ما تكون . بادرني ، قبل أن يرد السلام : « ما مصيرنا ؟ » .

كم أيقظني بسؤاله البسيط من سبات الحرب . ما مصيره ، حقاً ؟ لست أنا من يدبِّر المصائر . المكان يدبِّر المصير بذاته . شعب المكان جرَّ الرعب ، كعربة ، إلى أقصاها . اختلط بنا ، واختلطنا به ، عِرْقاً عِرْقاً ، نَفَساً نفَساً ، وحبَّة عَرَقَ بعد حبَّة عَرَقٍ . ليس الأمر في يدي لأجيب « أبا الدراويش » . « ستبقى وحدك ، كما كنتَ وحدك ، ستكونُ الأشدَّ كما كنتَ الأشدَّ . ويوم قصدتَ أن تحمينا بجدران بيتكَ تدخَّلت الطائراتُ . لن ندعهم يدكّونه لكَ جداراً جداراً أبا الدراويش ، سنخرج ، فخذْ حذرك . هذا ما أستطيع الهمس به إليكَ » .

آه ، أيقظني بسؤاله البسيط من سبات الحرب ، فرفعت كتفي كطفل لم يفهم السؤال الكبير . أغمضت عيني ودرت نصف دوره : أأخرج من العمارة ، أم أصعد الدَّرَجَ الى شقَّتي ؟ . مرارة المرارات هذه . بلاغة الجَسُوْر التي تتساقط أمام الخدعة الكبرى لتاريخ عربيٍ مخادعٍ سيكتبه المرتزقون ، كعادةِ كتابة التاريخ .

« بحرُ نيشيديَ أَنتَ أيها البحر ؛ بحرُ نَسْلي المتهيّءِ للخروج رافعاً درعَهُ إلى أبد الآبدين .

لا تلتقطْ سيفي ، لا تلتقطني في نزولي إلى الأعماق : أيدٍ أخرى ستجعلك رقيقاً مثلي ، شفيفاً يعكسُ اللألأةَ الحلوةَ للسيوفِ والزَّرد » .

« ابنتي » ستغادر بيروت . أقنعتها بذلك ، على أن تلحق بي الى المنفى ، فيما بعد . كانت حماستها تتدفق من الكلام في صخب ، وهي ترتِّب المستقبل بمشطٍ إلهيٍّ . كدتُ أنجرف معها ، بعض الأحيان ، في هندسةِ الوقتِ وتنضيدِ المُقْبلِ . اللعبةُ ساحرةٌ ، والحاضرُ الذي يتهيأ للخروج من الباب يجعلنا مستعجلين في قول كل شيء ، دفعةً واحدة . هنيئاً للذهول : مضى كلٌ منا إلى سريره ، تلك الليلة ، مقتنعاً أنْ ستكون الأرضُ على ما يرام .

الذهول ، وحده ، على ما يرام « ابنتي » . الذهول الذهول .

مررت في اليوم الثاني على الفندق فأخبروني أنها غادرت في الخامسة صباحا ، الى قبرص ، وأعطوني قصاصة ورق ملآى بهمس كونيٍ ، ومحتوبة بالقدر : « لن تهرب . أنا وراءك ، حبيبي » .

. . .وورائي مدينة تعجُّ ، في الأيام الأخيرة من استضافتنا ، بالمحاربين الذين يتبضعون للرحيل . بقي قليلون في المواقع ، رأيناهم في مواجهة الاسرائيليين ، على مبعدة أمتار قليلة ، واقفين ، يحدقون في غضب . تقرر كل شيء ، والهدنة هي هدنة الخاتمة . عصام ، وحده ، ينكبُّ ، في سذاجة ، على تمديد الحرب : يفخِّخ المصابيح الكهربائية ، يفخِّخ مقابض الأبواب والأقفال . يفخِّخ البنادق بوضع طلقات في مستودع غاز البنادق : « إذا اخذوها سيحاولون ، حتما ، التأكد من أنها غير مُلَقَّمة . سيسحبون الأقسام فتنفجر في أيديهم . »

على أرض مطار لارنكا استلمنااسلحتنا من جديد ، بشكل عشوائي : كلٌ يحمل بندقية غيره . ما همَّ ، لن يستعرضنا أحد ، في المنفى . سيأخذونها بقايا سبيٍ ، فما لم تأخذه الحرب سيأخذه المحتفلون بنا على مضضٍ ، بعد ما أَعَدْنَا الحروبَ العربية ، كلها ، الى أَصلها : مسرحيات بإخراج غير موهوب ، وأَعَدْنا للنفط العربيِّ ، من الفرات الى خليج سَرْت ، صورته : شراء غير الموهوبين . ماهمَّ ، ستكون لعنةُ دمٍ كبيرةٌ هذه . سيكون سبيٌ كبير مديد ، من عاصمة الى عاصمة ، ومن نخلة الى نخلة .

« انتحرتْ » قال لي المحارب . « أحبَّتني واجبيتها ، لكنها انتحرتْ في الحرب » ، أضاف . جلس أمامي ، في هدوء ، على إسفلت المطار . صحَّح من وَضعِ نظارته ، وقال : « انتحرتْ » . لم أكن اعرفه ، ولم يكن يعرفني ، لا يريد أن يضيف المنفى ثقلًا إلى ثقل الحكاية : « كانت مذهلة في جمالها ، ولها أخوان يتناوبان على اغتصابها يومياً . يدخل أحدهما فيجرها الى حجرة النوم جراً ، على مرآى من أمه ، وأخته الثانية ، وكانا ، إذا عادا سكرانين ، يتخاصمان على من يكون الأول في نَيْلها . لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، فقد قرّر أحدهما أن يستأثر بها نهائيا ، فأخذ مسدسه وأطلق النار على شقيقه . لم تحتمل الفتاة هذا كله ، فانتحرت بطلق ناري » .

« أوه » تمتمتُ . « أكانتْ تخبركَ بهذا ، وأنت تحبها ؟ » ، ردَّ : « نعم . إلى مَنْ تلجأُ لتخبرَهُ ؟ الشرطة ؟ الجيران ؟ . لا . الأمر فضيحة كبيرة ، لذلك آثرتِ السكوتَ ، وأخبرتني وحدي » . « أما تزال تحبها ؟ » سألتهُ ، فردَّ : « نعم . لا يمكن نسيانها في سهولة » . حكاية كالكابوس تصحبك الى المنفى ، أيضاً . شخص يفتح أعماقه كأنْ ما مِنْ سرٍّ بعد الآن . حقاً ، ما من سرٍّ بعد الآن . ورقٌ . . . ورقٌ كبقايا الآلهة . ورقٌ كالقصاصة التي تركتها « ابنتي » لي . حصادٌ مُضجِرٌ في تاريخ مُضجِرٍ .

الخمسة الهادئون ينهضون ،

نافضيْنَ عن معاطفهم غبارَ البحر ، معيديْنَ أقلامهم إلى مكانها ، وورقَهم الى مكانه .

لفافاتُهم لما تزلْ مشتعلةً ، ولما تزلْ عيونُهم نصفُ مُغْمَضةٍ على حنين شفيف .

الخمسةُ الهادئون يتَّجهون إلى المياهِ ليلتقطوا اقدارَها .

وداع الوداعات : القافلة الاولى تغادر بيروت وسط هرج إمبراطوري . كانت لحظة يقظة تلك . العمارات تدافعت كالناس ، وكادت الطرق أن تذوب فلا يرحل الراحلون . عيون لا متَّسع للهواء بينها ، وأيدٍ تتماوج كورق الغابة .

كل بيروت اختزلت نفسها الى شارع واحد ، والحناجر لم تكن لتستوفي نشيدها ، وعويلها ، فاستجارت بدويِّ الأسلحة من كل نوع . أرُزٌ يهطل من الشرفات . مديحٌ مضفور بالورد يهطل من الشرفات . المكان مرآة واحدة ، والعاصفة تتزيَّن : يا لَلْمجدِ الْمُربكِ حتى البكاء .

الذين ينتظرون دورهم للرحيل أسعد بالاً . ستتاح لهم أيام أخرى لوداع مدينة المجد الأبدي . وأنا منهم . سأُنعم النظر في شوارعها الآن . لم أُنعم النظر إحدى عشرة سنة ، لكنني سأختزل كل ما مضى ، وما سيأتي . شابَ ثلثُ شَعْري فيكِ يا بيروت . أحببتُ ، للمرة الأولى ، حبي الاكبر ، فيك يا بيروت . أعلنت حروبي الصغيرة فيك يا بيروت . تكسَّرت ، والتأمتُ فيك يا بيروت . تُرَّهاتي، وجنوني ، وحكمتي ، بعضٌ من لهاثك يا بيروت . غضبتُ ، ورضيتُ ، وأخطأتُ ، وأصبتُ ، وقاطعتُ ، وتواصلتُ ، فيك يا بيروت .

« سآخذك معي بيروت » ، أقول هذا لنفسي ، فيطمئن بالي قليلاً ، وأنا على الباب القرمزي إلى المنفى .

لكزتني « ابنتي » محتدَّةً : « ألن تتوقف ؟ » . كنت قد وضعت شريطا موسيقياً في آلة التسجيل ، وبدأت أدندن اللحن . جلستُ على حافة السرير فجلستْ هي على الأرض ، متكئة بظهرها على صدري . طوَّقتها ورحتُ أدندن. قالتْ : « دعني أستمع » ، فلم أتوقف . لكزتني فلم أتوقف . استدارت إلي وعضَّت فخذي .

آه « ابنتي » عرفُت هذه المقطوعة في أيامي الأولى في بيروت . كنت في العشرين آنذاك . اصطحبني صديق الى بيته، جنوبي شارع الحمراء الشهير . سقاني الكثير من

الشراب ، ولم أكن محترفَ شراب ، ثم ناولني لفافة جعلت أعماقي نهباً لنشوة غريبة . كانت هذه المقطوعة الموسيقية تشهد الهبوب الخفيف لي في ليلتي تلك . وحين خرجت من بيته الى مصابيح الشارع تهتُ ، مدى ثلاث ساعات ، قبل أن أصل إلى ساحة البرج مشياً ، لأستقل سيارة أجرة إلى بيتي في « برج حمود ». كنت نشوان فلم أنتبه إلى ضياعي ، ومذهلة كانت الطرقات التي عبرتها في لحظاتي تلك : سهول قمح على الجانبين ، تحت العمارات العالية ، مباشرة ، وثمت دُمى ـ دُمى حقيقية كالتي يعبث بها الأطفال ـ تطلُّ من بين السنابل ، مومئة إيماءات مغرية فأتبعها ، وحين أتبعها تختفي ضاحكة ، فأنظر إلى الجهة الالأخرى من الشارع فأراها ، فأتبعها من جديد .

لم أنس الأمر . بعد ذلك ، قط . أكان ما رأيت هلوسةً من اثر لُفافة ؟ لا . حين سمعت المقطوعة ، تلك ، تهيَّأ لي المشهد برمَّته ، لكنه لم يبارحني إذ خرجت إلى الشارع . ظلَّ على حاله ، حيّاً ، كأنما كان ينتظرني منذ مائة عام .

آه« ابنتي » ، كلما سمعت هذه المقطوعة عدتُ الى نفسي التي تركتها منذ مائة عام ، هناك ، في أرضٍ ترفع مِذْرَاتها تحيةً لي .

كيف أشرح لابنتي ذلك ؟ كيف أشرح لنفسي ؟ فْلأسكتْ ، لكن سآخذكِ معي بيروت ، ليطمئن ،كلانا ، على حلمهِ ، وحليفهِ في العويل .

تبتسم « ابنتي » قائلة :« آلمتك العضَّةُ؟ » . لا أردُّ . أضع فمي على كتفها ، وأعضُّها بدوري .

« الخمسة الهادئون ينثرون عويلي على المياه واقدارها. الخمسة الهادئووون . والبحر يلتقط متاعي كأمينٍ على المنفى ، ومفاتيحِ المنفى » .

انتظرْ يا بيتي ، انتظرْ . لا تُغلقْ بابك للمرة الأخيرة دوني . بسيطاً كنتَ ، بسيطةً كانتِ الادراج المفضية اليكَ . لم يمرَّ قصف ، في الأعوام السبعة الأخيرة ، من غير أن ينالك رذاذ منه . اعتدتُ ذلك ، واعتدتَهُ أنتَ .

ورقةُ بيتي ، ينفذُ الحبر ، مر شدَّة رقَّتها ، إلى سطحها الآخر ، فيتبقَّع الكلام الذي سأكتبه ، لذلك أكتفي بحنيني إليه ، بحنيني الأخرس كبوابته الحديدية ، لكنني سأسترسل في استذكار شارعه الخالي ، أبداً ، أثناء الحرب ، حيث رفيف الموت يموِّج الهواءَ فتبتردُ الروح .

لم يكن من أحد هناك غير « أبي هاشم » ، القائد الذي لم يرسل القَدَرُ إليه بجنود ، فجنَّد أبناءَه الثلاثة ، واستولى على امبراطورية المائتي متر الخالية ، و« أبي فتحي » صاحب مطعم الهمبرغر ، الذي ينتظر الجوعى الشاردين ، فيتعفن الطعام من الانتظار .

شجر متحطم على طول الشارع . ركام ليس بكثير ، وزجاج كثير . أسلاك كهرباء متدلية كبقايا مهرجان . بقاليات تخرج من تحت أبوابها الصفيحية زوابعُ ذباب ، وتدخل زوابع ذباب .

ليس نموذجياً ، هذا الشارع ، في موته ، لكنه مدخل إلى الشوارع النموذجية في موتها . النموذجية في أنقاضها كصورةٍ شخصيّةٍ للهَوْل .

كان آخر عهدي بالمبيت في البيت حين سمعت اصوات انفجارات غريبة ، بعد بدءالحرب بخمسة عشر يوماً على التقريب . لم يكن من كهرباء ، او ماء لدي . حين قصفت الطائرات « المدينة الرياضية » ، في الخامس من حزيران ، انقطع عن شارعنا كل شيء .

كنت معتاداً على القصف . منذ العام ١٩٧٥ اعتدنا على القصف العشوائي . وكنت ، حين يشتدُّ ، أفرد فراشي في الممر الضيق الذي لا يحمي ، وأنام . لكن ، في تلك الليلة ، اشتممت رائحة شيءغريب . القذائف التي تسقط تنفجر على دفعتين . لا عهد لنا بذلك . القذيفة تنفجر مرة واحدة ، لا مرتين .

لا نخاف القذائف . نخاف الطائرات ، والطائرات لا تأتي في الليل ، لذلك كنا نرجع إلى بيوتنا ، من المواقع ، لننام . غير أن هذه القذائف شيء آخر : دوي مروِّع يعقبه دوي خفيف ، وانتثار مسموع شظايا في الهواء .

عرفت ، في اليوم الثاني ، أنها قذائف عنقودية ، لكنني واصلت نومي ، في البيت ، أياما أخرى ، برغم الخوف من سلاح جديد تصل أخباره إلى مداركي بالكثير من التهويل ، كعادة الحديث عن كل جديد ، ثم أقلعتُ عن النوم في البيت ، نهائيا ، حين خرقتِ الطائراتُ عادتها النهارية ، فباتت تكرُّ ليلاً ، أيضاً ، تحت المظلة المذهلة من قنابل التنوير .

كَرَّتْ سُبَّحة الأسلحة : عرفنا القذائف العنقودية أولا ، والفوسفورية الحارقة ثانياً ، وقنابل التنوير التي تنفجر على الأسطح ثالثاً ، والمنشارية رابعاً ، والفراغية خامساً

خامساً خامساً . آه من العمارات التي تنهار ، دون صخب ، حين تلقي الطائرات بقنابلها الفراغية . باتت الملاجىء لعبة استخفاف . بات الاختباء في الملاجىء كاختباء طفل وراء اصبعه . ابتكار امريكا يقدم لنا حلوى الآخرة على زجاج مهشم .
اكسر ألواحكَ موسى ، وليمتْ هارون ، ليبقي شعبُك أخرسَ إلى أبد الآبدين .

فراغيات إذاً : هندسة فراغية ، ووقت فراغيٌّ . روح فراغية وجحيم فراغي ، أمم فراغية . وجسد فراغي . تاريخ فراغي ، وكتب فراغية . نشيد فراغي ، ودول فراغية . بحر فراغي ، وسفن فراغية ، مدى فراغي ، وهجرات فراغية . منفى فراغي ، وكينونة فراغية . . . فراغ الفراغ . آلهة تتجوف إلى اللانهاية كَمَقْتل طفل .

أمريكا ، أمريكا ، أيها التابوت المهيأ لنشيد الإنسان ، استمعي . . . لا . فليستمع بيتي إليَّ ، فأنا في عجلة من أمري أمام بوابة المنفى .

جاء دورنا للرحيل . الأوامر ألّا نأخذ معنا من « الممتلكات » ما يزيد عن سعة حقيبة عسكرية واحدة . ذلك يعني بضع ملابس داخلية ، ومثلها من البناطيل والقمصان ، لا غير . حكمة تلك : لن تكون لنا مُلْكية في أيٍّ منفى . كان علينا ان نعرف ذلك منذ الخروج الأول ، لكننا سهونا قليلاً ، فلتُسامحنا الأرض التي تنتظرنا وراء السياجات .

اجتمعنا قرب تمثال « أبي شهلا » ، في ساحة اليونسكو . على مدى أيام ودَّعنا قوافلَ من الراحلين ، وها نحن المودَّعُون الآن .

كنت متربعاً على الأرض ، في ثيابي العسكرية ، فإذا بفتاة تجلس أمامي وقد اغرورقت عيناها بالدمع . كانت معرفتي بها سطحية ، تماماً ، ولا تتعدى التحية الخافتة من بعيد . نسيت حتى اسمها . هكذا ، دون مقدمات ، قرفصت أمامي محدقة تحت الغشاء البللوري من حزنها . قالت : « سترحلون إذاً ؟ كلكم ترحلون ؟ » . أيقظتني . كانت موجعة كحنين موجع . لم أعد أراها . ستار من الدمع غطى صورتها ، فاحتضنتني .

كنا ، ذلك اليوم ، كَقِرَبٍ رقيقة ملآى ، كل نسمة تفتح في جدرانِها مَسيْلاً ، وما أكثر النِّسيم التي هَبَّت من الساحة تلك حتى الميناء . دمع يكفي لاستحمام سكان عمارة بثلاثين طبقة . زفير يكفي لتغطية التاريخ بغشاء رقيق من الغبار .

« لقد أُصبتُ » صرخ عصام . حاول والده « أبو خالد » أن يهرول إليه ، لكنه تراجع صائحا بدوره : « لقد أُصبتُ » .

من سيتحرك للنجدة في هذا المدخل الضيق للعمارة ؟ نحن سبعة في الداخل ، تحت الدرج ، وفي الزوايا. قذائف تساقطت حولنا فهرولنا إلى الداخل . آخر قذيفتين سقطتا على المدخل تماماً . شظايا تدحرجت ككرات « البليارد » ترتطم بحائط فترتدُّ على الآخر .

اعتقدنا ، جميعا ، أننا أصبنا . الأزيز حول الآذان ، والضغط على الأجساد .

هدأ القصف فعرفنا أننا لم نُصَبْ . « عصام . . . أبا خالد ، ما مدى اصابتكما » ، سألناهما ، فصمتا . كانت شظية صغيرة قد جرحت ظاهر يد عصام جرحا طفيفا ، أما « أبو خالد » فلم يصب قط . شظية اخترقت ساق بنطاله ، من جهة إلى أخرى ، من غير أن تلامس اللحم . حُمَّى قُرْبِهما من الشظايا جعلتهما يصرخان .

« انظري » قالها « أبو خالد » لابنتي ، بايماءة من يده ، وأراها ساق البنطال ، بعد أيام من الحادثة. ظل يومىء متحدثا بالعربية ، وظلت « ابنتي » تسأله بالانكليزية عن مغزى إيماءاته ، ثم التفتتْ إليَّ لتستوضح ، فأجبتها :« يقصد القول إنه قد مات » . رفعت حاجبيها استنكاراً على ردّي ، فتوجهتُ إلي « أبي خالد » متسائلاً :« ألا تقصد القول إنك قَدْمُتّ ؟ » ، فافترَّ فمه عن أسنان اهترأ نصفها .

لم يغادر « أبو خالد » ، وابنه عصام ، بيروت ، ولم تغادرها زوجة عصام أيضا ، المرأة الاكثر قماءة في الكون ، وكانت تلازم زوجها ، ليلًا نهاراً ، في مبنى « مطابع الكرمل » . تتدلَّل علينا ، وفي ظنها أنها أنثى ، فنودُّ لو نهرب من المكان .

ما من سبب للحديث عنها . ما من ذاكرة تستعيد صورتها إلاَّ وتجفل ،لـكنها كانت الصامدة الكبرى في مكانها الجحيمي .

لم أعد أذكر اسمها . كانت صغيرة ، في السادسة عشرة من عمرها . ترتدي ثيابا عسكرية ، بلغ منها الاتساخ مبلغهُ الاعظم . شعرها بني ضارب إلى الشقرة الباهتة في خصَلِهِ الواقفة كشعر « ميدوزا » . وجه لا هو لامرأة ولا لرجل . وجه ضائع بين بين . جسد طفلة في العاشرة ،وثديا عجوز . طولها طول بندقية ، وصوتها صفير ريح بين العيدان .

أتغتسلْ ؟ لا أعرف ، لكنني أجزم أنها لم تغسل وجهها منذ عشر سنين . تحتضن قطط « أبي خالد » المتسخة ، الضامرة ، وتقبِّلها في حنان أشبه بالنهش . . . ومع ذلك كان يحبها زوجها ، وهو شاب أميٌّ ، بسيط ، لا عيب في شكله ، بل يبدو وسيماً بعض الاحيان .

لاموجب لذكرها قط ، لكنها حمّى صورة من صور الكابوس الُمْهَرَقِ على الذاكرة . شبحٌ من الجحيم الأبعد. شبحٌ قادم ليزيِّن الدمار بأثدائه الهلامية ، ويوطِّدَ الفجيعة في يديكَ كقفّازَيْنِ .

« سامحيني . كنت بسيطة كالحوض الذي اعتدنا شرب الماء منه ، برغم اليرقات الغريبة السابحة فيه » .

. . . لم تغادر هذه المرأة بيروت ، وغادرناها ، نحن .

« الصيدلي » ، أيضاً ، لم يغادر بيروت . جاء لقبه من عمله في صيدلية « صبرا » . لا أعتقد أنه عمل في صيدلية قط . كان يظل دائم التجوال في الشوارع الشَّبحية ، كأنْ لا موقع له . وهو طريف ، كلما استوقفتَهُ سرد لك آخر عمل بطولي من أعماله ، وهي لا تنتهي أبداً ، وتفوق في عددها عدد أيام عشر حروب .

كان « الصيدلي » يختلق الأقاصيص ، تعويضا عما يفوته على جبهات لا يستطيع أن يكون فيها ، جميعاً ، في الوقت ذاته . إنه يود لو تعدَّد ؛ لو غطى مداخل بيروت كلها بحضوره ، لكنه واحدٌ فحسب ، لذلك يختلق .

الذين عرفوا « الصيدلي » ، حقاً ، رووا عن جسارته ما يدهش : ركض وراء دبابة في « خلدة » ، ووضع قنبلة يدوية داخل فتحة برجها . لم يخرج من « الدامور » الا بعد يومين من احتلالالغزاة للدامور . جلب سطل ماء من ثكنة « هنري شهاب » ليلا ، برغم وجود الجنود الاسرائيليين فيها ؛ وكان الأمرُ محضَ تحدٍّ . ذهب مرة بثياب الغطس الى شاطىء « المنارة » ، وقرر أن يقود عملية ضد زورق اسرئيلي بنفسه ، لكن المحاربين منعوه لحماقة الفكرة .

لـ « الصيدلي » حق في اختلاق ما يشاء ، ما دام قد أقدم على ما يفوق الاختلاق . و« الصيدلي » لم يغادر بيروت .

« جُزَّةٌ ذهبيةٌ على كتفي ، وفي يديَّ لجامُ الماء . سأصلُ اليكَ شعبي ، سأصلُ إليك أبي : المنفى نادلٌ ، والجهاتُ لؤلؤةُ التاج الذي أرتديه » .

صعدنا الشاحنات إلى المرفأ . صعدنا الباخرة من المرفأ إلى « لارنكا » . صعدنا الطائرة من لارنكا إلى « تِبِسَّة » في الصحراء الجزائرية، في بساطة عصرية خالية من التعقيد .

سأصل إليكَ شعبي . سأصلُ إليك .

ثلاث شهادات شفهية

محمود درويش

بعد خروجه من بيروت، قدَّم محمود درويش عشرات الشهادات للصحافة العربية والاوروبية عن تجربة الحرب والحصار، والصراع العربي ـ الاسرائيلي في مرحلته الراهنة. وقد اخترنا من أحاديث درويش الصحافية ثلاثة، أدلى بها لكل من مجلة «كل العرب»، الصادرة في باريس، ومجلة «المجلة» الصادرة في لندن، وجريدة« لوموند» الباريسية.

الشهادة الأولى

□ خرجت من بيروت لوحدك، وبعد خروج المقاتلين الفلسطينيين منها. لماذا لم تخرج معهم؟

□ كنت افضل البقاء في بيروت، لأن الاتفاق حول الخروج من بيروت كان يقتضي خروج المقاتلين والقادة، وانا كما تعلم، لست مقاتلا ولا قائدا. انا شاعر فقط. ولكن عندما وصل الجيش اليهودي الى بيروت الغربية واحتل كل شوارعها وحاصر كل البيوت و جدتهم بعيني في الطرقات، وامام منزلي، وكأنهم يطاردونني من حيفا الى بيروت. كان علي ان اخرج، وانا اعلم بأن تأخري في بيروت كان خطأ. وانني لست شاعرا فقط.

□ خرجت من بيروت بعد حصار طويل، كيف عشت ايام الحصار طيلة اربعة شهور؟ اية صور بقت في الذاكرة؟

□ بقي كل شيء في الذاكرة. الذاكرة مزدحمة بكل الاصوات والخراب والبطولات، الى درجة انها تفيض عن حجم استيعابي لها. لقد كانت الشهور الاربعة في

بيروت اطول ايام في تاريخ حياتي، ولا اعرف كيف امد يدي لامسك بعض الصور. واخطر ما في هذه التجربة هو انها دمرت افكارا. ويبدو لي أن القصف الاسرائيلي كان يهدف الى قتل الناس وتدمير البيوت، وكان يهدف ايضا الى قصف الافكار. لقد قصفت افكار كثيرة في مسيرة حياتنا العربية، وسنحتاج الى وقت طويل لاجراء مراجعة عامة لمنظومة افكارنا وتحديد الفكر الجديد الذي ينتجه الواقع الجديد، دون ان نقع في الخضوع للهدف الاسرائيلي بتدمير افكارنا. نحن مطالبون بالبحث والمراجعة دون ان نفعل ذلك تحت قوة الضغط الاسرائيلي. لذلك نحتاج الى مدة طويلة لترتيب الصور والافكار والمشاعر. اما الشيء الباقي فهو اننا لن نغفر لهم.

□ هل كتبت؟ ماذا كتبت؟ ماذا عنت لك الكتابة في هذا الحصار؟

□ لم اكتب شيئا مهما طيلة الحرب، مع يقيني بان هذه التجربة ستقلب الكتابة، على الاقل كتابتي. كنت واثقا بانها ستتغير. وانا اعتبر بان كل ما كتب قبل بيروت هو تقليدي. تجربة بيروت تستلزم كتابة جديدة، لأن ما جرى في بيروت هو اكثر من تجربة عادية في تاريخ شعب، هو اكثر من زلزال. انه انقلاب كامل لكل المفاهيم والافكار، وللتكوين البشري للناس. الكتابة امام عبث الجنون كانت تعتبر نوعا من الترف لأنها تحتاج الى جنون مضاد. ولان ما كنا نحتاج اليه هو الكتابة المادية والسلاح والتضامن الفعلي، ولم نكن بحاجة ابدا الى بعث الحماسة بين المقاتلين. فقد كنا نتعلم من المقاتلين، كيفية التعلق بالحياة الحرة والشرط الانساني، وكيفية كتابة الجديد والحياة الجديدة. لذلك كنت اعتقد، ربما على خطأ، بعدم جدوى الكتابة.

فضلت كتابة صمتي خلال ايام طويلة. ولكن بسبب عجزي عن القيام بأي دور غير الكتابة في هذه الحرب عدت الى الكتابة، لكتابة بعض المقالات الصحافية التي لا تعني اية قيمة ابداعية. لذلك اقول بأنني ما كتبت.

لقد كتبت صمتي بطريقة جديدة. اعدت التفكير بكل كياني الانساني والسياسي والثقافي. وحتى البشري. وشعرت ان اية خدمة عملية يقوم بها اي مواطن هي اعظم من اي انجاز ادبي.

اية ثقافة في الوقت الذي يتحول فيه اللحم الفلسطيني واللبناني الى حقل تجارب لأحدث منجزات العلم الانساني!

اية ثقافة طالما ان القيم التي صاغها الانسان عبر تاريخه الدامي الطويل معرضة للزوال امام عربدة الذئاب اليهودية التي حملت احقاد قرون وصبتها على مدينة، لا ذنب لها الا انها سمحت لنفسها بالتفكير في بناء مصير انساني اخر، وحاولت ان تفتتح حياة مختلفة عن حياة التشرد والقمع، ذنب الفلسطينيين هو انهم اصروا على الاحتفاظ بحلم ما: حلم بسيط جدا، هو ان يعاملوا كسائر انواع البشر التي يزدحم بها هذا الكون

الواسع. ولكن العقلية اليهودية الحاكمة، لا في اسرائيل وحسب بل في العقل السياسي الدولي المحتل، تستكثر وتستعظم على غيرها ان يعيش على هذه الارض.. ارض البشر.

فتحت القصف لا تستطيع ابدا ان تشعر بقيمة القلم والورقة والكتابة. كانت هناك ورقة واحدة مشهرة في وجوهنا هي حكم الاعدام. للاسف الشديد، الصمت العربي والدولي يوحي لنا بان ما يجري كأنه استجابة لحالة الانهيار العام العربية والانهيار العالمي الخلقي. لم يكن الصمت ارحم من القصف الاسرائيلي، وكنا وحدنا كليا. كنت أشعر بان كل انسان مقيم في بيروت له الحق بان يشعر بوحدة الانبياء امام الظلام وعنف الشر. ووصلنا الى درجة لم يكن لنا خيار فيها الا ان نتمسك بحلمنا وان نزداد عنادا. فالموت اصبح مسألة عادية ويومية، لا قيمة لها. فضلنا ان نموت احرارا على ان نقول نعم لهذا النوع من الغزو اليهودي ولهذا النوع من الجريمة العربية والدولية.

□ ماذا عنت لك المواجهة مرة ثانية مع العدو الاسرائيلي، انت الذي رفضت البقاء في الوطن المحتل، وانت المهدد بالاعتقال على الاقل؟

□ عنت لي شيئا واحدا، ان العلاقة بيننا وبين الصهيونية ستبقى علاقة مواجهة، وان البحث عن صيغ للتعايش وعن الاعترافات المتبادلة والدخول في الشرعية الدولية من باب الغاء الذات، ما عادت تعني لي الا العبث، الا زرع الاوهام. فقد بت مقتنعا بانه لا يمكن أن يكون هناك تعايش بين هذه العقلية وبين اي مواطن على وجه الكرة الارضية.

لقد برهن يهود اسرائيل انهم مصرون على بعث مفاهيم التلمود الظلامية، وهي ان العالم ينقسم الى قسمين: اليهود وغير اليهود وان علاقة اليهود مع غيرهم هي علاقة عداء. لقد اصروا على احياء ابشع ما في الصورة اليهودية، وهو عدم امكانية تعايشهم مع غيرهم من الشعوب. فالفكر الصهيوني اليهودي مغلق الى درجة قتل الآخر. اعتبر ان لامستقبل لعلاقات انسانية وعادية بين الصهيونية واي شعب، عربي او غير عربي. ففي خلفية الفكر الصهيوني تقوم فكرة ان كل الامم والشعوب معادية لليهود ومتآمرة عليهم. حتى مجرد تقديم النصح لاسرائيل من اميركا وغيرها بات معتبراً منها عدوانا على السامية. «اذا مات غير اليهودي فهذا حسن لليهودي» تلك هي تعاليمهم المقدسة، والبيت الاسرائيلي لا يطمئن الا على دمار الاخرين. لقد تحكمت هذه العقلية بهم، وطبقوها على بيروت.

انا خارج من هذه التجربة اكثر اصرارا بانه لا يمكن أن يكون هناك اي تعايش واي حل بين الصهيونية وشعوبنا، وبين الصهيونية والوجدان العالمي.

□ لا تتحدث! ومنذ بداية حوارنا، الا عن اليهود، دونما تفريق بينهم وبين الاسرائيليين وبين الصهاينة. هناك تغير في اللغة، في الموقف؟

□ هو ليس تغيرا في فهم الصراع.كل الشعوب في العالم خاضعة لابتزاز اسرائيلي هو انه علينا، نحن العرب وغيرنا ايضا، ان نحذر من استعمال لفظة« يهودي» في الوقت الذي لا يتصرف فيه اليهود ولا يتأسسون ولا يتحركون الا على اساس« التفوق اليهودي» و«الحق اليهودي» و. . الدلع اليهودي .

انا لا اشتمهم حين اسميهم بـ «اليهود» مثلما لا أشعر باية اهانة حين يسموننا بـ «العرب». هذا لا يعني انني لا اميز بين يهود متعصبين ويهود مسالمين. اما العقلية اليهودية السائدة في المجتمع الاسرائيلي فهي تقدم ادلة يومية على امكانية عودة الفكر الغربي الى مرحلة العداء للسامية. السلوك الاسرائيلي هو الذي يقدم للوعي الغربي ذكريات كان من الافضل أن تبقى منسية. هناك الحاح اسرائيلي على الوجدان والوعي الغربيين للتمييز بين مصطلحات كان يفضل الغرب عدم ذكرها وعدم تذكرها. بيغن هو الذي يذكرنا بأسوأ ما في سلوك شعب ما من مزايا.هو الذي يعيد الى الاذهان ملامح تراث فضلنا ان ننساه. وعلى الضمير اليهودي الحي ان يخوض معركة الدفاع ضد عدوه الحقيقي: اسرائيل .

□ ماذا يعني لك الموت، انت الذي عايشته في اكثر من لحظة، خلال اربعة شهور ؟

□ كان احساسي بان الحياة، لا الموت ، هي المصادفة. فالموت امتلك في حينها الحق بالكلام، برا وبحرا وجوا. لم يقدم لنا العالم الا الموت. فكان علينا ان نقبل بهذا المصير. في سياق دفاعنا عن الحرية، لا في سياق البحث عن سلامة العبيد، كان علينا أن نمسك بالمعادلة، الحرية او الموت. ولم يكن امامنا اي خيار آخر، والموت لم يكن نهاية اي شيء. كنا نثق بان دمنا لا يمكن أن يذهب سدى. لا بد لهذا الدم ان يحرك شيئا في هذا السكون، وان يكون شاهدا على عصر يموت .

كان المسيح، بصورته ومعناه، مهيمنا على حياتنا: التضحية حتى الموت، الحلم حتى الموت ، الاحساس بالوحدة حتى الموت كان يُحضر فينا اشياء غابت ويبلور نوعا من الصفاء، وكأننا أول سكان جاؤوا الى الارض .

اكاد اقول ان الموت لم يكن قضية تثير الرعب او الخوف، لان التعايش معه وفي كل ساعة، يسمح للافكار الكبيرة ان تأخذ مساحتها، التي كانت مفقودة. فلم يعد للانسان ما يخسره اطلاقا. وفي هذه اللحظات تصبح الكرامة والعناد جوهر الوجود عند اي كائن. استطيع ان اقول لك بان الناس بعبقريتهم البسيطة استطاعوا ان يعيدو الوضع العادي الى حياتهم، واصبحت الحياة طبيعية وعادية، ولقد تكيفوا، وتم الاحتيال على كل ما ينقص الانسان من وسائل الحياة. استطيع ان اسجل هنا أن عبقرية شعبية تولدت خلال هذه الحرب، بصلابة وتماسك وتعاطف.

□ بمن كنت تفكر في تلك اللحظات القاسية والمرعبة ؟

□ كنت افكر كثيرا بالبيت الأول. بعائلتي في الوطن المحتل. لأن الموت، بهذه

الكثافة والصلافة والالحاح ، اعادني الى بيتي الأول وعرى التاريخ من تطوره .

كل شيء يعود الى اوله. فكرت كثيرا بأمي وباخوتي. وشعرت بحنين جارف للقائهم، في احلامي وطول نهاري وليلي. لا اعرف ما هي العلاقة بين خطر الموت والعودة الى الطفولة. وكأن ما يقدمه لنا الموت من اقتراح - لانه هو نهايتنا - قد اكمل الدائرة، فعدنا الى الطفولة. قد نجد في هذا تفسيرا مقنعا. الآن نتفلسف ونحاول أن نترجم احاسيس غامضة. عدت الى طفولتي من جديد، لانني ربما رأيت في لاوعيي نهايتي. دورة الحياة اكتملت فولدت من جديد. صرنا نتعلق بمكونات السعادة البشرية، واكتشفنا ان السعادة تتكون من عناصر في منتهى البساطة: عندما نرى رغيفا نفرح كأنه اشارة الحياة ورمزها. عندما كان يهدأ القصف ساعة كنا نسترخي في سكون جميل جدا. ولكن ايضا عندما كان يطول الهدوء كنا نحس اننا افتقدنا شيئا، هي العادات التي تكونت فينا، وكأن فينا حنينا الى اعادة الصلة بما انقطع من سياق، فالحرب خلقت بيننا وبينها علاقات يومية وحميمة وخاصة، بحيث كانت ساعة الهدوء تبدو طويلة، مملة، حين كانت تتوقف الحرب. ساعة الهدوء كانت مزيجا من الفرح بالسلامة والشوق الى شيء آخر. يصعب ضبط هذه الاحاسيس. فبعض الدقائق كانت اطول من الايام، وبعض الايام كانت اقصر من الدقائق. بدأت كتاب عمل شعري كبير، ويبدو ان الشعر هو افضل من الرواية، اي السرد للتعبير عن هذه التجربة لان الشعر في احد اشكاله هو المزيج من اكتناز غموض يتضح عندما نتعامل معه. فالقصيدة احيانا تفسير لشيء لانفهمه، فلا نفهمه الا بعد التعبير عنه .

ولكن اخطر ما في هذه الحرب هو اننا تعودناها فبات من الطبيعي أن تمر الطائرات فوق رؤوسنا، واذا ما اتت القذيفة فلتأتِ. هذا قدر. نموت أو نحيا ، ليست قضية كبيرة. المهم أن لا نستسلم امام هذا الوحش .

حرب بيروت مخالفه لسائر قوانينها، وصمودها الاسطوري نادر بدوره. لأنه لم يكن من حقنا أن نحيا مع حضور هذا الوحش. وهذا ما يفسر الصمود الاسطوري. لأن قوانين الحرب تقتضي شراء الحياة بالهزيمة . اما نحن فقد فضلنا شراء نصر الارداة بالموت .

□ ولكنكم اضطررتم الى مغادرة بيروت . هل هزيمة أم نصر؟

□ لا استطيع القول باننا انتصرنا ولا اقبل القول باننا انهزمنا. لا اعرف كيف تحدد الهزيمة ؟ ولا اعرف على من انتصر الاسرائيليون ؟ هم انتصروا على وضع عربي فاعلنوا فضيحته .

نحن لم نتقدم من مشروع الأمل العربي بوهم اننا قادرون وحدنا في بيروت، او ان بيروت وحدها قادرة على هزيمة احدى احدث الات الحرب في هذا العصر. من هنا لا استطيع ان اقول باننا هزمنا في امكانياتنا الذاتية. نحن نجحنا على اليأس العربي وقدمنا

نموذجا على ان بوسع شعب صغير، وبوسع حفنة من الافراد، ان يتصدوا لاحدث آلات الحرب. خسرنا مواقعنا واعداداً من اخوتنا، لكننا لم نخسر انفسنا، لم نخسر فكرة الحرية. اما الوضع العربي الرسمي فقد خسر نفسه، خسر شرعيته ، حتى اسرائيل خسرت نفسها. في نهاية الامر يمكن قياس الربح والخسارة ونحن لسنا جيشا ولا دولة. نحن جسد وفكرة .

ولكن في محاكمة مبررات وجودنا استطعنا الابقاء على حقنا في ان لا نخسرأنفسنا، فيما خسرت اسرائيل كل شيء في اكبر هزيمة اخلاقية، وما ربحته هو: ان تدمر ، ان تقتل الآخرين. اسرائيل خسرت شرعيتها، سمعتها، واعادت الى التاريخ اليهودي محاكمة كان من الضروري ان لا تتم، الخطر الآن ليس على الصهيونية بل على اليهود، على الاقل اخلاقيا. لأن ما قدمه العالم من مبالغة في تأنيب الضمير تجاه المصير اليهودي قد انقلب الآن، ويتعرض الضمير اليهودي الآن ـ وانا اعتقد بوجوده ـ الى محاكمة لم يتعرض لها في تاريخه . ومستقبل التعايش اليهودي ـ العالمي يتعلق بمدى ما يتمكن الضمير اليهودي من نقد الذات ومحاكمة العصابة الحاكمة. وفي المقابل تكثف الحضور الفلسطيني، وحررت الصورة الفلسطينية حقيقتها من التزوير، وتجلت في كل بيت في العالم كما هي: صورة حرية وحق وعدل .

وفي جدل «فائض القوة» الذي تمثله اسرائيل، و«فائض الحق» الذي تمثله فلسطين لا يستطيع العالم ان يهرب من الامتحان .

□ قبل سنة كتبت «قصيدة بيروت » الشهيرة . ماهي بيروت الآن بالنسبة لك ، ومرة ثانية ؟

□ بيروت تحولت من مدينة عادية الى معبد للمعاني. كل شبر في بيروت مقدس الآن. بيروت هي مريم المجدلية الجديدة. كل تفاصيل بيروت ومعانيها السابقة لها قداسة لم تتمتع بها مدينة من قبل. وبيروت ايضا تطهرت ولم تعد عاصمة. لأن مفهوم العاصمة ، خاصة العواصم العربية، قد كان دوما سلبيا. عواصمنا تعني دوما الهزائم . بيروت استثنت نفسها وخرجت من لقبها السابق حين كانت تسلي الاثرياء. بيروت تفوقت، حتى على دمها. ولم يمر فيها نبي بشكل سريع، لأن جميع اطفالها انبياء، وكل من دافع عنها مقدس. ولن يستطيع اي تطور لاحق ان يزيل اي معنى من هذه المعاني التي امتزجت باسمنت بناياتها. لا استطيع ان استبق مشاعري حين سأراها مرة اخرى ـ اتمنى ذلك على اي احال ـ اظن انني سأكون في حضرتها طفلا آخر، وسأمشي في شوارعها بخجل وبرهبة . لأنني كنت شاهدا على ولادة اجمل مدن التاريخ البشري من بين الانقاض . انقاض بيروت ليست قبيحة كما يتصور البعض. كنت اشعر بان بناياتها اذرع واشكال بشرية. والذين لا يرون من بيروت الا معنى الخراب فهم لا يعرفونها ابدا، لانها معنى الابداع والخلق. وهي معنى ان يشهر الكائن البشري كل اسلحته للاحتفاظ بنفسه، وبان لا يبيع نفسه للشيطان. وهل انسى حقد العيون في بيروت والصمت البليغ لسكانها

امام الدبابات الاسرائيلية، هذا الصمت الذي لم يحمل الا الاحتقار لهذه الآلات التي لم تنتصر الا على الظلال، لا على المقاتلين المدافعين عنها ؟

بيروت لم تفعل ما فعلته غيرها من المدن امام الغزاة، حتى الحد الادنى من التعامل مع الغازي من اجل توفير سلامة العيش ما قدمه اهل بيروت لجنود الاحتلال. لقد كانت المقاومة سلبية نهائية ومطلقة. كان الاحتقار واضحا، حتى في عيون الاطفال. لأن اهل بيروت، الذين عرفوا كيف يكونون جديرين بهذه المدينة وكيف جعلوا هذه المدينة جديرة بدمهم، لم يعودوا يخافون اي شيء. فما رموا عليهم الرز أو «الملبس». بيروت ظلت امينة لمعانيها ولدم مقاتليها ولمستقبلها ايضا. من هنا فان اخضاع بيروت عملية مستحيلة، كذلك فان لعنة بيروت، على ظالميها ستكون اقسى اللعنات.

من اين اتى الخوف الذي منع شعوبنا من ان تتظاهر ؟ بيروت ستبقى دعوة لتحرير المواطن بحيث يتخذ دوره في عملية الدفاع عن الوطن.

□ قلت في «قصيدة بيروت» : «بيروت خيمتنا الاخيرة، بيروت نجمتنا الاخيرة». ولكن الشعب الفلسطيني بنواته المقاتلة معرض الآن، ومرة أخرى، للتوزع بين الاقطار العربية ؟

□ بكيت كثيرا عندما ودعت الفوج الاول من الفلسطينيين الذي غادر الى عرض البحر المتوسط. استطيع القول انني فكرت كثيرا بالتراجيديا الاغريقية وسط بكاء طال، هو ليس بكاء النهايات بل بكاء التأثر العميق تجاه مصير شعبي.بدا لي ان التراجيديا الاغريقية امام هذا المصير الفلسطيني الجديد هي عبارة عن رواية بوليسية كتبها كاتب اميركي، لأن غضب الأله اليوناني على البطل كان ينتهي عادة بمصالحة ما بينهما، او بتدخل آله ثالث.

ان رحلة «أوليس» من بحر ايجه بدت لي رحلة بسيطة، ورحلة ذات صلة برحلة الفلسطيني الجديدة. الشعب الفلسطيني يعرف منذ التاريخ القديم على انه شعب بحري هاجر من كريت الى فلسطين. طبعا انا لا ادعي الصلة بين ذلك الشعب والشعب الفلسطيني العربي الآن. ولكن الميتولوجيا تستطيب هذه الرموز وهذه العلاقات ونحن ايضا نتاج هذه الارض بكل شعوبها وتراثاتها. يطيب لي أن اجد العرق الاغريقي فيّ، على الاقل على المستوى الحضاري.

رأيت السفينة ذاتها التي حملت اوليس تحمل احد احفاده الجدد في القرن العشرين وعادت من الشاطىء الشرقي للمتوسط الى اصلها في كريت. هزتني الدلالة الجارحة لهذا التيه، الذي لم يجد له شاطئا عربيا، فعاد الى المرفأ الاول، دون ان يتدخل اي آله في اللعنة التي قدمها آله آخر ضد هذا البطل. الرحلة مليئة بالجراح وبالشعر ايضا. ولا اعرف متى يرسو هذا التائه الفلسطيني ؟ ولا اعرف ان كان جرحه سيلد بيروتا اخرى، او قدسا اخرى ؟ ولكنني اعرف ان هذه الرحلة هي من اعظم رحلات البحث البشري عن

مصير حر، وعن مصير آخر. وبدت لي الاقامة على الارض، او في دولة، خالية من المعاني تجاه هذا الشموخ الاسطوري المتجدد. لقد تمكن المقاتل الفلسطيني من ان يعيد الى الاسطوة امكانية تحديثها . نحن نعيش في عصر لا أساطير فيه، الا هذه الاسطورة: التائه من الشاطىء الفينيقي الى الشاطىء الاغريقي يعيد للروح البشرية معنى آخر غير المصادفة والارث. لذلك فان ما حصل في بيروت هو تلمس للامساك بروح شردت من البشر. هي عودة الروح الى زمن لا روح فيه .

وللحياة الفلسطينية الحافلة بالبطولات والظلم متطلبات اخرى: المعيشة العادية. ان ما يجرحنا هو ان هذا الشعب الساكن في حقائب لا بد له ان يرسو في مكان ما. ان الناحية الجمالية والروحية لا تكفي، ولا بد للمواطن الفلسطيني من هوية. طبعا الهوية الفلسطينية باتت اكبر الآن من ان تحدد بورقة رسمية. انها هوية الدم العالي، والصمت العالي الواقف كالشجر على سطوح كل منازل العالم. لكن متطلبات الحياة المعاصرة لا تتحمل هذا الكم من الشعر في التيه الفلسطيني، فلا بد من وطن ما، من سقف ما، عملي، مادي، محدد، يقيم فيه الفلسطينيون . وهذا ما يجعل الحديث السياسي وسط هذه الاسطورة ضرورية، لانه لا يمكن أن يقاد شعب بأكمله من مذبحة الى سفينة، الى حقيبة، الى مذبحة الى سفينة . . !

انني ارى التشرد اليهودي يتحقق مرة اخرى. لقد خرج الاسرائيليون كليا وربما الى الابد من الاسرة البشرية ومن القيم البشرية وخرجوا من لغة دفع فيها البشر بحارا من الدم لكي تتشكل وسيلة وقوانين للتعامل بين البشر . طرد الاسرائيليون انفسهم من هذه اللغة واصبحوا طفيليات على جسد البشرية والحضارة. اية مفارقة غريبة بين تشرد الفلسطينيين الجدد، وبين خروج اليهود، الصميمي والحقيقي، من الوعي العالمي. عندما كان الفلسطينيون يحملون حقائبهم ويمضون باتجاه البحر، كان الاسرائيليون يتجهون نحو الضياع ويخرجون من الشرعية الدولية. وكان تأنيب الضمير العالمي السابق يأخذ شكلا معاكسا لانه صار يتعلق بالمصير الفلسطيني. المفارقة تنمو وارى ان اي كوخ واية حقيبة يسكنها الفلسطيني هي اكثر متانة من وزارة الدفاع الاسرائيلية. لاننا انتصرنا على مستوى الحق، على مستوى انسانية الانسانية، وهم انتصروا على عقدة واحدة: عقدة الانتقام من كل ما ليس يهوديا. لقد استطاعوا ان يجدوا لحما فلسطينيا يغرزون فيه احقاد خمسة وعشرين قرنا. ولكن هذا اللحم يمتلك مناعة ستجعل الاسرائيليين يدركون انهم لم ينتصروا الا على الوهم للدخول في وهم آخر. لقد ضيقوا «الغيتو» الاسرائيلي وطردوا انفسهم حتى من عند من يرعاهم، وبرهنوا على انهم غير جديرين بأي شيء، بأية اقامة آمنة على اية ارض .

□ الموقف العربي، اتسم، في اقل تقدير، بالسلبية ، كيف تفسره ، أنت الفلسطيني المهدد دوما بالخيانات والتخلي ، وانت الذي قلت« كلما آخيت عاصمة رمتني بالحقيبة» («احمد الزعتر»)؟

□ انا لست من الذين يتسرعون لالصاق تهمة الخيانة بأحد. الا ان أصعب سؤال سيواجهنا في مرحلة تقييم ما جرى في بيروت: ماذا جرى للعرب ؟ هناك خلل ما، هناك منظومة من الافكار تتساقط .على علماء الاجتماع والانثروبولوجيا والمفكرين ان يبذلوا جهودهم للبحث عن منطقة الخلل العربي في البنية العربية .

احساسي يقول لي بوجود خلل ما، دون ان استطيع تعريفه. ولا اعتقد ان هناك مسألة نظرية اكثر اهمية والحاحا من محاولة البحث عن منطقة هذا الخلل. ولكن من الواضح اننا مدعوون ، وبشكل ملح، لاعادة النظر بكل ما يحكم افكارنا من نظام، لا لاستبداله بعكسه ، بل لفهم طبيعة هذا الانهيار: فنحن الآن في لحظة الانهيار الشامل. ولا يمكن بالتالي أن نكون منهارين عسكريا دون ان نكون منهارين ثقافيا. الانهيار شامل دوما. اعادة النظر يجب ان تعالج مسائل : القومية العربية، الامة العربية، الوحدة العربية، فكرة التطبيق العربي البائس للاشتراكية .. هذه الاسئلة باتت ملحة الى حد ان تكون شرطا في ان نعيش أو لا نعيش. . في ان نكون أولا نكون .

انا لا استطيع شخصيا ولا مئات من امثالي الوصول الى الاجابة عن هذا السؤال الشاق جدا: ما هو الخلل ؟ من هنا يبدو ان خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، او انتهاء مرحلة من مراحل النضال الفلسطيني والدخول في مرحلة جديدة ولغة سياسية جديدة، كان امرا محتوما، لأن مشروع الثورة الفلسطينية كان صوتا نشازا في الجوقة العربية الرسمية، وكان اعتداء يوميا على مجمل الوضع العربي الراكد. هذه تهمة لا استطيع انكارها. نحن فعلا خطر على الأمن العربي الرسمي العام، خطر على الأمن الاستهلاكي لأنه وضع استبعد كليا افكار الحرية والاستقلال والتحرير والديمقراطية والعدل الاجتماعي. انه وضع مجتمعات استهلاكية لا تنتج شيئا. هل تعرف ان العرب لا يستطيعون ان يؤمنوا قوتهم في ارضهم ، ويستوردون كل شيء من الخارج؟ هل تعرف ان العرب هم من اغنى امم العالم حاليا ؟ وان معدتهم محتلة تماما كعقلهم وارضهم ؟

□ ما هو سبب الكارثة ؟ ما هو سبب الخلل ؟

□ اكاد اجن، ولا اعرف .

النظام العربي يبدو لي متشابها، والشعارات المكتوبة على الحيطان المختلفة لم تقدم لنا ادلة عملية على اختلافها المفترض. النظام العربي يبدو لي واحدا،والحاكم العربي واحدا ومتكاثرا . انتقلنا من فكرة الوحدة العربية الى الأمن الاقليمي، انتقلنا من الامن الاقليمي الى الأمن الطائفي. ومن الطائفي الى العائلي .

تدهورنا يتدهور! لا قرار، ولا نهاية له! يبدو ان النظام العربي لم يستفز لما جرى لنا في بيروت. لكنه متى يستفز ؟

□ قلما سمعنا اثناء هذا الحصار مواقف لكتاب وادباء عرب، ما هي حال الاديب العربي في هذا الوضع ؟

□ اتفقنا على ان الانهيار يشمل الثقافة ايضا. لا يحق لنا ان نحاكم موقف الاديب العربي من حرب بهذه الضراوة، ما كنا نحتاج خلالها الى البيانات والمواقف، بل الى الطائرات والصواريخ، انا شخصيا واخلاقيا، لا الوم الاديب العربي. انا واثق ان معظم الادباء العرب كانوا يتمزقون . وكان القصف الاسرائيلي وقصف الصمت العالمي يشملهم. الاديب العربي، عامة، هو جزء من هذا الشعب المقهور. انا كلي ثقة بان نفس وروح الاديب العربي قد تمزقت كما تمزقت ارواحنا واجسادنا . وانا واثق من انهم يطرحون الاسئلة ذاتها التي تؤرقني، ومن انهم سيعبرون لاحقاً عن هذا الانهيار في كتابة جديدة اتبين صدورها عنهم في وقت قريب .

لقد سقط كل شيء، الا حلمنا في ان نساهم في اسقاط ما يجب اسقاطه . والاديب العربي حارس هذا الحلم.علينا أن نرى عملية السقوط. وعلينا أن نميز بين سقوطهم وسقوطنا .

حلمنا بسيط: قول الحقيقة. منع هذا الانهيار من ان يشمل الفكر المضاد والموقف المضاد واخطر ما نشعر به هو ان الفروق تزول بين الغزاة والطغاة. لقد تساوى الطغاة والغزاة في حفر هذا النفق الاسود. نحن في النفق الطويل. ونرى شيئاً واحدا ومضيئاً. هو عنادنا واصرارنا على ان نستمر في الحلم وفي حقنا في ان نحلم .

□ كيف تفسر هذه الرزانة، هذا التعقل، هذا الاعتدال عربيا بعد هذه الحرب ؟

□ الفكر السياسي العربي يفهم الواقعية على انها قبول بالامر الواقع ، ولا يفهم الواقعية على انها تعامل مع الواقع من اجل تغييره . مسيرة هذا الفكر بدأت منذ ١٩٦٧ : انه فكر ينظر للعجز العربي، القائم على مبدأ واحد هو التعامل مع الشرعية الدولية تعاملا خاملا، اي ان يحل الآخرون مشاكلنا بالنيابة عنا. ان تعامل العرب مع الشرعية الدولية تعامل مضحك، فهم لا يفهمون منها الا اعتراف بحق اسرائيل في الوجود، متناسين ان السلوك الاسرائيلي يتناقض اصلا، وعلى طول الخط مع الشرعية الدولية. هكذا تصير افكار الثورة والتحرير وبناء حياة جديدة مناقضة للشرعية الدولية المرهونة دائما بـ «فيتو» اميركي. ان معركة العرب مكرسة، فعلا، للحيلولة دون «الفيتو» الاميركي، ولخدمة شروطه .

فالعلاقة الاميركية- العربية في هذا السياق ليست علاقة عمالة، ولا صداقة بريئة، لأن ارتباط العرب باميركا بات عضويا. انا لااستطيع ان اتهم الحكام العرب بأنهم يحبون اسرائيل. ولكن طبيعة علاقتهم العضوية بالسياسة الاميركية تجعلهم عاجزين عن بناء مقومات الصراع مع اسرائيل. في هذه العلاقة اصبح الوضع العربي اكثر هشاشة لانه مهدد

بالخطر في حال تناقضه مع المصالح الاميركية. لذلك فان كل هذا التعقل هو انصياع الفكر السياسي العربي لمتطلبات العلاقة العضوية باميركا على حساب اي شيء آخر مما اطاح بالاستقلال السياسي والاقتصادي والثقافي العربي،ومن المفيد ان يدرج هذا المأزق في مجمل مآزق استقلال العالم الثالث وان كان يتخذ في الحالة العربية شكل العار.

□ كيف تقوّم مثقفين وسياسيين اسرائيليين انتقدوا وعارضوا سياسة اسرائيل في لبنان، في الوقت الذي افتقدنا فيه قيام اية تظاهرة عربية ؟

□ انا لا استطيع الا ان ابتهج للخلافات في المجتمع الاسرائيلي ولكنني لا استطيع ان اعلق احلاما عربية على هذا الخلاف. من جهة اخرى لا استطيع الا ان اقارن، حتى لو كان مبدأ المقارنة ضدنا. من حقنا فعلا ان نتساءل عن هذه الطاعة غير المفهومة للشارع العربي. نحن ننعت الوضع العربي بكل التهم السوداء، ولكن من حقنا أن نحاكم انفسنا عن مدى التناقض بين الحاكم وبنية الوضع العربي. اما حين نطرح السؤال على مستوى سلوك الجماهير العربية، فالسؤال يصبح اكثر حزنا وحذرا. ومن هنا تتخذ مسألة مراقبة الوضع العربي شكل الدمعة، لانه ليس من حقنا ان ندين الضحية بل ان نفسرها . فنسأل : هل بلغ القمع حدا اصبح فيه الجمهور المرشح لان يكون قطيعا قطيعا فعلا ؟ اذا كان الامر كذلك فان ذلك يستدعي منا اعادة النظر بلغتنا وبوسائل تعبيرنا : لاننا نكون في واد والامة في واد آخر. اليس مثيرا للعجب ان يُذبح ابطال الامة في بيروت دون ان يثير ذلك تمرد الشارع العربي ؟ هذا ايضا يندرج في مهمة البحث عن الخلل العضوي الذي يقتلنا ولا نراه، ولا نستطيع ان نضع اصبعنا عليه حتى الآن. كان مثيرا للحزن العميق والنشيج الداخلي ان نرى الاسرائيليين يتظاهرون لاستنكار ما يفعله جناح منهم ضدنا، وكان الاحساس الذي تثيره هذه الظاهرة هو احساس انك وحيد. وهذا هو احد اشكال الانتصار الاسرائيلي. وهو انهم قادرون على القول انهم بالديمقراطية فيما بينهم لم يخسروا، فيما نحن خسرنا الحرب بدون الديمقراطية التي يعتبرها حاكمنا فوضى. حالتنا نحن العرب صارت مخزية الى درجة اننا اذا تظاهرنا ضد الغلاء نتهم باننا نُضعف المعركة مع اسرائيل. كل ما يُعبر عنه المواطن العربي من غضب على متطلبات عادية، يُتهم بخدمة اغراض الصهيونية. خطر هذه الظاهرة هو انها تشيع خرافة تفوق المجتمع الاسرائيلي على المستوى الاخلاقي والحضاري. للاسف الشديد، هذا الخطر يتحقق وهذه الخرافة تتأكد يوما تلو يوم في الذهنية العربية. انظر الى هذه المفارقة القاتلة: المجتمع الاسرائيلي يذبحنا والمجتمع الاسرائيلي يتظاهر من اجلنا . والمجتمع الاسرائيلي ينتخب بيغن من اجلنا. والمجتمع الاسرائيلي يسقط بيغن من اجلنا . ونحن نحن لا دور لنا، لاننا لا نعنينا!

لا اريد ابدا، وفي اي حال، التخفيف او عدم اعتبار اهمية التناقضات الاسرائيلية الداخلية ، ولكن علي ان احذر العرب من ان ما يجري في تظاهرات اسرائيلية لا تنطلق لخدمة الحق الفلسطيني او العربي، بل لتصحيح وتعديل صورة اسرائيل المهشمة

والموسخة. وعلى العرب ان لا يتهجوا فهذه التظاهرات في اسوأ التقديرات، تقوم بالنيابة عن التظاهرات العربية .

اسرائيل مدينة في نشوئها الى المجازر النازية، فعندما يتحول حفيد الضحية الى ضابط نازي، فهذا سيزيل عن اسرائيل ستار التعاطف، وتتحول الشخصية اليهودية، التي عاشت فترة طويلة كضحية تستدر الشفقة والعطف والدلال، الى قاتل .

ان المعارضة الاسرائيلية استوعبت تماما قدر المخاطر الذي يصيب شرعية اسرائيل الدولية والخلقية حين تتحول صورتها من الضحية الى القاتل .

□ الى اين تتجه اسرائيل؟ بيغن هل هو «ماكبث» المعاصر الذي مضى «بعيداً في الجريمة بحيث بات التقدم فيها اسهل من التراجع عنها»؟

□ بيغن ليس ماكبث.. انه ذئب تلمودي جائع للحم الفلسطيني منذ قرون. وهو ايضا خطر على صورة اليهودي في العالم، لانه قادر على ان يعيد اللاسامية الى الوعي، لانه يمثل ابشع ما في الصورة الذي بذلت اوروبا جهودا للتحرر منها: الكذاب، المرابي، الحاقد، الابتزازي.انه قادر على ان يؤذي اليهود روحيا واخلاقيا اكثر مما يؤذيهم اي عدو آخر. بيغن لا ينتمي الى عصرنا فعقليته ظلامية، تلمودية، تدميرية، وهو حين يغرز اصابعه في لحم شعبنا كأنه ينتقم من كل الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في السابق. انه يجسد الاعداء فينا. قد يأتي يوم ويُسجل فيه بيغن انه من اخطر اعداء اليهود .

□ ولكن، أعلى الفلسطينيين ان يقتلوا بالالاف لكي يعترف الغرب بهم كشعب ؟ اعليهم ان يموتوا كضحايا سلبيين، كما في مجزرة صبرا وشاتيلا، لكي يرى الغرب العدالة في قضيتهم ؟

□ لا ضمير للغرب او قد نسيه من زمان، فبمجرد ان يضع الغرب في اولويات علاقاته الدولية الحرص على امن وسلامة اسرائيل، وبمجرد انه لا يتعاطى مع الفلسطينيين الا على اساس اعترافهم باسرائيل، وبمجرد أن يُعطي اسرائيل احدث الات الفتك والتدمير، اثبت هذا الغرب انه بدون ضمير. لان موقف الغرب المتفرج ازاء كافة تعديات اسرائيل للقوانين والاعراف الدولية والاخلاقية، لا يعني سوى ان الغرب يجري تمارين حية لاسلحته على اجسادنا، بحيث يختبر فعاليتها .

ولكن عندما وصل الدم الى وجه كل مشاهد تلفزيوني في الغرب، امتعض الغرب وتحرك، وذلك انه يفضل الضحايا المخفية .

اية مفارقة أقسى من هذه المفارقة: علينا أن نموت لكي يرونا نحن،لا نرى الا شهداء او ضحايا ، اي انهم لا يروننا كناس لهم الحق في الحياة وفي عطلة يوم الأحد. نحن لا نرى الا جثثا. هذه اكبر ادانة لما يُسمى بالضمير الغربي. علينا ان نموت لكي يسمعوا صوتنا.

□ تعايش عن قرب ياسر عرفات ومنذ سنوات. كيف عايشته، لو تصفه لنا في شهور الحصار ؟

□ ان ترسم صورة لياسر عرفات معناه ان تكون خبيراً بكل العلوم. هو الرجل العصي على الوصف، لانه يستطيع ، اذا احتاج ان يفرك اذن الغموض ثم يشهر وضوح الحقائق دفعة واحدة. غزال فلسطيني وسط وحوش الغابة يعرف متى وكيف يكون فولاذا ومتى يتحول الى ندى. لذلك قاد أصعب ثورة في الزمن الوغد واحتل المرايا بجدارة القادر على توظيف صراخ الطفل في حوار العمالقة. يكره الجمود الفكري وساعات الفراغ. يمرض اذا استراح ساعة، ويزدهر في الازمات. ديناميكي الى درجة استفزاز الاخرين. انساني ومتواضع الى حد الاحراج . خادم الاطفال، سيد البراكين، مؤمن حتى العبادة بخصوبة الدم. لا شيء يذهب سدى. لا شيء يضيع. راسخ في المبادىء وساقية في المناورة. يستطيع ان يأخذ الملاك بيده اليمنى والشيطان بيده اليسرى من اجل صياغة جملة. يمشي بين قطرات المطر دون ان يبتل، ويسير في حقول الالغام دون ان يفقد المسار .

ونحن الفلسطينيين نبايعه أولا ثم نختلف معه، نحن جنوده في المعارك، وانداده في ابداء الرأي، هو قائدنا ورمز تاريخنا الحديث. نثق بما يمتلك من حواس سياسية سريعة الالتقاط وبموهبته في أن يسبق. ولا نخاف عليه الا من الغدر... ومن الطائرات الاسرائيلية .

في الحرب لم نكن نخشى على حياتنا بقدر ما كنا نخشى عليه. لقد تحول قائدنا في قلوبنا الى طفل يحتاج الى الحماية والحنان . كنا نخبئه عميقا هناك في القلب. وكان يقفز كالدوري الى مواقع الخطر وتفقد الجرحى والاشراف على رفع الانقاض. كنا نفكر كثيرا في مشكلة نومه : هل نام القائد ؟ هل وجد مكانا ينام فيه ؟ وكان ينام احيانا في سيارة على الرصيف، لان ضميره لا يتحمل مزيدا من الخراب .

وكانت الطائرات الاسرائيلية مشغولة في البحث عن خطوته. صارت خطوته موقعا عسكريا، خندقا، لغما يهدد مستقبل اسرائيل، حتى صار حذاء عرفات كابوس اسرائيل ومداها الحيوي، وحوَّلها الى سيدة القتلة في تاريخ البشر، اذ لم يحدث من قبل ان دُمّرت المباني السكنية الضخمة على مئات المدنيين بحجة ان خطوة عرفات قد مرت من هناك .

وكان يقفز في قطار الموت في كل يوم ويبتسم فلا تكون ابتسامته سلوى بقدر ما تكون املا والحاحا على الصمود: خذنا الى اي مكان ايها القائد، خذنا الى الوردة ايها الطفل، فنحن معك. وكنا نتساءل ساخرين: كيف ستحل دولة القتلة مشكلتها المستحيلة مع خطى عرفات ، خاصة ان هذه الخطى قد مرت على شوارع عشرات المدن في العالم ، وخاصة ان عرفات سريع الحركة وكثير التنقل ؟ وكنا نقول: هي الحرب المستحيلة، هي الحرب الغريبة، لان ياسر عرفات لا يسكن هناك ولا ينام هناك. انه مقيم

في احلامنا. وهو يعمل ويتحرك مطمئنا ، آمنا، في قلوب ملايين البشر المقيمين على سطح الكرة الارضية. ولن تكون اصابة الطائرات الاسرائيلية مباشرة الا اذا تمكنت «العبقرية» الاسرائيلية من ابادة قلوب البشر، كل البشر في هذا الكون .

وعندما كان عرفات يودع بيروت كانت بيروت تصحو على الصدمة وترتطم بصخرة الرحيل القاسية. كانت بيروت تعض على قلبها وتبكي. وكانت دمعة بيروت هي الارض الوحيدة في هذا الوطن العربي الكبير. وكان الرصاص حزينا.كان الرصاص يبكي بكاء اليتيم. ولم يكن خروج عرفات من بيروت خروج آدم من الجنة، بل كان دخول الفارس الى القلوب المفتوحة في كل مكان. كان عرفات يمد كفه الصغيرة، في هدوء موجع، الى الستارة وينزلها على نهاية المسرحية الهزلية التي استوجبت الاستنجاد بجيوش اجنبية لحماية اهالينا .

ولكن بيروت كانت تبكي ارزا ووردا وحشرجة: الى اين تذهب ؟ وكان أبو عمار يدق خطوته، ويعطي لاساطير الاغريق هوية فلسطينية، وكان الوحيد، الوحيد، الوحيد الذي ينتصر في معركة المعاني والرجولة والشرف، وكان يملي شروطه على البحر والمستقبل .

□ تحدثنا كثيرا عن الموت والدمار والانهيار، اين الحب ، اين الحياة، اين المرأة، أين الوردة ؟

□ انا قدمت طلب انتساب للحياة في آخر قصيدة نشرتها، وذلك قبل حرب بيروت ، «سنة اخرى فقط». طالبت فيها بالمرأة، بالوردة، بـ «خريف ما في مكان بعيد». . ولكن يبدو ان قدرنا هو ان لا تنشأ علاقة دائمة بيننا وبين اشارات الحياة .

بعد طلب الانتساب لم أر الا الدم، ومزيدا من الاصدقاء «خانوني» فماتوا. يبدو انه ليس من حقنا أن نحقق حياتنا وان لا نجد وردا ا لا في جراحنا . ويبدو انه ليس من حقنا ان نحلم خارج قارتنا الوحيدة: اي الصليب الضخم. عليه يجب ان نجلس ونأكل وننام ونكتب ونسافر ونحب ونتزوج ونداقع في حروب شرسة عن انفسنا في بلاد واحدة ووحيدة اسمها هذا الصليب .

هناك ورد في القلب، نحل وفراش في الحلق، ونساء وذكريات . . كل الحياة الجميلة موجودة في جسدنا الممزق، المثبت على الصليب منذ الفي سنة، فوق هذا الصليب نتمتع بحياة غنية، لا سؤال ميتافيزيقي فيها .

□ أجبرت خلال الحصار على ان تكون مع نفسك، ولوحدك وفي اكثر من لحظة. قد لا تكون توفرت لك سابقا، انت المولع والمنهمك بالحياة، فرصة التأمل هذه بشخصك كما توفرت لك اثناء الحصار، فماذا كانت حصيلة التأمل ؟

□ صحيح ان هذ ه الفترة اتاحت لي فرصا للتأمل، رغم مشاغبات القصف. دائما كنت اصحوا على صوت عصافير الجيران في الصباح الباكر. في احد الايام في ٤ آب أغسطس ـ وهو اطول يوم في التاريخ بالنسبة لي ـ بدأ القصف البحري منذ الثالثة فجرا. بين الصاروخ والآخر كانت العصافير تتابع انشادها، بحيث اسميتها بـ «العصافير الغبية». وصرت احتار بين الاستماع لصوت العصافير الغبية او الى القنابل البحرية ؟ في السادسة فجرا تدخل الطيران في اطول غارة(١٢ ساعة متواصلة)، بمجرد تدخل الطيران توقف انشاد العصافير/وخرست تماما .

هذه الحادثة الواقعية تغري المرء بان يربط الغناء، الذي هو الشعر، بصوت الصواريخ، الذي هو صوت الحرب: اي ماذا يفعل الشاعر في الحرب ؟ طبعا هذا الاغراء سهل. لانني اعتقد بان الشاعر لا يغني بين قذيفتين ، بل قبل القذيفة وبعدها، وهو يغني بشكل جميل. لا كمثل ذلك العصفور الغبي. وانت في الازمة لا تفكر في انها تجربة قابلة لان تغني حياتك . انا اعتقد بأن هذه الحرب غيرتني، غيرتني بمعنى انها حررتني من اية مطالب حياتية، والى درجة انني لا املك ولا يحق لي ان املك الا ان اقول ما اعتقد انه حقيقي، أي ـ وهذا هو تعريفي للشعر ـ كل ما تعتقد انه الحقيقة .

انا سعيد بنجاتي مرتين : فقد كنت معرضا كغيري وفي كل لحظة لاي صاروخ مصوب أو طائش، ونجوت ثانية بانني ما وقعت في الاسر. فانا افضل الميتة على الاسر. فليست عندي اي شهية لمحاورة جنود اسرائيل وقضاتها .

ازددت قناعة ـ وهي قناعة نهائية ـ بانني يجب ان اعمل على شعري وانه ليس لي وطن ولا منفى. لا وطن لنا ولا منفى، هذه اعجوبة اخرى في مسلسل عجائب الشعب الفلسطيني. الفلسطيني منذ طرده من ارضه محروم حتى من المنفى!

لا منفى، ولا وطن . لكن هناك شيئا لا يستطيع احد حرماني منه، هو القصيدة .

راجعت حياتي على هذا الاساس، على اساس ملكيتي الوحيدة وصلتي الوحيدة بالمظاهر والمشاهد والفكر والتاريخ . لا اقول بان الشعر سلاح وبانه لافتة تشير الى الحق والوردة، فقط اقول، وجدت الاجابة عن السؤال الصعب ـ وهذه ميزة تتوفر لي ـ : ما هو مبرر وجودي ؟ بعدما راجعت حياتي وجدت أن مبرر حياتي الوحيد هو قصيدتي. ومن هنا« جوهرت » اسئلتي ووجودي البشري ومعنى اقامتي على اية ارض وفوق اي بحر .

اثناء الحرب كتبت ملاحظات يومية، ردود فعل خام على ما يجري. الشعر لم يتحرك فيّ بحركته العنيفة الا حين بدأت عملية النزوح. اصابتني موجة بكاء، واكتشفت بان الدمعة مغطاة بقشرة ناعمة جدا، اذا ثقبت لا يتوقف البكاء. وقتها شعرت بكامل الخسارة. ولكنني تساءلت: الى أين سيتجه شعبي ؟ عند طرحي لهذا السؤال عقصتني نحلة الكتابة في حلقي. وعندما تعقصك نحلة الكتابه في الحلق فما عليك سوى الامساك

بالورقة والقلم. الاحساس الكامل بالخسارة هو الذي اطلق الشعر.

□ صوتك يصبح اكثر عمقا، كأنك نوح بعد الطوفان ؟

□ لقد تغيرت فعلا. صارت ساعات لعبي بالحياة اقل، وكأنه ليس من حقي ان العب. من كثرة معاشرتي للموت اقتنعت بانني قابل للموت، بسهولة، فعلي اذن ان اكرس طاقتي لقول شيء ما. الآن انا زاهد بالحياة، لا اطلب منها شيئاً الا ان اقدم شهادتي على ما جري لشعبي، على ما جرى من محاولة اغتيال للاحلام البسيطة للناس. انا الآن ابحث عن طريق جديدة للانخراط مجددا، وفي مهام قد لا تكون من اختصاصي.

انا قادر الآن على القتل: قتل نفسي وقتل عدوي. انا لم احمل مسدسا في حياتي. كان بحوزتي اثناء الحرب مسدس ـ هدية. جهزته وتدربت عليه لكي اطلق الرصاص في حال وصول العدو الاسرائيلي الى منزلي، عليه، وعلى نفسي.

تغيرت فعلا، وباتجاه الانخراط الاعمق للبحث عن مصير يخصني، الى درجة التلاشي فيه. انا لا اريد الا ان اقول شهادتي. ستكون شهادتي جارحة، وستشكل طلاقا بيني وبين الوضع العربي السائد. لن يتحملني احد بعد الآن.

□ ماذا كانت وسيلة التسلية، التلهي في هذا الحصار الخانق ؟

□ كانت تنقصنا مجموعة من الهمزات ليكون وضعنا احسن حالا في لحظات الحصار والوحدانية والوحدة، عريا امام الموت الزاحف. يحق للمحاصر ان يضحك قليلا وان يجد فسحة للفكاهة كما كنا نضحك حين كنا نراقب خوف بعضنا البعض. وكم كنا نضحك حين نسمع الاذاعات العربية، وكم كنا نضحك حين كنا نُنصح بالانتحار، وكم كنا نضحك حين كنا نتلقى برقيات التأييد والاخبار عن الشوارع الخالية من الغاضبين. في هذه العزلة وجدنا مسألة الهمزة.. عدونا هو الهمزة: لا ماء، لا كهرباء، لا غذاء، لا دواء، لا نساء، لا اشقاء، لا اصدقاء، لا حلفاء!

□ ماذا ستفعل في الاسابيع المقبلة ؟ بماذا فكرت اول ما نجوت ؟

□ اعجبتني الكيفية التي غادر بها المقاتلون الفلسطينيون بيروت. لم يسمح لأحد بأن يحمل معه حتى حقيبة، للقول ـ وهذا قرار موح اتخذه ياسر عرفات ـ: نحن نخرج من بيروت ولا نحمل معنا شيئا الا ما تبقى من دمنا، ولسنا كالآخرين.

هذه الطريقة اثرت فيَّ كثراً. كان يحزنني امر انني سأتخلى عن لوحاتي وكتبي. خرجت فقط بدفتر ملاحظاتي اليومية. اول ما فكرت به الاختفاء عن الانظار والاصدقاء طيلة شهر لكتابة شهادتي. وما زلت مشغولا بهذا العمل.

بعد ذلك سأفكر بمصير مجلة «الكرمل». اين ستصدر ؟ عندي رغبة واصرار على الاستمرار في صدورها لأن مرحلة ما بعد بيروت ستشهد تحولا على المستوى الابداعي

والفكري العربي. وانا ارشح «الكرمل» للقيام بدور اساسي في هذا التطور. سأكون مرتبطا بها ، وليست مرتبطة بي. مسألة ومكان صدورها هي التي ستحدد مكان اقامتي. سأولي الجانب الثقافي والنقدي منها خاصة ، اهمية أساسية ، شاغلي هو النقد. فبدونه لا نستطيع القيام بالمراجعة الشاملة .

□ القصيدة تصبح عنوانك الوحيد، ولا تشعر بأي حرج كمبدع امام مقاتلي شعبك. أين صارت «فلسطينيتك» شعريا؟

□ سابقا كنت ارفض الاجابة عن مثل هذه الاسئلة لانها كانت تنطلق من مواقع اتهامية. اما الآن فاجيب: لا عقد لي مع شعبي مطلقا. انا لا اتباهى على احد بأني فلسطيني ولا اقبل ان يرتفع شعري تبعا لجنسيتي وعلى اكتاف الشهيد والبؤس الفلسطيني. انا اخوض التحدي الابداعي متحررا من جنسيتي وارفض أن يحول بعض الشعراء الفلسطينيين جثث قتلانا الى منبر للخطابة، لان كثيرا من الأدب الفلسطيني لا قيمة له، وهو مفروض على الناس بسبب كونه فلسطينيا. عندي ميل او احساس لأن اكون اكثر «فلسطينية» دون ان نعرف شكل هذا «الاكثر» .

انا كبرت عن التواضع وعن الغرور ايضا. انا تغيرت شعريا، ومنذ زمان. لأنني لا اخشى سوء التفاهم بيني وبين مواطني الفلسطيني.وفي شرط متطلباتهم الحالية، مثلا: يتوقع الفلسطينيون مني كتابة قصائد حماسية، وانا لو كانت عندي عقدة نقص أو احساس بالذنب او احساس بهامشية واسعة لكنت استجبت لهذه المتطلبات المتوقعة. ولكن أنا منخرط بقضية شعبي بطريقة تجعلني احيانا اخيب ظنه في طريقة ردة فعلي على همه . انا صامت شعريا منذ شهور عديدة دون ان اخاف العتاب من شعبي. لان ثقتي بشعبي وثقة شعبي بي كبيرة. وانا اعرف ان الفلسطيني يفرح لشاعره محمود درويش حين يكتب قصيدة تتحاور مع اعلى مستويات الابداع في العالم دون ان يفهمها خمسون بالمئة من سكان المخيمات .فهو يفهم ان لقضيته مثل هذا البعد. ويعرف ان بين الشعراء الفلسطينيين كثيرين ممن يعبرون عما كان يريدني التعبير عنه .

انا رجل المهمات الصعبة في الشعر الفلسطيني. انا تجاوزت امتحان الوفاء، وامتحان تقديم الخدمات الوطنية للشعر وفي الشعر.

أجرى الحوار: شربل داغر
مجلة« كل العرب» ١٣/ ١٠/ ١٩٨٢

الشهادة الثانية

□ لماذا بقي محمود درويش في بيروت بعد خروج المقاومة منها ؟ فهل السبب عدم اعترافك بالواقع الجديد للثورة الفلسطينية، ام بسبب قناعتك بأن الاسرائيليين لن يدخلوا بيروت ؟

□ **وانا ايضا اتساءل: لماذا لم اخرج من بيروت؟ واجيب بأني اخطأت، لاني ظننت ان الدم قد روّى غليل غرائز حيوانية، كانت محتاجة الى هذا السفك لتؤسس هويتها، الى درجة كافية لابقاء هامش من التعايش بين ما تبقى من علامات الحياة. ولأنني ظننت ايضا ان الدول الكبيرة، بما فتحته من هيمنة جديدة على بلاد بدا لها انها تحررت منها، لن تكون في حاجة الى التفريط بشرفها وتعهدها الى هذا الحد .ولأنني ظننت ان الدولة، وان كانت قادمة من العضلات الصهيونية ستحتاج الى سلوك مختلف لتضمن المظاهر الفولكلورية لتوازن يبدو انه لن يتوازن .**

نعم لقد خدعت بتحليل العقل، وبمجاملة الضمير، ولم تكن مماطلتي في الخروج ـ ولم يكن بقائي سوى مماطلة ـ تعاليا على الاعتراف بالواقع الجديد. فقد كان الواقع صلدا وقاسيا وفضائحيا الى مستوى لا يمكن التحايل عليه، حتى لو لم يدخل الاسرائيليون بيروت. لقد خسرنا موقع «الفيتو» على القرار العربي بخسارتنا بيروت. وخسرنا الاشتباك الذي بدا لبعضنا انه اشتباك نهائي بين تحرر فلسطين وحرية لبنان . وخسرنا خيمة حرية فولاذية كنا نملي منها شروطنا المعقولة على حلول كانت ممكنة لو ظل الاحتفاظ بهذه الخيمة ممكنا. لا. لا استطيع الا ان اعترف بهذا الواقع الجديد الذي لم يحدث دخول الاسرائيليين تغييرا جوهريا عليه. بالعكس ،لقد حقق الاسرائيليون هزيمتهم الاخلاقية الكبرى في معركة الصورة اليهودية على مرآة العالم. صحيح ، انهم ذبحوا الالاف منا، ولكنهم ذبحوا ايضا صورتهم، وضميرهم، وامتيازهم الاخلاقي، الامر الذي سيحدث تدريجيا، تغيرا فكريا، وسياسيا تجاه المطالب الاسرائيلية .

نعم، لم اعتقد ان الاسرائيليين سيدخلون بيروت، لأني لا افهم الجدوى التي تجنيها اميركا من اعلان فضيحتها المدوية. ولا افهم الفائدة التي يجنيها الاسرائيليون في تحولهم من جيش الى قطعان من الرعاع واللصوص الذين ينهبون كل شيء: من المكتبة الى الادوات المنزلية، والذين يعيدون سيرة الذبح بالسكين واغتصاب النساء .

□ لو ان هذه الصورة التي تعيشها المقاومة الفلسطينية حاليا كانت واضحة من قبل كما هي واضحة اليوم، فماذا كنت ستقول في هذا الخروج ؟

□ **لم يكن أمامنا خيار آخر. على الفكر السياسي الفلسطيني ان يجادل في كل شيء: في الظروف التي أدت بنا الى الخروج، في مرحلة ما بعد الخروج، في الحسم**

باتجاه مسار ما، محدد وواضح اذ انتهت مرحلة جدوى الغموض، انتهت لأن لعبة الغموض ملازمة للاطمئنان الى دور ايجابي يلعبه الوقت. ويبدو لي ان الوقت لا يجاملنا وقد لا يخدمنا اذا لم نحدد خياراتنا بشكل اوضح اريد ان اقول ان علينا ان نحاكم كل الظواهر والقرارات. اما قرار الخروج فلا تفيدنا محاكمته في شيء ، لأنها ستشدنا الى الوراء، وتحول بيروت الى اندلس بعيدة في الزمن .

بعد حوالي مائة يوم من الحصار والقتال والبطولة، لم يعد احد قادرا على ان يراهن على تحرك عامل عربي، او دولي، في اتجاه التخفيف من الخسائر على الاقل . بيروت تحترق، والسكون العربي والدولي يزداد جليدا. وليست بيروت مدينة فلسطينية لنقبل تحويلها الى رماد تخرج منه العنقاء.

من حق اهل بيروت ان يبدوا الرأي في مصيرهم، ومن واجبنا أن ندرج هذا الرأي في قرار لحظة مصيرنا المشتركة. لقد طلب منا الجميع الخروج الا الذين احبوا لنا الانتحار دون ان يشاركونا مجد الانتحار. ان فكرة« قساوة» فكرة مغرية. واغراق السفينة الاخيرة بطريقة اسطورية في البحر هو اغراق تراجيدي يغري بملاحم شعرية. ولكن، ماذا بشأن الغد،ماذا بشأن مصير شعب وعدته الثورة بالحرية والاستقلال والحياة على ارضه ؟ و ايهما اصعب: اسقاط المعبد، ام مواصلة تحمل المسؤولية على طريق اخر ؟

ولا اخفي، لا اخفي ابدا، ان اي قرار يتخذ هو قرار دموي، فليس في وسع المرء صاحب الضمير والمسؤولية الوطنية، ان يرتاح الى جواب سريع عن سؤال في مثل هذه الوحشية: الموت ام النجاة ؟ على المستوى التاريخي يكون الموت الجماعي، الكامل، النهائي قرار اسهل. ولذلك اعتقد ان القيادة الفلسطينية باتخاذها قرار الخروج قد اتخذت القرار الاصعب. ومع كل ما يتضمنه هذا القرار من اعترافات ضرورية بموازين القوى، فمن المفيد الا ننسى ان الثورة، في الحالة الفلسطينية القائمة على الوضع العربي هي جسد وفكرة. ولذلك فهي قادرة على التوالد والتجدد وتجديد البداية التي لا تبدأ من الصفر ابدا .

□ البعض اطلق على الخروج من بيروت« السبي الرابع» ولكن ياسر عرفات يصف الخروج بانه الهجرة الثانية التي سيتبعها الانتصار. . فماذا تقول ؟

□ **وصف حالتنا يضيف الى الميثولوجيا اكثر مما يقتبس منها. لسنا يهود لنحتكر العذاب البشري ولنغار من مآسي الأخرين. لأن البناء السيكولوجي والطبع المتوسطي فينا يفضل الوردة، او النرجسة، على الدمعة. نحن شعب يحب الحياة ويود لو يلتهمها دفعة واحدة .**

ولكننا قادرون على القول ان ما عانيناه، وما نعانيه، وما سنعانيه هو ضرب من العذاب الجسدي ، ووحشة الروح، نادرا ما عانى مثله البشر. لذلك ارى ان قصص

السبي والتيه والخروج ذات المدلولات المعينة هي مجرد حكايات مؤلمة من الماضي، اذا ما قورنت مع التراجيديا الفلسطينية المعاصرة التي تفرم اللحم والروح فينا. ان ما نقرأه من قصص العذاب الماضي يحولها الى نماذج واطار مرجعي لعذاب هو الان اشد، لأنه يقطع اللحم الحي أولا، ولانه ينسبه الى ضحية خرج منها القاتل، ثانيا، ولانه لم يكتب فلم يتحول الى النموذج ثالثا.

ما يصيبنا الأن هو خلاصة كل نماذج العذاب. نحن الضحية التي جربت فيها كل انواع القتل منذ صراع قابيل وهابيل حتى احدث الاسلحة الاميركية التي لم تقتل غيرنا من قبل. ولكننا الضحية- الاعجوبة، لأننا الضحية التي لا تموت، لا تستطيع ان تموت، لعلها تعيد الى الرموز والاساطير حياتها وبهاءها الطازج. وما دمنا لم ننقرض حتى الان، ما دامت نارنا لم تخمد، ما دمنا لم نيأس، ما دمنا نحتقر الموت، فلا بد أن يكون تفاؤل قائدنا ياسر عرفات تفاؤلا واقعيا لانه مستمد من قوة روحية جبارة يحملها الشعب الفلسطيني اينما ذهب، وفي كل هجرة من هجرات البحث عن الذات وعن الحرية وعن الوطن. نعم، هي هجرة الرسل الباحثين عن انصار.

ان الصورة الحالية لمصيرنا تبدو غامضة بعض الشيء. امامنا مهمة ترتيب« شؤون البيت» او «شؤون المنفى الجديد» او المنافي الجديدة، وامامنا لحظة اختيار تاريخية في مفترق طرق متشابك الاتجاهات، وامامنا مهمة تشكيل الخارطة التنظيمية الجديدة على أسس غير الأسس التي نشأ عليها هذا التشكيل، لمواجهة القرار السياسي الذي تتطلبه المرحلة الجديدة. هل سنخرج من حظيرة ما يسمى بالشرعية العربية والدولية لنحتكم الى وسائل اخرى لتحقيق هدفنا المحدد وهو: الدولة المستقلة؟ ام سننخرط اكثر في عملية التسوية لتحقيق هذا الهدف؟ اين سنخوض الحرب. وكيف سنخوض معركة السلام؟ ماذا نخسر وماذا نربح؟ ان امامنا كثيرا من الاسئلة الملحة التي لا يمكن تجميدها ونحن معلقون في الهواء والدم بلا صخرة نضع عليها طرف مصيرنا.

☐ وصف الغزو الاسرائيلي بالطريقة التي تم بها بانه بربري وانه وحشي. فأين تضع هذا الغزو بالنسبة الى خريطة عمليات الغزو التي شهدها التاريخ؟

☐ **ها نحن نعود مرة اخرى الى اطار مرجعي لم يعد صالحا لمماثلة الحاضر. نحن شهود على طريقة في العدوان تستعير وتجدد. نحن امام نموذج تجلي العبقرية البشرية في اشد حالتها الحيوانية شراسة. او العكس: نحن امام تجلي العبقرية الحيوانية في اشد حالاتها البشرية شراسة. كل الغزيرة الحيوانية في كل منجزات العقل. الذئب يتحكم بخلاصة التكنولوجيا ويستخدمها لقتل الانسان. فأي بربرية نستعير؟ واية تتارية؟ وأية مغولية؟ واية نازية؟ كل هذه الطبائع الشاذة، المريضة، السادية، مسلحة بأرقى منجزات العقل الاميركي. كل تسلل الوحش القديم في الانسان يتربع على عرش القتل. فهل كان لذلك مثيل من قبل؟ هذه هي تجليات التفوق اليهودي الجديد الذي يمثله قاتل خارج من**

التلمود، ابتداء من القتل اليدوي العادي في دير ياسين، الى القتل التكنولوجي المعقد في بيروت، حتى القتل اليدوي العادي في صبرا وشاتيلا . صغيرة هي البربرية، كلقب وغريزة وطريقة، صغيرة هي على شيلوك الجديد الذي يقود طائرة« اف - ١٦ » ويتفوق على القتلة القدامى ويحلق في سماء الثلث الاخير من القرن العشرين، والغرب يصفق لنجاح التجربة، الغرب يصفق لانتصار العقل .

□ يقال ان ما ارتكبه الاسرائيليون في لبنان هو نتيجة لتحول الضحية الى جلاد ؟

□ هو شيء من ذلك وهو شيء اكثر تعقيدا. امامنا حالة من حالات اختلاط السلالات والادوار. نحن لا نخشى التهمة التي لا تعنينا : اللاسامية. ولكن، هل يحق لأحد- مهما طال تعرضه للظلم - ان يطالب سلالة ما ان تدفع ثمن ما جناه بعض ابائها الى الابد. . الى الأبد بلا شروط؟ واذا كان لليهود حساب ما مع احد فهو ليس معنا، اذ نحن لم نقدم لهم الا الامن والامان . واذا كان الجواب عن السؤال السابق نعم، فان صياغة هذا المنطق - وهو المنطق الصهيوني - يعني ان علينا ان نكون اعداء لليهود بامتياز، لأن بعضهم يقتلنا الان. وعلينا - بالمنطق ذاته الذي تحاكم به الصهيونية اوروبا - الا نغفر لليهود الى الابد، والا نميز بين سلطة صهيونية سياسية وبين عرق .

في هذا الضوء لا ارى ان المسألة هي في تحول الضحية الى جلاد، لاني لا ارى في الصهيونية ضحية اصلا، فهي قد شاركت قاتل شعبها وورثته الذين يتخذون اسماء اخرى في عملية ابادة شعبي. اي ان الصهيونية السياسية كانت دائما قاتلا ولم تكن ضحية في يوم من الايام .

وما يثير الالتباس وبعض الغموض هو ان الصهيونية ذاتها تصر على الخلط بينها وبين اليهود لتكتسب الحصانة الاخلاقية وتحول نقادها الى اعداء للاسامية. انها تستثمر الضحايا اليهود لتخفي هوية القتل المتغلغلة فيها. ومن هنا فان الصهيونية تريد ان تظهر بمظهر الضحية لتمارس القتل بحرية وبلا رقابة او حساب. ومن هنا ايضا تكون الصهيونية قاتلا مرتين : قاتلا ضد الشعب الفلسطيني والعرب عامة، وقاتلا لروح الضحية اليهودية وذكراها البريئة، وتعيد الى الوجدان الغربي ما أراد ان ينساه من مشاعر معادية لليهودية .

ان الصهيونية المدججة بألة الابادة الغربية وتغطيته السياسية والاخلاقية هي التي تبعث الان اللاسامية لانها تحمل اليهود - الناطقة باسمهم - تهمة تحولهم من ضحايا الى قتلة .

وحين اشير الى هذا التمييز الضروري فانني لا اتجاهل العوامل النفسية التاريخية المشاركة في صياغة المزايا المركبة التي تضفي على الوحشية الاسرائيلية هذا العنف المميز، وكأن العقلية التي ترتكب هذه المذابح لا تنتقم من شعب اخر بقدر ما تنتقم من مجمل تاريخها المليء بالمهانة والذل والعبودية، حينما تيسر لها ان تجد لحما بشريا تصب

فيه تاريخا قديما من الحقد على «الاخرين» وهي الوسيلة الوحيدة التي تتمتع بها بحريتها .

في ضوء هذا البعد النفسي يجوز لنا أن نقول ان الحيوانية المفرطة التي مارسها الاسرائيليون ضد الفلسطينيين هي تعبير عن انفجار عبودية غير مؤهلة، حتى الان للحرية، الامر الذي جعلها تنسى وتخسر امتيازها المخادع الذي ابتزت به عواطف الغرب وامواله بكونها ضحية، وانكشفت الآن ـ لهم لا لنا ـ حقيقتها ، الاستبدادية القاتلة .

ان تحولها من ضحية الى جلاد هو عملية تجري في وعي عشاقها والمتساهلين تجاهها . اما نحن، فقد كنا نراها على ارضنا وجسدنا دائما قاتلا لا ضحية. وكنا نعرف اننا ضحايا لا قتلة. وكان الغرب، يعاملنا على اساس اننا نحن القتلة. وعلينا ان نكون حذرين تجاه مدى هذا التحول، اذ ان تغير الصورة اليهودية ـ الاسرائيلية في وعي الغرب لا يكون انقلابيا تماما، لان اكتشافه للحقيقة الاسرائيلية القاتلة لا يعني اعترافه الكامل بالضحية وحقوقها، لأن الضحية العزلاء لا تثير غير الشفقة من جهة . ومن جهة ثانية فان في وسع الجريمة الاسرائيلية ان تقوم باعمال ضد اليهود. . ان تقتل بعض الابرياء منهم لتلصق التهمة بنا وتسترد بعض صفات الضحية التي تخشى ان تفقدها تماما. لان المشروع الاسرائيلي في حاجة الى الصواريخ والى الدموع معا. لان اصحابه يعتقدون انه اذا جفت دموعه خفت صواريخه. ومن المعروف ان البكاء كان دائما احد اسلحتهم الفتاكة . لانهم يريدون ان يكونوا قتلة في زي ضحية .

□ لقد عشت اعواما طويلة تحت وطأة الاحتلال الاسرائيلي المباشر فهل كنت تتوقع ان اليهود سيرتكبون ما ارتكبوه في بيروت؟

□ نعم. لانهم لم يرتووا دما، ولان هويتهم ما زالت ناقصة. ولان المجتمع الاسرائيلي ـ حتى الان ـ لا يتبلور الا على رفض الاخرين. ان الغيتو عميق في النفس. انظرـ مثلا ـ خيبة املهم من السلام مع مصر، فهم لم يقبلوه الا لأنه يجعلهم يتفرغون للحرب في مكان آخر ضد نقيضهم التاريخي. وهم قادرون ايضا على الانتحار وما زالت عقلية «مسادة» تتحكم في سلوكهم مع الاخرين . وكل ما يفعلونه هو تحسين شروط «مسادة» وليس البحث عن سلام. ولعل الجنرال سلام، بما يعنيه من قوة الحق والعدل، هو عدوهم الاول.وعندما تتحكم مثل هذه العقليةـ العقدة في مجتمع لا يطرح في خيارته امكانية التعايش فانه يكون مؤهلا لارتكاب كل جريمة .

□ خلال فترات الاحتلال هل كنت تشعر انك فلسطيني ام لبناني أم عربي ؟

□ في الأرض المحتلة ، في الحصار، في السجن، في الاسر الطويل، كان الأمل يأتي من نافذة الزنزانة : من الخارج، وكان الخارج هو العرب. هل كنت اصرخ : هل انا العربي الوحيد ؟ كنت عربيا حتى الوهم .

وفي الخارج في الحرية الصدئة، في السجن الواسع في الاستقلال الكاذب، في حصار القيم الاستهلاكية كنت اصرخ: هل انا الفلسطيني الوحيد؟ كنت فلسطينيا حتى الموت .

وفي بيروت الاخيرة، في الظلام الكامل، في العزلة الشرسة. في الموت الكثير، في وحدة اخر من تبقى على اخر ارض، كنت اصرخ : هل انا الانسان الوحيد؟ كنت انسانيا حتى المطلق !

□ الى اي مدى يمكن أن نطلق على ما كتبه الادباء الفلسطينيون واللبنانيون خلال حصار بيروت أدب الحصار. . او ادب المقاومة ؟

□ في المثقفين عقدة دائمة : ما هو دورنا في المعركة ؟ والغريب هو ان هذا السؤال الصعب ـ السهل او السهل ـ الصعب يطمح الى تحقيق فاعلية القذيفة او الجراحة الطبية، لذلك ينتهي الى احباط أو غرور .

يبدو لي ان للسؤال مكانا اخر للطرح. هو سؤال ملازم لنشاط الكاتب منذ البداية وعلى الدوام، هو سؤال السياق العريض، وليس سؤال الازمة المحتدمة، او الاجابة عن شعور بالذنب .

لذلك، يبدو لي ان حصار بيروت لم ينتج ادبه حتى الان. وكل ما فعلناه هو انخراط ما في النشاط الاعلامي. لا اكثر ولا اقل. اما الادب فسينفجر في ما بعد □ .

اجرى الحوار: صالح قلاب
مجلة «المجلة» ١٩٨٢/١١/٢٠

الشهادة الثالثة

□ عندما تتحدث عن طفولتك ، فانك تتجنب «الحنين الى الجنة الضائعة». . لماذا ؟؟

□ طفولتي لا تخصُّني وحدي، انها طفولةٌ جماعية، مكانُها لا يَستَحضِنُ ذكرياتِ الاندلس، فالاندلس فُقِدَتْ الى الابد، ولم تعد مكاناً . . انها حالةٌ نفسية .

أمَّا فلسطين. . فهي طفولتي. انها فردوس، قابلٌ للتحقيق وليس جنةً ضائعةً . وعندما اتحدث عنها ـ وهذا ما يحدث كثيراً ـ فانما اتحدث لامسكَ بما كان أصلِ وجودي. وبهذا المعنى، فإنَّ فلسطين ليست ذكرى. . انها اكثر من وجود. . ليست ماضياً ولكنها مستقبل. فلسطين هي جمالية الاندلس. انها اندلس الممكن .

□ كيف تُوفّق بين الخطابة النضالية وجمالية الشعر؟؟

□لا اعرف اذا كنت قد وُفقتُ في ذلك . . فأنا لست مازوكياً بما فيه الكفاية لاقول ان النضال بحد ذاته جميل.

إن المناضل الفلسطيني يتطور داخل حلم جميل. والطريق الذي يسير عليه المناضل، اي الجرح، يُضفي على النضال جمالية. ان الهدف الجميل بذاته جوهري لأنه يسمح للمناضل بصياغة وجوده حراً وبحرية .

□ من يتغلب على الاخر : هل يطغى النضالُ على الشاعر أم هل يتغلب الشاعر على المناضل فيك ؟

□ أكاد أقول انني املك جناحين أُحَلِّقُ بهما: الشعر وقضية الشعر . . وشعر المقاومة يحاول، بحق، ان يكون أعلى من النضال شعرياً . فالكلام(الخطاب) الفلسطيني عندما يتحدث عن النضال ليس شعراً بالضرورة. وهذا ينطبق على الشعر الغزلي.اسألوا شاعر غزل فرنسياً عما اذا كان جمالُ شعره يأتي من جمال حبيبته أم انه يأتي من اللغة ذاتها ؟ !

إن مأساتنا، حتى الآن، هي التي تحمل الشاعر . . ونحن لم ننجح في انجاز الشعر الذي يعبر عن هذه المأساة، كما لم ننجح في خطابنا السياسي، مما جعل مأساتنا أكثر مأساوية من المأساة الاغريقية، فنحن جميعاً۔ بشكل أو بآخر ۔ شكل من أشكال تجليات التراجيديا الاغريقية،الا أن المأساة الاغريقية بقِيتْ بالنسبة لليونانيين نصاً أدبياً لا معادل له في الحياة. أما بالنسبة لنا فان الامر يكاد يكون عكس ذلك، فالمأساة تمس شعباً بأكمله. ومأساة هذا الشعب ۔ قبل كل شيء ۔ هي انه لم يلق اعترافاً بالالم الذي يعيشه حقيقة .

اننا نمثل شعباً ضحية يحاول منذ نصف قرن أن يُثبت انه ضحية، دون أن يحصل حتى الان على ثقة الناس بما يقول .

□ عالمك تُميِّزه بعض الكلمات . .

□ ليس من السهل على طفل في السادسة ان يتعلم كلمات: مثل خيمة . . مخيّم . . وكالة غوث . . أو كلمة :العودة .

عام ١٩٤٨ كانت مواجهتي لهذه الكلمات كمن يرتطم بصخرة . وبدأت هذه الكلمات ترسم طريقي كشاعر، ثم وعيتُ مهنتي وتجسَّدَ وعيي الشعري الى حدّ قادني الى اختيار المنفى والرحيل عن الوطن . . وعندها لم تتجزأ حياتي فحسب بل وانبرت. . تمزقت . وفي الواقع فإن النضال الفلسطيني يتلخص في مهمة تجميع كل هذه الاجزاء في كل واحد .

المرحلة التالية من حياتي اسميها بمرحلة« الصدمة العربية».

□ ماذا تعني بالصدمة العربية ؟

□ عندما كنت اعيش في اسرائيل. . كان كل ما هو اسود في اسرائيل يتدلى بياضاً في الجانب العربي داخل ادراكي الشخصي. ومن هنا كان يأتي الأمل .

وفي عام ٧١ وبعد أن زرت عدة دول عربية، شعرت أن هذا «الخارج» كان بعيداً عن صورته في خيالي. هموم الانظمة العربية كثيرة جدا. . والانظمة العربية مخلصة حقاً في البحث عن حلول لمشاكلها، الا أن هناك بعض الامور لا تهم هذه الانظمة على الاطلاق . . أقصد القضية الفلسطينية .

ان ما يعني الانظمة العربية هو اسرائيل وليس فلسطين.. جميع مشاكل هذه الانظمة يحجبها ستار الحرب مع اسرائيل. ولكن المعركة الوحيدة التي عاشها وشاهدها كل مواطن عربي هي المعركة التي شنتها الانظمة العربية ضد الفلسطينيين وضد المواطن العربي نفسه . صدمتي العربية هي هذه .

□ نأتي الى الحرب في لبنان، ماذا كنت تعمل، انت الشاعر، اثناء حصار بيروت ؟

□ بيروت كانت التتويج والترجمة الدموية لصدمتي العربية، بيروت كانت اكثر من صدمة : بيروت كانت صرخة الانذار. . . . . بيروت كانت الفضيحة الكلية. واسرائيل لم تحقق اي انجاز.كل ما فعلته هو انها قطفت ثمار وضع العالم العربي .

بيروت جزيرة صغيرة تحاصرها الاساطيل الاسرائيلية والعجز العربي. الطيران الاسرائيلي والصلوات العربية ملأت سماء بيروت اثناء الحرب.كنت شاهداً تسيل منه دماء العجز والمرارة. كنت اكتب المقالات، واشعر بمهانة وذل من يعرف انه لا يستطيع حمل السلاح، لأنه لن يُغيّر بذلك شيئاً .

□ كيف غادرت بيروت ؟

□ كنت مصمماً على ألا ارحل عن بيروت، لقد كنت خجلاً من رحيلي المتواصل. . لو لم تدخل القوات الاسرائيلية الى المدينة ولم ترتكب مجازر المخيمات لبقيت في بيروت .

لقد بحثوا عني لاعتقالي. كنت أزوِّق وهمي بلذة كوني شاعراً . وفي النهاية ادركت انني لست شاعراً فقط. واستطعت الخروج سرّاً بمساعدة ضابط من الجيش اللبناني .

□ لدينا انطباع من خلال الصورة التي يقدمها الفلسطينيون عن انفسهم بانها هامة جدا بالنسبة اليهم . سواء نظرنا اليهم كارهابيين او ضحايا . ما هي صورة الفلسطيني عندك ؟ وما هي صورة الفلسطيني التي تحاول ان تقدمها ؟

□ لا معنى لهذا الكلام ، لأن هذا الامر لا يعنينا الى الدرجة التي تتصورها.

ولكنني اريد القول انني الضحية ولست القاتل على الاطلاق . . في الضمير

الاوروبي اختلطت صورُ اربع شخصيات على مسرح الصراع العربي الاسرائيلي .

القاتل

الضحية

القاضي

الشاهد .

كل ما استطعنا ان نحققه خلال حرب لبنان الاخيرة هو حضور الشاهد، أي الضمير العالمي. ولكن من المفيد الا يتوهم الفلسطيني بان صورته انطبعت نهائيا في ضمير الناس، لأن صورته ،كضحية، لم تتبلور تماماً والغرب يرفض تبديل صورة اسرائيل .

□ الم يسهم قيام الفلسطينيين بالاعمال الارهابية بتغيُّر صورة الفلسطيني التي تعرضها :

□ سؤالك هذا يعكس قلقي تجاه صورتنا في وعيكم .

فاذا قام افراد من بيننا باطلاق بعض العيارات النارية يأساً هل نكون ارهابيين ؟

وماذا تقول عن وطن أُغتيل بأكمله ؟

فصل الشتاء حلّ على لبنان، اللاجىء الفلسطيني لا يملك حتى ملجأً في قبر. اذا غضب اللاجئون وبدأوا باطلاق الرصاص فهل نسميهم بالارهابيين . والقاتل بالتكنولوجيا أليس ارهابيا ؟

إن الغرب يتصرَّف وكأن اسرائيل هي مندوبه في الشرق. عليه، إذن ، ان يتساءل عما رآه كل شرقي من مُمَثله في الشرق(اسرائيل): مقالات فـ ١٦ . . قنابل عنقودية . . قنابل انشطارية . . لقد انطبعت التكنولوجيا الغربية في اللحم العربي، فهل سيخلق هذا وضعاً اخلاقياً في الغرب ؟؟ ولماذا يبقى الغرب اسير عقدة الذنب. . والى متى ؟

□ هل لديك اصدقاء اسرائيليون؟

□ نعم عندما كنت في اسرائيل كان لي اصدقاء . ومن الشعراء كان لي صديقان حميمان . . شاعر وشاعرة. الشاعر معاصر في صيغته الشعرية واستطاع التعبير عن المأزق النفسي والتاريخي في اسرائيل. أما الشاعرة فلا اعرف ما يعجبني فيها اكثر: أهو جمالها أم شعرها . .

□ الاعتراف الفردي او السياسي هل هو قضية حقيقية بالنسبة لك ؟

□ بعض الافراد، من هذا الجانب او ذاك عبّروا مراراً عن رغبتهم بالاعتراف، وقدرتهم عليه . وعندما كان الفلسطيني معلقاً عاريا في هواء بيروت لم يجد دعماً علنياً الا دعم المتظاهرين في تل ابيب. معظم المتظاهرين عبروا عن اعترافهم بحق الشعب

الفلسطيني في اقامة دولة له، بعض الاحزاب الصغيرة، بعض الشخصيات الاسرائيلية يعترف بهذ الحق .

وعلى الجانب الفلسطيني ، عبَّر بعض الافراد عدة مرات عن تطلعهم الى مستقبل يشمل الاسرائيليين. المجلس الوطني الفلسطني وعرفات عَبَّرا ، اكثر من مرة، عن الرغبة في التحادث الى كل شخصية اسرائيليةتنادي بالاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني .

الا ان كل هذا ليس الا همسات، فالأمر الاكثر جوهرية هو الاعتراف السياسي بالدولة الفلسطينية. والدولة الفلسطينية غير موجودة وغائبة . وفي الواقع فان الولايات المتحدة واوروبا تطلب من الغائب أن يحضر، ويحضر فقط ليعترف بما هو موجود. وبعد اعترافه عليه ان يتلاشى فورا من مسرح الوجود .

كي يكون هناك اعترافٌ مُتبادل يجب أولاً ان يحضر حضوران .

□ يقال إن شعرك لا يتضمن اي حقد . هل هذا صحيح ؟

□ لست حاقداً او كارهاً . والالم يُعلِّم العفو والتسامح. إنني شديد العداء للكيان السياسي الاسرائيلي. ولكنني لا اشعر بالحقد تجاه أي كائن انساني .

استطيع أن أغفر للاسرائيليين الذي جاءوا من الخارج ما ارتكبوه ضدي وضد شعبي، شرط ان يستطيعوا هم الاعتراف بوجودي .

انا لا اعيش التاريخ كغيتو . وهذا هو الفارق بين الرسالة الاسرائيلية والرسالة الفلسطينية؛ هم يقومون على الانغلاق والحقد حتى تجاه «اوروبا القاتلة» . ونحن نقوم على الاستيعاب الانساني .

□ هل هناك تأثير ديني في شعرك ؟

□ والداي مسلمان .

أما أنا فنتاج التاريخ الثقافي لأرض فلسطين التي تعايشت فيها الديانات الثلاث بطريقة يومية .

فلسطين لم تكن يوماً ما اسلامية صافية، او مسيحية بحتة، او يهودية نقيّة .

وتاريخ المنابع الحضارية لاساطير الديانات الثلاث يتساوى تأثيرها في حياتي وشعري .

وبالنسبة لي فان كل نص ديني هو جزء من التراث الثقافي العالمي.

ولا يعادل رفضي للتعصب اليهودي الا رفض التعصب الاسلامي .

□ هل يضايقك ان تقوم بوضع اللمسات على بعض خطابات ياسر عرفات وخاصة خطابه أمام الامم المتحدة عام ٧٤. وتصبح بذلك شاعراً رسمياً؟

□ «الشاعر الرسمي» ليس شاعراً،وعرفات يعرف انني لست شاعراً رسمياً. وعندما يكلفني بمهمة ما، فانه يتعامل معي كفلسطيني ملتزم يحاول أن يُفكِّر .

لقد كنت دائماً معجباً بعرفات . ولكن خلال الحرب الاخيرة رأيت فيه شخصية اسطورية لبطل حذر، رجل يمزقه الالم ، لا شيء يُفرِّق بين مصيره ومصيري. . انه خليط مدهش من الحاكم والمهندس ، الاب والابن . التكتيكي، والاستراتيجي. يعرف تماما متى يستطيع مناطحة السحاب ومتى ينحني للعصفور .

وفي المرحلة الحالية اتفق تماما مع غموضه السياسي وأثق به ثقة مطلقة .

□ كيف يتم الوصل بينك وبين عائلتك الموجودة في الاراضي المحتلة ؟

□ والداي يعيشان في فلسطين مع جميع اخوتي واخواني، علاقتي الوحيدة معهم هاتفية. واذا قابلتهم يوماً فلربما لا استطيع التعرف عليهم كلهم . من آن الى اخر ينتابني حنين يصل الى درجة الجرح. واذا ما استسلمتُ لهذا الشعور فعليَّ ان ادفع ثمناً باهظاً .

في الآن ذاته لديَّ شيء من القسوة الواقعية تقمع حاسّة الحنين وتمنعني من بناء عائلة . فأنا لا أتمتع بالمزايا المطلوبة لابداع مثل هذه السعادة . إن علاقتي بالحرية هي علاقة مجنونة. حاولت ان اتزوج فلم انجح .

□ أصدقاؤك يصفونك بأنك شخصية تحب العزلة، لا يُمكن الامساك بها. . انت متهرب لماذا ؟

□ السبب الاساسي هو: شدة قلقي، ونفاد صبري.وفي هذا المجال فانني لا املك من صفات الاغنياء سوى الضجر. السبب العميق هو الارتباك والقلق، مما يجعلني لا ارتبط ارتباطاً حقيقياً مع اي مكان في العالم .

كان هناك وريدٌ يربطني بهذه الارض و. . انقطع هذا الوريد. ومنذ انقطاعه استطيع ان اتزوج اي مكان أو اطلقه دون أية مشلكة ظاهرة .

□ متى تكتب ؟

□ في الصباح فقط.

أنا لا احب الشعر ، أُفضِّلَ الرواية .

عندما اشعر بدافع داخلي يدفعني لكتابة الشعر اشعر بالمرض، فانا اكتب فقط لاشفي نفسي منِ مرض ان الكتابة نوع من العلاج . والشعر هو «ذات» حياتي وجوهرها،

ولكنه ليس جديّا. انه لعبة. انه انفجار فوضوي.

انني افضِّل الحياة على الشعر.

□ هل تجد الشعر في الحياة أم في كتابتك ؟

□ الشعر يتجلّى في القصيدة ولكن الشعر المطلق لا يتوفر الا في الحياة، في اللقاءات والعلاقات بين الطبيعة والحياة الانسانية.. وفي نقاش عاصف انه يوجد في الشيء وفي المكان غير الشعري. رفضي للنمطية الشعرية هو رفض واع، فانا ارفض أن اكون مريداً أو معلماً أو صاحب مدرسة شعرية.. لا أريد أن اكون أسيراً لنظرية تتعرض للمفاجأة في كل لحظة من لحظات الحياة.. فالمدرسة الشعرية لا تخلق قصيدة، ولكن اية قصيدة يمكن أن تخلق مدرسة شعرية.

□ في بيروت يقال انك متأنق اجتماعي «داندي»؟

□ انا الذي خلقت هذا الانطباع، لاقاوم جحيمي الداخلي باللعب. انني مغامر اكثر مني «داندي». بعض المبادىء يمنعني من التهام الحياة.. انني في الواقع مشروع فوضوي ولكن منضبط.. انني مشرد.. وهذا هو الشعر. وانا متطابق مع شعري وليس العكس. فشعري ليس جدياً بالقدر الذي تعتقد. انه لعبة دامية وجارحة. وكم اود ان يتناول ناقدٌ ما السخرية في شعري.

□ العودة الى فلسطين لوتحققت، فهل ستقودك الى عقم شعري، أو لنقل هل سيتخدّر شعرك ؟

□ ان تطور القضية الفلسطينية، لم يعد يسمح بالحديث عن «عودة». انني افضل تعبير «الذهاب الى فلسطين».

العودة تستحضر الماضي وهي فكرة صوفية. بينما مجرد الذهاب هو مسعى ثوري. وهذا هو الفارق بين الاندلس وفلسطين، وبين المشروع الصهيوني والمشروع الفلسطيني.

أما الشعر فانه سيستمر في الصباح.

اجرى الحديث
باتريس بارات
ترجمه عن الفرنسية :
نبيل درويش
لوموند ١٩٨٣/١/٩

وجه الإنكار

إدمون عمران المالح

أكثر من الخراب، والحداد، والآلام المسْتَعصية على الوصف، وأكثر من الرعب الوحشي الذي يُميّزها، فإن هذه الحرب، لأنها تُدرك الجوهري، قد تَرَكَتْ شيئاً يَتَأَبَّى على الفكر، شيئاً لا تستطيع الذاكرة أن تَدْفُنه في النسيان . هناك ما يندرج في الاعتبارات العامّة، وهناك، على التخصيص، ما هو على مَقْربة مباشرة، ما يمحو المسافة، والتّميُّز، والفَرْق نفسه داخل هذه الوضعية الدرامية المأسويّة . ولا يتعلَّقُ الأمر بان نضع أنفسنا موضع الفلسطينيين ، أو أن نزعم، عن طريق موقف مصطنع ، التَّماهيَ معهم . بل إن الأمر يَتعلق بشعورٍ مختلف تماماً يبني تفاعلاً مُعاشاً، لم يَسْبق أن وُجد بهذه القوّة . إنه شعور لا يمكن لِبَدَاهَتِه أن تَخْدع ، ولا يستطيع أي تعبير أن يَسْتَنْفِدَه .

كان من الممكن أن نتساءل ، لو أُعْطيَ لنا مُتّسع من الوقت، عن مَعْنَى أن يكون المرء يهودياً الآن . كان بإمكاننا ذلك، لو أَنَّ العُدوان الذي اتخذ طابعاً جذرياً شاملاً، ومحاولة إبادة الشعب الفلسطيني، التي بلغتْ أوْجَها في حرب لبنان، لم يَضَعا حدّاً لكلّ تساؤل. من الآن فَصاعداً لن يكون هناك إلا انتصار الإنْكار، وتشويه مَنْ يمكن أن يعتبر نفسه يهودياً، بغضّ النظر عن الطريقة التي يسلكها الى ذلك، وبغض النظر عن الموقف الذي يمكن أن نتخذه تجاه الصهيونية، وتجاه دولة اسرائيل . ذلك أن الامتلاء، ومعنى الانتساب ، لدى جميع الذي كابَدُوهما ، أو لدى مَنْ ظلوا بعيدين عنهما، يتحوَّلاَنِ اليوم الى موضع للتساؤل والمناقشة : أمام إحساس بهاوية تفغر فاها، وبِتضاؤل للكينونة!

تضاؤل، كينونة أقل ! كيف نشك في ذلك ولو لحظة واحدة ؟ كيف نساند، دون أن يُثلج الرعب أطرافَنا ، رؤية هذه الصور الملتقطة في سخونة الأحداث ؟ صور تُلاحقنا ليل نهار من غير هوادة، وتمسك بِتلاَبِيبِنا فلا نستطيع الإفلات من قَبْضَتها . الصور التي نراها،

وتلك التي تفوقُها عدداً الى ما لا نهاية ، والتي لن نشاهدها قط. الصور التي تعرض نفسها على أنظارنا ، وتسائِلنا حول ما هو أكثر عمقاً في نفوسنا . رِجالُ أيْديهم مربوطة خلف ظهورهم، راكعون وسط الغبار، عيونهم معصوبة، ينتظرون ان يُساقوا إلى مخيّمات خاصة. . خرائب شاسعة، مُدن مخربة وليست قرية مثل «أورادور» ، إنها مدن بأكملها : صور، صيدا، الدامور، ومعسكرات اللاّجئين المسحوقين تحت القنابل، الممسوحين تحت الجرَّافات . والجرحى والموتى بعشرات الآلاف، أطفالاً ونساءً؛ والموت ، أو التشويه طيلة الحياة من جراء استخدام القنابل العنقودية، ووجوه يستولي عليها الفزع مُجمَّدة في منطقة الألم. صور ومشاهد لا تكفُّ ساعة بعد ساعة، ودقيقة بعد دقيقة ، عن كشف وجه هذه الحرب الإبادية الموجهة والمقرَّرة، بأعصاب باردة، ضد الشعب الفلسطيني ، مُصيْبة بالضربة نفسها لبنان وسكانه . صور ورؤيات تختلف عن المشهد العابر للمناظر المرعبة التي تُلْتَقَط خلال لحظة انفعال عابرة سرعان ما يطويها النسيان . إنها شيء آخر غير الانعكاس العَرَضي لأهوال الحرب، التي يحاولون ، بِبَذَاءةٍ ، أن يجعلونا نتقبل ضرورتها، أو حتْميّتها . إن بيروت ليست هي «المالوين». وهذه الصور هي، في حضورها المادي، العلامات التي لا يمكن أن تُدْحض، والجسد نفسه، المشخّص لهذه الوحشية التي تنتهي من كشف النقاب عن وجهها، بعد ان كنّا نؤمل أن تُطرد، وأن تُتجنّب إلى الأبد . كيف نَتردّد لحظة واحدة في التعرُّف على حضورها، وعلى قُربها المباشر الذي يَنْبَثِق وسط نوع مِنَ الوحدة والفزع المُنْقضَّيْن علينا ؟

وحدة، وعجز ، كأنما أيُّ صرخة لا تستطيع أن تُسْمع صَوْتها، وكأنَّ أية قوة في العالم لا تستطيع أن توقف التّصاعد القاسي لهذا الرعب المنظَّم المنتشر عبر أسلحة التكنولوجيا الحربية الأكثر اكتمالاً . وحدة، وعجز، لأننا ، مرة أخرى، أمام مؤامرة واسعة ،ومسعورة، من الكذب والعداوة تُوجّه لتكييف الرأي العام داخل إسرائيل، وخارجها، وتُغطّي ، بأصواتها المتعدّدة، ضجيج أحذية زبانية هذه الوحشية، محاولة أن تمحو، داخل الفظائع ، علامات التماهي. كيف يمكن أن نسجل أقل حركة من الشك والتّردُّد؟

إنني لا أتمكن من صَرْف ذهني عما يُعْلن ويظهر في كل لحظة. من يستطيع الوصول الى ذلك ؟ في مدينة «صور»، حمل الجنود الاسرائيليون الأطفال على جمع الاسلحة المتروكة، لأن القيادة العليا نبَّهَتْهم الى أنها قد تكون مُلَغَّمة .

وفي صور، أيضاً، وُضع اللاّجئون الفلسطينيون على الشاطىء أثناء تحطيم المخيمات . وعلى هذا الشاطىء، ووسط الرعب والآلام، ولدت نساء مثل أخريات كُنَّ قد وَضَعْن في «فيل ديف» (Vel d'Hiv)، أثناء الغارة التي خُلِدّت ذكراها مؤخراً . وقد تمر المصفاة الجديدة غير ملحوظة : ففي السجون الاسرائيلية يُحتجز عدد كبير من الاطفال

لكونهم ـ كما يقال ـ مُتّهمين بمساعدة منظمة التحرير الفلسطينية . في غمرة الأنباء، هناك ما يَتَّخذ، فجأة، وجهاً ملموساً قريباً منّا فيتسلّل الى نفوسنا أكثر. مثل تلك اللحظة، ذلك الصباح، حينما رنَّ الهاتف في منزلي وحمل إلي صوتُ صديق نبأ موت انطوان عبد النور . لم أعرف انطوان عبد النور من قبل، وكان من الممكن أن أتعرف عليه منذ أسابيع بباريس، حيث كان يتابع دراسته . إنني لم أعرفه، لكن في اللحظة التي علمت بموته ، بدا لي كما لو أنني عرفته دائماً . إنّ لهُ عندي، منذ الآن ، وجه أصدقائي الفلسطينيين واللبنانيين. إنه يُعطي وجهاً لتلك العشرات من آلاف الموتَى المجهولي‌الاسم. إنه، بالنسبة لي، الآن ، الصديق المطلق الذي يقف وحيداً داخل هذا الموت المأسوي، داخل موت يَشْهَدُ ضد أولائك الذين يحاولون التملّص من الحقيقة، إنْ لم يسعوا إلى طَمْسِها عن قصد ودراية . لقد اغتيل أنطوان عبد النور على عتبة بيته، وبأيدي جنود إسرائيليين . اغتيل ولم يُقْتل في المعركة وهو حامل لسلاحه . إعدام بلا محاكمة، يدخل في نطاق الإعدامات الأخرى التي تُنفّذ حسب منطق تخطيط لـ « التّطهير». كنت أودُّ أن أتحدث عن طفلته التي لا يتجاوز عمرها بضعة أشهر ، وأن أتصور اليوم الذي ستقول فيه ،دون شك :

« لقد اغتال الاسرائيليون أبي » مثلما أن آخرين يقولون اليوم: «لقد أُعْدِمَ أبي أو والديَّ برصاص الألمانيين» كنت أود أن أفعل ذلك، لكن خوفاً ما يمنعني من الذهاب بعيداً. احتراسٌ وشعور بالحياء الأدولي : ألاّ أسلم للإشهار صميميةَ مصير فردي، وأن أمتنع من اتخاذه حجة للتدليل. كنتُ، إذاً ، سأصمت، لولا أن حرية الصمت قد انتُزِعَتْ منا، ولولا أن هذه الوحشية بالذات، الصارخة في أفعالها، لم تكن مصحوبة بانتهاك للضمير، ولولا أن عنف الخُطب لم يكن يحاول أن يَخنق الحقيقة بين ثنايا صمتٍ متواطىء. إن رعب الاسلحة المقترن اقتراناً وثيقاً بعنف الكلمات السابقة له، يُخْضع العقول لضرورته، ويحاول أن يُبرّر ما لا يقبل التبرير، وذلك بعد تأثيرات الدعاية المكشوفة .

إن ما يمكن أن يعطى على أنه تأكيد لمبدأ عام، يكتسي، خلال هذه الحرب، دلالة متفردة في ملموسيتها . ففي الأوساط القيادية الاسرائيلية، مروراً بأعلى السلطات الدينية، الحاخامات في إسرائيل وفرنسا، وكذلك المؤسسة الصهيونية المدعمة ببعض مثقفي اليسار المعتنقين حديثاً للصهيونية، يسيطر اهتمام واحد ودائم : إخفاء طابع هذه الحرب بجميع الوسائل. وهو أمر جد سهل، وطريق معبَّدة أمام المتملقين ذوي الولاء اللامشروط لدولة إسرائيل، مهما يكن الأفق الذي يهرعون منه . يجب ويكفي، عندهم، أن يلعبوا ، حتى النهاية ، ورقة هذا الكون المعقَّد من الاستيهامات والأساطير والذي يحيط بميلاد دولة اسرائيل، ويسبغ عليها وجوداً مقدساً، ويؤشر على العتبة غير القابلة للانتهاك، والتي بعدها لا يمكن لأي تساؤل أن يَنْبثق دون أن يُثير أكثر اللعنات قسوة وشراسة . إننا نستطيع أن

نلاحظ كون الخطاب الصهيوني المؤسسي قَلَّما يذهب بعيداً في منطقه، وفي الدرجة الدقيقة للحدَّة التي يبلغها، نجد أن الأفعال التي أملاها، أو حاول تغطيتها، سرعان ما تنقلب ضده، كاشفة عن طبيعته . حتى الآن، وحتى الآن فقط ، نجح، هذا الخطاب في تقديم جبهة دون ثغرة : لحد الآن، نجح في أن يُرجِّح، داخل الرأي العام الإسرائيلي وفي الدياسبورا، مناخاً إيديولوجياً خصوصياً ،حيث تسود ، دون إرغام، رؤية كُليانية توسُّعية، عنصرية ، شوفينية. . رؤية تتسلَّل الى نسيج حرية تعبير حقيقية، إلاَّ أنها مُسْتَلَبة . وليس هناك ما يوضح هذا المناخ ، بخاصة في أوج هذه الحرب، أفضل ممَّا قاله الفيلسوف أدورنو عن سلطة الإيديولوجيات :

«إن السلطة المغناطيسية، التي تمارسها الإيديولوجيات على الناس في اللحظة ذاتها التي تبدو فيها مخيطة بالخيط الأبيض، تُفَسَّر أبعد من البسيكولوجيا، بالانهيار المحدد موضوعياً للبداهة المنطقية بما هي عليه . لقد وصلنا الى الحد الذي يجعل الكذب يَخْلِف رنيناً مثل الحقيقة، والحقيقة ترنُّ مثل الكذب. وكل تصريح أو خبر أو فكرة يتم تكوينه مسبقاً بواسطة مراكز الصناعة الثقافية. وكل ما لا يحمل الأثر المعتاد، لمثل هذا التكوين المسبق ، لا يكون له حظ من التَّصديقية، علاوة على أن مؤسسات الرأي العام ترفق كل ما تنشره بآلاف الوثائق المقدِّمة لأدلة دامغة، والتي يمكن لكل واحد أن يحصل عليها متى شاء. إن الحقيقة التي تريد أن تعارض مثل هذه الممارسات لا تنجح في غير أن تبدو غير قابلة للتصديق، وتكون ، اكثر فأكثر، مفتقرة لما يتيح لها فرض نفسها وسط حلبة المنافسة مع هذا الجهاز الايديولوجي للنشر المركَّز بدرجة كبيرة» .

الرعب ! هل يتحتَّم علينا أن نسمي الأشياء بأسمائها ؟

هل يتحتَّم إفراغ الكلمات للتخفيف من أثر عُنفها، ولِتَمْرير الأشياء من خلال اللّامبالاة ومن خلال ابتذال ما يقع في كل صراع ؟

ليس كل الكلمات ما دام الأمر يتعلق بشيء آخر غير الحرص على التحدُّث باعتدالٍ ومُلاءَمة. ماذا تعني، إذن ، هذه الخصومة الكلامية ذات الغزارة التي لم يسبق لها نظير، والتي تنتهي إلى الخطة السياسية والدبلوماسية، وتُؤشر، نتيجة لاستمرارها، على رهان حاسم ؟

إنَّها تتخذ مظهر الرفض، والسخط المستَنْكِر، والفضح العمومي، لدى بعض مثقفي اليسار، مروراً بحاخامية فرنسا، والمؤسسات الصهيونية: كلهم يَتَواطأون لحظر استعمال كلمة إبادة، والأوصاف النازية وحتى الاسم الرمزي لمدينة «أورادور سيرشملان» كلما تعلق الأمر بالعمليات التي تتم في حرب لبنان الآن . ونجد الصحفي جان دانييل، بِنَبْرته المتَبَجِّحة

المعروفة ، يؤنت، هو أيضاً «اللاّمسؤولين» الذين يستخدمون كلمة إبادة لِنَعْت عُدوان دولة إسرائيل على الشعبينْ الفلسطيني واللبناني. إن هذه الخصومة الجدالية غير مُجدية، والانصياع لها مَعْنَاهُ القبول بتزييف المناقشة عن طريق التبادل اللاّنهائي لِحُجَجٍ من الطبيعة نفسها تقريباً . ما يجدر بنا، إذن أن نفعله، ليس هو تَجنّب المسألة، بل البحث عمّا تُخفيه المناقشة وتكشفه في آن، وعن الدلالات التي تُضمرها. والوظائف التي تضطلع بها .

لِنُلاحظ بَدْءاً، أننا لو أَرَدْنا أن نكتفي بدور الرقيب هذا، الساهر على استعمال الكلمات، لوجب علينا، بكل موضوعية، أن نسجل، دون التباس، أن سوء استعمال اللغة هذا راجع، قبل كل شيء ،للأوساط القيادية الاسرائيلية، وعلى رأسها مناحيم بيغن. إنه عنصر ثابت في الخطاب الإسرائيلي الرسمي يظهر بطريقة بذيئة، واستخفافية تصدم حتى الأنصار المتحمسين للسياسة البيغينية . فنحن نجده، في خطاباته، يُشبِّه منظمة التحرير الفلسطينية ، والشعب الفلسطيني، وقادته، بهتلر وزبانيته النازيين، وبكويرينك ، وغوبلز ، كما يشبه الأعمال التي تتمُّ في إطار مقاومة مشروعة بالأوصاف والنُّعوت نفسها. إنه سوء استعمال لغة، وتعريض، يجب إن يُنبِها الرأي العام، وأن يَدْعُوَا إلى اليقظة ما دام التّدليس واضحاً وعلى عدّة أصْعدة . سيتحتّم علينا أن نُعطي الاسم المطابق لسياسة أساسية لاَزَمَتْ دولة إسرائيل، حتى من قبل أن تتكوّن وتَنْشأ . سيتحتم علينا أن نُسمي فِعْلَ طرد الفلسطينيين من أراضيهم، وتحطيم مئات القُرى من أجل إيواء المعمرين الاسرائيليين، وإبعاد سُكّانٍ بكاملهم ، وزَرْبهم في الحظائر، والحكم عليهم بالعيش في المخيّمات : وبكلمة واحدة، تصفية الشعب الفلسطيني باعتباره هوية وطنية، واختزال ما تبقّى منه إلى كتلة لاجئين دون أرض ولا روح ولا وجه ، سيتحتّم علينا أن نسمي بالاسم الحقيقي سياسة التمييز العنصري التي تُطبّق حتّى في حق اليهود الشرقيين العرب، وسياسة الارهاب البوليسي المتبعة في الأراضي المحتلة، والتي تجمع بين السجن والحرمان من الحقوق، والتعذيب، وأخيراً تدخل الجيش ضد المتظاهرين ، والمراهقين ، والأطفال، والمؤمنين المجتمعين في المساجد .

إن دولة اسرائيل قد قامت على النكران المادي والمعنوي لكلّ ما هو عربي، وفلسطيني، بالدرجة الأولى، ومن بن غوريون الى بيغن، وبرغم اختلاف في النّبرة، فإن القادة الاسرائليين، والمؤسّسين، قد أعلنوا ذلك، وأعادوا قوله وتأكيده باستمرار. إن التّدليس لا يتمثل في الطلاق بين الكلمات والأفعال، بالمعنى الإعتيادي، ولا هو ناتج عن دعاية منتظمة ودقيقة، ولا هو راجع فقط إلى الأوساط القيادية، بحيث يمكن أن نربطه بالجهود المنسَّقة لمركز وحيد. . ذلك أن الإيديولوجيا الصهيونية، على امتداد تطورها ، تقدِّم كُلّاً ذات تعقيد يتأبّى على كل تحليل تبسيطي يُراد القيام به في بضعة أسطر. إن هذه

الإيديولوجيا، في عبورها، وفي تاريخ تطورها ، وانطلاقاً من مشروعها المؤسس لدولة، قد التَقَفَتْ واسترجعت لصالحها ، وأدمجت في ديناميتها، قُوَى التيارات الروحية والمثالية التي تبدو اكثر تباعداً ونفوراً . لقد أثبتت نفسها وكأنها إيديولوجيا اشتراكية مشتركة بين الجماعات، ثورية، مع إقامة ضجة كبيرة حول تجربة الكيبوتزات ، دون الإقرار بأنها أقيمت فَوق أراضٍ سُرِقتْ من الفلسطينيين . إن الاشتراكية الصهيونية استعمارية بدءاً قبل، أو في الآن نفسه، الذي هي فيه وطنية . إن المعمرين الاسرائيليين، الذين يصنعون اليوم القانون داخل الأراضي المحتلة، ويُنظمون عملية مطاردة العربي، لَيُقدمون أوضح دليل على انها اشتراكية استعمارية. فالصهيونية التي كانت لائكية في الأصل، محاربة لجميع التيارات الأكثر عمقاً وأصالة في الديانة اليهودية، والتي عَارَضَتْ إنشاء دولة وما تزال ، نجدها اليوم (أي الصهيونية) قد اجتازت منطقة الهامشية، ونَجحْت في أن تقلب الوضع بطريقة عجيبة ، وذلك عن طريق استعمال لعبة ذات مجموعة من السيرورات البالغة التَّعقيد . سيظل التساؤل مطروحاً ولأمدٍ طويل، كيف استطاعت دولة مثل الدولة الصهيونية القائمة على منطق العُنْف(لا يمكن أن نَنْسى إرهاب «أرغون» حيث تألّق مناحيم بيغن بصفة خاصة) وقائمة على التمييز العنصري باعتباره مبدأً (تقديس القُوّة المسلحة، والعَسْكَرَة الفاشية لجزء كبير من الشباب)، كيف استطاعت مثل هذه الدولة، والى اليوم، أن تُخفي عن أكثر العيون تَنَبُّهاً طبيعتَها الخاصة ؟

يُطالعنا هنا تَحوير تامّ، وليس فقط اللجوء الى الانجيل من أجل تَدعيم مشروعية وحقوق مُكتسبة ، في الواقع ، بواسطة القوّة . تحوير عن طريق معجزة البدايات : مَحْوُ الحادثة العرضية التي دامت بضعة قرون ، ومملكة الرب تَنْبَثِق من الظل الزائل، والزمان قد مُحِيَ، وكذلك التاريخ . والدولة تكفُّ عن أن تكون دولة، وإذا هي كِيانٌ لاَهُوتيّ مُضْطَلِعٌ برسالة كونية، وتبشير مُجسَّد يحمل رسالة السلام والسعادة لمجموع شعوب الأرض. من هنا ذلك التَّعالي، وذلك الطابع المقدّس المُضْفى، الذي لا يجوز انتهاكه، على دولة اسرائيل، وأيضاً تلك اللاّمشروطية في الارتباط بها ، وكأنما هو ارتباط يُشبه الأمر المطلق .

من هنا اهتزاز التعبُّد الوثَني المستعد لغفران كل شيء، ولرفض أدْنَى شُبْهة تَشِي بالوعي النّقدي. من هنا، من هذه المرتفعات ، تَتساقط علينا النَّبْرَةُ القيامية، الرسولية، ملوحة بصواعق الشقاء والإبادة في وجه كل الأعداء . وأفضل مثل على كل ذلك: أن حاخام إسرائيل الأكبر، وفي عزِّ هذه الحرب ، قد بارك هذه الحملة الابادية، وَوَصف المشاركةفيها بأنها ليس فقط واجبٌ ، بل هي ، في نظره ، «مِيتْسْفَا» أيْ : فِعْلٌ حسن .

طبيعي أن هذا البُعد الميثولوجي الاستيهامي المنغرس بِعمق في العقول، والمغَذّى

بذاكرة عريضة من الاضطهادات والآلام ، والذي رسمتْ مظهراً عامّاً له، لا يجب أن يَحْجب عنا الواقع السياسي لدولة إسرائيل، وستراتيجية وتاكتيك الأوساط الحكومية والقيادية، وما ينتج عن ذلك من توجّه محدّد داخل سياق دولي محدد. . إنها سياسة تعرف كيف تلعب على كل المستويات، والسجلات، بحثاً عن التبريرات ، وبهدف إخفاء الطبيعة الحقيقية لاسرائيل. فالدعوة إلى العودة لمنبع التقاليد، وللتوارة ، يُصاحبها استغلال لكلّ ما يمكن استِثْماره في ذاكرة المحرقة(الهولوكوست) المأساوية. ذلك الاستغلال الذي أَدَانه ناحوم غولدمان قبل موته أخيراً، بكل ما له من ثقل وسلطة معنوييْن . ولقد كان «حَنّا أراند» أول من حلل إواليات هذا الاستغلال السياسي، والاستعمال الاستهتاري، كاشفاً عن دلالاته المخبوءة، إلاَّ أن جميع ما كان يتم، في الصمت، وعبر لامبالاة الأحداث اليومية، وكل ما لم يَنْكَشف خلال الصراعات السابقة، فإن حرب لبنان قد أُوصلته قمّة الجذرية ، كاشفة بذلك عن كل شساعة حقيقةٍ ظلّت مكبوتة أمداً طويلاً .

إنّه الرعب! فأولئك الذي تألموا في جلدهم من الوحشية النازية، والذين لا يستطيعون حتى أن يتحملوا ذكراها، قد أحسوا ، دون شك، قُرب حُدوثٍ عاجل للمأساة ، لدرجة أنهم امتنعوا عن التعبير عمّا لا يُعبَّرُ عنه، ممّا جعل تَحريماً منبثقاً من أعماق اللاّوَعي، يحول دون التلفظ بأي كلام قد يؤثر على استيقاظ ما لا يُسَمَّى. وهناك آخرون حاولوا، من الخارج ، دون خجل ولا أي مراعاة. أن يستغلوا رأس مال هذا الألم الذي ليس المهم . انهم، وهم مُغْتصبون مستهترون ، يُنصبون من أَنفسهم وكلاء على تراث لم يَستودعه أحد عندهم. إنهم اليوم في طليعة صفوف مَنْ يعلنون الفضيحة ، ويجأرون بسخطهم لأن الحقيقة قيلت بمناسبة هذه الحرب. نعم ، إنه الرعب ! وهذه الخصومة الكلامية لها شيء ذو بشاعة خاصة. ومصدر البشاعة هو انها تقوم على حساب مُخاتل ومقصود، وعلى ستراتيجية للكذب نعرف حظوظها من النجاح، لكونها تتخذ هدفاً لها عالماً بأكمله من الحوافز اللاّواعية. وفي أساس هذه الستراتيجية نجد سيرورات حاذقة، ماكرة ، يجمل بنا أن نُعريها . فالسخط المبرَّر الذي أثارته قضية فوريسون Faurisson الشهيرة، قد جعل أحد الكتاب، الذي لا داعي لذكر اسمه ، يلجأ الى خلط نَختَزله فيما يلي: إذا قَبِلْتُم نُكران الإبادة ، بالمعنى المتصل بقضية فوريسون، فإنكم ، في الوقت نفسه ، تصبحون لاَسَاميين ، ومعادين للصهيونية، وأعداء صُرَحاء لدولة إسرائيل، التي تغدو، بذلك ، متحللة من جميع الأفعال التي قامت بها: عندئذ تكونون ملزمين بألا تتحدثوا ، لا عن الأراضي المحتلة، ولا حتى عن الطرائق النازية والهتليرية .

بالطريقة نفسها ، لكن في ظروف بالغة الخطورة، فإنّ هذه الخصومة الكلامية تُراهن أيضاً، على خلط للأوراق : فإذا أقمت أَدْنَى مشابهة، ووصفت محاولة ومشروع إبادة الشعب الفلسطيني بالإبادة، فانك ، عندئذ ، تكون سائراً في اتجاه هذا الانكار ، وتحاول، في

رأيهم ، أن تجعل محرقة النازيين نسبيةً ، وهيّنة، ومقبولة، وتكون بذلك قد ألحقتَ الضحايا بجلاّدِيهم .

منطق غير معقول ولا مقبول مطلقاً! فالإنكار قد اتخذ، مع حرب لبنان ، معنى آخر، والمستقبل الذي تؤشر عليه هذه الحرب، يُثير أعظم القلق في النفوس. وذلك تحديداً لأنه لم يعد مُمكناً ، بعد مذبحة أوشفيتز، أن نفكر كما مِنْ قبل، وأن نقبل من جديد، وبأشكال مختلفة، أن يولد نظام الرعب والإبادة المنجزَة علمياً على نحو ما نشاهد في لبنان، ولأنه ليس صحيحاً ، مطلقاً، أن نجعل الناس يظنون، بواسطة هذه الخصومة ، أن على الرعب أن يَتطابق تماماً مع نفسه لكي يمكن التعرف عليه، ولكي يُسمَّى ويُعينَّ في دلالته الجوهرية. ذلك أن ما هو قابل لتعيين هُويته ليس هو المطابق : ولا يوجد علم حساب خاص بالرعب، وإذا كان البعض قد لجأ اليه فإنّما من أجل أن يُسامح الجريمة، ويدخل مساومة ذات بشاعة خاصة: إن عدد الضحايا لا يحسب بالملايين، كما كان الشأن بالنسبة لضحايا النازية ، إلاَّ أن إبادة الفلسطينيين الفظيعة لا تترك مجالاً لأي شك، أوْ تردُّد، أمام تسمية ما يتحتَّم فضحه بأقصى ما يمكن من الطاقة والجهد. وليس هناك شك في عزم بيغن والحكام الاسرائيليين على الوصول الى الإبادة المنهجية للشعب الفلسطيني، وذلك وَفْقاً لمشروع مُسَطَّر خلال أمد طويل. إن جميع تَوْريات اللغة العسكرية ، المعاد استعمالها، في الصحافة بصفة عامة ، لاتستطيع أن تُخفي الحقيقة الفظيعة : وهي أن الهدف المطلوب، في لبنان، هو التصفية الجسدية للكائنات البشرية رجالاً ونساءاً وأطفالاً فلسطينيين !تصفيةً مطبقة بطريقة علمية ، وبحسب وسائل تقنية جد معقّدة . فهل يَتحتَّمُ بعد أن نَتمسَّك بالجدل الفارغ، وأن نُراعي - وهذا منتهى الفضيحة- التلاوين والتفاصيل في طريقة القتل، وأن نَخُصّ الرعب بِغُرَف الغاز ، ونسكت عن استخدام القنابل العنقودية، المحرَّة حتى في قوانين الحرب الحالية، والتي تعلن بأكثر ما يمكن من الموضوعية عن إرادة تصفية الشعب الفلسطيني. أي شيء آخر يلزم الى جانب هذا التحويل الذي عرفته بيروت الغربية، والذي جعل منها مخيماً واسعاً للموت، محروماً من الماء والكهرباء، لافظاً أنفاسه تحت القنابل المتناغمة الصادرة عن الطيران، والبحرية، وسلاح المدفعية ؟ وكل ذلك يُضاف إليه في المناطق المحتلة، في المدن المُقَنْبَلة: صيدا، وصور، وغيرهما ، الرعب البوليسي، والاعتقالات الجماعية، والحجز، والإبعاد، والتعذيب. أي شيء آخر يلزم عندما لا يكون هناك بَعْدُ ما يُقال، وعندما يكون الوضع بلبنان قد بلغ هذه الدرجة القُصوى ، حيث ما هو غير قابل للتفكير يتحدَّى القعل، ويُحطّم كل كلام معقول ؟ أي شيء آخر يمكن قوله عندما تبدو رفاهية التفكير، ومحاولة التحكم في الوحشية عن طريق مجهود للفهم، ليس فقط وكأنها شيء هُزْئي، بل أكثر خطورة، وكأنها محاولة إرادية ، أو غير إرادية، من أجل أن نُخضع لما هو قابل للشرح العقلي، ذلك الشيء الذي يبدو، في هذه الأيام العصيبة بلبنان ، مُتحدّياً لما هو قابل للتفكير إنسانياً ؟ عندئذ يغدو

التفكير من نَمط« الموسيقى التي كان الجنود النازيون يُغطون بها صراخ ضحاياهم» نفسه(أدورنو) . ومع ذلك فإن ما نرفض التفكير فيه يظل هنا قائماً، وكأنه تَحدٍّ مستمر، يُرجع الى الوراء، في كل لحظة، حدود ما يمكن أن نَتَخيّله . وخلال لحظات وقف إطلاق النار النادرة، التي كثيراً ما تكون وهمية، وفيها تُتَابَع المفاوضات، يولد الأمل من جديد، ومعه شعور بأن هذا الكابوس قد يَنْتَهي، أخيراً . لكن سرعان ما يعود تصعيد الرعب بعنف وفظاعة أكبر، مُبدّداً كل شك حول الإرادة الجنونية لدى بيغن، والأوساط القيادية الاسرائيلية، في محو كل أثر للحياة البشرية، حَيْثما قد يوجد الفلسطينيون . إلى أي حد سيذهبون لو افترضنا أن هناك حَدّاً ؟ لا أحد يستطيع أن يجيب على هذا التساؤل ، ما دامت القوة العسكرية، القوة العارية العمياء، تنتصر ساحقة جميع القيم الأخلاقية والروحية من أجل فرض حَصْريَّة لغتها ، وسيادة منطقها . إن دولة اسرائيل تُنْهي الكشف عن طبيعتها ، وليس هناك أي مكان مختار حيث يمكنها أَن تَحتمي وأن تَفْلت من المقياس المشترك للتاريخ ، أو أن تَتَوشَّح بِتمائم رسالة تَوْراتية روحية تبشيرية، وأن تُنْزِل العقاب ، عن حق ، بكلّ فِعْلٍ يُباشره الآخرون . إن دولة اسرائيل مُعادلة للدول الكبرى، التي أقامت الدليل، في بعض فترات التاريخ، على أن الوحشية خطر دائم كامن داخل الديمقراطية نفسها . ونكتفي بالاشارة الى الفيتنام، والجزائر، للتدليل على ما نقول. وبالعملية نفسها عاد الإسرائيليون واليهود إلى أنفسهم ، أي الى البعد المشترك بين الناس في السراء والضراء. وأول فعل شجاع وواعٍ يتمثل اليوم في أنْ نقول ذلك، وهو ما يعني المسؤولية، واستيعاء الحقائق السياسية . فالاختيار على أتم ما يكون من الوضوح : فإمّا أن الرأي العام الإسرائيلي نفسه هو الذي سيفرض تغييراً جذرياً في السياسة، كما يَتَبدّى الأمل في ذلك من خلال المظاهرات الأولى، وإمّا أن دولة إسرائيل، بجنونها الانتحاري، تسير نحو زوالها يَوْمَ لا يعود ميزان القوى لصالحها . وإن قضية الكولونيل «جيفا» لَتضيء وتلخص ما هو موضع تساؤل لدى الرأي العام الاسرائيلي نفسه . فعندما ذهب الكولونيل« جيفا» ليعرض على بيغن الأسباب التي حملته على تقديم استقالته ، والحرب في أوجها، صرّح بأنّه رأى، بالمنظار المُقَرِّب، أطفالاً في الجهة الأخرى من الجبهة، فسأله بيغن عمّا إذا كان قد تلقى الأمر بقتل الأطفال. . ولمّا ردّ الكولونيل بالنفي، ختم بيغن كلامه ببساطة قائلا :

«إذن مِنْ أي شيء تشتكي؟»

إنه جنون شيخوخي يجري نحو مستقبل قِيامي، وقد استولى عليه هذيان قاتل أمام ضمير يتماسك وهو على حافة الهاوية، رافضاً الرعب، ولا يستطيع ان يتجلى، بما في ذلك ...ة الامة، إلاّ في حدود ضعيفة وسط معركة غير مُتكافئة .

ترجمة محمد براده

شهادات

ابتهالات لنجمة الصبح

حيدر حيدر

« في ذلك الزمن الذي ادرك فيه كل امرىء انه لم يبق امامه سوى ارض الموت . ولو أنه اسهل عليك ان تموت عندما لا يفصلك عن الله غير صدور الاعداء . في ذلك الزمن الذي بلغ فيه الالم شأوا اشدّ من القتال . وهو ان تعيش بلا معركة في انتظار ما لا اسم له ، في ذلك الزمن الذي يقوم فيه الطفل بالحراسة ، وترتجف المرأة من الرجل وهو بين ذراعيها كما لو ان الدم يسيل منه عليها ، في ذلك الزمن الاسوأ من اليأس فما لأحد فيه بارقة أمل . . . »

أراغون

ـ ١

في ذلك الزمن الذي يبدو الآن سحيقاً في صحراء الذكرة ، كانت ارض الموت : بيروت . المدينة التي غدرت فأطبقت على اضلاعها أنياب الاعداء وبراثنهم بعد رحيل المقاتلين . وكما في كابوس هلامي وضاغط يقف فيه الرائي على حافة هاوية مليئة بالافاعي والوحوش المفترسة ، هكذا رأيت نفسي وحيداً وجاهزاً للموت قتلا .

واذكر في ذلك الزمن ان امرأة ما كانت معي ، وكان هناك مسدس يشبه افعى مخبأة بين ثيابي . امرأة مهلوعة تغطيني مقيما او متحركا ومسدس غير قابل لأن يسلّم للاعداء ، لأن فيه رائحة المحاربين ، ورائحة الثورة المغدورة .

لم يكن قد مضى اكثر من اسبوعين على الرحيل الفلسطيني ، حتى بدأ الاجتياح من كل اطراف المدينة التي انهكها القصف ، الحصار ، والدمار البربري .

ـ اليهود قادمون .

ـ لماذا يقاومونهم وهم الأضعف ؟

ـ كيف نسلّم ومعنا سلاح ؟ !

ـ سينتقمون منّا .

ـ لو كانت المقاومة هنا !

ـ الجبناء . الانذال . ثمانون يوماً على ابواب بيروت وما استطاعوا التقدم شبراً واحداً .

ـ يا للغدر !

هكذا انطلق الحوار بين مجموعة الرجال والنساء ، الذين هبطوا الى الادوار السفلى من بهو بنايات الشاطىء الذهبي في حيّ الرملة البيضاء .

مقاتلو الحركة الوطنية اللبنانية ، المُسْتَفْرَد بهم في غياب حلفائهم الفلسطينيين ، كانوا يواجهون في تلك اللحظة زحف القَتَلة ، وجيش شارون القادم إلى المذبحة .

ستسألني المرأة الصديقة ما العمل ؟ واليهود على مبعدة خمسمئة متر قرب فندق البوريفاج ، فأرتبك . تغمرني سحابة مُمِضّة من الكآبة والألم . ها أنت في الحصار مرّة أخرى ، وبلا سلاح أو جدار .

ـ نرحل الى بيت صديقك في حي « فردان » !

قالت ذلك متسائلة.كما رأيت الهلع في عينيها طائراً راشه سهم مباغت . كنا نركض تحت الطلقات واصوات الانفجارات ، محتمين بالجدران والزوايا الميتة . نركض كما في زمن مضى إبان الحرب الأهلية ، لحظة باغتتنا الطلقات ونحن على رابية مطلة على البحر . يومها زحفنا كالسلاحف ، واحتمينا بوهدة من الارض ، صدران متلاحمان ، وقلبان يخفقان ، والرصاص يتطاير فوق رأسينا .

لم نكن نركض . كنا نطير بين فُسحِ الموت واوراق الحياة الخضراء .

عندما سنصل الى البيت الذي آواني في ازمنةالحرب والحصار ، سأشعر وصديقتي أننا نجونا من الموت ، برغبة الجسد الذي يريد ان يحيا .

ـ ٢

كان زماناً كحدّ الموسى . وكنّا على الحافة الأمضى من الصراط . وها هو المطهر كالشفق ، وكنّا بين الغياب والبحر .

وفي ذلك الزمن النائي كالنجوم ما كنت مكتئباً ، ولا فرحاً . كانت مراسيم الدفن قد اكتملت بلا طقوس في اوقات بعيدة ، وكنت أتوقع الحرب التي ستخرج الحيّ من الميت ، والميت من الحي . الحرب التي ستضع حدّاً لهذا المسرح الهزلي العائم فوق مستنقع الضحك والمرارة .

لحظة باغتت الحرب ، قبل أوان التوقع ، كنت في البيت وحيداً . وكما يحدث في زمن الاضطراب الأعظم . حيث يباغتك الزمان بالحادث الجلل ، وأنت لا تعرف سياق الوقائع القادمة ، احسست في البدايات احساس طفل او شاعر هربت منه الجهات التي هبّت منها هذه الريح الصفراء .

الايام الاربعة الاولى ، كنت فيها أترنحّ بين اللامبالاة والارتباك . ما كانت وقائع الحرب قد توضّحت . في البيت كنت اتحرك كسجين ، أو رجل أخرق لا يدري ماذا يفعل .

كان الغزاة يتقدمون في الجنوب ، والطيران يقصف مواقع المقاومة والمخيمات في صور ، وصيدا ، والدامور ، وبرج البراجنة .

في الليلة الخامسة لبداية الحرب ، بعد الثانية عشرة ليلاً ، ارى الزوارق الحربية تضيء من البحر ، تتقدم من شواطىء خلده والاوزاعي والروشة ، وتبدأ رميها على المواقع البَرية المنتشرة على امتداد الساحل .

وأرى ، وانا في الشرفة المطلّة على البحر ، نيران الاسلحة المضادة تنطلق كرات بنفسجيه تتدحرج على سطح البحر ، باتجاه زوارق الاعداء ، لتمنع تقدمها من الشواطىء .

في ذلك الوقت البنفسجي من الليل ، وانا بين احساس التوحد والرغبة الغامضة في الموت ، كنشوة خاصة ، بدا لي الأمر مهرجانا طفوليا ملوناً ، وحشيا في اصلة الاول ، لكن الموت كان بعيداً . كانت لعبة الموت تجري على شاشة بصري ، ولم أكن مصّدقا ان هذا الذي يحدث هو الحرب .

لقد جاءتني الحرب في الاسبوع الاول من قدومي الى بيروت ، هارباً من الريح والشمس البليدةفي قبرص ، حيث يتساوى الانسان بالحجارة البيضاء ، فلا يتنفس سوى النعاس الازرق .

- ٣

في الليلة الثانية عشرة من ليالي شهرزاد النارية سأهجر تخوم البحر . أتأبط مخطوطة روايتي ، وثيابي ، ومسدسي ، واوراقي الخاصة لانتقل مع صديقي الى حيّ الصفير ، في الضاحية الجنوبية .

صديقي وزوجته وابنة اخيه : الطفلة ميرفت وهذا الرجل الحالم باندلاع الحرائق في بلاد العرب ، لتولد هذه الارض الملعونة من رمادها . سيكون صعباً وقاسياً ، كما سيكون روائياً ومتروكاً للزمن القادم ، رواية وقائع ما جرى في تلك الايام العشرة في بيت صديقي ،

الذي كنت أحبّه في انطلاقاته البّرية ، والطفولية ، ثم كيف هجرته روحي وانفصلت عنه لتخاذله وسقوطه في امتحان الحرب .

ـ والآن ما العمل ؟

بعد يومين من الاكل والثرثرة حول ما يجري ، ورؤية الطائرات المغيرة على برج البراجنة والجبل ، تساءلنا .

مع بداية الحصار ، في اليوم الرابع عشر من حزيران ، كنت نهب ريح الدمار ، ونهب الحرب الكاسحة ، ونهب عواصفي الداخلية ، لكنني لست في مجرى الحرب ، سفينة داهمها اعصار تنزع بحيلة ربّانها لتلوذ بالمضائق .

وما كان الأمر ، في جيشانه الجوهري ، ينزع الى الملاذ ، لكن وقت انبثاق النار كان بيد الاعداء في الداخل والخارج .

وفي ذلك الزمن الحارق ، حيث بوغتنا بالشرارة ، كنا وحيدين ومهجورين وملعونين . وكما قاتل الفدائيون في الحرب فيما بعد ، وحدهم ، كنّا مثلهم نحارب في ازمنة السلم وحيدين ، وعراة ، في صحارى ومدن وقرى لا تُسمع فيها صيحة ، ولا تأتيها نجدة .

ـ لماذا لا نلتحق بمواقع الشيوعيين ما دمت شيوعياً . ؟

ـ نحن في حي الشيوعيين وهم رفاقي . عندما يرون ان المعركة تقتضي التحاقنا سنلتحق معهم ونتسلح .

جرى الحوار في شرفة بيت صديقي ، ونحن نشاهد الطائرات المغيرة على مخيم برج البراجنة لليوم الثالث . غارة كل ثلاث دقائق من اربع طائرات تقذف صواريخها على مسافة خمسمئة متر من مرأى ابصارنا .

كانت الطفلة ميرفت تأتي الى الشرفة ، شبيه أرنب مذعور يخفي خوفه بأعشاب صدورنا .

ـ انت خائفة يا ميرفت ؟

ـ لا . لكن هذه « الصاروخات » عمّو حسين متى تنام ؟

ـ عندما تغيب الشمس . يجيبها عمّها .

ـ يا شمس غيبي .

هذه الطفلة الاعجوبة ستكون سلوانا في اوقات الفساد والخراب ، عندما يتقدم توجس الموت ، كما سيكون جدارنا الصامد ، زوجة صديقي التي هجرها الخوف منذ اجتياح قريتها كفركلا بعد ان دمّرها الغزاة اليهود .

برغم الحرب والموت كنّا سعداء بفرحٌ اهلي. بين الفرح الأهلي وجرح الحرب كنا نهيء حياتنا اليومية على نحو لم يكن يرضي الاعداء ، الذين توخّوا تنغيص حياتنا . زوجة صديقي وأنا كنّا مضطربين في الاعماق : اننا لا نشارك كما ينبغي في المعركة . انبثاقا من هذا الشعور طرحت هي الالتحاق بمستشفى الشيوعيين في الرويس ، وانا قلت : منذ الغد لا بد ان نذهب الى مكتب الحزب لاستلام السلاح .

صديقي الهائم بالخمرة والجنون الليلي والحزن ، لم يعترض .

٤

كنّا في الزمان الغادر
وبيننا وبين الله انتصبت صدور الاعداء .
وما كان باستطاعتنا ان نخرج الصرخة .
في ذلك الزمان كانت المرأة تسيل حزنا
على صدر الرجل الخائف ،
الاعزل من السلاح .

كان الاعداء قد اخترقوا المدينة ودخلوا في شرايينها ، ومع المرأة كنت في بيت صديقي الكهفي تغطيني واغطيها ، وكلانا يرتعد في صحراء من ظلام وصقيع واحتمال الموت القادم . سأتذكر في اليوم الثاني من هروبنا انني نسيت مخطوطة الرواية التي امضيت سبع سنوات في كتابتها ، والمسدس المُهدى لي من القائد ابوعمار ، وسأشعر بالمرارة والفقدان لشيئين مهمّين لا بد من انقاذهما من البيت الذي سقط تحت الاحتلال . على مدى ثلاثة ايام متواصلة قاتلت الحركة الوطنية اللبنانية بقواتها المتواضعة وحيدة . جابهت الاعداء من كل المداخل التي بدأ اقتحامها ، وقدمت ضحاياها ، ثم انهزمت تحت ضغط الغزو الأقوى .

وفي ذلك الزمن كانت الصرخة الوحيدة التي تغطي كل الجنون القديم والأخطاء والوحل القديم ، والممتدة فوق سماء بيروت الغربية : الآن أين الاصدقاء الذين رحلوا ؟

كانت المغامرة العظمى للزمان التراجيدي الجميل ، قد هدم ائتلاف مناراتها . ومن عرض البحر ، لحظة ابحار الطروادين الهائمين على سطح الغمر ، كانت بيروت المجللة في ثياب حدادها تشرع مناديل الوداع على شكل طلقات وردية تشقّ سماء مدينة خضّبها الدم ، والفقدان ، والظلمة المدلهمة . في ذلك الوقت كان العرب في صحراء التيه ، ينقسمون قبائل

وطوائف وعشائر تاهت عن باريها ، بعد أن هجرها أنبياؤها ، في الوقت الذي كان فيه العبرانيون يتقدمون متحدين خلف يوشع ، اليهودي الفاتح ، باني مجد بني اسرائيل بقوة الفتك والسيف . الآن اتذكر كم كنت فاشلاً في صياغة بيانات الاعلام الجماهيري ، في مقر الحزب الشيوعي اللبناني . كانت الملاحظات حول الصياغة تشير الى ضرورة تغليب الاسلوب التحريضي والتعبوي ، والابتعاد عن الصيغة السياسية والايديولوجية . أكثر من بيان كتبناه ، صديقي وانا ، شطبته القيادة لافتقاره الى البنية الهيجانية ـ التعبوية . كنت ممتعضا في داخلي من هيمنة هذه الروح التبشيرية التي تمالىء الوهم الغوغائي عن الشعب .

شطبوا ثلثي البيان الذي كتبته ، وكتب الرفاق بيانين تحريضيين وشعاريين يحضّان على المقاومة والاستبسال ، واستمرارية المعركة .

عندما حملنا البيانات ، صديقي وانا ، وركبنا سيارة الاعلام الشعبي التي ستدور في الشوارع بمكبراتها ، كنا في اوج الغبطة المحتدمة : نحن الآن في المعركة مع الناس ، والمدينة التي تقاوم.لقد ولّت احتجاجاتي الداخلية وانا اذيع بيانات التحريض في الضاحية الجنوبية . صديقي وانا ، كنّا نذيع بأصوات هدّجها الانفعال بداية ، لكنها فيما بعد اتّسقت داخل موجة هندسها المِران ، وتخطي التجربة ـ المفاجأة.كان الناس في الشرفات ، على ابواب المنازل ، يستمعون . قلةٌ من الاطفال والرجال المتقدمين في السن ، كانت تجتمع حولنا اذ تتوقف السيارة في الساحات ونحن نهدر بكلمات التحريض ، والمقاومة ، واستبسال مقاتلي القوات المشتركة .

كل الجمع المستمع كان يعرف الحقيقة . والجميع ، وهم يستمعون الى هذه البيانات ـ الضوضائية . كان محور تفكيرهم ينصبّ حول الأمان والنجاة من الموت ، وتأمين الحياة اليومية . المقاتلون والسياسيون وحدهم ، كانوا في مجرى الحرب والسياسة والتحريض ومقاومة الاحتلال وتحرير الوطن .

الحزب الشيوعي اللبناني، اول حزب شيوعي عربي حمل السلاح منذ ١٩٧٥ ، وقدّم الشهداء دفاعاً عن الوطن والمبادىء لم يكن هو المسؤول عن هذا الحياد الجماهيري .

في حي بير العبد جاءت الصدمة التي وضعتنا على حافة الموت . جمهرة من الناس تحلقت حول السيارة . ما الذي تذيعون ؟

ـ بيانات حول الصمود والمقاومة .

ـ من اين انتم ؟

ـ من الحزب الشيوعي .

كانت البيانات تحيي صمود وقتال القوات المشتركة وحركة أمل ، للعدو الغازي .

فجأة ،بعد أن اذعنا البيان ، وتقدمنا تحت الابصار التي تنظر نحونا شزراً ، وبغضب حاقد ، انبثق المسلحون برشاشاتهم .

ـ قفوا . انزلوا من السيارة ! وانفجرت الطلقات .

كانوا يطوقوننا . عشرة مسلحين بنادقهم ورشاشاتهم موجهة نحو السيارة الصغيرة العزلاء ، سوى من كلاشنكوف رفيقنا السائق .

منذ بداية الحرب الاهلية التي عاصرتها ، وحاصرني الموت فيها مرارا ، لم يرهبني الموت كما في تلك اللحظة .

ـ اللعنة . سنموت مجانا !

قيلت أو هُجست ،في الهنيهة التي كان القتل يتشكل فيها عيونا حمراً ووجوهاً في اصفرار صلصال من ارض كدّان تنمو فيها العقارب .

رفيقنا السائق كان مهتاجاً . صديقي وانا ، كنّا داخل غلاف الرعب والمفاجأة .

خلال دقيقة من توقع انفجار السماء والقلب والجريمة ، تقدم شاب اعزل ملتح من شباك السيارة .

ـ مرحبا . من اين الشباب ؟

ـ من الحزب الشيوعي .

ـ اهلا ومرحبا . البيانات هنا ممنوعة . ثمة مهجّرون من الجنوب وهذه البيانات لا تفيد . تذكرّ المهجّرين بكلمات غير مجدية أدّت الى تهجيرهم . حركة أمل هنا حسّاسة من هذه الامور . عدم المؤاخذة . أرجو أن تدركوا الظروف .

ـ لكننا نذيع بيانات مشتركة بين أمل والشيوعيين !

قال رفيقنا السائق .

ـ صحيح . على عيني . نحن والشيوعيون نقاتل معاً ضد العدو . نحن في خندق واحد . لكن الشباب منفعلون . وصرخ بالمسلحين : بسّ يا شباب . ارجعوا ! بدت المسرحية درساً سمجاً من دروس ايقاعات ميلودراما التهديد بالقتل بين التنظيمات التي احتكرت احياءها وحاراتها ، إقطاعاتٌ محرّمة على فتوة الطوائف والاحزاب الاخرى .

٥

كانت هناك فسحة من وقت للحب . فسحة الرغبة الاخيرة لرجل ذاهب غداً إلى ميدان الاعدام . في هذه الفسحة كانت الازمنة القديمة تعدو على شاشة الذكرى : الطفولة في مروج العشب قرب ابتهاج البحر . الامّهات الحنونات العابقات بأوراق غار الأودية . النساء الجميلات البعيدات كالنجوم في سماوات بلون الحرير الازرق . المدن الهادئة اللاتي خَطَوْت على ارصفتها ،والتي غفوت فوق رمالها وازرقاق موجها الرخيّ . صُوَر . صُوَر . ابتهالات سلام الروح في رقدة ما قبل الرحيل إلى ميدان الموت .

كانت الجريمة الآن في مسامّ المدينة . لقد سقطت طروادة ، واليهود اللحظة يحطّمون كل النصب والتذكارات ويغتصبون البحر .

لأول مرّة أرى اليهود - القتلة عن كثب . أراهم في شارع فردان يتقدمون متوجسين على شكل دورية من جناحين . كانوا على مبعدة عشرين متراً ، مدججين بخوذاتهم ورشاشاتهم وستراتهم الواقية للرصاص . يا إله الابالسة كم كانوا خائفين وجاهزين للرمي .ذهبت صديقتي التي جاءت من الشارع الفرعي لتراهم . كانت هناك ثلة من الرجال والفتيان يتفرجون عليهم وهم يخطون حذرين قرب سيّار الدرك . مثلنا كان الشُرط اللبنانيون المنزوعو السلاح ، يتفرجون على اليهود في الشارع اللبناني : بالحجارة كان قتلهم سهلاً . هكذا هجست لصديقتي . على مبعدة مئة متر تراءت لنا دبابة قرب محلّ « غوديز » المواجه لمكتب الحزب القومي السوري ، بينما أتكأ الحائط طاقم الدبابة المتعبون .

اليهود - الغزاة هنا أذن ، وبدلا من اطلاق الرصاص عليهم ها نحن نتفرّج .

في البيت - المأوى ما كان هناك سوى الصمت ، وهدير موجات العجز التي لا تصل شواطئها إلاّ منهكة .

في تلك الليالي الممضّة كنت أنطوي كحلزون رخو داخل قوقعة هشّة . صَدَفة قذفها البحر على شاطىء تدوسها أقدام العابرين فوق الرمل .

كم كنت غريباً في ذلك الزمن ! مهجوراً كرصيف شتائي . بعيداً جداً عن مخازن الاسلحة والألفة الحميمة للرحم .

حتى المرأة التي كانت معي ، هجرتني ، حبّاً ، ما كان بالامكان ان نتواشج . بيني وبينها كانت خطوات الاعداء، بيني وبينها كانت وجوههم الوحشية الناضحة بالقتل . سنراهم ، هي وأنا في شارع الحمراء ، ونزلة ابو طالب ، وهم يحتسون البيرة،طغمة من السكارى الهائمين ، يشبهون « الكلوشار » المتشردين ، لكن بالبنادق الجاهزة للرمي . عندما

سقطوا أمام مقهى « الويمبي » وهم مسترخون ومستكينون يشربون الخمرة ، ينهض فينا الحيّ ، وتصرخ بنا عزّة الارض التي لا تموت . لقد أهرق دمهم وأُذِلّ كبرياؤهم في عرض الشارع وسقطت هيبتهم المفزعة . وكما يليق بهم كغزاة قتلة ، مُرِّغوا بدمهم برصاص من استباحوا ارضه ووطنه ، فهووا كالفزاعات .

ـ الله أكبر . الله أكبر . الشعب لا يموت .

هكذا صرخ بهم ذلك الفدائي المجهول وهو يفرغ رصاص مسدسه في رؤوسهم واحداً تلو الآخر ، ثم يقذف المسدس الى عرض الشارع ، ويتوارى .

٦

بعد ثلاث موجات من الهجوم على البيت المحتل الذي عدت إليه ، لانقاذ مخطوطة الرواية ، والمسدس ، وبعض الثياب ، سأظفر بالبقيه . صديقيتي وانا ، بعد خصومة حول المخاطرة في اقتحام البيت ، سنحتفل بهذا الظفر عناقاً وكأساً من عرق توما ، مشفوعاً بصحن تبّولة .

وكما هي لا تفهم حالاتي اللعينة في الجنون والمغامرة ، انا ايضا ما كنت لا فهم تموجات سكونيتها وهدوءها الرخو . هي وانا ، ما كنا أكثر من نقطة في محيط هذا الهول الذي يجري حولنا .

لكن كلاً منّا كان يرى ذلك الهول ، ويحتمي منه تحت جناح الآخر .

هكذا فاجأنا أنفسنا في الزمن المجتاح .

أثناء المذبحة في صبرا وشاتيلا قذفتنا في الهاوية . الصحف . الاذاعات . التلفزيون . ثم الصور التي تتراءى في المخيلة عن أبشع جريمة في القرن العشرين . يوميا كان علينا ان نتابع هذا الرقّي الباهر للوحشية الاسرائيلية .

سأتذكر ليلة العشاء المؤلفة من البيض والبطاطا المقلية ، وسلطة البندورة والخيار ، وشريحتين من اللحم .

عندما تناولت السكين ، وغمست الشوكة في اللحم ، رأيت الدم ينزف من قطعة اللحم . ستتذكر تلك المرأة صرختي الباكية : انني أرى دمهم في هذا اللحم ! وفي ذلك الزمن ما كنت عازفا عن الأكل ، وحسب .

كنت عازفا عن الحياة . اجتاحتني رغبة لا حدود لها في الموت . ان تغور بي الارض

مليون قامة الى اسفل سافلين . أن أتطهر من العرب الاوباش وأدخل في الطبقات البعيدة الغور . او لا شيء . كنت وانا اتراجع عن المائدة ، قلت : لقد هوى نجمنا إلى الأبد ، واستُبحنا كما لم يحدث لا في بغداد هولاكو ، ولا في غرناطة فرديناند .

ـ زمن الهزيمة . كما تقول دائما !

وصرخت في ليل الموت ووجه المرأة البريئة : لا . نحن بلا أسلحة . القوّة هي الله . لو كان محمّد حيّاً لتبرأ من هذه الأمة المنحطة !

في ازمنة مضت ، ربما لم يكن قتلهم شرعيا في قوانين العالم . لكنهم الآن وهم يتشفّون بالعرب في اضطهادهم القديم ، يستحقون القتل حتى قيام الساعة .

ـ عندما يتحّول المضّطهدون الى قتلة ما هو جزاؤهم ؟

هكذا كنت اطلق عليهم النار ، وأرديهم صرعى في الازقة ، والشوارع ، والمنعطفات ، مستخدما جميع صنوف الاسلحة التي ابتدعتها مخيلتي .

٧

وفي ذلك الزمن كانت الحرب تكشف الاغوار السحيقة للبشر . الاغوار التي كانت هاجعة في زمن السلم .

صديقي الخائف كان يتلفع بالخمرة ، مستتراً بوهجها المشعّ في ليالي القصف . ينام في الثانية بعد منتصف الليل ، ويفيق في الثانية عشرة ظهراً ، ومنذ الثانية بعد الظهر يبدأ البحث عن الطعام والخمرة لتبدأ الدورة الطبيعية لحياته الممسوسة بلوثة الثمل .

لا أظنّ أنني كنت بطلاً . ولا نموذجاً للجرأة ، في تلك الاوقات التي تلهب الأعصاب ، إنما كنت محتدماً ،راغبا في المشاركة العملية ، داخل هذا السياق الملحمي الذي يلفح روحي . كان الموت حولنا وفوقنا ، وما كنت متشهياً للموت إلا في معركة ، ومعي سلاح .

لكنني كنت مُقصى بشكل ممضّ ومرير ، في سياق ذاتي وموضوعي شديد التعقيد .

كنت نهب هولين : هول الحرب ، وهول المنفى والغربة ! وهكذا عندما كنت اندفع بأقصى طاقتي نحو المحرق ، كنت أفاجأ بأنني مركون على الهامش .

لقد بوغتّ بأنني مثقف ولست مقاتلاً ، كما بوغتّ انني لست فلسطينياً ولا لبنانياً .

في مقرّ الحزب الشيوعي ، في الرويس ، في المرحلة الأولى ، اكتشفت ذلك ، كذلك في المرحلة الثانية عندما التحقت بالاعلام الفلسطيني في « وفا » ، والاذاعة ، وجريدة « المعركة » .

الطفلة ميرفت كانت حالة خاصة. ابوها لبناني هجر أمها المصرية . وقبل الحرب كانت تنتظر اوراقها لتسافر الى السعودية ، حيث يعمل ابوها . لقد فاجأتها الحرب التي سمّتها حرب . . . « الصاروخات الوحشة » .

في ليلة من ليالي القصف المجنون ، وانا وهي ،ننام في غرفة واحدة ، وثبت تلك الطفلة من سريرها الصغير الى حضني حيث انام على الارض . عمّو . عمّو . قُمْ شوف الاقمار الطائرة .

من النافذة المطلة على برج البراجنة ، وصبرا ، وشاتيلا ، شاهدنا القنابل المضيئة مدلاة في سماء بلون الزعفران .

كان القصف مركزا من البحر ، والبّر ، على المخيمات ، وكنا نشاهد ، تحت الاضواء الصفراء ، كتل الدخان المتصاعدة بأشكالها الفطرية .

ـ خائفة يا ميرفت ؟

أو مأت برأسها الذي شعّ شعره الأشقر تحت ضوء القنابل : هل سنموت عمّو ؟

أبعدتها عن النافذة ، ثم استلقينا على فراشي الأرضي ، وضممتها في حضني ، كالعصفور كانت ترتجف بقلبها الصغير . بدت كأرنب أبيض داهمه الصيادون داخل جحر . ممنوحة للموت المجاني بلا ذنب . في تلك اللحظة تكثفت مهمتي الحربية والقتالية في شيء واحد : ان أحمي هذه الطفلة من الموت .

لففتها بجماع صدري واللحاف . والتحمنا بين الجدار والمكتبة ، مطوّقين بحيث لن تموت إلا بعد تمزُّق جسدي .

مع بداية انبثاق الفجر ، بدأت تلك الطفلة ، المحشوّة . بين اضلاعي ، تتحدث ، كما في حلم سريالي ، عن أمها ، وأخيها الصغير ، وألعابها ، وبلدتها الواقعة بين الاسكندرية والقاهرة . سألتني عن أمي ان كانت ميته أم حيّة . ثم قالت : اخي الصغير كنت أحمله كاللعبة هناك في الساحة . لكنه في ليلة فيها قمر طار من يدي وصعد إلى السماء كالعصفور . عمّو ليش الاطفال بيموتو صغار ؟

وسألتني عن اخوتي ان كانوا احياء أم أمواتاً : كان هناك رجل غريب يأتي ألى بيتنا . كان يحبّ ماما . هو مات بعد موت اخي . ماما كانت تقول : صعدوا الى الجنة في السماء لأن الارض وحشة ، وفيها صاروخات . عمّو انا مشتاقة لماما قوي . خايفة تصعد ماما مثل اخي الصغير الى السماء . قلبي بيحدثني عمّو !

ما كان بالامكان إيقاف هذا الفيض من امواج الحنين ، القادم من محيطات الموت . كانت عبارة : قلبي يحدثني ، تتراءى نوعاً من نبوءة هبطت من سماوات سحيقة ، على شكل وحي جلّل روح هذه الطفلة ، وسكنها .

بين الرعب والبكاء ، رحت أدفع اشباحاً سوداء وصفراء ، تراءت لي محوّمة في سماء الغرفة .

ـ لا . لن نموت !

بصمت صرخت الروح الحيّة في داخلي . لففت الطفلة بين ذراعي واندفعت هارعاً من الابواب نحو الطبقات السفلى ، بين الدهاليز ، والادراج المظلمة ، نحو القبو ، بعيداً بعيداً عن هذه الأشباح والظلال الملعونة .

٨

لم نمت في ذلك الزمن . لكن كثيرين اخرين ماتوا . وكما لم تكن نجاتنا امتيازاً ، لم يكن موتهم باطلاً ومجانياً . الاحياء والاموات ، واجهوا غزوة البرابرة دفاعاً عن انفسهم وعن مدينتهم المكلل ترابها وسماؤها بالمجد والغار . اما من حايد أوفرّ قائلا : يا رب نفسي ، فليس بالشهيد ولا بالحيّ .

وأخـــيرا...كريت

رشـاد أبو شـاور

إنهم باللعنات دمروا كريت .
حجبوا مساكنها « بقوى سماوية » ،
وأرض ميراثها ، بمساعدة الف ابليس مقاتل كالجيش أسقطوها تحت الاقدام
وبسرعة وبراعة جعلوها تنحني مثقلة بالشقاء .

اللآلىء

« من النصوص الكنعانية »

سلوى الحزينة تبحث عن الياسمين . ومن غير سلوى ؟ !!
تحت المطر ، في الاشرفية ، رأيتها تودع المقاتلين الراحلين الى الاحراش واسعفنا المطر ، فبكينا ، ولم ينتبه احد لدموعنا . وقال السفهاء : امطرت لتغسل آثار أقدامهم . وقال أهلنا : أمطرت لانها حزينة سماء عمان لفراقهم.

وذهبت إلى البربير ، وعلى مقربة من المتحف ، في الشوارعِ الخلفية تجمعنا ، حاولنا أن نضحك ، لكن احزاننا ثقيلة ، والفراق آت .

وانتحى بي علي جانباً وقال : غداً ترحل أنت ومحمد غانم . وأضاف : إلى تونس .

إذن وداعاً بيروت .

اليوم ودعنا الدفعة الأولى ، آه يا بيروت آه . أأنت عظيمة وغالية ومذهلة إلى هذا

الحد ؟ !! أتدرين كم أحبك الفلسطينيون ؟ اتدرين كم هم الشباب الذين دفنوا تحت رمالك . اغلى واجمل شبابنا . آه يا بيروت . أية ايام تنتظرنا ، أية أيام تنتظرك ؟ .

أي وداع هذا اليوم ؟ أي مهرجان للروح ؟ !! آه يا بيروت آه !!

أذهب الى بيتي . اعبر بين أكياس الرمل ، صورة الحكيم جورج حبش قبالتي . هذا مقر المكتب السياسي للجبهة ، صور الشهداء ، ملصقات ، الشهيد البطل . . . قسما لن . . . ابو فايز غسان كنفاني يبتسم بحزن . . . « سامحني يا أبو فايز العزيز ، سأرحل . . . »

مررت بين صناديق الذخيرة ، وصلت الطبقة السادسة بسرعة ، أنا والعميد سعد صايل جيران ، دخلت القذيفة من نافذة بيته ، فاحرقت كل شيء ، حولت كل غرف البيت الى فحم أسود ، زجاج نوافذي محطم . الغبار يغطي الفراش ، والكتب والصور ، اعددت لنفسي شاياً . امتلأت اصابعي ، بغبار وانا أُقلِب كتبي . . . أخترت « اللآئى » ، وهو كتاب كنفاني ، وملحمة جلجامش ، وكتاب «اسرائيل الكبرى » .

يا كتبي العزيزه ، يا طاولتي ، يا آلتي الكاتبة ، يا أشيائي المتواضعة ، وداعاً .

□

في الليل درنا في شوارع بيروت ، وعندما أُرهقت ذهبت الى حيث منا ، فجاء فيصل وأسمى ، وخرجنا في منتصف الليل ألى دار الكلمة . حدثنا النائب نجاح واكيم عن أسعار أصوات النواب التي يشتريها بشير الجميل ،وعندما خرجنا اقترح نجاح ان نزور صحيفة « السفير » وهناك فوجئنا بالأخ ابو عمار ، في عين « كاتيا » دموع ، وابو عمار يبتسم ، يتكلم بحيوية وحرارة ليبعد الحزن عن الصحفيين المتحلقين حوله . محسن ابراهيم ، كعادته ، يطلق « قفشاته » الظريفة ، لكن الحزن ثقيل ، وبيروت غالية . . . ووداعها للمقاتلين رائع وموجع .

خرج أبو عمار ومحسن ابراهيم ، وما هي إلا لحظات حتى ارسل أبو عمار يطلبنا ، أخرج من صندوق سيارته بقايا صاروخ ، إنه صاروخ تلفزيوني ، مليء بالاسلاك الملونة ، قال : ضباطنا لم يتوصلوا لمعرفة تركيبه . سنحاول مع الاصدقاء معرفته لم يبق سلاح لديهم إلا استخدموه . . . طبعاً ، باستثناء القنبلة الذرية . ثم مضى في الفجر ، فذهبت أنا وفيصل معاً ، وحاولت أن أنام لكن كيف أنام و . . . أنا ، اليوم ، أُغادر بيروت .

صعدت الى مكتب « القدس برس » في بناية الانتاج الحيواني . فكرت أن أكتب لحنّا رسالة وداع صغيرة ، لكنني ألغيت الفكرة . في هذه الغرفة الصغيرة ، نمت أنا والرفيق محمد غانم ، بعد مغاردتنا الفاكهاني .

حسن : وداعاً أيتها الأشياء الصغيرة ، ايتها الطاولات ، ايتها الغرف ، أيتها الامكنة التي ضمتنا ، وداعاً يا حنا ، يا ياسين ، يا ريموندا ، هنا كتبت مقالاتي ، هنا كتبت زوايا برنامجي اليومي ، هنا نمت برغم القذائف التي هزت هذا البناء ، والتي اقتلعت أرض محطة البنزين المجاورة .

□

اوصلني أبو سامي إلى الفاكهاني . تأكدت من السفر ، رأيت نساءً ورجالاً يتحلقون حول المقاتلين ، الذين اخذوا ينادونني ، والذين تعانقت مع كثيرين منهم لم أرهم منذ أسابيع ، لانهم كانوا في مواقع متقدمة . ذهبت الى بيتي . احتضنت المكتبة ، حملت القرآن الصغير الذي اهدتني اياه ليلى العثمان ، زوجة الصديق وليد أبو بكير ، بدلت ملابسي ، غسلت وجهي ، وقفت على الشرفة ، وتطلعت الى البحر ، الى البيوت المجاورة ، ألى الدمار ، ألى الزجاج المحطم ، ألى السماء الخالية من الطائرات . و . . . بكيت .

□

تحدث الرفيق طلعت إلى المقاتلين . قال لهم : ثورتنا وشعبنا أمانة في اعانقنا . قال : نعاهدكم .

هذه العجوز أعرفها ، أوصيت بها الرفيق علي . قالت : ـ المهم أنتم يا إبني .

قبلت رأسها ، قبلت يديها ، فعانقتني وبكينا . وسمعت رجلاً طاعناً يقول : ـ أنتم سندنا ، ديروا بالكم على أنفسكم .

□

إلى الملعب البلدي .

وتقدم المقاتلون ، بملابسهم العسكرية ، وقبعاتهم السوداء والحمراء ، وكوفياتهم ، بين الزغاريد . والدموع والذهول .

مشيت وحدي ، وكيسي على ظهري ، وتوراتي الكنعانية « اللآلي » تحت أبطي .

إلى أين ؟

إلى تونس ، عبر البحر ، في سفينة يونانيـة . وأين نقف ؟ في قبرص ، و . . . كريت .

كريت ؟!!

نعم كريت ،

لماذا . دهشت ؟

لا . . . ولكن . . . أخيراً كريت !!

لقد رأيتها ذات رحلة جوية إلى اوروبا الشرقية . فدهشت . رأيت صخورها ، وجبالها ، وبيوتها البعيدة . يومها قال حنا : هنا مسقط رأسك ، ولم اضحك .

□

تأخرنا في الملعب البلدي . بقيت مع عدد قليل حتى الساعة الثانية عشرة . عطشت كثيراً . شربت كثيراً ماءً ، دلعاً ، ولم أرتوِ .

□

جاء الرفيق عبد الفتاح غانم ، كنا إختلفنا على بقائه ، لذا لم أخبره برحيلي . قال معاتباً .

- كنتم ستسافرون بلا وداع .
- أنا غير مقتنع ببقائك .
- أما أنا فمقتنع . بيروت أعطتنا الكثير ، وأنا لن أتركها وأرحل .
- هذا انتحار . لقد قاتلنا ، وكتبنا ، والآن يجب أن نرحل . انتظرنا كثيراً ولم يهب أحد لنجدة بيروت .

حين رأيت الدموع تكبر في عيني عبد الفتاح رأيت شرايين عينيه تصير بلون الدم . رأيت حبة الدموع تكبر وتكبر ، ووجهه يمتلىء بالحزن . قال :

ربما لا نلتقي ، أوصيكم ب . . .

وتعانقنا، أنا وهو ومحمد غانم ، شقيقه وصديقي .

قال لي الصحفي اللبناني :ـ أنا من جريدة النداء ، قلت له : سلم لي على شيخنا الجليل حسين مروة ، سلم لنا على حزبكم الشيوعي ، سلم لنا على النداء ، وحكيت كثيراً وهو يقرب المسجلة لتأخذ آخر كلماتي في بيروت ، وسط هدير السيارات وزخات الرصاص ، وانفجار الزغاريد .

□

المزرعة ، مار الياس ، الميناء ، اهل بيروت ، اهلنا . أبناء الاحياء والحارات . أبناء المخيمات . كلهم زحفوا ، وهم يمطرون المقاتلين بالأرز .

هذا خليل الزين ، إنه يحفن الأرز ويمطر المقاتلين به أمام وكالة وفا ، حاولت أن أناديه ، لكن صوتي اختنق ، آه يا خليل . أتذكر ونحن في عمان . . . آه من الرحيل يا خليل العزيز .

قفز المقاتل في الهواء ، دار حول نفسه ، ثم اطلق قذيفة ب ٧ ، وطار شعره في الهواء ، وهو يقول : لعيونكم ، وطار في الهواء كله . فتح ذراعيه ، وأطلق صيحة ، وتدفق الرصاص ، ودوت مدفعية بعيدة ، وتطاير الأرز ، واندفعت عجوز تصرخ : لا . . . لا ترحلوا يا أبني . . . لمين بدكم تخلونا ؟ . واندفعت امرأة تحمل طفل على راحيتها . وتوقفت السيارة ، وبكى ، السائق ، وتأوه ، وقال : يا ربي . . . ما عدت اتحمل .

شعرت للحظة أن قلبي توقف تماما ، وأنني الآن ، بالضبط ، سأموت .

. . . ووصلنا الميناء .

دبابة للمرابطين . وصورة الرئيس جمال عبد الناصر ، مقاتل يحمل ب ٧ ويطلق قذيفة إلى البحر ، دوشكا تطلق ببطء وثقل . نساء يزغردن .

□

مررنا بين الجنود الفرنسيين . دخلنا الى السفينة . طلبوا الينا وضع أسلحتنا في مخزن السفينة . لا أعرف لماذا شعرت بالقلق . صعدت إلى سطح السفينة . لقد حلمت كثيراً برحلة بحرية ، ولكن . . . يا للمصادفات الغريبة .

تأخرت السفينة في الميناء ، جاء الرائد يوسف ، ضابط فلسطيني في لجنة

الارتباط ، واخبرني بان سفينتنا محاصرة بالزوارق الصهيونية ، وأن شارون ربما يكون في البناية الصفراء التي تقع قبالتنا .

استفسرت منه عن أسباب حصار السفينة ، فقال ؛ بان شارون يعترض على حمل اللاندروفرات العسكرية .

لقد جاء بعض المقاتلين واخبروني بانهم لم يسلموا اسلحتهم ، وان بعضهم اخفوا عدداً من ب ٧ في أكياس البحارة التي يضعون فيها اغراضهم .

□

السفينة « سولفرين » اليونانية ، التي تحمل إسم إبنة صاحبها ، تغادر الميناء في الليل ، بينما زوارق اليهود تفك الحصار ، والنسمات الليلة الرطبة ، والنجوم البعيدة ، واضواء بيروت ، وايقاعات الامواج . . . تملؤني بحال صوفية ، حالٍ من الدهشة ، والحزن ، والتأمل .

□

خلفنا البارجة الاميركية ، وإلى جوارنا زورق فرنسي .

قلت لمحمد : ـ يا صديقي ، خلي عينيك على الاميركان : إحنا قدامهم . . . والزمان طويل ، وحاولنا أن نضحك .

□

في قبرص ، في اليوم الثاني للرحلة ، دوت صافرات البواخر ، وجاء الاطباء والممرضون ، وبرغم أنف الاميركان انزل أحد المرضى للعلاج ، وانزلت بعض اللاندروفرات حسب الاتفاق . ومضينا في البحر .

□

عرف الاميركيون بأن أهل كريت سيستقبلوننا ، علموا بأن كريت ستزحف إلى الميناء ، فأمروا سفينتنا بالذهاب الى ميناء مهجور . وهذا الميناء ملك لمليونير يوناني ـ كيريتي ، وقد قدم لنا الماء والخبز بلا مقابل ، نقل الخبز من كريت المدينة بطائرته

الهليوكبتر ، البيضاء الحمراء . وقد علمنا بأن الافران كانت مضربة عن العمل يومها . ولسنا ندري كيف دبر لنا الكريتيّون الخبز .

صعد إلى ظهر السفينة نائب في البرلمان ، إنه بدين جداً ، ومرح بلا حدود ، التقيته بفندق الشاطىء في ليبيا ، وقد ذكرته بنفسي ، وبالرقصات الجميلة التي رقصها مع الفرقة الكريتية برغم بدانته ، وضحكنا ، ومعه جاء رجال بسراويل سوداء ، ولحى بيضاء وقورة ، وقالوا : نحن أهل . وقال النائب : « قبل أيام نشر كاريكاتور في احدى الصحف اليونانية ، وتحته تعليق يقول بأن اليونان هي أكثر دولة عربية وقفت مع الفلسطينيين » . واضاف : « نحن أهل ، نحن فخورون بكم » . وقدموا الحلويات والخبز والملح من أهل الجزيرة لنا ، ولقائد الرحلة قدموا كعكتين كبيرتين ، ومعاً التقطنا الصور التذكارية .

إذن فهذه كريت ، وهم هنا تظاهروا ، وتبرعوا ، وكتبوا ، وزحفوا إلى الميناء ، إذن فهم أهلنا .

وعندما غادرنا الميناء ، حلقت طائرة الهليوكبتر على ارتفاع منخفض ، ومن وراء زجاج نوافذها رأيت أيدٍ تحيينا .

الفكر العربي والتحدي الفلسطيني

(مقاربات أوليّة)

عبد اللطيف اللعبي

I- تنبيهات منهجية :

ا ـ عندما نريد تحليل علاقة الفكر العربي« بالتحدي الفلسطيني»، فاننا لا نغفل تعددية هذا الفكر بتعدد المذاهب والمناهج والاهداف. فمن المؤكد انه لا وجود لمنظومة فكرية عربية متجانسة فبالاحرى واحدة وموحدة. لذلك نوضح بدءا ان ما نعنيه هنا بالفكر العربي هو جزء وليس كلاً. انه ذلك المكوِّن التقدمي والتحرري للفكر العربي المعاصر. واختيار هذا المكون دون سواه ليس اعتباطيا، لا لأن المكونات الأخرى غير اساسية وفاعلة في بُنانا الفكرية والاجتماعية الراهنة، فقد يكون العكس هو الصحيح، كما قد يكون من المهم والضروري دراسة التأثير الذي لا يزال الفكر السلفي التقليدي الماضوي يمارسه على الفكر التحرري. لكن الهدف من هذه المداخلة ليس هو الطموح الى ذلك المستوى من الشمول. انه متواضع بحكم اختيار مسبق وهو التركيز على ذلك المُكوِّن (التقدمي والتحرري) للفكر العربي المعاصر الذي نستطيع مبدئيا ومباشرة أن نتحاور معه وفي إطاره، أن نسائله ونحاكمه من الداخل، متحملين في ذلك مسؤوليتنا الفكرية والتاريخية، ممارسين حقنا في النقد والنقد الذاتي، في الصراع الفكري الديمقراطي .

ب ـ عندما نتحدث عن الفكر العربي التحرري، فاننا لا نغفل ايضا ان هذا الفكر ناتج عن حركات سياسية وطنية تحررية منظمة وعن حركات فكرية ثقافية منظمة او غير منظمة، وعن شخصيات فكرية منتمية أو غير منتمية سياسيا. واختيار الحديث عن الفكر العربي التحرري بهذه العمومية ليس تملصاً من التحاليل الملموسة، عَيِّنةً بعينة، ومن محاكمة التصورات والبرامج والممارسات لهذه الحركة أو تلك، ووضع المنظومة الفكرية لهذا المثقف او ذاك في الميزان، وبالتالي تحديد المسؤوليات ودرجة الخطأ والصواب، التأخر والتقدم. إن عملية محاسبة من هذا الحجم تتطلب بعدا تاريخيا وشروطا للمراجعة النقدية والبحث الموضوعي لا يمكن أن تتوفر دفعة

واحدة ولن تتوفر إلا عبر سيرورة طويلة من التراكمات في ميداني النظرية والممارسة، تعرية الواقع وتعرية الذات، نقد الاسلحة وشحذ أسلحة النقد. لذا فان اختيارنا تناول الفكر العربي كمنظومة (ولو انها غير متجانسة هي الاخرى) يمكننا ومن الآن وضع الاصبع على تجليات الخلل الذي يعتريه، على بعض مراجع العطب الذي يحول دون قيامه بدوره التحرري فعلا. كما أن هذا الاختيار يضع كل واحد(حركات، جماعات وافراد) أمام نفسه دون أن يكون ذلك في قفص اتهام ما . لان السيرورة التي تؤدي وباختيار شخصي داخلي الى مراجعة الذات أخصب بكثير من نوع المراجعة التي تتم داخل اقفاص الاتهام .

ج ـ ان موضوع هذا المقاربات الاولية هو علاقة الفكر العربي كما حددناه سابقا بالتحدي الفلسطيني. هذا يعني اننا سنترك جانبا علاقة الانظمة العربية بهذا التحدي. وهنا لا يعني تغافلا عن مسؤولية هذه الانظمة في المأساة التاريخية والحالية للشعب الفلسطيني في صمت الشارع العربي وفك التعبئة التي لوحظت فيه خلال الحرب الاخيرة. فالتحدي الذي تطرحه فلسطين على المثقفين العرب يفرض من جملة ما يفرض تحليل هذه العلاقة ايضا، ليس كما كان يتم ذلك لحد الآن على انها فقط علاقة «خيانية» تحكمها تبعية تلك الانظمة للامبريالية حليفة اسرائيل كما تتحكم فيها مصالحها الطبقية الانانية الخ ، بل المفروض هو تحليل «النجاح» النسبي لهذه الانظمة في تمرير وترسيخ خطاباتها حول فلسطين في الوعي الجماهيري، و«نجاحها» الاكثر من النسبي في تهميش حركة التحرر العربية عن جماهيرها وفي شل مدها ومبادراتها. ان هذا النوع من التحليل يقود مباشرة الى تحليل الذات، ذات حركة التحرر العربية نفسها ، ويعود فيطرح علينا مهمة التحليل الذي هو موضوع هذه المداخلة .

II ـ التحدي الفلسطيني

لقد شكلت فلسطين وعي العرب الشقي، وذلك منذ بداية تشريد الشعب الفلسطيني والى الان. واننا لا نستعمل هنا مصطلح «الوعي الشقي» بمفهومه القَدْحي بل بمدلوله الموضوعي. فالوعي الشقي يعبر دائما وبقوة عن التناقض الحاصل ازاء موضوع الوعي. ان تمزق ما بين العجز والعزيمة، ما بين الخضوع لعناد الواقع وعناد تغيير الواقع. وبهذا المعنى فان الوعي الشقي يمكن أن يؤدي الى منزلقات الذاتية ان لم نقل التعصب، كما انه يمكن أن يتشكل كبؤرة يقظة ومراجعة للذات ومناهضة لجميع انواع الاستلاب .

ولنا مثال على ذلك في وعي الغرب الشقي ازاء المسألة اليهودية .

إننا لا نقدِّر دائما وبما فيه الكفاية ما مثله «الهولوكوست» النازي ضد اليهود، وانعكاس ذلك في وعي ولا وعي الغرب، خصوصا عند تلك الشريحة الاجتماعية والفكرية التي من وظيفتها انتاج واعادة انتاج الرموز والافكار والمخيلة، وبكلمة واحدة الوعي. ان الهولوكوست النازي، بالاضافة

لويلات الحرب الاخرى شكل منعطفا خطيرا في الفكر الغربي المعاصر وانتج نمطين متداخلين ومتناقضين لهذا التفكير: من جهة، العديد من التيارات الفكرية والفلسفية ذات الابعاد الانسانية (Humanistes) التي تؤكد حرمة الانسان الجسمانية والمعنوية وعدم المساس بها، على محورية الحرية، على حق الشعوب في الانعتاق وتقرير مصيرها، ومن جهة أخرى وانطلاقا من نفس المبادىء التوجه الذي يؤكد حق اليهود في وطن يكونون فيه في مأمن من الاضطهاد العرقي. هكذا نرى أن «الوعي الشقي»، قد أدى الى تطبيق خاطىء بل اعمى لمبادىء وقيم سامية، وان مناهضة اللاسامية والعنصرية والاضطهاد أدت الى التغافل عن خرق سافر لنفس المبادىء وذلك على حساب الشعب العربي في فلسطين.

غير أن الوعي الشقي، اذا اردنا تحصيل الحاصل، يبقى شقيا مع ذلك، اي انه بحكم اضطرابه وعلاقته باللاوعي يحمل في طياته امكانية اعادة النظر والتجاوز، وذلك رهين ليس فقط بالسيرورة الداخلية لهذا الوعي وتطوره بارتباط مع التحولات التي تطرأ في المجتمع الذي انتجه بل ايضا بالعوامل الخارجية ومن ضمنها الحقائق التي يمكن أن يبلورها الجانب المتضرر من هذا الوعي الشقي، اي في هذه الحالة بالذات الفكر العربي إن هو استطاع ان يرتقي الى مستوى التحديات واضطلع بعُقَدِ الفكر الغربي واتضحت له وسائل فسخها.

لماذا شكلت فلسطين ولا تزال وعي العربي الشقي؟ الجواب على هذا السؤال الضخم ليس هَيِّناً اذ انه يفرض قراءة شاملة لقضية فلسطين من نشأتها، وللتاريخ العربي المعاصر برمته. لذا، سنكتفي ببعض الاشارات على سبيل البيان في اتجاه المهام التحليلية المطلوبة. ان فلسطين شرهة الى ابعد حد. وشراهتها للحقيقة وعري الواقع تجعلها لا تقبل البتة بالجزئيات والاجتهادات التقريبية والخطوات التي لا تسترسل لتكتمل في مسيرة مخاطر دائمة. ولهذا فان فلسطين تُؤَزِّمُ دائما الفكر العربي وتضعه أمام حدوده وقصوره بل وأمام جبنه أحيانا. ان طرح مسألة فلسطين يقود حتما من بين ما يقود الى طرح:

١ ـ **علاقة العالم العربي بالاستعمار والامبريالية**: هكذا وخلافا للخطابات التي تحاول ايهام العرب بان المرحلة مرحلة بناء وتشييد على قاعدة السيادة الوطنية المسترجعة، فان فلسطين تثبت بوضوح بان الهجمة الاستعمارية الامبريالية على العالم العربي لم تنته بانتهاء العهد الكولونيالي الكلاسيكي، وبان مهام هذه المرحلة التاريخية من نضال الشعوب العربي لا زالت قائمة وان تطورت معالمها وشروطها. ان فلسطين تلسع الذاكرة العربية التي تحاول عن قصد أو عدم قصد طمس هذه الحقيقة. كما ان فلسطين تشد ايجابيا التاريخ العربي الى الوراء، الى موقع حرج لم تحسم فيه المعركة لحد الآن.

٢ ـ **علاقة المسألة الفلسطينية بالمسألة الاجتماعية في الوطن العربي**: ان فلسطين تعمل في الواقع العربي والقطري كتلك المادة المضادة للمنومات. انها تسمي الاشياء بمسمياتها:

انعدام الديمقراطية «الاستبدا د الشرقي»(هذا اكيد) ولكن ايضا القوة الحاصلة ما بين الحركات الوطنية والتحررية العربية وبين جماهيرها، العلاقة الملتبسة ما بين هذه الحركات وبين السلطة القائمة، العجز على استيعاب الواقع استيعابا علميا، العجز عن بلورة لغة سياسية فكرية قادرة على النفاذ الى وعي الجماهير والتشكل كمكون أساسي وثابت لهذا الوعي، الخلط والاضطراب الحاصلين في استيعاب النظريات ومنهجيات التغيير، العلاقة الملتبسة والانتهازية احيانا بالتراث الخ . . كل هذه العناصر التي تندرج في إشكالٍ واحد: مستلزمات وشروط التحرر الاجتماعي، التاكتيكات والاستراتيجية التي يجب ان ينبني عليها النضال الطبقي ، ووضوح الرؤية فيما يخص المجتمع البديل والعلاقات المادية والاجتماعية التي يُسْتَهْدَفُ إرساؤها .

٣ ـ **علاقة المسألة الفلسطينية بالمسألة القومية** : ان التحدي الفلسطيني على هذا المستوى ليس بالسهل كما يبدو لأول وهلة. فاذا كان يعمل في اتجاه تأكيد وترسيخ قومية المعركة ضد الصهيونية والامبريالية، الا انه يضع الآن، وبشكل أوضح من الماضي، في موضع المساءلة المنهجية، أسس القومية العربية كمعطى تاريخي، كسيرورة تاريخية، كواقع متناقض ومتأزم وكذلك كاتجاه عام موضوعي وكمشروع لا منقطع يرتبط التقدم نحو انجازه بنضال صعب. ان التحدي الفلسطيني يرفض البديهيات ولو كانت من نوع تلك المسلمات او المعتقدات التي لها طبيعة القوة المدية المادية توجّه الواقع. لذا، فانه يخلق الشروط الضرورية لعقلنة المسألة القومية ووضعها في ميزان الواقع الدقيق والعنيد، ذلك الميزان الذي لا يرحم الاوهام والعواطف والمخيلة الهوجاء والذي يحتم علينا طرح الاسئلة الفطرية التي لا تطرحها عادة: ما هي درجة رسوخ الفكرة القومية في وعي ولا وعي الجماهير والشعوب العربية ؟ ما هي بالتحديد مكونات هذا الوعي وهذا الاستيعاب للفكرة القومية ؟ ما هي الشروط التاريخية العامة التي تفتح الطريق أمام تحقيق المشروع القومي ؟ هل هذا المشروع يخضع للمرحلية وما هي معالم كل مرحلة ومرحلة ؟ هل الفكرة القومية فكرة واحدة أم هي افكار وتصورات مختلفة قد ينطوي بعضها على خلفيات ومصالح فئوية تتناقض مع مصالح ومطامح المضطهدين والمستغلين من الجماهير العربية ؟ ما هي نقطة التحول التي يمكن أن تسقط فيها الفكرة القومية في الاقليمية والشوفينية، وما هي نقطة التحول التي تصبح فيها هذه الفكرة مدخلا للامية والكونية ؟ هذه بعض الاسئلة الفطرية والخطيرة لانها فطرية، والتي يقودنا التحدي الفلسطيني-التي طرحها فيؤ زمنا بها تأزيما ايجابيا .

٤ ـ **علاقة المسألة الفلسطينية والمسألة القومية بالمسألة اليهودية** : لقد اعتاد الفكر العربي أن يعتبر المسألة اليهودية على انها لم تكن وليست قضية العرب، بل انها قضية اليهود وقضية مضطهدهم الاول، اي العالم الغربي ـ من هنا فان الفكر العربي رفض لحد الآن «تعريب» المسألة اليهودية واعتبارها قضية داخلية بما يترتب عن ذلك من محاكمة رصينة لوضع اليهود في الاقطار العربية منذ أقدم العصور الى الآن . لقد اكتفى بمقارنات سطحية ما بين وضع اليهود في الغرب ووضعهم في الاقطار العربية ليخلص الى أفضلية هذا الوضع على ذاك،كما انه اكتفى بدراسة الاساليب والمخططات التي استعملتها الصهيونية(وبتواطؤ احيانا مع بعض الانظمة

العربية) من أجل تهجير اليهود العرب خارج اوطانهم واستيعابهم من طرف اسرائيل. لكن هذا الفكر لم يتناول المسألة على انها مسألة داخلية مرتبطة بالهياكل القائمة في البلدان العربية ، ولم يدرسها كاوضاع اجتماعية، سياسية، قانونية اقتصادية وفكرية .

كما ان الفكر العربي لم يستطع لحد الآن تناول المسألة اليهودية كمسألة انسانية كونية وبالتالي لا يمكن تركها كموضوع يخص فكرا دون سواه .

على صعيد آخر، ولكنه مرتبط بما سبق، فان مواجهة المسألة اليهودية بهذه الابعاد يقودنا الى طرح مشكل أشمل وهو مشكل الاقليات الدينية والثقافية بل كذلك الاثنية (ethniques) في العالم العربي ويضعنا أمام مسألة التعددية في المجتمع والشعب الواحد .

هذه كلها دعوات للمسائلة واستنفار البحث والتعميق النظري التي يضعها التحدي الفلسطيني أمام أعيننا وضمائرنا .

٥ ـ **علاقة المسألة الفلسطينية «بالآخر»**: ان التحدي الفلسطيني في الوقت الذي يلزمنا بعملية الغور في قضايا الواقع الملموس والواقع اللامرئي لما يحرك ويشكل الواقع الملموس، فانه يدفع بنا الى مواجهة القارات المجهولة لواقع الغير، أكان غربيا أم شرقيا. انه يتحتم علينا الخروج من «حضرة» البحث عن الذات والهوية لنتلمس حركة الواقع على المستوى الكوني. بذلك، فان الاستجابة للتحدي الفلسطيني هو بداية اعلان عن الخروج من الخصوصية الى العالمية، من الاقليمية الى الكونية ، من الدفاع عن الذات الى الدفاع عن كل الذوات التي تعيش نفس تمزقنا وتلهج بنفس الرفض والطموحات. ان هذا التوسيع الهائل للرؤ ية والمعرفة هو الذي يجعل فكرا ما وثقافة ما يرقيان الى مستوى تأسيس حضارة. وهذا ما حصل بالضبط(ولو اختلف الامر نظرا للحدود والحواجز التاريخية الموضوعية) في تاريخ العرب ما بين القرن الثامن والحادي عشر الميلادي، اي خلال ما سمي بعصر «المعجزة العربية» .

هذه بعض المسالك الوعرة والشيقة في نفس الوقت التي يدفعنا فيها التحدي الفلسطيني. ما هي امكانيات ومستويات استجابة الفكر العربي لهذه التحديات ؟ ماهي العوائق التي تحول دون هذه الاستجابة وما هي المهام بعيدة المدى التي يجب ان يضطلع بها هذا الفكر ؟ هذا ما يجب التطرق اليه الآن .

III ـ الفكر العربي في المواجهة ؟

ان وضع علامة استفهام على هذا العنوان ليس من باب الاستخفاف او التشكيك المجاني. فنحن عندما نريد توفير شروط المواجهة في مرحلة من تاريخ نضال الشعب الفلسطيني والشعوب العربية(يقر الجميع بنوعيتها ولو حسيا)، فاننا لا ندعي الانطلاق من درجة الصفر في البحث او

التعميق النظري او المواجهة بشتى مستوياتها. فالحقل الفكري العربي ليس بتلك الصرحاء التي يعشش فيها السراب والتي يحاول البعض تصويرها هكذا، عن جهل أو سوء نية. لقد حاول الفكر العربي بالتحديد الذي اتفقنا عليه ان يساير الاحداث والتطورات وان يرصد التحولات التي افرزتها المنعطفات في تاريخنا المعاصر. غير ان هنالك ملاحظة منهجية قد تساعدنا على فهم الشروط الموضوعية التي تجعل اي فكر عادي يعتريه القصور وعدم الارتقاء الى الطفرة المطلوبة في الظرف التاريخي الملموس الذي يتطلب تلك الطفرة.

اعتقد ان التحديات التاريخية الكبرى تتطلب تحديات فكرية في نفس المستوى، اي امكانية الرصد الدقيق للواقع وللقوانين التي تضبط السيرورة التي انتجته وفي نفس الوقت امكانة استشفاف الاتجاه او الاتجاهات العامة التي يصب فيها هذا الواقع والتي من شأنها أن تهيكله على شكل مغاير في المستقبل على المدى المتوسط والبعيد. اننا نضع أصبعنا هنا على شمل شائك في ميدان تشكل المعرفة والترابطات المعقدة (التي لا تدخل في إطار الميكانيك العام) ما بين العلاقات المادية لمجتمع ما (علاقات انتاج وتوزيع واستغلال) والعناصر غير المادية التي تحكم سير وتوازن هذا المجتمع(علاقات قانونية، بُنى ايديولوجية، بُنى اجتماعية قبلية، معتقدات الخ)، والتي بحكم رسوخها الطويل وعنف فعاليتها في الحياة اليومية تصبح لها طبيعة القوة المادية. هذا من جهة، ومن جهة اخرى مجال الانتاج الفكري في هذا المجتمع، اي ذلك الفكر الذي يحالو تفكيك البنى السائدة والثابتة وإدخال عناصر البُعد والنظرة الخارجية النقدية. فما هي خطوط هذا الفكر في التحرر من البُنى السائدة والنجاة من عدواها خلال عملية التفكيك والتجاوز؟ ما هي مقاييس وشروط هذا التحرر والتجاوز؟ ما هي العوامل المحددة لحجم العناصر المحافظة التي ينقلها معه ويعيد انتاجها الفكر التحرري(اي فكر تحرري) في عملية التجاوز والانتقال من القديم الى الجديد؟ هذه معضلة أتركها كاستفهام ضخم مطروح كتحدٍ اضافي للتفكير والمواجهة.

على ان ما يهمنا هنا من طرح هذا الاشكال هو علاقة الفكر العربي بقضية فلسطين، هو ضبط الشوائب والمنزلقات او الحدود الموضوعية التي تعتري هذا الفكر فتحول دون الوعي الصحيح وبالتالي دون مواجهة المهام المطروحة بهذا الصدد على أسس صلبة. وسنقولها دون التواء: ان الفكر العربي سيبقى عاجزا عن مواجهة ليس التحدي الفلسطيني فحسب، بل ايضا التحديات المطروحة على الصعيد القطري والقومي والدولي في المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية ما دام مشدودا بألف خيط مرئي ولا مرئي لعدة مسالك ومسلكيات على مستوى الممارسة النظرية والممارسة العملية. وسنركز فيما يلي على بعض هذه القضايا التي نعتبرها أساسية تاركين للنقاش بلورة ما لم ننتبه اليه.

١ ـ **«إقليمية» الفكر العربي**: ان هذه النزعة او الظاهرة التقهقرية ليست لها اطلاقا علاقة في الفكر والثقافة العربيين. فالحضارة العربية تأسست تاريخيا كما يعلم الجميع كعملية تحصيل

وتركيب هائلة للعناصر الاكثر تقدما ونضجا وعبقرية في الحضارات القائمة، بل حتى التي كانت في طور الانقراض وذلك خلال عصور تكون «الظاهرة العربية» (اي ما بين القرنين الثامن والحادي عشر م) . وبهذا المعنى يمكن اعتبار ان العرب هم مؤسسوا فكرة الحضارة ذات الابعاد الكونية. نقول هذا ليس للتباهي التبريري او بنزعة الحنين الى العصور الذهبية التي تستحيل عودتها . ان الهدف من هذا التذكير هو تبيان مدى تفاهة وخطأ تلك التقييمات التي تصبغ فكرا وثقافة ما بماهية ثابتة وكأن الفكر والثقافة لهما طبيعة سرمدية مرتبطة بالعرق او البيئة الطبيعية الخ .

ان تلك الترهات التي تناقلتها وروجتها الايديولوجية الاستعمارية والتي نجدها ايضا كعناصر في الفكر العربي التقليدي(ولو بشكل مقلوب) تنم عن عقلية لا تاريخية وعن التعصب العقائدي لاصحابها. غير ان واقع الفكر العربي المعاصر بعيد عن عصور الانوار العربية تلك. انه لم يرق بعد الى النظرة الشمولية والاستيعاب الفعلي لمختلف العطاءات والانجازات التي تتم عبر العالم أكان غربياً أم شرقياً ،شمالاً أو جنوبا، متقدما على الصعيد التكنولوجي والعلمي، أو متخلفا على هذا الصعيد. فالفكر العربي لا يزال منغمسا في مشاكل الهوية وعقدة الاضطهاد ومحاولة فسخ خيوط المؤامرات تلو المؤامرات التي تحاك ضد امته . وان كانت هذه التوجهات تعبر عن واقع ما زالت بعض عناصره قائمة (واقع الاستعمار الجديد، التبعية، الاستغلال الامبريالي الخ) فان المهام التي تطرحها المرحلة الحالية أعقد من ذلك بكثير. ان الدفاع عن الذات ومحاولة التأكد من الأنا وتأكيد الأنا كانت ضرورة وملحة في عهد الهجمة الاستعمارية المباشرة، التي كانت تستهدف من جملة ما تستهدف غسل الذاكرة العربية ودمج الجسم العربي في آلية الاستغلال الرأسمالي الغربي. اما الآن، فالمطروح ليس هو التخلي عن ذلك التراكم في الوعي والخبرة في النضال اللذين حصلا ابان مواجهة الاستعمار، بل استثمارها في مواجهة من نوع جديد، تلك المواجهة التي يجب ان تكون عبارة عن حوار يقظ ومتفتح الى اقصى حد، يعتمد الاخذ والعطاء، الغربلة واعادة التركيب، تأزيم الغير وتأزيم النفس، الانصات للغير والوضوح فيما نقوله ونتوجه به للغير كي يتمكن هذا الغير من الاصغاء الينا وانصافنا كذلك .

بالاضافة الى ذلك فتجاوز الاقليمية في الفكر العربي يعني قدرتنا على التعبئة كلما وأينما كانت القيم الحضارية الانسانية في خطر (في آسيا وافريقيا، في امريكا الشمالية والجنوبية، في اوربا الغربية والشرقية) وتلك احدى المهام التي يفرضها علينا التحدي الفلسطيني كما اسلفنا . غير ان ذلك لن يتم الا اذا اتجهنا الى بحث شروط تكون الفكر الكوني، الا اذا نحن ربطنا وباستمرار تحليل الماضي والحاضر برؤيا مستقبلية توظف الوعي الحاصل في بلورة الوعي الممكن بمعنى الوعي الذي نطمح الى توفيره .

٢ - نزعة الانبهار أمام الغرب : ان الفكر العربي متناقض طبعا. ففي الوقت الذي نجده ما زال متخبطا في مشاكل الهوية والخصوصية والدفاع عن الذات، نجده أيضا وفي وعيه بضرورة الانفتاح على الغير واستيعاب اسرار قوته ، يدخل في علاقة جزئية مع هذا الغير يعتريها اللبس

والاضطراب وتقود الى الانتقال العشوائي في جميع الميادين (النظريات، المناهج العلمية، الايديولوجيات الخ. .) ان الفكر العربي غالبا ما يأخذ بالمناهج الجاهزة والنتائج عوض استيعاب السيرورة المادية والفكرية الحضارية التي تولدت عنها تلك المناهج والنتائج. وهذا هو السبب في افلاس العديد من «التطبيقات» التي مارسها الفكر العربي على واقعه، فظهرت كتمارين فكرية غير منتجة من الناحية المعرفية، ناهيك عن الاحباطات التي أدت اليها على صعيد الممارسة ومشاريع التغيير.

لهذا فان «الانبهار امام الغرب» يمكن اعتباره مرحلة مرض طفولي في محاولة الفكر العربي الارتقاء الى الوعي الكوني.

٣ - **«مرحلية» الفكر العربي** : حقا ان البشرية لا تستطيع ان تحل الا المشاكل التي تطرح عليها، حسب تعبير ماركس. أي أن النضج في معالجة المشاكل تتوفر شروطه عندما ينضج الواقع الذي تفرز حركته تلك المشاكل. الا ان مسايرة الواقع مسايرة تحليلة ونقدية مستمرة يمكن الفكر المُساير لهذا الواقع من تلمس اللحظات التي يظهر فيها جنين التغيير، التي تتطلب تهيئة ظروف الولادة في أحسن الاحوال المادية والمعنوية. ان الفكر الذي يطرح على عاتقه مهمة التغيير لا يجوز له انتظار ولادة الوليد ليقوم بعد ذلك باجراءات رعايته وتوجيهه. غير ان الفكر العربي يمارس وكأنه مقيد بنص ماركس وليس بروحه كما حاولنا شرحه. انه يقسم التاريخ الى مراحل ويقيم حول كل واحدة منها سياجا سميكا ليتجنب الخلط والتشويش. وهو بذلك يمارس قراءة لحركة الواقع والتاريخ محكومة بالعُصابات التي وضعها هو نفسه على أعينه. وسنعطي بعض الامثلة على ذلك كي لا نبقى في مجال التجريد.

لقد اتسمت مرحلة النضال التحرري ضد الاستعمار بتركيز الفكر العربي المرتبط أو المنخرط في هذه الحركة على الطبيعة الوطنية لهذا النضال (الشعب او الشعوب العربية بكل طبقاتها وفئاتها الاجتماعية ضد الاستعمار) وبتهميش، بل بطرد أي عنصر يخرج عن قانون هذا الصراع الثنائي. وبهذا تم طمس بل محو جانب النضال الاجتماعي والطبقي كإحدى المكونات والابعاد للنضال التحرري الوطني.

في المرحلة الحالية من النضال التحرري ضد الإستعمار الجديد، ومن اجلِ الثورة الوطنية الديمقراطية والشعبية، اصبح الوعي بترابط النضال الوطني والنضال الطبقي حاصلاً الى حد مّا. ولكن هذه المرة على حساب مهام نضالية أخرى(وان كانت قائمة في المرحلة الاولى) كقضية تحرر المرأة وقضية التعبيرات الثقافية الشعبية(وسنأخذ مثالاً عن ذلك في الواقع المغربي ألا وهو مشكل الامازيغية).

ففي موضوع تحرر المرأة، نجد طبعا في الفكر العربي، خطابات تؤكد على ضرورة «إشراك» المرأة و«تعبئتها» لتقوم بدورها في مسيرة التحرر الوطني والاجتماعي العام. الا ان هذه

الخطابات تبقى في غالب الاحيان «خطابات» ولا تقترن بتغييرات جذرية على صعيد الممارسة والسلوك. يكفي ان نفحص خارطة حركات التحرر العربية (كيفما كانت توجهاتها الايديولوجية) ونسبة تواجد المرأة فيها، اكان ذلك في القاعدة أو خصوصا في مراكز التقرير، ليتضح لنا بؤس هذه الخطابات وعدم تجذرها في الوعي العربي كقناعة ومهمة مستعجلة. وهنا نلمس ثقل البُنى الايديولوجية التقليدية والسائدة في شد الفكر العربي الى الوراء .

اما عن مشكل الامازيغية (والذي يطرح مسألة أعم لها حضور في كافة الاقطار العربية وهي مسألة المكونات الثقافية واللغوية والاثنية للشعب الواحد، وكذلك مشكل الاقليات اللغوية والدينية) فيمكن القول ان الفكر المغربي ما زال في مواجهته لهذا المشكل أسير الجرح الاستعماري عندما حاول الاستعمار، عبر المسألة اللغوية، تقسيم الشعب المغربي واخراج نضاله عن سكة الهدف الواحد . الا ان هذا الجرح الاستعماري أصبح الآن بمثابة الشجرة التي تغطي الغابة: بل من شأنه اذا هو لم يعالج بصرامة وشجاعة وصحو الفكر النقدي ان يتحول فعلا الى عقدة تَقَيُّحٍ يصعب معالجتها بالوسائل الفكرية، اي الصراع الفكري الديمقراطي والاقناع والاقتناع. فالمسألة الامازيغية لم تكن (رغم محاولات الاستعمار) ولن تكون مسألة خارجية مقحمة. انها مشكلة الشعب المغربي، وتندرج في نضاله من أجل اعادة الاعتبار وبلورة وفتح المجال لجميع مكونات ثقافته الاصيلة والحية ومن ضمنها اللغة والثقافة البربريتان .

لقد أردنا من هذه الامثلة المحدودة تبيان ان الفكر النقدي التحرري لا يجوز أن يبقى أسير البرامج المرحلية والسياسات الآنية ـ انه لا يمكن أن يكون الا شموليا ضليعا في سيرورة التطور والتغيير. فالمرحلية اذا كانت تمكن من تحديد مهام مستعجلة تتحول الى قيد على المستقبل ان هي اعتُمِدَتْ كمنهاج عام وثابت، ان هي لم تقترن بالرؤ ية المستقبلية كإلهام بجميع معطيات الواقع التي يجب تحريكها والفعل فيها وتعبئة الوعي حولها .

٤ ـ **النزعة «التجريدية»**: ان الفكر العربي لم يتكون بعد، الا في حدود ، كتتبُّع، وفحص دقيق واستقراء للواقع العربي اليومي الملموس. لم يتكوّن كنظرة «فطرية» وبالتالي نقدية لهذا الواقع المعاش ومن الغريب والملفت للانتباه حقا أن اغلبية الدراسات الميدانية حول واقعنا اليومي ما زالت من اختصاص الباحثين الاجانب، حيث ان دراساتهم ما زالت مرجعا لا يمكن الاستغناء عنه عندما نريد مقاربة مجموعة من الظواهر الاجتماعية والثقافية (الممارسات الدينية الشعبية في البوادي والمدن، بعض جوانب الثقافة الشعبية، جل الظواهر المتعلقة بالانتاج وعلاقات الانتاج في البادية، طريقة اشعاع السلطة في الجسم المجتمعي أكان ذلك في البادية او المدينة الخ . .) ان هذه النزعة التجريدية تنطوي على مغالطة وهي ايهام او توهم ان البناء النظري والنظام النظري يمكن أن يتكون كحلقة جديدة في سلسلة تطور الافكار والنظريات دون أن يتأسس على قاعدة اعادة قراءة الواقع والبحث الميداني والمراجعات التاريخية. لذا، فان الفكر العربي يبتعد عن المنهاج العلمي ويسقط في فخ الخطاب الايديولوجي ، عندما يحاكم المنظومة الفكرية والخلفيات

الايديولوجية للدراسات الاجنبية التي تتم حول المجتمع العربي دون الرجوع الى المعطيات المادية التي تنبني عليها تلك الدراسات، ودون القيام بنفس الابحاث الميدانية التي أنجزتها .

ومن المثير حقا ان هذه النزعة التجريدية تتعايش في الفكر العربي مع نقيضها وهي نزعة احتقار النظرية والتوجه البراغماتي الضيق. ان هذا التناقض ليس بالمفارقة المطلقة. فبحكم ان التنظير العربي لا يتم غالبا كنتيجة منطقية لتراكم معرفي حول الواقع وكمستوى اعلى لاستيعاب ذلك التراكم، بل تحكمه اعتبارات منفعية (ضرورة وضع الارضية الفكرية للبرامج السياسية المرحلية، الدفاع عن الذات واعادة الاعتبار لها) فانه لا يتحمل كل العناء الذي يتطلبه تشييد البنيان النظري الشمولي الذي ينطلق من تحليل المعطيات المادية ومن التراكم المعرفي حول الواقع الملموس في بلد ما، وفي فترة تاريخية محددة، وكذلك من التراكم النظري الحاصل تاريخيا على المستوى الكوني .

٥ ـ **النزعة «الاحادية»** : ان مقاربة ولو أولية للساحة الفكرية العربية تظهر شبه غياب الصراع الفكري الديمقراطي كسلوك مقبول ومرغوب فيه، وكقناعة راسخة. فالصراع يفهم في كثير من الاحيان على انه تآمر ونية مبيتة للاجهاز والاستعداء، وصراعاتنا الفكرية غالبا ما تنحو منحى تلك الصراعات التي تتم خلال الحملات الانتخابية في بلدان العالم الثالث، حيث لا يسمح «الصخب والعنف» بالانصات الى الغير. ان ضرورة الصراع لم تُسْتَوْعَبْ بعد كإحدى عوامل انتاج المعرفة والتقدم نحو حقيقة الاشياء وفرز الخطأ من الصواب أو العكس. ولس مصادفة والحالة هذه ان يكون الواقع العربي هو واقع طغيان الايديولوجية الواحدة والحزب الواحد والسلطة القمعية الواحدة، التي لا تقبل أي تطاول على احتكارها وشرعيتها المفروضة بالحديد والنار. ان التعددية في المنهاج والمشرب والفكر(والعقيدة طبعا) تعد عاملا خطيرا من عوامل اضعاف الامة او الشعب او الحركة السياسية الواحدة، وهنا نلمس أيضا مدى اصطباغ الفكر العربي برواسب البنى الفكرية السائدة وثقل العلاقات السائدة في مجتمعاتنا. لذا فإن المسألة الديمقراطية التي اصبحت، وبحق، هاجس الفكر العربي تسمح ليس فقط بمحاسبة الانظمة التي تعادي الديمقراطية بالوسائل المادية والقانونية والايديولوجية والقمعية طبعا، بل بمحاسبة الذات في اتجاه تلمس مواطن استبطان الفكر العربي للاساليب السلطوية وللنزعة الاحادية التي هي حجر الزاوية في انتاج تلك الاساليب .

٦ ـ **الفكر العربي والسلطة** ان نزعة الاحادية في الفكر العربي تقودنا منطقيا الى طرح علاقة المثقف بالسلطة. والهدف من هذا الطرح ليس هو الانغماس في الاتهامات والاتهامات المضادة بالعلاقة بالسلطة التي يتبادلها احيانا مثقفونا في الساحة الفكرية، فمعضلة هذه الصراعات انها تبقى اسيرة الذاتية ولا تساهم في انتاج المعرفة بمشكل قائم فعلا، لكنه يتطلب حدا أدنى من التجرد والموضوعية كي يُتناول كإشكال وجيه ومرتبط بالبنية الفكرية العامة التي نحن مطالبون بتفكيكها .

ان مشكل السلطة ليس غريبا عن المثقفين العرب. فهم بحكم الهياكل العامة القائمة(وهذه ظاهرة شاملة في بلدان العالم الثلث) يمتلكون بهذه الدرجة أو تلك نوعا من السلطة . انها السلطة الرمزية التي تمارس الفعل في الوعي واللاوعي والمخيلة والحساسية الجماعية. وهذه الالفة بالسلطة تجعل المثقف معرضا للانزلاق السلطوي عندما يتعلق الامر بهيكلة الحقل الثقافي والفكري واحتلال المراكز فيه وتوجيه الانتاج الرمزي .

هذا اذا اقتصرنا على الساحة الثقافية. لكن الانزلاق السلطوي قد يأخذ ابعادا اخرى من ضمنها اغراء السلطة بمدلولها السياسي. فالموقع الطبقي للمثقف العربي (ولمثقف العالم الثالث على العموم) يجعله مرشحا موضوعيا للاستيعاب من طرف الطبقات السائدة التي تبحث عن مثقفيها العضويين وعن المسيرين المقتدرين لاجهزتها الايديولوجية. ان موقع المثقف العربي على خلاف المثقف في الغرب مثلا (حيث حصل نوع من الاستقرار الطبيعي وبالتالي توزيع شبه ثابت للمثقفين) ان هذا الموقع هش بحكم سهولة عملية الارتقاء والحصول على الامكانيات التي قد يعتبرها المثقف ضرورية لممارسة افضل لسلطته الرمزية، ولتنظيم اكثر عقلانية للساحة الثقافية .

قد يحصل هذا الانزلاق وقد لا يحصل. الا ان توفر شروطه الموضوعية تُدخل عناصر اضطراب وتقلب اضافي في الفكر العربي فتعرقل بذلك النمو الطبيعي لهذا الفكر في اتجاه الاضطلاع بمهمته النقدية المبدئية وباستقلاليته، عند اداء مهمته، عن جميع السلطات المكونة ولو كانت منتميا لهذه الحركة أو تلك، لهذه الجماعية او تلك .

ان هذه العلاقة التي حاولنا إخراجها من الحلقة المفرغة للصراعات العصبوية تطرح بالاساس خصوصية العملية الفكرية الابداعية ومعادلة الحرية ضمن الانتماء والالتزام أكان ايديولوجيا أو تنظيميا. وان ضبط عناصر هذه المعادلة ونوعية العلاقات فيما بينها شرط أكيد كي يتسنى للفكر العربي ان يقوم بوظيفته التحررية على مستوى الوعي، والنضالية على مستوى التغيير المجتمعي .

IV ـ عودة الى التحدي الفلسطيني :

ان استعرض بعض الشوائب والمنزلقات والحدود الموضوعية للفكر العربي يبدو وكأنه ابتعاد عن متطلبات معالجة التحدي الفلسطيني. وفي رأيي ان هذا النوع من الابتعاد بل البعد هو الذي يُقَرِّبنا ، بِنَهجِ أحسن الطرق، من فلسطين. فهذا الابتعاد داخل ذاتنا بتناقضاتها وشرورها وطموحاتها المكتومة وكذلك اشراقاتها، هو الذي سيمكننا من تجاوز عُقَدِ الاضطهاد و«عقلية المؤامرة» اي اعتبار كل ما نتعرض له بما في ذلك احتلال فلسطين ومناعة اسرائيل الخ . . هو بمثابة مؤامرة مهولة يقوم العالم باسره بتدبيرها ضدنا، وانها وككل مؤامرة لا يمكن الالمام بخيوطها الخفية الا عندما تنتهي الفترة التي يجوز خلالها للمسؤولين عن المؤامرة الاحتفاظ بالاسرار والوثائق وعناصر الاثبات .

ان القبول بمنطق المؤامرة هذا هو في آخر المطاف، رضوخ للامر الواقع يؤدي الى الخمول الفكري والبكائيات التي لن تنصف الشهداء ولن تساهم في استمالة الغير لقضيتنا ولن تساهم في تقريب استرجاع الارض والحقوق الوطنية وجمع شمل شعب التيه الجديد. فعندما نقر ولو حسيا بان المرحلة التي تجتازها القضية الفلسطينية مرحلة نوعية وبالتالي تتطلب مواجهة نوعية، فاننا ندعو انفسنا ضمنيا الى نهضة فكرية جديدة بل الى ثورة فكرية تجيب على السؤال المأساوي الذي يطرح الآن بحدة وهو «ان نكون او لا نكون»، ان نخلق شروط الفكر القوة العادية التي تساهم في تحويل الواقع أو أن نتقوقع في عقدنا وفي متاه فاجعتنا وان نستمر في دورنا، دور المُتَهَّم ـ العادل، النبي المعاصر الذي ينبىء العالم الفاجر بقرب حلول لعنة الالهة. واذا اخترنا فصل هذا التناقض في اتجاه المواجهة والفعل والتجاوز فذلك يطرح من جملة ما يطرح :

١ ـ تعميق البحث والصراع الفكري حول جميع القضايا التي أثرناها في الجزء الثالث من هذه المداخلة .

٢ ـ عدم الاكتفاء بالجانب الدعائي في طرح القضية الفلسطينية والشروع في طرحها ايضا كاشكال فكري. هذا يعني ان الفكر العربي، في الوقت الذي يجب عليه ان يستأنس بطروحات الفكر السياسي حول القضية الفلسطينية وبالتالي البرامج السياسية المرحلية والاستراتيجية، عليه ايضا وخصوصا ان يقوم بدوره كاملا في متابعة تحليل أبعاد القضية على جميع المستويات دون الخوف من التعارض احيانا(اذا اقتضت ذلك نتائج التحاليل) مع التصورات والبرامج السياسية .

٣ ـ مراجعة وضع المعرفة بالقضية الفلسطينية كحقوق انسانية ثابتة وكجذور تاريخية وكلحظة في ميزان القوى الاستراتيجي السياسي على المستوى العالمي . ان هذه المعرفة، وإن ساهم المثقفون الفلسطينيون أساسا في توفير تراكم أولي بشأنها ، الا انها لا تزال تتطلب المزيد من الابحاث والدراسات الدقيقة وبالاساس فيما يخص ارتباط القضية الفلسطينية بتاريخ مجتمعاتنا المعاصر(بُناها المجتمعية، انماط الانتاج ، طبائع السلطات المكونة، أساليب انتاج واعادة انتاج الايديولوجيات السائدة) الخ ، ولتاريخ العالم المعاصر(التحولات البنيوية التي طرأت على المنظومات الكبرى، رأسمالية كانت أم غير رأسمالية. التناقضات والتوازنات التي تتحكم في هذا الواقع).

٤ ـ دراسة مكونات الوعي الحاصل عند الجماهير العربية بالقضية الفلسطينية. ان دراسة من هذا النوع قد تنتج عنها مفاجآت موجعة بالنسبة للفكر العربي، وقد تضعه أمام حقائق في منتهى الاهمية. فصمت الشارع العربي وفك التعبئة الحاصل فيه خلال الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية الاخيرة لم يكن هو له وفداحته اقل من هول وفداحة التقتيل الشرس الذي مارسته الآلية العسكرية الاسرائيلية ضد الشعب الفلسطيني واللبناني. وهذا يضعنا، اذا كنا نحرص على الصدق مع انفسنا، امام ضرورة مراجعة التقييمات لدينا والتي كانت تنطبق من بداهة الحس القومي لدى الجماهير العربية والذي من الحتمي أن يتحول في أوقات الشدة والمواجهة الى عصيان مدني

وتجاوز للسلطات القائمة، بل الى قلبها ان هي تخاذلت أو حاولت منع الجماهير من القيام بواجب المشاركة في المعركة. وهذا يفرض علينا طرح الاسئلة التالية .

- إلى أي مدى نجح الخطاب الرسمي العربي في تضليل الوعي الجماهيري وزرع البلبلة والحيرة التي تكون نتيجتها العملية هي الانتظارية والشلل ؟ غير أن المشكل على هذا المستوى لا ينحصر في نجاعة الخطاب الايديولوجي وحده بل يتعداه الى مجموع الاجراءات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي بلورتها واعتمدتها الطبقات السائدة خلال الستينات والسبعينات لارساء توزانات اجتماعية جديدة والتقدم في السيطرة على «المجتمع المدني» .

- إلى أي مدى نجح الخطاب التحرري حول فلسطين في تشكيل الوعي الصحيح لدى الجماهير ؟ ألم يعتبر هذا الخطاب نوعاً من الغرور المنطلق من كون الجماهير تتقبل بالسليقة الافكار السديدة وترفض بالسليقة ايضا الافكار الخاطئة والمضللة ؟ ألم تحصل استهانة بقدرة الخطاب الرسمي والفكر الرجعي على الرسوخ والفعل خصوصا اذا اعتبرنا انه هو محتكر الاجهزة الايديولوجية التي تخاطب يوميا وفي كل بيت أوسع الجماهير ؟ وعلى مستوى آخر، هل الخطاب التحرري العربي خال من المغالطات والذاتية والتضخيم ؟ بل اكثر من ذلك، هل يمكن اعتبار هذا الخطاب في جميع تجلياته خاليا من العناصر التي تستعملها الايديولوجية التقليدية نفسها (كالضرب على الوتر الديني وعدم الصرامة اللازمة والدائمة في فصل اليهودية عن الصهيونية، بل حتى طرح الصراع الفلسطيني ـ العربي ـ الاسرائيلي على انه صراع حضاري مع العلم بما يمكن أن يؤدي اليه هذا الطرح من منزلقات قد تسقطنا في اشكال له سمات عنصرية ؟ فعندما نقول ان الصراع حضاري، فاننا نفترض مواجهة بين الحضارة العربية وحضارة اخرى. الا اننا لا نحدد تلك الحضارة الاخرى. اهي الحضارة الغربية التي ترعرعت في احشائها الفكرة الصهيونية ام هي الحضارة اليهودية وبالتالي ما هي تلك الحضارة اليهودية ؟ أهي الديانة اليهودية وما ارتبط بها أم هي التشكل الثقافي الايديولوجي الذي خلقته الصهيونية على ارض فلسطين ؟ ام هي الثقافة اليهودية العالمية التي اعطت ابن ميمون وانشتاين وفرويد ؟ ان الثقافة اليهودية لا تحمل كمعطى وراثي حتمي الفكرة الصهيونية، كما ان الحضارة العربية لا تحمل كمعطى وراثي ثابت «الاستعباد الشرقي» .

هذه كلها اسئلة قد تستفزنا، ولكن مع ذلك لا مندوحة عن طرحها .

٥ ـ دراسة مكونات الوعي الحاصل على صعيد الرأي العام العالمي بالقضية الفلسطينية بالمقارنة مع المكانة التي تحظى بها دولة اسرائيل والمسألة اليهودية في اهتمام هذا الرأي العام. ان علاقة هذا الاخير وخصوصا منه الغربي بفكرة وواقع اسرائيل لا تنفصل عن علاقته بالمسألة اليهودية. ولقد استطاعت الايديولوجية الصهيونية ان تجذر الى ابعد حد هذا الترابط في وعي الغرب معتمدة في ذلك على معرفتها الحميمية بواقع هذا الغرب وعلى عمق وعيه الشقي .

هنا أيضا يجب التخلص من «عقدة المؤامرة» التي تقف عند الظواهر ولا تنفذ الى جوهر الاشياء. اننا غالبا ما نصرخ في وجه العالم بتواطؤ الغرب مع الصهيونية دون ان ندرس بشكل موضوعي أسباب هذا التواطؤ ان كان تواطؤاً فعليا، أو نحلل المعطيات الذاتية والموضوعية التي تفسر كون الدعاية الصهيونية تجد آذانا صاغية فتنجح في اقناع وتوجيه الرأي العام الغربي لصالحها .

اعتقد شخصيا ان الغرب ، كأي رأي عام، يُكَوِّنُ قناعاته على اساس المعرفة الممكنة التي تتشكل لديه حول واقع او صراع ما. ثم ان تلك القناعات قابلة للتطور اما بفعل عوامل داخلية أو بفعل عوامل خارجية. واذا طبقنا هذا التحليل على علاقة الغرب بالصراع الفلسطيني - العربي - الصهيوني، كيف نفسر الوعي الحاصل لدى الغربِ بهذا الصراع ؟ ان ميول الغرب للاطروحات الصهيونية ناتج عن عاملين اثنين :

- كون الايديولوجية الصهيونية تنطلق من صلب الواقع الغربي وتعمل من داخل البُنى الفكرية والمحصلة الحضارية للعالم الغربي. انها تعتمد نفس اللغة والادوات المنهجية وقنوات التواصل، وتحرك نفس الميكانيزمات النفسية. واذا اضفنا الى ذلك عوامل اخرى سبق التطرق اليها (وعي الغرب الشقي ازاء المسألة اليهودية) فاننا ندرك لماذا كان وما زال ميزان القوى مختلا لصالح الصهيونية .

- كون الايديولوجية القومية العربية(التي تعتبر مسألة فلسطين حجر الزاوية فيها) تنطلق من خارج الواقع الغربي وتعتمد لغة وادوات منهجية يستعصي على الغرب قبولها وتقبلها. ان الخطاب العربي حول فلسطين والموجه الى الغرب لم ينتج حتى الآن الا حوارا من نوع حوار الصمِّ - البكم . فليس هو بالخطاب النوعي المعقلن الذي يعتمد التدريج في فتح ابواب الوعي والحوار. انه لا يختلف عن الخطاب المستهلك داخليا وبالتالي فان عدم تقبله من طرف الغرب ليس من المستغرب في شيء. أضف الى ذلك ان هذا الخطاب يبقى مجردا وفوقيا في غالب الاحيان حيث انه لا يوضح الواقع الذي ينطلق منه ويتأسس على قاعدته. انه لا يحاول اولا، وقبل كل شيء، تغيير الصورة المكونة لدى الغرب حول الواقع العربي. وبدون تغيير هذه الصورة، اي بدون قيام الفكر العربي بدوره في تعرية الواقع العربي وضبط تناقضاته والاتجاه العام لحركته، بدون قيامه بتسليط الاضواء على المشروع المجتمعي الفكري الحضاري الذي يحبل به هذا الواقع، بفضل نضال الجماهير وايضا نضال المثقفين المرتبطين عضويا بها، فان الصورة التي سيحتفظ بها الغرب هي صورة الاستبداد الاصلي والخمول الاجتماعي والتخلف الفكري والتعصب الخ، من الكليشيهات المألوفة، وبالتالي فان كل المرافعات التي يقوم بها الفكر العربي سوف تصطدم دائما بصخرة التقييمات الجاهزة لدى الغرب حولنا وحول واقعنا .

V ـ ملاحظات ختامية

لقد اثبتت الحرب الاخيرة بجلاء أكبر من ذي قبل أن المشروع الصهيوني لايقتصر على محاولة القضاء على المقاومة المسلحة للشعب الفلسطيني، ونسف مشروع الوحدة القتالية للشعوب العربية(تلك الوحدة القتالية التي تجسدت بالملموس ما بين الشعبين الفلسطيني واللبناني خلال الحرب الاخيرة) انه يستهدف ايضا الثقافة والفكر الفلسطينيين والعربيين. فالحرب الاخيرة كانت حرب ابادة ثقافية ايضا، وهذا يدل على ان الصهيونية اصبحت تعي الخطر الذي بدأ الفكر العربي التحرري (وخصوصا منه الفلسطيني) يشكله على منظومتها الايديولوجية وبالتالي على مشاريعها السياسية .

وهذه الحقيقة يجب ان تستدعينا ليس الى التباهي باعتراف العدو بخطورتنا وبتقدمنا النسبي في تعرية مخططاته وتفكيك اسس بنيته الفكرية، بل الى المزيد من الصرامة ازاء نواقصنا لنرتقي فعلا الى مستوى التحدي الفلسطيني .

ان فلسطين لا تأخذ فقط، بل تمارس العطاء. فوعي العرب الشقي يمكن أن يتحول الى وعي صحيح، الى طاقة تغيير هائلة اذا نحن تجاوزنا ممارسة ردود الافعال والتحركات الظرفية واعتمدنا النظرة الاستراتيجية والرؤ ية المستقبلية .

ان الصراع مع الصهيونية اصبح يكتسي الآن طابع «حرب مواقع» فكرية وايديولوجية، ومن الواضح ان حرب المواقع تتطلب التخطيط الدقيق والصبر وطول النفس كما انها تتطلب ماديا حفر العديد من الخنادق الحامية .

لقد اوضحنا خلال هذه المداخلة نوعية الخنادق او الجبهات الفكرية المطروح حفرها وفتحها . إلا ان الخندق الاساسي الذي تتوقف عليه جميع الخنادق الاخرى، هو الخندق الجماهيري، ذلك الخندق ـ البوتقة الذي، عندما يحصل فيه الانصهار الفعلي، فانه يمد الفكر بطاقة العنفوان والتجدد المستمر، وبطاقة الصدق ايضا .



الحوار

يانيس ريتسوس:
مذاق النهاية هو بداية القصيدة

اليوناني العظيم ، يانيس ريتسوس ، لا يدلي بأحاديث للنشر ، إنه يفتح قلبه الواسع لزائرة دون أن يسمح لآلة التسجيل ، او دفتر الملاحظات ، بالاقتباس .

ولكن كل مجلة ادبية تطمح لان تظفر باستثناء ، لان ريتسوس لا يمثل فقط كثافة التجربة الثقافية اليونانية ، القديمة والمعاصرة ، بل يشكل ايضا احد المنارات الأكثر سطوعاً في شاعرية هذا العصر ، بتمزقة الانساني الشرس .

لم نُلح على ريتسوس كثيراً . همسنا في أُذنه عبر الهاتف : ألا تستحقُ صرخة الحرية الفلسطينية صدى منك أو هدية ؟ قال بلا تردد : نعم .

كان ذلك قبل صعود البطولة الفلسطينية الى اوجها الجديد في بيروت ، طيلة الصيف الماضي . فأوفدنا التونسي منصف غشام الى اثينا لننقل حديث ريتسوس ـ الهدية .

كلام الشاعر في حجم شاعريته . وريتسوس المدهش ، في شعره وانسانيته ، كان مدهشا في هذا الحوار الذي اداره ، على ما يبدو ، وحده . بحساسية وعمق نادرين كان قادرا على الانتقال من أي سؤال الى اختلاط الاعمار في الانساني والحضاري « كان عمري يمتد الى ملايين السنين قبل ولادتي ، وكل السنين المقبلة بعد وفاتي.لقد اعتقدت ، لبرهة ، أنني بلغت سنّ اول الخليقة . عندئذ بدأت اعيش مستقبلي في الماضي الأغريقي كله ، وفي حاضري .

□ في الطّريق الى بيتك ، لم يكن عليّ أن أبحث طويلا؛ تلاميذ المدارس في شارعك الشعبيّ أوصلوني الى الباب . قالوا لي انّك بطل قوميّ ، وانّك المواطن بحقّ . . .

□ ليس في نيّتي أن أتكلم في موضوعات عاطفيّة ، واجتماعية ، وسياسيّة ، وجماليّة . انّما الذّي يهمّني ، الآن ، هو الفعل الجماليّ ، لا النّظرية الجماليّة . فالشّعر فعل مباشر . وقد يستوعب ، في الوقت ذاته ، كل القضايا الاجتماعيّة والفلسفيّة والجماليّة ، وكلّ النّاس في ، العالم أجمع . وسيلة التّعبير الرّئيسية لديّ هي الشّعر . انّها أوحد الأدوات الموضوعة تحت تصرّفي ، وأوكدها . اذا اتّفق أن سئلت عن رأيي في هذا الحدث ، أو ذاك ، لقلت في الحال انّني سبق أن أجبت في شعري .

□ اوليس الشّعر هو ما ندعوه ب « الوطن » ؟ هذه المقاربة البطيئة والخصبة على الدّوام لأسرار العالم والحياة ؟

□ يبقى الوطن هو ما يجب ان نكتشفه دائما ، وأن ندفع عنه بأسلحة الشّعر الخارقة . لا يمكن أن نمنع عن الانسان وطنه ، وليس هناك ممنوعات بالنّسبة الى الشّعر . لا كلمة ممنوعة ولا بلاد . إنّ للشّعر وجوده حيث للحياة وجود . ألشّعر لا يُحَدُّ . ألشّعر لانهائيّ كما الحياة . وربّما كان هذا ما يجعل نتاجي ، ما يجعل عملي الابداعيّ غزيراً الى هذا الحد . وهو بالفعل ضخم ، فلقد صدر لي حتّى الآن ٨٧ (سبعة وثمانون) ديواناً شعريّاً ، ناهيك عن سلسلة من الدّراسات والأبحاث المتعلقة بالشّعر ، إضافة الى عدد من المونولوجات الطّويلة بخاصّةٍ ، المستوحاة من الميثولوجيا والتّراجيديا القديمتين .

□ أماّ بالنّسبة الى الشّعر العالميّ ، فلقد أحدثت كذلك ، واعتباراً من العام ١٩٦٢ ، شعراً للمسرح أو مسرحاً للشّعر . قصائد رجل المسرح هذه ، قصائد منظّم الجوقات للتّراجيديا الهلّينيّة الحديثة هذه ، كما قيل ، عناوينها على التّوالي : « ألبيت الميت » ، « فيلوكتات » ، « أورست » ، « هيلانة » ، « ايسمان » ، « فيدرا » ، « كريزوثيميس » . . . حصلت ، اذاً ، على نعمة أن أتحدث عبر الشّعر ، لا عن الشّعر . فالقيمة الحصريّة لقصيدة ما ، ليست في ما تقوله ، بل في ما تكونه انّما الشّعر

ما يكونه الشّعر ، ولا نجد ما هو قائله الاّ في ما هو كائنه . والشّعر يقول ، دوماً ، اكثر بكثير ممّاً يمكن أن نقوله نحن عنه . ولكن لا دلالة للشّعر اذا فصلنا ما يقوله عمّا يكونه . هنا تكمن صعوبة التّطرق الى مسائل مباشرة . اذا ما تصدينا بالكلام لحدث اجتماعي ، أو سياسي ، وقع في بلادنا ، أو في بلاد أخرى ، من الطّرف الآخر للعالم ، لما أمكننا أن نقول أحقّ ولا أصحّ ممّاً يقول الشّعر فيه . ألشّعر يقظ دائماً . ويقظ الشّاعر . ألشّعر يجيب مباشرة ، كما لو أنّه كان ، منذ البدء ، مستعدّاً بشكل مطلق ، ذلك أنّ التّاريخ لا يسير أفقياً . أنّه يخطّ على الدّوام دائرة نحو الأعلى ، أو بالأحرى خطّاً لولبياً ذا عدّة أبعاد ، غالباً ما يتكرر . وهذه « التّكرّرات » بالذات هي الشّاهد على أزليّة الحياة البشرية . لذا ، فأنّ الشّاعر الشاعر ، الجدير بهذا الاسم ، هو الذّي يدل على أصحّ ما يكون عليه التّناسب الذي نعيشه ، أبداً ، مع هذه الأزليّة . وهذه الأليّة ، يعبّر عنها الشّاعر في شعره باعطائه للنّاس شجاعةَ أن يناضلوا في سبيل الحياة والجمال ولأخوّة والمودّة الانسانيّة .

□ ألشعر ، اذاً ، مرادف للأزليّة ، للدّيمومة ، وربمّا للخلود كذلك . . . .
والآن ، عبر نتاجك الضّخم ، والمدهش على الدّوام بنفسك شاعراً أبديّاً ؟

□ انّني شاعر معاصر ، فقط معاصر ، وانّما بالانطلاق من الحاضر ، يتّم للشّاعر أن يعبر ، في فنّه الرّائع ، عن الماضي كلّه ، وتقريباً ، عن المستقبل كلّه . وأنا ، اذ أقول المستقبل ، أفكّر دائماً في نزوع النّاس الى الفوز بالسكينة ، والمساواة ، والسعادة ، لا لكي تُكْتَسب بشكل فرديّ فيستاثر المرء بها لنفسه ، بجشع ، بل ، بالدّرجة الأولى ، لكي تُعطى . وهذا يعني أنّ أيّ بلد ، على وجه الأرض ، لا يمكن أن يعتبر أنّ الشّاعر ، شاعره ، هو له وحده ، ولا شأن له بغيره من البلدان . آه كلاّ ! . فالشّاعر لا يمكن ألاّ أن يُعْطى للآخرين ، لكلّ الآخرين . وهنا ، اسمح لي أن أستشهد بنفسي ؛ في نهاية قصيدتي « كريزوثيميس » ، أقول :

« نعم كنت آمل أن يأتي أحد ذات يوم فيأخذ
هذا النّسيج وسر النّساجة ؛ ـ أكون قد ألقيته بنفسي
على ركبتيه ، تماماً كما أبثّكم الآن هذه الكلمات

كأنّ في ذلك أهمّيّة . . . والآن ، أستطيع أن أسير
في تعب هانىء ، بلا أحلام ولا رغبات ،
عدا الرّغبة اللاّنهائية ، الرّائعة ، في طلب الغفران
من الجميع ومن كلّ شيء .
عفواً . عفواً . سامحوني ،
أنا التي لاشأن لي ،وليس لي أن أتباهى
بـأيّ عمل ـ بـأيّ شيء ؛ أيّ شيء سـوى هـذا الفـرح بـأن أستميحكم
عذراً ؛ ـ مشكورين ؛ ـ وغفراني النّهائيّ
يكون لي أنا ـ من زمن مُحضّراً ، وربّما مُبَرَّراً » .

□ في هذه اللّحظة بالذّات ، تشاهد قصيدتك « كريزويثميس » هذه على مسرح مدينة أثينا . وفي هذا المساء ، سيبثّها التلفزيون اليونانيّ . على كلّ حال ، هل من حاجة الى التذكير بأنّك قد أصبحت الشّاعر اليونانيّ الأكثر شعبيّة ، وأن نتاجك يلقى حفاوة متزايدة على المستوى العالميّ ؟

□ لقد كتبت قصيدة « كريزوثيميس » في جزيرتي « ياروس » ، و « لاروس » ، حيث كنت منفيّاً ، ومن ثمّ في « ساموس » ، وذلك بين عامي ١٩٦٢ ، و ١٩٧٠ . على مرّ هذه السّنوات العصيبة ، الرّهيبة ، لم أتوقّف عن العمل . كنت أكتب في السّرّ ، مختبئاً . أكتب على أوراق « مجعلكة » أوكل أمر حراستها الى حجر ، أوكل أمر حراستها الى حجر أو مَدَرِه ، أو مَطَرَةَ من زجاج أطمرها على عَجَل الى هذه المرحلة ، كذلك ، تعود قصائد أخرى مستوحاة من الميثولوجيا القديمة ، ومن التّراجيديا ، كما هي الحال بالنّسبة الى « آغاممنون » و « ايسمان » و « عودة ايفيجينيا » . أمّا « كريزوثيميس » فيرمّم ، ويرأب صدع الوحدة الأكثر عمقاً لحياة أُعيدَ خلقُها بذاكرة قدرٍ أسطوريّ ، وذلك عبر استكشاف كافة هواجسها ، والكشف عن تقصيها الدقيق لليوميّ والمتبذل .

الممثلة نيكي تريانتافندي هي التّي تؤدّي « كريزوثيميس » . انّها رائعة .

تستطيع ان تكون أمينة للقصيدة بكلّ حضورها ، وفعاليّتها ، وتواصلها ، بكلّ الحياة الكامنة فيها . أضف الى ذلك أنّ هذه الممثّلة جميلة ، جميلة جدّا ، بهية . لقد اضطّرت ، حين كانت في العشرين من عمرها ، الى التّعرّي مرّة لضرورات أحد الأفلام . فأي جسد ، وأيّ روعة ! طلبت منّي أن اتحدث قبل العرض ، لكي يتلقّى الجمهور القصيدة بشكل أفضل . فأجبتها بأن ليس لديّ شيء أضيفه ، بكلّ تأكيد ، اذ أن كلّ شيء متضمّن في القصيدة . وفي الشّهر القادم ، سوف تعرض قصيدة « كريزوثيميس » في النمسا .

وإذا رجعنا الى اليونان ، الى الفنون اليونانّية بعامّة ، فعلينا الآن ، وسيكون علينا ، أن نفعل الكثير . وزارة الفنون والثّقافة موكلة اليوم الى السّيدّة « ميلينا مركوري » . وبما أنّها كانت ، هي بالذّات ، ممثلة ، فانّ لديها استعدادات حسنة جدّاً تجاه الفنّانين ، وعموم المبدعين . ولكن لم يمض على قيام الحكومة الاشتراكية الجديدة للرّئيس « باناندريو » الاّ بضعة شهور ، وهذا لا يكفي لكي نكوّن فيها رأياً الآن . يجب أن ننتظر لنرى .

. . . . أما أنا ، فلقد عملت بجهد حتّى الخمسين من عمري لكي أكسب القوت ، ثمّ قام بكتابة ألحان لقصائدي موسيقيّون كبار ، أذكر منهم « ثيودوراكيس » ، و« مورانجاكيس » ، وبخاصّة « سيبليوس منديس » ، كفاني أني نفذّت حتّى الآن خمساً وثلاثين اسطوانة ، منها Grecite ، « ثماني عشرة اغنية لوطني الأمرّ » ، « سيّدة الكرمة » ، «بعد المحنة » ، « شاهدة » ، « أغنية الى ماكرونيسوس » ، « ألقدر المدخّنة » ، « سوناتة على ضوءالقمر » ، الخ . وقد قمت ، شخصيّاً ، بالقاء ، وتسجيل قصائد لي على اسطونات : « حينما يأتي الغريب » ، وال « سوناته على ضوء القمر » ، الخ ، ومنذئذ ، أعيش على شعري . هنالك رسّامون يونانيّون ، وآخرون من اسبانيا ، وايطاليا ، يشتغلون على شعري ، وأعمالي تترجم بشكل متزايد في كلّ مكان تقريباً ، وبخاصّة في فرنسا ، ومؤخرّاً ترجمت ونشرت في المانيا قصيدتي « غراغاندا » ؛ وهي قصيدة طويلة ، تمثّل شعاراً تجريدياً لأجل مظاهرة تقوم بها جمهرة من التّماثيل . وما زلت أتلقىّ دعوات لزيارة مختلف البلدان؛ أربعين أو خمسين دعوة سنويّاٍ ، ولكن ، لسوء الحظّ ، لا يسعني أن ألبّي هذه الدّعوات ، فأنا ،

غالباً ، متعب ، ومريض ، جسديّاً ، لذا أتحاشى السّفر . ثمّ انّي أعمل . أعمل كثيراً . مهمّ جداً الوقت الذّي أقضيه في العمل على الشّعر ، على شعري . لقد اضطرت الى زيارة ستوكهولم في العام ١٩٨٠ ، لأنّني ، كما تعلم ، كنت مرشّحاً لنيل جائزة نوبل للشّعر . واخيراً ، كانت الجائزة من نصيب ادوييس ايليتس ، ايليتس الذّي كان خارجاً من صمت طويل مقصود . عل كلّ حال ، كان التّكريم للشّعر اليونانيّ .

□ ولكن ليس هناك نتاج يعبّر ، كما يعبّر نتاجك ؛ عن الفعل التحرّريّ للشّعب اليونانيّ . . . أنّ « قدسية » الحياة اليّومية اليونانيّة ، في قصائدك ، آنيّة ودهريّة في آن

□ في الكون ، في الحياة ، في ذواتنا ، ثمّة أمور مجهولة ، لا تفسّر . وهذا هو السّبب الذّي جعل الشّعر يتحوّل الى تعبير عن « المفهوم » أي عن الظّواهر التّي عرفت أكثر من مرّة ، عن مجالات وأطوار وأدوار انسانيّة محدّدة . وهكذا ، فانّ الشعر ، اضافة الى المسائل الاجتماعيّة ، يحتوي ويدلّ على كلّ ما لا يفسّر في العالم ؛ كلّ المجهول في العالم . وهكذا يكون الشّعر فعلاً مذهلاً ، فعلاً مكتنفاً بالسّر ، أو بالأحرى تحقيقا سرّيّا للسّرّ . وليس هذا بتصوّر « روحانيّ » للشّعر . بل على العكس ، انّه تصوّر واقعيّ جدّاً . على كلّ حال ، انّ أكثر علماء الاجتماع واقعية ، مثلا ، يعترفون بفكرة المجهول الذي يحيط بنا ، والذي نحمله في ذواتنا . وهم يسلّمون بأنه ـ في الواقع ـ أهم من كل معرفة ، ومن كل مفهوم . وهذا المجهول لا يحّولنا إلى عزّل .لا . إنما يوطد ، حقاً ، قوة الشاعر فينا ، ويضاعف أسلحتنا الكفيلة بأن تغزو أسرار الحياة ، ونعمّقها ، ونحلّ رموز وجه الوجود البشري . إن هذه الكيمياء ، وهذا ألفكّ للرموز ، وهذا التفسير ، هي ما يوطّد العلاقات بين الشعب والشاعر ، بين شعب وشعب .

□ أليست الارادة المعلنة للشاعر هي توكيد اللحظة ، وتوكيد الذات في اللحظة ، وأن يجعل في اللحظة مُنْبَعثاً لجوهر يكون ، في الوقت ذاته ، هو الجوهر الموضوعي للواقع الخارجي ، والجوهر الذاتي لفكر يتماهى مع هذا الموضوع الخارجي ؟

□ الشاعر يسجّل اللحظة الأزلية ، وهو يتقدم نحو المستقبل ، ولكنه لا يتقدم بتوقعاته وحدسه فحسب ، بل يوظف إلى جانب ذلك كل الوسائل الواقعية ، وكل العلوم الممكنة ، وإمكانات مذاهب علم الاجتماع . لا غير من دون الشعر . تذكَّرْ : « إذا لم يكن الشعر هو المغفرة ، فلا انتظرنا رحمةً أنّى تَكُنْ » .

نحن اليونانيين نتقدم نحو المستقبل ، ونستطيع ، في الوقت ذاته ، أن نغزو فضاءالماضي ، ونصل الى التواصل ، الى الديمومة ، إلى ما يستمر .

(يسمع فجأة ، من مدرسة مجاورة ، ضجيج تلامذه في وقت فراغهم) يلتفت قائلا : ها أنت تسمع صوت الحياة ، الحياة السرمدية . برغم الحروب ، برغم التهديدات ، برغم الاستبداد ، الحياة هي هنا . الحياة مستمرة . . . هذا ما يجب أن يفعله الشاعر . عليه أن يقول كل هذه الحياة عليه ان يشدد على هذه القيمة الحياتية ، لان النضال في سبيل جَعْلِ شَرْطِ الحياة أفضلَ هو أن ندل على قيمة الحياة ، ونسميها باسمها ، وندافع عنها ، في قصيدتي « الجسر » ، التي كتبتها في العام ١٩٦٠ أقول :

حقا ما أجمل الحياة ، حقاً ، وما أغربها ، أليس كذلك ؟
عندما أعود إلى قربكم ، مُمْتِنّاً ، وأطلب قطعة من
خبزكم اليومي ؛ قطعةً صلبة من مسؤليتكم ، سريَر قشّ ، حثيما يكون ،
في الخارج ، أو في الممّر ، كذلك السرير الذي
تقاسمناه في منافينا ، حيث كان كلُّ اقتسام إثراءً ، وكلفافاتنا
التي كسرناها نصفين فيما بيننا . عجباً ، ها أنا أعيدُ قول الزوايا الاربع للأفق . » .

□ النضال الكبير ، النضال من أجل الحياة ، إنما هو هذا « الجسر » هذه القصيدة التي تمجد الولادة الخالدة . . . .

□ نعم ، إن الولادة خالدة. ولادة الأنسان هي الخلود حقاً . ما أروع أن نشهد ولادة إنسان مع كل ما في أعماقه عن إمكانات . حينما وُلِدَتْ ابنتي « إري » (إبنة

الشاعر الوحيدة) كتبت لها قصيدة « نجمة الصبح » . . .

التي هي نجمة الفقر . . .

الفقر ، والحياة الأبدية ، والحرية .

إنك تتغنّ بالحرية ، وتدافع عن الحرية التي هي « دائماً أولى » ، لذا أنت صوت عالمي .

الشعر ينتمي إلى الحياة ، وهو لا يتفق مع الموت في شيء . الشعر هو التعبير الأقصى . إنه الصراع المستميت ضد الموت ، ضد كل شكل من أشكال الموت . والموت ليس مجرد النهاية الفيزيائية لإنسان ؛ ليس نهاية حياة كائن ما . . . لا . الموت يتخذ شكل الظلم ، والاستغلال ، والاحتلال ، والحرمان ، والخوف ، وقلة الغذاء ، والرغبات غير المشبعة ، الموت هو الرغبة المكبوتة للناس ، والشعر يجاهد ضده ، يريد أن يمحو الأسباب التي تؤدي إلى اليأس ، الأفضاء بالانسان إلى إنقياد يجعله عقيماً ، أو رميماً . هذا يعني أن الشعر يُسْهم ، أبداً ، في خلق الحياة ، في خلق الحياة الانسانية . الشعر ينجبس من الظلمات ، من غياهب الظلمات ؛ من متاهات الشرور ؛ عن كل شكل للظلامة والاستبداد . إنه يتعهّد غير الْمُدْرَكِ في الأشياء ويضيئها . وهكذا يجد سبيلاً إلى التواصل مع الجميع . الناس يتواصلون في الشعر ، والشعر يمجّد الحياة معهم .

□ هذا وصف مُعْجِبٌ للتفاؤ ل ، إذاً . . .

□ أجل ، أنا متفائل . لقد خرجت من أحلك الظلمات . خرجت حياً من الأمراض . ومن جلسات التعذيب . ويمكنني القول أنني خرجت من أغوار الموت .

التفاؤ ل ليس سهلاً ، وليس وسيلة سهلة لتجاوز الصعوبات أو لتجاهلها . تفاؤ لي لا يتزعزع ، وهو راسخ لانه ينجم ، تحديداً ، عن اليأس .

□ الموت . البلاء . الهلاك . ما أكثر ما نجد ذلك في شعرك ، وأنت تحول الأمر

إلى فعل حياةٍ فُضلى ، على مستوى آخر . ولكن ، هنا ، نقع على أحد الثوابت في شعرك : البحث المثابر عن مَخْرج من الوحدة . . . ربما؟

□ لا أتوخى الوحدة بمفردها ، فالشعر لا يمكن أن يُعْزَلَ، أو يُفْصل ، عن المشكلات الأساسية الحياتية في هذا العالم . إن شعري ، الذي يتسلسل في العالم الداخلي ، يعبر عن نفسه على عدة مستويات معاً : على مستوى وجودي ، واجتماعي ، ونفساني ، فيجمع بين الذكريات التاريخية والأحاسيس التي تخمد بعد ، لكي ينتج ـ على هدى التداعيات ، في زمن متشتت ، تاريخي وذاتي ، وعبر كافة أنواع الانفصامات ـ صورة للاتحاد ، والتواصل ، بين الأنسان وتاريخه .

الوحدة ، إذاً ، ليست مطلباً شعرياً ، والشاعر لا يمسي وحيداً في الشعر ، قط . ولكن ، يتواصل الشاعر ، في وحدته ، مع وحدة الفرد والكلّ . وأصدق ما يكون التواصل بين كل هذه « الواحدات » هو ما يكون في إطار القصيدة . على هذا النحو يجد الشعر ، دائما ، حواره النابض بالحياة ، وتناغماته مع الأمة ، تناغماته مع شعوب الأرض ، عبر كل اللغات ، وحتى بوساطة الترجمة ، لان الشعر يعبر عن إحساس مشترك ، عن تصور مشترك ؛ عن رغبة مشتركة في تخطي الفروق ، لأن في الشعر تكمن الدلالة المركزية التي نرتضي فيها الاعتراف للآخرين .

الشعر هو العلاقة الإنسانية الأكثر اكتمالاً ، والأفضل انبناءً ، والأكثر اهمية . إنه يخاطب كل فرد في المجال الخاص لوحدته ، وهذه الوحدة ، تحديداً ، هي وحدة مشتركة ؛ هي المجال الذي يكمن فيه مُتَّحَدُ البشر بكلّيته . لذا ، غاية الشعر هي التوجه إلى الجميع ولمسهم ؛ ولكن الشعر يبقى قَيْدَ الخَلْق أبداً . إنه في « ورشة » أبدية .

□ ومع ذلك ، ففي قصائدك ، التي تستلهم التاريخ ، صورة تتخلى عن دورها الاعتيادي الذي هو جعل العالم أليفاً بالنسبة إلينا . على العكس من ذلك ، فإن « كريزوثيميس » تقول الحضور الأبدي للموت ، وما « فيدرا » إلاّ تجسيد نموذجي للحضور الاستبدادي للرغبة . . .

□ هذه السلسلة من القصائد الميثولوجية ، بل كل هذه القصائد ـ المونولوغات ، أخالها كانت حاضرة فيَّ ، مهيّأةً ، منذ نعومة أظفاري ، وحتى قبل ذلك . . . ربما . والحق انها موجوده منذ البداية ، آن كنت أتقدم مع الكلمات . إذ ، بتقدمنا نحو المستقبل نحتل الفضء ذاته ، الذي كان لنا ماضياً . ولكن شعري يبشر بالمستقبل دون أن يكون مشروطاً بأشكال الماضي . إنه يتغنى بكل النبرات الصوتية واللونية ؛ بالشباب ، والعافية ، والجمال ، والحب .

مع ذلك يتأرجح الأنسان ، أحياناً ، بين السعي والتواني ؛ بين الذكرى والنسيان . حتى الذاكرة تغدو طاغية ، وتتدخّل ، في كل آن ، لتخلق شعوراً بالذنب مردُّه أننا نجونا ، بأنفسنا ، من الموت .

تصبح الذاكرة أشبه بعين تراقب ، وتدين كلَّ فعلٍ حياتيٍّ . والشعر هو الصراخ المستديم ضد هذا النوع من الأحاسيس . وهناك ؛ أيضاً ، الظاهرة التي نسميها بالعمر . المرورُ من عمر إلى عمر . يبدأ المرء طفلاً ، ثم ولداً ، ثم مراهقاً ، واخيراً يمسي رجلاً ، وبعد ذا بالغاً ، فمُسنّاً ، فشيخاً . . . . ولكن الشاعر ، والفنان بعامة ، لا ينتقل من عمر إلى عمر ، بل يجمع في ذاته ،وليس فقط في ذاكرته او في عاطفته ، ـ بل أكثر من ذلك ؛ في القصيدة الحية ، في العمل الفني ـ كل الأعمار الممكنة معاً . إنه ؛ في الوقت ذاته ؛ طفل، وولد ، ومراهق ، ورجل ناضج ، وعجوز . بل يجمع في شيخوخته كل الشباب ، وكل شيخوخة ، لا شخيوخته وحدها .

أما بالنسبة إلي ، شخصياً ، فلم أكتشف عمري الحقيقي إلا في سن النضج . كان عمري يمتد إلى ملايين السنين قبل ولادتي ، وكل ملايين السنين المقبلة بعد وفاتي . وأكثر من ذلك : لقد اعتقدت للحظة ، لبرهة ، أنني بلغت سن أوّل الخليقة . . . عندئذ بدأت أعيش مستقبلي في الماضي الإغريقي كله . بدأت أعيش الميثولوجيا ، والفن الإغريقيين ، في راهني ، هكذا كانت ولادة هذه القصائد الميثولوجية . كتبت « البيت الميت » ، ثم عدة قصائد اخرى تعكس أوضح صورة عن الحاضر التاريخي ، وتعيد ، بلا كلَلَ ، طرح السؤال الأزلي للتاريخ وللعالم . ولا بد من الأفصاح عن هذا اليقين الأساسي ، وهو أن الميثولوجيا الإغريقية القديمة هي

ظاهرة محض يونانية . ولكن ما نخصّصه بأنه يوناني يدل على ماهو عالمي حقاً . هذه « العالمية » هي ، تحديداً ، جنسية العقل الأغريقي الحق ، وحضورة العميق ، الواضح ، البدهي ، في كافة الحضارات . لذا فانني ، اليوم ، على أدقّ ما يكونه التعبير ، قومياً ، وفي الوقت ذاته على أحقّ ما يكونه التعبير عالمياً .

إذن ، هذه القصائد التاريخية قد شكلت ، بالنسبة إلي ، وسيلة وَحيْ خارقة ، تجريدية ، بالطبع ، لكنها فعّالة الى حدّ ما ؛ وسيلة كان من الصعب علي أن أكتشفها قبل ذلك ، لأن سنواتالقمع الرهيبة حلت علينا ، ولم يكن ممكناً التعبير في ظل الدكتاتوريات بحرية . في هذه القصائد الطويلة أقول ، وبطريقة شخصية جدا، عبر جوقة من الأصوات المتنافرة ، كل ما لدي من مرامٍ ، ومن إبتغاءات . وأتكلم ضد الدكتاتورية بكل براءة ممكنة . إذاٍ لا بد من القول إن وحدةً الحياة ، سرَّها وسرَّ الموت ، هي موضوعات التعظيم في هذه القصائد . أما ما يخص لعبة الموت ، التي تبدو لك طاغيةً في « كريزوثيميس » فأكتفي بإعادة هذا البيت ، الذي سبق أن استشهدت به ، أنتَ ، منذ لحظات :

« إذا كان الموت هنا ، فهو يأتي ثانياً ، على الدوام .

الحرية ، دوماٍ ، أولى » .

□ أنت تجعل لصروف الدهر قيمة لا تُعوّض ، ومن الشيخوخة هذا التجرد الكامل ، الذي يجعلنا نرى ، ونقدّر الحياة . وهنا تكمن فرادة ما تقدمه قصائدك ، في هذه القوة المحّولة الفائقة التي تسكن نفسها ، وغلْوَّها ، وجرأتها ، وخصبها .

□ النهار الذي يمر ليس نهاراً أخسره من حياتي ، إنما هو جديد لا يشبه الذي مضى . إنه نهار غير مُعَبَّر عنه يضاف إلى حياتي . فما أكتشفه اليوم كنت اجرّبه أمس . هكذا يغتني شبابي الروحي .

إنني أقيس الحياة إلى المعرفة المدهشة للحياة . هكذا أحيا . ومع الوقت أكتسب الآحمر (الجوهري ص(أصبح حيّاً أكثر ، وأكتشف اني إنسان بشكل أفضل ، إذا جاز التعبير . فالزمن الذي يمر هو إضافة بالنسبة إلي ، ولا أقول ذلك لانني رجل مسن

الآن . . . آه ، لا . تذكر ما سبق أن قلته في « الرائعة التي لا رأس لها ولا ذَنَب » (١٩٧٧) :

« إنني شخت شباباً لا يشيخ » .
ومنذ الرابعة والعشرين من عمري كنت أكتب :
« حينما أنهض باكراً ، في الصباح ، وأفتح النافذة ،
وارى السماء الزاهية متمرئية في البحر ،
أكون أزليّة أفتى من الأمس » .

□ إن استخدام الشكل المسرحي في قصائدك ، يفسح في المجال لظهور شخصيات غير منتظرة ، خارقية ، مسخيَّة ، من كل الأنواع . فهناك المجانين ، والمهرجون ، والمشعوذون ، والمعاقون ، والعميان ، والصمّ ، والبكم ، والاقزام ، والغرقى ، والمقتولون . هذا جو كابوسي . هنالك حتى ذلك الذي يحمل بين يديه رأسه المقطوع ، مما يدفعنا إلى التفكير في تقليد ساخرٍ للموت . . .

□ إنني أكتشف مع الزمن ، بمزيد من الوضوح ، أن عملي يتطور (دون قصد) نحو الميل إلى التعاطي مع كابوس ليلي ، او نهاري ، بل إلى التعاطي مع الموت بجعله هزلياً ، بالخفض من شأنه ؛ ب « استغلاله » . وإذا كان ثمت خلاص فهو ليس إلاّ هذا التخفف من الألم والخوف (جسدياً ، معنوياً ، إجتماعيا) بفضل الاشراف الساخر على هلوساتنا « التاريخية » . ففي هذا المجال المبهم ، والخارج عن المراقبة ، يبدو أن العبد يكتسب قدرة سيد ، ولو هشّةً (قدرة « التثبيت البصري » للكابوس . قدرة التحديد والتحويل) ، شيئاً أشبه بالتبُّرؤ ، بالتحرّر . هكذا يصبح المأسوييالمحتوم هزلياً ، (أو مفارقا . أي : المأساة ، في تكشيرة نهائية باسمة؛ تكشيرة مقصودة ، ولكنها تغدو ، من خلال الشعر ، بسمة حقيقية ، بل تصير هي الارادة ، والتصميم ، وحتى القدرة على بداية جديدة ، وعلى فعل جديد . وذلك ليس ، فقط ، كنتيجة الفعل الفني في القارىء أو المستمع ، بل كواقع متضمّن في الفعل الفني بذاته .

على كل حال ، قد نحسب أنفسنا أمام استعرض ساخر مضّخم ، ويتكون لدينا انطباع بأن وراء فكاهية الأيحاء ، والوصف ، وتحت قناع الهزل ، دعوةً رهيبة إلى العبثي ؛ إلى اللاّمُجدي . وذلك ، ربما ، لكي « ننتصر ، عبثاً ، على خوفنا الأول والأخير » كما تقول . . .

□ الأمر يتعلق ، نوعاً ما ، بأخلاقية للجمالية . فالـ « نُدْرَةُ » التي لا تطاقُ للفردية تنحل في العمومية الأخّاذة ، التي تظلّل ، بمودة ، كل الناس ، وكل شيء . عندئذ يتحول فقدان التواصل ، وانعدام الفهم . إلى تسامح ومغفرة ، وإلّا فإلى قبول وتفاهم . وبذلك يغدو « المُزاح » الودي ، وحتى الجارح ، مشروعاً ، في ما يشبه إخوَّةً واسعة جداً ، أبعد من خلافاتنا ، ومآخذنا المتبادلة ؛ إخوَّةً نبيلة جداً . فنحن أمام من هم أليفون ، فقط ، بالنسبة الينا (أو ربما كذلك من هم غريبون تماما عنا) ، نستطيع أن نتحرر من جِدِّيتنا المزعومة ، ومن أهميتنا الظاهرية ، لكي « نمزح » معهم . أمام هؤلاء فحسب ، لا نستطيع أن نتنكر على رَسْلنا (كما لو كنا ممثلين في التراجيديا ذاتها ، وفي الكوميديا ذاتها) ، وأن نتعرى فنكشف ، على التوالي ثياب التنكر ، والشَّعر المستعار . واللحى المزيفة ، والقبعات المريشة ، وأحذية المسرح ، والأقنعة ، والسيوف الخشبية .

ممثلون لمأساة حقيقية ، غير مكتوبة . ممثلون ينزعون « الماكياج » ويتعرون ، بعد انتهاء العرض المزعوم ، موهمين ، تَعَزِّياً ، بأن « المسرحية ـ الحياة » التي سبقت ، لم تكن إلا مسرحية انتهت الآن ، ولم تعد عُرْضة لأن تتكرر ؛ مسرحية نستطيع نحن ، فقط ، أن نكررّها فتتحسّن . يتحْول الواقعي ألى خيالي ، والاستبدادي إلى « مُسَلٍّ » ؛ إلى تقليد هزلي ساخر . ليس دائما ، بالطبع ، ولكن حتى مجرد تقديم الصورة المقلوبة ، والمُلْواة ، للكابوس ، ولِما لا يُفَسَّر من الوجود البشري (وكذلك مجرد إعادة خلقها ، وتحويلها ، وتشويهها شعرياً) قد يعطي (ليس فقط للمبدع) نوعاً من الرضى ، الذي يعني ـ دون شك ـ مقدرةً ، وأمكاناً للسيطرة على النفس . وقد يعطي هذا الشعور البكرَ بما لا تعادله بالديمومة ، وحتى بالانتصار .

□ حسبنا أن نتأمل بيتك حتى ندرك أنك تعمل كثيراً ، وبلا توقف . أنت تكتب بالطبع ، ولكنك تترجم كذلك . لقد ترجمت مايكوفسكي ، وناظم حكمت ، والكسندر بلوك ، وأتيلاجوزف ، وإيليا اهربنورغ ، ونيكولاتيلمن ، ثم أنك تنحت كثيراً ، وأنا أتامل ، الآن ، بإعجاب ، هذه المنحوتة المنتصبة أمامي لوجه حاد القسمات ، وجه فتاة صغيرة . هذه المنحوتة تذكرني بكل تلك التماثيل التي تملأ قصائدك . . .

□ لقد قيل « إن اليونان مأهولة بالتماثيل أكثر منها بالبشر » . والنحت عبارة عن صراع عريق لحماية الجمال . لأعطاء الوجه البشري وجسده مجدهما ، وانتصارهما على الموت ، عبر المواد الصلبة .

إن النحت الكلاسيكي ، وما قبل الكلاسيكي ، يواجهنا بالجمال كله مرئّياً ، ومحسوساً ، من خلال الحب في صورة التمثال نرى ، بأم أعيننا ، « تشخْصنَ » الحب ، أعني الزمن الحيَّ للحياة . وفي الأغلب ، حين ننظر إلى تمثال ، ندرك أنه لم يُنْحَت بإزميل وبمطرقة ، ولكن باللسان النهم للفنان ـ النحات ، كما لو أنه كان يريد أن يقضم الصخر بلسانه ، وصولاً إلى توحُّد أعمق مع موضوع رغبة اخرى . فالنحت تَزَاوجٌ . إنه فعل ممارسة الحب مع الكون كله . هذا هو الفن . وهذا التوحُّد ليس جسدياً آيناً فحسب ، بل هو مستمر لا ينضب ، ولا يبقى . في قصائدي ، بالطبع ، تماثيل في كل مكان . في القصائد القصيرة ، كما في القصائد المثيولوجية الطويلة ، في نهاية « غراغاندا » تكون الجماهير المتظاهرة في الشارع مؤلفة من تماثيل .

□ إن اسم « غراغاندا » هذا لَيُذَكِّرنا باسم بطل اسطوري من أولئك الأبطال الذين يجب أن يجيئوا ، أو يعودوا ، ذات يوم ، لكي يخلّصوا العالم . من أين جئت به ؟ وما هو معناه ؟

□ هو اسم له معنى يُجاوز المنطق . إنه رمز ما لا ينقسم . والكلمة غير معروفة . قد تُذَكّر باسم « غارغانتويا » ، الشخصية الكلاسيكية المعروفة بالنهم ، لكنها

غيرها ، وهي استنباط شخصي ؛ كلمة تعطي إحساساً عميقاً ، كما لو أن ثمت لغة واحدة للجميع .إنها شهقة . غراغاندا . ثلاث ألِفَاتِ مَدٍّ متتابعة . . . هذه « الآهات » تعبر عن الأعجاب ، أو الشكوى . إنها تقول ، بشكل خاصر ، الأعجاب ، وارتضاء الحياة . إنها تهليلة نصر بالنسبة إلى صرامة النَّبرِ اليوناني . إضافة إلى أن الصَّارِح (التينور) يسافر في الموسيقى وهو يمِّرن صوته مع أَلِفِ المدّ ، التي هي أعمق الحروف في لغات البشر . ويمكن أن تقال « غراغاندا » في كل اللغات .

□ وأنت ، كذلك ، ترسم على الحجارة . هذه الغرفة مملوءة بالحجارة الملوّنة ، بالعظام ، بجذور الشجر . أنت ، حقاً ، نَهِمٌ .

□ الرسم على الحجارة يُنْمىٰ إلى التقاليد العريقة للنحت الإغريقي . وأنا ، منذ الصِّغر ، تعلمت الرسم والموسيقى ، ثم جاء الشعر ، فيما بعد ، أي في حوالي السابعة من عمري . ومنذئذ لم أستطع أن أُعنى بغيره من الفنون . بالرسم أو بالموسيقى . كنت أَقفُ وقتي ، كله ، على الشعر . ولكي أعطي لفني أبعاداً أخرى ، ومَرَاقيَ جديدة ، كنت استقبل الأصوات الباهرة للموسيقى فأجعلها تتخمّر على الحجر ، مع الألوان .

الرسم غِنى أضافي للشعر . أنا ، أذاً ، أرسم . أعطي لشعري مجالاً حيوياً آخر . أحب أن ألوّن الحجارة . انظرْ إلى كل هذه الوجوه الخلاّبة ، وإلى وجه السجين هذا . . . إنني أرسم على عظام ، وعلى جذور أشجار ملمومة من الشاطىء . انظرْ إلى « نفرتيتي » الغريبة هذه ، هل يتحتّم عليَّ أن أذكر بأن العقل الأغريقي ، في جوهره ، متعدّد الفعاليات ؟ . كان المفكرون الأغريقيون ، منذ عهدهم الأول ، يعبِّرون في فنون عدَّة معاً ، إلى جانب حقل اهتمامهم الأساسي . إن سوفوكل ، وأشيل ، ويوريبيدس ، كانوا يمارسون الرقص ، والأخراج المسرحي . وكان آخرون يمارسون الموسيقى أو النحت . وهكذا ، فـإنني شخصياً ، في « حـواراتي الداخليـة » (مونولوغاتي) ، المسرحية ، أعمل عمل الموسيقيّ . ولهذا السبب ، في الغالب ، تُعنى قصائدي . ماريا فرندوري . انطونيس كالوياثيس . . . الخ ، غنوا لي . موسيقىً

أنا . وكما الموسيقى كذلك الشعر ، صراع مع الأصوات ؛ مع أصوات اللغة . الكلمات محسوسة أبداً . الكلمات اسماءٌ معطاة « للأشياء » الانسانية ، للأحاسيس ، للأفكار . وافضل استعمال لجرس الكلمات هو نحوها الذي يستعمله الشاعر : إنه يفعل بشكل من الاشكال ، فعل الموسيقي الذي يسعى وراء كلمة مطلقة ؛ وراء لغة توحّد الجميع ، وتوحّد الأشياء . أضف إلى ذلك أن الشاعر يستخدم الإيقاع الذي هو تنفُّسه المتجدّد عند كل كلمة . إنه جهده الأقصى لكي يعانق كلَّ الغامض ، واللامحدود ، بوسائله المحسوسة المحدَّدة جداً ، أيْ بالكلمات . وما الموسيقى إلّا هذا الجهد ، هذا التّسامي ، يقولهما صوت الشاعر . هذا الذي يعرف أن يجعل الصمتَ ناطقاً . وما هو إلّا الصراع ، بين المحسوس والمجرد ، لكي تتوحد ، في العمل الفني ، كل عناصر الحياة .

أنا أحتاج إلى متانة الحجر . إلى هذا الحضور الملموس الذي هو الحجر . لقد كتبتُ دراسة تحت عنوان : « حجارة . جذور . عظام » . أنا وفيٌّ للحجر منذ عشرين عاماً . أتكلم إليه . أُعنى به كل العناية . لقد كان رفيقي في زمن النفي والإبعاد ، وكان ممنوعاً ، وقتئذ ، أن نحوز وسائل الرسم ، فحلَّ ، هو ، محلَّها . ولم أكن أشعر ، آنذاك ، برغبة في لمس الحجر فحسب ، بل كنت أريد أن أبثه مأساة الرجل أسيراً ، وضحية للعسف . . . كل هذه المأساة وأكثر . هكذا أبدأ مع الحجر حواراً صامتاً ، ودوداً ، غامضاً وحميماً .

صامت هو الحجر . إنه لا يفشي أسراري . وبحديثي إلى الحجر تسنى لي أن أقول ، في صمت ، ما كانت الدكتورية تحرص على منعه .

لم ارسم على الحجر ، قط ، مناظر أو أشياء ، بل دأبي أن أرسم المملكة المثيرة للعري البشري . وفي الحجر الذي يستطيع البصير أن يقرأ روحه بذاتها ، يقرأُ المبدعُ لحياةَ . أعني أن الرسم على الحجر هو من البراءة بحيث يمكن أن يشكل سلاحاً حقيقياً ضد القامع .

هكذا ترى بسمات الرجاء الخارقة على حجري . ترى اسرار الحياة ، والوقوف

في وجه الظلمات . هل تعرف ماذا قال أراغون عن رسومي الحجرية ؟ كان ذلك في موسكو ، خلال الصيف العام ١٩٧٧ ، حينما مُنِحْتُ جائزة لينين للشعر : « لقد أعطاني يانس ريتسوس خمسة حجارة ، وفي نيتي أن أهدي هذه الحجارة ، بعد موتي ، إلى متحف اللوفر . فمن الحجارة التي تدوسها أقدامنا يصنع ريتسوس روائع مذهلة » .

□ عرَّفك أراغون ، سابقاً ، إلى الجمهور الفرنسي بخاصّة ، والأوروبي بعامة ؛ إذْ كتب في مجلة « الآداب الفرنسية » ، في العام ١٩٧٧ ، أنك « أحد أكبر الشعراء المعاصرين ، وأكثرهم تمايزاً . . .

□ أراغون صديق رائع ، وقد تحدث عني ، أكثر من مرة ، بعبارات المديح ، بل مديح ما بعده مديح ، فلقد كرر ثلاث مرات ، على الأقل ، أن ريتسوس هو أكبر شاعر حي في هذا الزمان الذي هو زماننا . في كل مرة كنت أشعر بتجلٍّ مثير . تجلّي رجل ، وتجلّي بلد . أعماق رجل ، وعمق بلد . لقد نشر لي أراغون ؛ في مجلة « الآداب الفرنسية » ، في العام ١٩٥٧ مقطوعة « سوناته في ضوء القمر » ؛ وفي العام ١٩٧٧ قدم ، بمناسبة نَيلْي جائزة لينين ، إخراجاً مسرحياً لقصيدتي « كريزويثميس » ، وفاجأ الجمهور الموسكوبي بتمثيله ، شخصياً ، للقصيدة .

□ ذكَرْتَ السّلم مراراً ، أليس من شأن هذه الكلمة أن تفاجئنا ، وهي صادرة عن شاعر التمزّق الإنساني الكبير ؟

□ تَذْكُرُ إنني كتبت في قصيدتي «السلام » ، في العام ١٩٥٣ :

« القطار الذي يتقدم نحو الزمن الجديد ،
على سكة الساعة التاسعة ،
ملؤة الورود والسنابل :
إنه السَّلْم » .

□ من فمك إلى أُذن العالم ، يا ريتسوس ، لأن قطار السلم ، هذا ، غالباً ما يكون فارغاً . . .

□ قطار الحب ممتلىء دائماً . ونحن أول المسافرين ، وآخرهم ، عليه ، لأننا مسؤولون عنه . أنت تعرف هذا البيت من شعري :

« طعمٌ عميق للنهاية يسبق القصيدة ، بدايةً » . الشعر ينتظر .

□ كلام حكيم . . .

□ الحكمة هي بلورة إحساس الجسد ، وحسِّيَّته . والحكمة ، في الذهن ، هي شغفه بأن يتوحّد مع تناغميَّة الحياة . إنها إبداع ، وتكوين ، لاإنفصالٌ . وعندي أن قدامى الإغريق ، وكل الشعوب المتقدمة في التجربة التاريخية ، يعرفون أن الذهن يرتفع ويرتكز ، لا على التخلي عن الجسد ، ولكن في الحركة المستمرة للجسد ، أبداً . وأعتقد ، أكثر من ذلك ، أن صادر عن الجسد .

□ سؤال اخير : ماذا يقول ريتسوس عن فلسطين ؟

□ هامساً :« لاتنسوا الخطّ العربي . إنه الأكثر رفعةً في خطوط هذا العالم .

وكشاعر ، لا بد من التعبير عن مودتي لاخواني الشعراء الفلسطينين : محمود درويش ، توفيق زيادة ، سميح القاسم . فغالبا مع اطالع قصائدهم . شعرهم مبتكر وفريد ، ويهمُ البشرية . جمعاء . لغنائيتهم قوة خارقة . إنه شعر عظيم وجدير بهؤلاء المناضلين ، بهؤلاء الشعراء الرائعين لشعب فلسطين البطل . وانقل تحياتي ، تحديداً ، إلى اخي محمود درويش ، الذي أُعجب بشعره المتميز بملحميّة مثيرة ترفع صرخة الحرية : حرية بلده وشعبه . أنني مليء حماسة تجاه نضال الشعب الفلسطيني الشريف ، الذي أريده ، وأشارك فيه بكل قوّتي ؛ أعني القوة الوحيدة التي أتمتع بها : شعري » .

أجرى الحوار : منصف غشّام

قصة

ليانة بدر

شرفة على الفاكهاني

I سعاد

لا أعرف ! قلبي وجف عندما كبرت النبتة الى ذلك الحد .
نمت . فرّعت واستطالت الى ان كان ذلك اليوم .
نباتات السجادة .

كبرت الفسحة الصغيرة التي أخذتها من جارتنا . عرّشت اوراقها التي تأخذ شكل القلب ، ورشمت سطوحها الخضراء بقع حمراء بلون الدم . بقع تتسع ، وتتسع مذكرة اياي بذلك الكابوس الذي رأيته في المنام . غبار ابيض ، ودخان . وعلى الارض ، يتمدد رجل ميت لا اعرفه ، مثقوب الجسد ببقع من الدم . كبرت النبته ، امتدت أمام عيني . وبعد حين ، كانت تنقلب الى النبيذي ، فأضحك من مخاوفي ، أخرج زفرة ثقيلة ، وارتاح . نقلتها من العلبة التنكية الصغيرة الى أصيص من الفخار ، ووضعتها على الشرفة قرب الفتنة والريحان ، فأينعت أوراقها المخملية ، حتى اوشكت ان تصير سجاداً حقيقياً يفرش زاوية الشرفة باللون النبيذي المحمّر . وشرفة بيتنا في الفاكهاني ، على الزاوية ، مقابل بناية رحمة بالضبط . نجلس عليها أنا وجنان عصر كل يوم ، وقربنا بالداخل يلعب الاطفال « بيت بيوت . » ، أو يشاهدون مسلسل « السندباد » . يشكو الهموم بعضنا الى بعض ، ونتحدث عن غلاء الاسعار وأعباء الحياة . نصفن قليلا ، ونتذكر عمان . سنوات ، وسنوات ، ومنذ ايلول الاسود لم نذهب الى هناك . أمي ، الصديقات . أهلها ، والاقرباء ، وسليمة الحاجة التي لم تعرف بوفاتها الا عبر مكتوب بريدي قصير . يأتي عمر ليشرب القهوة قليلة السكر معنا ، ونحكي أخبارنا اليومية ممزوجة بالمرارات

الخفية ، او التعليقات الضاحكة . تحبك النكتة مع عمر ، فيبسط راحة كفه امام جنان . تلتمع عيناه الجذلتان حين ترفع كفها ضاربة صفقة مرحة على يده . يكرج الضحك بيننا ، ونضحك . ونضحك من اعماق القلب . يحضر بعض المعارف او الجيران ، فأجلب لهم الكراسي من الداخل ،واجلس على الكومودينة العتيقة حين يزدحم المكان . حولنا ، في الفاكهاني ، تزدحم جميع الاشياء . حركة الناس، أصوات البشر ، وعجقة السيارات . نوافذ غرف متلاصقة لعائلات مهجرة من الجنوب ، ينحبس النظر في اطاراتها الضيقة ، الطافحة بالاغراض والصناديق المركومة بعضها فوق بعض . جماعات الفتية الذين يتصايحون في الشارع وهم يلعبون بكرات القماش ، ومعهم كريم الذي ترك المدرسة ، وصار عاملاً في المطبعة ، وما زال يضع اصبعه في فمه . مقاتلون يرتدون الزي المدني ، وعلى جوانبهم المسدسات . يذرعون الشوارع الضيقة اثناءاجازاتهم القصيرة من مواقعهم ، ويتوقفون قليلا امام بسطات السجائر وبائعي العصير . نسوة في أواسط العمر ، تلتمع شعورهن المصبوغة بالحناء في غبش المساء ، يتحلقن حول نارجيلة على احدى الشرفات ،وخلفهن تلوح حبال الغسيل الملأى بملابس الاولاد وغياراتهم البيضاء . وعلى مداخل البنايات شبان عراقيون أزعجتهم شقق المنفى المكتظة ، فخرجوا يتبادلون التحيات وآخر اخبار الحزب والنظام . وعلى زاوية رحمة ، يلوح أبو فؤاد بمريلته المعقودة على خاصرته ، وهو يقطع « الهريسة » و « المعمول المد » ويوضبها في واجهة المحل أكواماً هرمية تشبه التلال . يستعد عمر للذهاب الى مناوبته الليلية ، يراجع للاولاد فرض اللغة الفرنسية ، ويأكل بضع لقيمات من الهندباء بالزيت التي أعددتها على الغذاء . ينتبه الى نقص الخبز ، فينزل الى أبو محمد البقال ، وينادي يا سعاد . أطل من الشرفة ، وأدلي له السطل البلاستيك المربوط بالحبل . يضع فيه كيس الخبز ، ومرطبانا من الشطة الحمراءالتي يحبها . يذهب ، يغيب قميصه في أول منعرج في الزقاق . حينما استدير للدخول ، يحط بصري على الاوراق الداكنة لنبتة السجاد . لونها الآن ليلكي . ولكني ، أعود فاذكر المنام .

(٢)

عرفته قبل أيلول . كنت أراه أحيانا باللباس العسكري والكلاشن معلق على كتفه . يحادث اصدقاءه أمام مكتب جبل الحسين ، ثم يركب سيارة اللاندروفر الذاهبة الى القواعد في الاغوار . كانوا ينادونه عمر التونسي . عرفت اسمه مصادفة ، ولم افكر طويلا فيما اذا كان قادما من تونس ، أم ان اسمه الحركي هو هكذا .

عمر . . ، عبر بي الاسم سريعا ، كما تعبر بي جميع الاسماء الجديدة من حولي . معظم الشبان ، الذين انضموا الى المقاومة ، كانوا يختارون اسماء جديدة تيمنا بذكرى بطل أو مكان . الاسم الحركي الوحيد الذي ادهشني فعلا ، وما زلت اذكره حتى الآن هو اسم سعيد مهران . كان ذلك في معسكر تدريبي للطلاب قرب مخيم البقعة . طلب منا المسؤول بأن ننتظم في طابور خارج الخيمة . بدأنا نمر عليه واحدا واحدا ، ونعطيه الاسماء . لا اذكر ان أيا من الفتيات اختارت اسما مميزا ، والشباب كانوا يتتابعون ملقين اسماءهم الحركية بصوت حماسي ، عال . عز الذين القسام ، ناصر ، فهد ، جيفارا ، كاسترو . كان هو في نهاية الطابور ، فلما تقدم قال بصوته القوي ، الخافت : سعيد مهران ، وفورا ، خطر ببالي سعيد مهران الخارج من السجن ، في رواية نجيب محفوظ التي استعرتها من مكتبة المدرسة . وعمر الذي لم أعرفه لم يلفت نظري بشكل خاص ، كان رفيقا من هؤلاء الرفاق الذين يغيبون فترة ثم يطلون ، ولا يكادون أن يحضروا حتى يغيبوا مرة اخرى .

ولكني عدت ورأيته في بيت ام محمود . ام محمود هي جارتنا في مخيم الحسين ، وابنتها لطيفة صديقتي . سافر ابو محمود الى البرازيل بعد الهجرة ، فلما فتح الله عليه . وازدهرت تجارته ، تزوج واستقر وخلف اولاداً هناك . الشيءالوحيد الذي كان يصل إلى أم محمود منه ، كان حوالة بريدية كل شهرين . ومنذ ذلك الحين وام محمود تعيش وحدها مع الولدين . بعد ظهور المقاومة ، صار بيتها ممتلئاً بالرفاق والرفيقات . أم محمود صارت أما لكل الشباب . يحضرون اليها جائعين ، تعبين ، ومرهقين . وفي بيتها يجدون الاكل ، الماء الدافيء للاستحمام ، وكؤوس الشاي . ينادونها « يمّا »ويروون لها حكاياتهم ، ومشاكلهم مع الاهل أو الصديقات ، ويذهبون . وأنا تعودت أن أمر بلطيفة كل يوم . ندرس سوياً، ونساعد في اعداد الطعام . نعجن الطحين ونبعثه الى الفران ، أو نحفر الكوسا والباذنجان . يوما حضر عمر ، وكان لديها طبخة مفتول . جلس على الارض ، وأكل معنا ، ثم اخبرنا بانهم يسمونه في بلادهم « الكسكسي » . أحضرت له ام محمود مخدة ليسند كوعه ، ودار الحديث عن انواع الطعام في بلاده وبلادنا ، ثم عن الوضع في بلاده . ثم عن التحاقه بالمقاومة بعد ان كان طالبا في قسم العلوم السياسية في جامعة السوربون . وعرفت آنذاك بانه لا يستطيع العودة الى بلاده بسبب نشاط عسكري محظور .

كان ذلك قبل ايلول . قبل ان تبدأ حوادث ايلول بيوم ، ذهبت ولطيفة الى حي المصاروة لنشارك في أعمال الدفاع المدني والاسعاف . كان المصاورة حي الفقراء الذين

يعيشون خلف جبل عمان . عشرون يوما من النيران ، والجروح ، والجيش الاردني لم يستطع احتلال الحي بعد دخوله الى جبل عمان . بعد انتهاء المعارك ، عدت ولطيفة الى مخيم جبل الحسين ، ونحن نرتدي اثوابا فلاحية طويلة كي لا تتعرف علينا حواجزهم . وعدت الى رؤ يته في المرات القلائل التي زار فيها بيت ام محمود . اكتشفت ان فترات غيابه الطويلة كانت مشحونة بالقلق والانتظار . صرت افتقد وجوده الاليف . صرت أشتاق . في المرة الاخيرة ، كان واقفا أمام مجلى البورسلان قرب المدخل . غسل وجهه ، فركضت واحضرت له المنشفة من الحمام . فتح عينيه بعد ان مسح وجهه ، وسالني ان كنت اقبل ان أتزوجه . فوجئت . ليس لانه هو ، ولكن لان اهلي . احترت . ماذا سيقولون . تشجعت ، واخبرتهم . وافقت امي وأبدى ابي تحفظه . أبي تحدث عن الظروف الصعبة في البلد بعد ايلول . وهذا فدائي ومن أين له الاستقرار؟ بعد خروج المقاومة من الاحراش ، بعث عمر برسالة الي من بيروت ، وطلب ان الحق به الى هناك . أمي كانت هي التي وقفت الى جانبي هذه المرة أيضا . حزمت ملابسي القديمة ، والله يا مسهل ، الى بيروت .

(٣)

بيروت ؟ !

جبال طويلة ، عاليه ، ومتعرجة ، تنفرج ، ويبين من خلفها البحر الفسيح منبسطاً ، ولامعاً . ويبدو البحر من بعيد ، وكأنه مساحة أخرى لهذه المدينة : أرضية شاسعة وممتدة تنغرز كسهم داخل الافق المكور . لاول مرة أرى البحر في حياتي . شكله الطريف وهو يلتف حول المدينة يدهشني . تلفنت الى عمر ، حضر الى كاراج السيارات ، واخذني . نزلت مؤقتا في بيت لاصدقائه يسكنون الروشة . لم اكن اتوقع ان تكون المدينة جميلة الى هذا الحد . البحر الازرق والبنايات الشاهقة ، ومقاهي الرصيف المزدحمة بالرواد . نخرج في المساء لنتمشى على الكورنيش الطويل بين مئات المتنزهين ، نشتري ساندويتشات الهمبرغر وبعض البيرة ، ونتوقف قليلا امام صخرة الروشة . أقول له : هذه ليست صخرة واحدة ، انها صخرتان . ترى لماذا يوحي الاسم من بعيد وكانها صخرة واحدة ؟ . يضحك ويقول : هذه الصخرة مشهورة بالانتحار ، والذي يريد ان ينتحر لا يهمه ان كانت صخرة واحدة أم اثنتين . نمشي بين الاضواء الملونة ، والسيارات ، وأنا أبدي له تعجبي من كثرة البشر الذين يخرجون في الليل . أقول له : الذي يشاهد كل اولئك الناس ، يظن ان جميع أهل المدينة تركوا بيوتهم وخرجوا يتفسحون . يجذبني

قربه ، يلف ساعده حول خصري ، ونتابع سيرنا وأنا لا أجروء على ان اقول له باني أخجل من ان يكون قريبا مني الى هذا الحد ، أمام كل هؤلاء الناس . أحس جسدي متلصبا . واحس جسده مرنا ، طيعاً ، يحادث الذين يعرفهم والذين لا يعرفهم ، يمازح الباعة والمستخدمات والجيران ، ويتكلم الفرنسية بطلاقة اذا عرض وحادثه احدهم بها .

في النهار ، يخرجون جميعا وأبقى وحدي . اتناول كتابا وأقرأ منه صفحة أو صفحتين ، ثم اقفز من مكاني ولا أستطيع التركيز . كانت أشياء جديدة ، كثيرة ، تحيطني ، وما كنت بقادرة على التقاطها بعد . أشغل نفسي بنفض الغبار ، او باختراع تنظيفات وأعمال ليست الشقة بحاجة لها . وحين أدور ، وأدور ، ولا اجد شيئا أنجزه ، أذهب الى الشرفة المطلة على البحر ، واستلقي تحت الشمس ، والشمس تكون طرية ، ناعمة في البداية ، تتركز اشعتها على جسمي فأشعر بالحر . أغمض عيني ، ولا أرى الا اللون البرتقالي تحت جفني . في الخارج بحر ازرق من المياه ، وداخل حدقتيّ شاطىء من الرمال .

مضى الاسبوع الاول في احتفالات صغيرة أقمناها في المساء . يحضر العديد من الاصدقاء ، يأتون معهم بالاكل والمشروب ، ونتحلق على الارض في دائرة واسعة ، نتبادل النكات والتعليقات ، وننشد للشيخ امام ، ثم تنتهي السهرة والأوف ، والميجانا ، وما أحلاك يا زهر البنفسج في ربيع بلادنا .

بات علينا ان ننتقل وان نجد بيتا . أصحاب البيوت كانوا عزابّية ، وبقاؤ نا لفترة اطول كان يعني احراجا للجهتين ، لنا ، ولهم . ساعدنا الاصدقاء على استئجار بيت في منطقة المزرعة . أذكر ، الطابق السادس ، وثلاث غرف فارغة ليس فيها سوى فراش النوم الاسفنجي على الارض ، وبضع آنية وطناجر قليلة . في الصباح ، عبق البن الطازج الذي يفوح من ركوة القهوة ، وكاسان من الحليب نتناولهما بديلا عن الافطار ، ثم الحيرة ! . حيرتي ، وحيرته . إفلاسنا ، وعدم امكانية ايجاد وظيفة لي . المائتان والخمسون ليرة ، مخصص عمر ، كنا ندفعها ايجارا للبيت . كنت اساعد بشكل تطوعي في التدريب على دورات الاسعاف ، ولكني كنت في الوقت ذاته بحاجة الى وظيفة تؤمن لي المصروف . ويا الهي ! تكشفت المسألة عن صعوبات وتعقيدات اين منها الوصول الى القمر . فإجازة العمل لا تمنح لأي وافد الا مقابل عشرات الالوف من الليرات ، بل اني سمعت ان بعض ابناء البلد ر يحصلون على أجازة العمل لان جنسيتهم ما زالت قيد الدرس ، كأبناء الهرمل وعكار . والمكاتب الفلسطينية مكتظة بالقادمين اليها من الاردن ، عدا عن أن وظائفها ، بالاصل، قليلة ومحدودة ، وماذا افعل ؟ . . . لا أدري . كان علينا ان نترك البيت ، لانّا

لا نحتمل دفع الايجار . فتشنا الى ان عثرنا على غرفتين صغيرتين بمائة ليرة في الشهر . الشقة الصغيرة على المدخل كانت مخصصة لناطور البناية . في البداية ، قلنا نعم ، ماشي الحال . غرفة ناطور ؟ غرفة ناطور ، هذا لا يهم . ولكن فيما بعد . . . كيف أحكي . دقات العابرين للاستفسار عن شقق للايجار . الزوار السائلون عن سكان الشقق الذين يقصدونهم ، خلال ساعات الليل والنهار . أنابيب التدفئة المركزية التي تملأ سقف البيت وحيطانه مثل الفرن ، وانعدام وجود النوافذ ، عدا باب خلفي صغير يفضي الى منور البناية حيث تتناثر أكوام الزبالة ، واوكار الفئران . كل هذا لا يهم ، المهم هو الايجار الرخيص .

في اليوم الاول ، فرحت . قلت الآن صار عندي بيت ، وابتدأت بحماسة في التنظيف ، والترتيب ونفض الغبار . ولكن في اليوم التالي ، والذي يليه ، وما يليه ، صارت الحياة غير معقولة . العرق يتصبب من أجسادنا ونحن في عز الشتاء . اذا دخنا سيجارتين تصبح الغرفة أشبة بمدخنة أو مشحرة . وفي الليل ، تجثم الرطوبة كالبلاط على صدورنا ، ونستيقظ مهدودي الاجسام ، مفككي الاعضاء . كان علينا ابقاءالمصباح الكهربائي مضاء طيلة الوقت ، وما كان بامكاني التمييز بين الليل والنهار الا اذا خرجت الى مدخل البناية . صرت أكح، وانقلب وجهي أصفر بلون الكمّون . ذهبنا الى الطبيب ، وكانت المفاجأة انه اخبرنا عن بداية الحمل . الشيء الاول الذي فكرت فيه ، هو اني سالد دون ان تكون امي الى جانبي . عمر زقزق ، وابتهج . راحت التكشيرة عن وجهه ، وعاد بشوشاً ، ضاحكاً ، كما كنت أراه قبل خروجنا من عمان . صار يحاول ان يمنعني عن الاجهاد ، ويحرص ان يحمل عني وعاء الغسيل الثقيل . يضع الطعام أمامي ، ويصر على ان آكل اكثر من المعتاد . يبتسم ويقول : انت لست واحداً . انت الآن اثنان .

ولكن ! لست ادري . حدث يوما ان ذهبت الى الحمام ، وكانت الدماء تسيل من بين ساقي . تسيل وتسيل . لم أخبره ، وقلت لنفسي ان المسألة عابرة ولا تلبث ان تتوقف . ثم تفاقم الامر ، واضطررنا للذهاب الى مستشفى الجامعة . لا ادري كيف صار الذي صار ولكني اذكر تماما كيف عدنا الى البيت مخذولين ، ومعنا روشته طويلة بالعلاجات والمقويات . لم تكن المسألة مسألة فقد الطفل وحدها ، وانما فقد الدم ، وحاجتي الى الهواء النظيف . اذكر ؟ كيف لا اذكر ؟ كان قد صار عصبياً ، وقرر بانه علينا الانتقال توّاً ، ودون انتظار لحظة واحدة . ومع هذا ، فخلال الايام التي سبقت عثورنا على بيت جديد، وفي منتصف احدى الليالي ، امتدت قبضات مجهولة الى باب البيت تطرقه بعنف

وصخب ، حمل عمر مسدسه وفتح الباب بغتة كي يفاجىء القادمين . كانوا رجال المخابرات . وهو صارخ قائلا : أعرفكم . ولن اسمح لكم بالدخول . لم يردوا عليه . اقتادوه الى المخفر بحجة ان البيت يستعمل مخزنا للسلاح . اقتحموا البيت ونكشوه شبرا شبرا ، برغم اطلاعهم على الهويات ، وتصريح حمل السلاح الفردي الذي معه .

(٤)

مخيم شاتيلا .

سكنا وسط المخيم قرب مدرسة ابتدائية للبنات . بناية مدرسة الوكالة الصفراء ، المغاسل المصفوصة في الباحة الخارجية ، ورائحة الحليب الذي يشبه الماء ، تعف كثيبة وزنخة قرب مدخلها . سكنا في بناية من ثلاث طوابق ، تقطنها عشرات العائلات ، وفي كل طابق بلكونة هي أشبه بممر طويل ، ينفتح على جميع غرف المكان .

شاتيلا . والناس الذين يصبّحون ويمسّون على بعضهم ، يتخاطبون دون كلفة أو مقدمات . لهجة البلاد ذاتها وكأنهم قد حضروا البارحة الى بيروت ، وترتيب البيوت بشكل مؤقت وكأنهم سوف يغادرون في صبيحة اليوم التالي .

في شاتيلا كان النور والهواء ، ولكن بطن الارض بقي مشقوقا بالاف القنوات . قنوات ينمو على اطرافها الطحلب البني المسودّ ، وتجري فيها بقايا ماء الغسيل ، ومخلفات السكان . نقفز فوقها ، أو نعبر على الواح خشبية وقضبان معدنية حسب طبيعة المكان . بدأت اعرف الناس وآلف وجوههم ، وصرت اذهب مع الجارات الى سوق صبرا نشتري الخضار واغراض البيت ، ونساوم الباعة المتجولين على العربات . يا سلام على الرخص ايام زمان . بعشر ليرات كنت اتسوق حاجات عدة ايام . وبثلاثين كنت أحضر فاكهة وخضارا ولحوما لاسبوع كامل . الآن ماذا تفعل المئة ليرة . الانسان يضحك على نفسه بها ، ولا مين شاف ، ولا مين جاب او دِري .

صار لدي صديقات جديدات . حسنية ، عروس جديدة وتقضي معظم الليل في غسل البنطلونات ، والقصمان، لزوجها المكوجي . أم سليمان ، الضاحكة دوما ، والحاملة في جعبتها العديد من الامثال تستشهد بها في جميع المناسبات . تقوم الخناقات بينها وبين أهل زوجها عدة مرات في اليوم ، لانها اثناء غيابه للعمل في الخليج ، تهمل اولادها الثمانية . تعتمد على ابنتها الكبيرة ذات العشرة أعوام ، وتقضي أوقاتها في اللف والدوران

بين البيوت ، لطق الحنك وتركيب « مقلة » الناس . ام حمدي ، جارتي التي تعيش في الغرفة الملاصقة لنا ، زوجها يعمل سائقا في احدى المنظمات ، وهي منشغلة باولادها الستة ، وعلاج اصغرهم المصاب بشلل الاطفال . ام حمدي ، سمراء وطويلة القامة ، لم يسمعها احد تتذمر أو تشكو ، وكانت تساعدني دائما حتى حين حملت وخلفت توأما . صبي وبنت ، ربى وجهاد . وجنان التي كانت تمر عليّ باستمرار ، طالبة مني مساعدتها في التعريف على نساء البناية من اجل دعوتهن الى ندوة او احتفال ينظمه الاتحاد . أعرفها من زمان ، ولكنّا لا نجد فرصة للقعود والحديث الذي يفش الروح . انا مُشغولة بالطفلين، وهي منشغلة د ائما بمتابعة المهمات .

أيار ۱۹۷۳ ، مدافع الدبابات ورمايات الرشاشات على مخيم شاتيلا . لم تكن هناك ملاجىء في المخيم . والناس طفشت الى صبرا ، يتدارون بمداخل البنايات والمستودعات . في الليل حضر واخذني . السماء نجوم خضراء وحمراء. البرق والرعد حيث لا برق ولا رعد ، بل رماية مدافع ورشاشات . كنا نركض ، ونتعثر ، ونحن نحمل الطفلين وعلب الحليب ، واكياس الملابس والحفاضات . تركني في بيت احد المعارف في الطريق الجديدة ، وراح . وصلت دبابات الجيش الى جوار الكولا ، وبدأوا يقصفون المخيمات بالطائرات . انزويت في ركن مع الطفلين ، والبناية تهتز وكأن الدوي المتعاقب صار زلزالا يخسف السماء والارض . في صبيحة اليوم التالي ، وانا اعطي ربى الحليب ، لحظت شعرة بيضاء في وسط شعرها ، لم اجرؤ على التصديق بان الشيب يغزو شعر الاطفال . هدأت الاوضاع ، وعدنا الى المخيم . تجمعت الجارات كل تروي ما حدث معها ، ولما حملت أم حمدي الطفلين انتبهت الى الشعرة البيضاء في راس ربى . لم تسألني شيئا ،ولكن وجهها تغير ، وانبعث صوت طويل ممطوط لم اقدر في الوهلة الاولى انه سيكون صوتها . أم حمدي دبت الصوت ، ولولت ، وبكت . دهشت الجارات لسماع صوت المرأة الساكنة ابدا . خرج الرجال من ابواب الغرف المتلاصقة بالبيجامات والفانيلات ، وأنا لم اعرف ماذا افعل . تجمد الكلام في سقف حلقي ، وابتلعت دموعي . عانقتها ولم اقدر ان اقول شيئا . وتسابق اولادها لحمل الطفلين ، وكأن ما جرى قد جرى علينا وحدنا .

أيام . . . أيام . قطعها انتقالنا الى الشام بسبب ظروف عمل عمر . مرت الحياة في مخيم اليرموك بطيئة وهادئة ، وسافر خلالها الى الخارج في عدة دورات . الوقت ! لم احس بالوقت هناك ، فقد كان يتكرر بالطريقة ذاتها منذ الصباح والى المساء . كنت منهمكة بالعناية بالاولاد عدا تلك اللحظات القصيرة الغامرة التي يسترجعها الانسان قبل ان

ينام . امي . ابي ، واختي التي سمعت انها تزوجت ولم استطع حضور عرسها بسبب مشاكل المخابرات . الاردن ، وأيام عمان . اذكر دائما ذلك الفدائي الذي ركب معي سيارة أجرة من مخيم جرش الى عمان . اوقفنا حاجز الجيش على مفرق المدينة الرياضية وطلبوا الهويات . اعطيناهم هوياتنا ولكنهم عادوا وامروا الشاب بالنزول للتفتيش . كان يرتدي لباساً مدنياً ، فما عاد احد يظهر بالعسكري بعد ايلول . شاب في حدود العشرين ، قدرت انه منهم حينما ثبت انظاره علي ، وبرقت عيناه ، وهم يطالبونه بالنزول . مد يده اليسرى الى اسفل ظهره ، وانا فهمت الموضوع توا ، همست له : اعطينه . وبسرعة وهدوء انزلقت يده بين سترته وظهر المقعد الجلدي ، واضعا اياه في يدي ، كتلة معدنية باردة سحبتها على الفور . اخفيتها تحت ثيابي ، ثم اسقطتها في حقيبة يدي . فتشوه ؛ ولم يجدوا معه شيئا ، واسترد مسدسه مني قبل ان نصل الى كاراج العبدلي في عمان . إذكرُ تماماً ، بريق عينيه الملحتين بالرجاء . ثم لمحة الامتنان في عينيه السوداوين .

(٥)

ومن جديد عدنا الى هناك .

بيروت . الفاكهاني . اواخر عام ١٩٧٨ ، العجقة والازدحام ، وشعور غريب بالالفة وكأن المكان قطعة من البلاد . النداءات والمخاطبات تتقاطع عبر الشرفات ، وكأن كل شرفة ليست وحدها ، وانما لباقي البيوت . نجلس على شرفتنا عصر كل يوم انا وجنان ، ونسترسل في الكلام ، وكأنّا نعوّض الزمن الذي لم نجد فيه وقتا للتخاطب او الحديث . تنهي عملها ، واجلس معها بعد عودتي من العمل في الطبابة ، وانجازي لبعض مشاغل البيت . آه . . . اخيرا استطعت ايجاد عمل في بيروت . نصنع القهوة في الركوة الكبيرة ، ونحرص على تغطيتها بصحن صغير كي لا تبرد . ونعاود الصب في فناجيننا ونحن نتداول الذكريات والاخبار . يأتي عمر احيانا ، ويشاركنا شرب القهوة والحديث . يتهكم علينا حين نشكو ، ويقول انا نزيدها حبتين . خير ! الدنيا لم تنته بعد . وعليكن ان تكن اكثر شجاعة يا بنات . يلقي باحدى نكاته ، او تعليقاته ، فنضحك ، يكرج الضحك بيننا . نضحك من اعماق القلب .

احيانا ، كانت الاشياءتصير قريبة منا إلى حد الازعاج . عيون الجارات التي تبصبص كي تعرف الزائرين ، تختبر نصاعة الغسيل المنشور على الحبال ، او عدد أصص الفتنة والريحان . واحيانا ، يستنفر الشباب في الليل ، فتعبر الشرفة اصوات الاحاديث وطقطقة السلاح ، وتستقر فوق الاغطية والشراشف التي تغطينا اثناء النوم . اذا تحركت

سيارة مدينة او عسكرية ، فان صرير احتكاك عجلاتها بالارض ، او ازيزها حين تندفع ، يدخل الى غرفتنا توّاً . عبارات التودد او الشتم ، كانت تصل الى بيتنا باسرع مما تصل الى اصحابها ، وانا اقول لا بأس . كل شيء جميل ما دمنا معاً . حين عشت في الشام ، كان الهدوء ، ولكن غيابه كان هناك ايضا . هنا هو معي ، نتآنس ، ونتعاون على حمل مسؤولية الاولاد وقد صاروا اربعة . المرة الاخيرة هو الذي تحمس لها . صار الحمل صدفة ، بالخطأ . لم يشجعني على اجراء عملية اجهاض ، سألني : هل انت ضد الاسرة الكبيرة ؟ احترمت رغبته ، شعرت بمدى حنينه الى أسرته التي لم يرها منذ سنوات طويلة . والطفلة الصغيرة جمانة ايضا ، ملامحها تشبهه بشكل غريب .

بغتة ، مرض عمر ، وتدهورت صحته دفعة واحدة . صار يقضي اوقاتا طويلة في الفراش وهو يكح ويسعل . نقلناه الى المستشفى ، واجرينا له الفحوصات ، كان هناك شك بوجود شيء في القلب ، لم يستطع ان يحدده الاطباء ، فنصحونا بسفره الى الخارج للعلاج . وهيك ، سافر عمر .

عمر II

(١)

في الايام الاولى من سفري ، بدأت اذكرها تماما كما بدت في لحظة وداعنا الاخيرة : مرتبكة ، ضاحكة ، وضحكتها اشبه ما تكون بالبكاء . سريعة وعجولة مثل غرغرات المياه في ينبوع جبلي . مددت يدي الى وجهها . وجذبت ذقنها الى الامام كي اطبع قبلة على جبينها . ولكنها قالت : لحظة . . . انتظر . ذهبت لثانية أو ثانيتين الى الداخل كما في العادة ، كما لو انني لن اسافر الآن في هذه اللحظة ، وتعالى بكاء الطفلة الرضيعة بين يديها . اتاني الرفاق ، وطلبوا مني الاسراع في تهيئة نفسي لان السيارة تنتظرني على زاوية الشارع . ها . . . ابواقها تجتاز الدكاكين المحاذية ، عابرة الفيراندا الصغيرة ، مذكرة اياي بأن السفر واقف على الرصيف ينتظرني . أتت ، اخذت جمانه الصغيرة منها ، حضنتها وقبلت الاولاد الى ان اجتذبني أبو انطوان . قال : اسرع ، نحن نريدك ان تشفى وان تعود . هناك . السيارة تنتظر . السيارة هي التي تنتظره ولست انا الذي انتظرها ، واتوقع ظلا لابتسامتها . لوحت سعاد بيديها من الفراندا ، رأيت شكلها

الوديع بالمنديل الابيض الذي لمت به خصلات شعرها . اطراف ثوبها المنزلي الذي يهبط وراء سياج الفيراندا . السجائر . . . صرخت باعلى صوتها دون ان تنتبه للاستغراب الذي بدأ على وجه ابي محمود الدكنجي ، وهو يرفع رأسه اليها : شارباه اختلجا حين انتبه الى ان نداءها لم يكن موجها اليه هذه المرة . السجائر . قالت . لا تنسَ .

وانا مشيت بي السيارة ، لم انسَ . اكرر رؤيتي لها ، وكأنها المرة الاولى التي اسافر فيها . ياما سافرت ولم يوجعني قلبي كما الآن .

كانت ترتدي العباءة النبيذية وهي تناديني ، تبتسم ، وتناديني ، تجلس على كرسي القش ، وظهرها الى المكتبة المصنوعة من الواح الخشب والطوب القرميدي متاهبة لالتقاط الصورة . تقفز بحركة فجائية مباغته ، تقول : انتظر . . لحظة .

لحظة . . . جرس الباب . . إناء الجيران .

لحظة ، وانتظرها الى ان تعود. اتسلى بالنظر الى الاشياء الموضوعة على رفوف المكتبة . اصوب العدسة تجاه التحف التي تغريني بتأملها عادة . ارقب الاشياء دون ان اتك زر الآلة . دمى يابانية مشكوكة الشعر بالسنانير الرفيعة ، تحبها جمانة وتناغيها كانها بشر حقيقيون . نسر خشبي من القوقاز ، حملته معي يوما عندما انهيت الدورة التدريبية . آلهة افريقية مصنوعة من عيدان القش المتصلبة ، مزدانة بالخرز الاحمر ، والعقود الملونة من الحرفيات الكوبية . القطة البورسلان الصيني منحنية على الاناء كي تشرب الحليب ، كتب بالعربية والفرنسية ، وتمثال لينين الفولاذي النصفي .

أنظر ، وانتظرها .

تأتي بعد حين ، وهي تجرجر اطراف عباءتها النبيذية المطرزة بتوشيحات ذهبية . تبتسم ، وتعاود جلستها لالتقاط الصورة . هذه المرة ، ادخلها الى الصورة . أنسى الاشياء التي تحيطها ، وادخل منجذبا ببريق غامض الى ظل ابتسامتها . جذل وشوق مكنون الى الحياة على طرفي غمازتيها ، واكتشف الوجه مرة اخرى داخل الخطين المتقاطعين على العدسة المستديرة . بشرة حنطية وعينان سوداوان تشعان جاذبية ساعة تجتاز إبتسامتها الخط الفاصل بين شفتيها . امرأة تعيش معي منذ سنوات ، وانا احس الآن كمن يكتشف

للمرة الاولى ، بان هذه المرأة امرأة ، قبل ان تكون زوجة . وان المرأة معجونة بطين الحياة ، بالطريقة نفسها التي تنغمر بها البذور داخل تراب الارض في الربيع . ميول

شاعرية ؟ ربما . وانا الذي لا اعرف كيف تحدث الاشياء منذ اللحظة التي بدأ الاطباء فيها باكتشاف المرض . انغرس دبوس رفيع داخل ذراعي ، فاصابني الاعياء ، وازدادت عضلات الكتف تشنجا . وما بدا امامي واضحاً ، غاية في الوضوح ، هو ظل ابتسامتها الذي بقي على وجهها ، بعد ان كفت عن الابتسام ، واسترد وجهها تعبيره الجدي بعد التقاط الصورة .
على الباب وقفنا . امام الفسحة المربعة بين الادراج ، واقدام العابرين لاتكف لحظة عن الصعود والهبوط . وأصوات اولاد الجيران تتداخل بيننا ، وهم يشتبكون في عراك على المدخل . كانت حريصة على ان تشعرني بان الامور تسير سيرها العادي ، كما لو انني ذاهب الى مناوبتي الليلية . كأنها تريد ان تطمئنني أمام سفري السريع في بعثة علاجية . سفر مفزع لانه سريع ، ومفاجيء لمن لم يتعود المرض طيلة عمره . مرتبكة وعجولة اقتربت مني ، اردات ان تطوقني ثم خجلت من الناس ، واطلقكت ضحكة سريعة مثل غرغرات المياه في ينبوع يختفي فجأة كما انبثق . ضحكة اشبه ببكاء من نوع خاص .

السجائر . قالت . لا تنسَ .

هي تريدني ان لا ادخن ، وانا اهرس عقب السيجارة في الشق المربع الصغير المعد لاطفاء السجائر بين مقاعد الطائرة . اتأمل الستارة الفاصلة بين المقاعد وغرفة القيادة يكورها الهواء في المنتصف ، ويدفعها صوبنا اثناء حركة الصعود المائلة المتجهة الى اعلى . «No smking » ، تطفأ اللائحة الزجاجية ويسمحون لنا الآن بأن ندخن ، وندخن الى ما لا نهاية ، أو الى ما قبل هبوطنا بدقائق قليلة . انظر الى رأس جاري المنحني الى الخلف ، مرتكزاً على مسند المقعد ، واتلمس الكاميرا بيدي كي لا تقع من حضني دون أن أنتبه . هؤلاء النساء ماذا يفهمن من الحياة ؟ دائما يقلن لك : انتبه ، لحظة او لحظتين . لا تدخن . لا تشرب . وقائمة طويلة من الممنوعات العجيبة ، الغريبة . تحضرني النكتة اياها ، فأضحك بيني وبين نفسي ، الا ان بقية الضحكة تفلت بصوت مسموع رغما عني . ينتفض جاري الذاهب في بعثة دراسية الى الخارج ، يسألني : ها ، ما القضية ؟ في المسألة إحراج إذاً ، وعلي ان أشرح له . أخبره النكتة وانا ابتلع بقية الضحكة بين اسناني ، وبين طرف السيجارة الجديدة التي أشعلتها . الرجل ذهب الى الحزب وقال بانه يريد أن يصير عضواً مخلصاً . قبله الرفاق وطلبوا منه الالتزام بشروطهم . لا تدخن . الرجل قال : نعم . والمشروب ، لا . الرجل قال : ماشي الحال . واياك ان تلاحق النساء . انحنى الرجل وقال : بالطبع . سألوه : وتضحي بحياتك عند الضرورة

دون مراجعة أو سؤال . فأنفجر الرجل قائلا : فورا ، وبالتأكيد ، فماذا بقي لي منها بعد الآن ؟كه .كه .كه . ضحك الطالب ، فبانت سنه الذهبية في مقدمة فمه . ضحك ، وعاد الى النوم مرتاحا .

نام وتركني مع عجيج آلات الطائرة ، ودخانها الاسود المتطاير من فتحات أجنحتها في حلقات . بعد قليل أو كثير نصل الى العلاج . الحلقة الاخيرة من المسلسل الذي ابتدأ بنخزة حادة في القلب ، ووصل الى أسرة المستشفيات البيضاء كما يقولون . لونها ليس أبيض بالطبع ، وهذا ما لا يعرفه الا المرضى الذين يمكثون داخلها ، اما الآخرون فيرونها دائماً بيضاء بيضاء . احاول تخيل المستشفى كما وصفه لي احد الرفاق الذين عولجوا فيه . عجائز ، عجائز ، عجائز ، الى نهايةالكون يا عزيزي . هكذا كان يخبرني وهو يعصر صفحات الجريدة اليومية بين يديه المعروقتين . قال لي ان منظر العجائز بجلودهن المتهدلة ، شعورهن الرمادية ، واسنانهن المخلعة في المصح ، أورثه بغضا أبديا تجاه الجنس الى فترة لا يدريها . يقول : تخيل ، يركبن البسكليتات الطبية ، ويحركن سيقانهن الممصوصة بنشاط وحمية سوف تحسدهن عليها . فإلى المصح ، الى المصح ، الى نهاية الكون اذاً .

(٢)

شكل المصح من الخارج مثل النجمة السباعية ، ومن الداخل مثل بناية عسكرية مجهزة بما يصلح لأي شيء عدا الراحة . خطر لي ان المستشفى ، أي مستشفى ، يشابه السجن دائماً . الغرف المتشابهة والالآت والاجهزة ، ربما ، رغم ان الهدف مختلف في النهاية . حجز الحرية ، ربما ايضا . ولكني اشعر ان الشبه في الرائحة هو الاشد صدقاً ، والاكثر حضوراً في الحالتين . المستشفى يفوح برائحة البنج ، والقطن ، والادوية المطهرة ، والسجون تعبق بالرطوبة والعطانة ، وتلك الامواج الهوائية الملبدة بأبخرة دورات المياه الكبريتية المركزة . وكلاهما ، المستشفى أو السجن ، يسببان لك صدمة عند دخوله ، وفرحة عند الخروج منه . الدخول ، ثم الانتظار البطيء ساعة بساعة ، ويوماً بيوم . ودفعة واحدة ، تنفتح البوابة عن احتمالين لا ثالث لهما : الموت أو الحياة . قمحة او شعيرة كما تقول امي ، وصبي او بنت كما تقول الزوجة . عندما اذكرها يصيبني ما يشبه الارتعاشة في قلبي ، يرف مثل الفراشة في أعلى الصدر ، يوشك على الطيران ثم يهوي فجأة الى القعر حجر ثقيل . القلق ! اتجول بين الممرات وغرف الاشعة ، والفحوصات ، ثم تزداد سرعة تجوالي بينها حينما ترتفع حرارتي ، وتستمر في الارتفاع ، وكأن لا شيء

يوقفها ابدا . تتغير الفحوصات من عادية وروتينية الى فحوصات طارئة ومعقدة . الالم يسري في انحاء جسمي . الوجع ، رغما عني . الوجوه الباهتة ، باهتة حولي ، وأنا لا اذكر سوى اصدقائي . جمال وزهدي ، ابو انطوان وحامد وفرانسواز . لا اذكر تفاصيلهم ، واراهم خلف ذاكرتي وانا اتقلب على الجمر في فراشي .

الحمى ! والطبيبة التي تشرف على احوالي . أكرهها . لا اطيقها . ولا اعرف كيف . منذ البداية تضايقت من صوتها الآمر وهي تحادث الممرضات ، غطرستها مع المرضى وهي تنتقل بين الاسرة . والآن ، وقد نقلوني الى غرفة الانعاش ، صارت هي المشرفة على مراقبتي . وانا مسجّى في غليان الحمى أكرهها . اراها رداء ابيض لا يختلف عن بقية الممرضات الا بطول قامته ، وعبوس وجهه .

الحرارة ترتفع ، لا أعود أميز شيئا . الكتلة الثقيلة التي هي انا ، تنفصل عني . الغيبوبة ، والظمأ مثل شوك في جوفي . ولا يعود ثمة وقت ، عدا نقاط المصل البيضاء المحها بين الحين والاخر تنسكب في عروقي . الظمأ . الحرارة . الغيبوبة . لا . ظننت انني صرخت ، فتحت جفني الممتلئين رملاً ، وجدتها واقفة قبالتي . كانت تصرخ على الممرضة الجالسة على الكرسي بجانبي .لا . قالتها عدة مرات بلغتها . خرجت الممرضة ، وبقيت هي بقربي ، إنتبهت اليّ ، فوجئت ، ثم هزت رأسها آسفة . كلمتني بالفرنسية وقالت بانها طردتها لانها أغفت عدة مرات اثناء المراقبة الدقيقة لحالتي . انمحت الاشياء مرة اخرى . وتلبدت غيوم كثيفة فوقي . أنا ، أين ؟

في صبيحة يوم لم اعد اذكره ، انقشعت الغمامة الداكنة . استيقظت . كانت واقفة حدي . هذا جيد قالت . خفت الحرارة ، بدأت تتعافى . ساعدتني على القيام من الفراش والوصول الى النافذة . العالم يتلفع بلحاف أبيض من الثلج في الخارج ، وأنا أشكرها بعبارة قصيرة رغم انهاكي . خيط ضئيل من القوة ينمو في اعضائي المتراخية ، وجسدي المفكك . تقول بانها ليست في حاجة الى شكري ، فهذا واجبها على اية حال ، وتبدأ عبارات التخاطب القليلة بيننا .

يخرجونني من غرفة الانعاش ، ويعيدونني الى غرفتي . وهي تزورني كل يوم وتطمئن على احوالي . تطلع على الكشوفات الطبية ، وتأخذني من يدي الى قسم العلاج الطبيعي . تقول ان الادوية وحدها لا تكفي ، تحرص على ان اتابع علاجاتي . تعلمني بنتيجة الفحوصات . تخبرني ان الجرثومة التي اكتشفها المختبر غير معروفة في بلادهم .

لا . لست مريضا بالقلب . وانما جرثومة من نوع جديد تفتك بخلايا الرئتين ، وتدمرها بالتآكل . لا السل . ولا السرطان . والجرثومة لم نعرفها سابقا لدينا . أخبرها نكتتي ، انا من الشرق الاوسط وهذا يفسر المسألة . تضحك ، وتحكي . يمتد الكلام ما بيننا ، ونحكي . بدات اعتاد عليها ، ألفة من نوع خاص صارت تنمو بيننا . ولكنك ستشفى . أمتليء بفرح شفاف لا يعرفه الا الذين تعاودهم العافية ، بعد أن يوشك المرضى على تحطيم اجسادهم الى نتف لا متناهية . ستشفى ، تقول لويز ، وتعزمني على العشاء في نهاية الاسبوع ، في مطعم قريب من المستشفى .

الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى ، شعرت تماما بهذا ، وأنا أتأهب لان اخرج عدة ساعات بعد ان قضيت اربعين يوماًمتواصلاً في المستشفى .

هبطت السلم الكبير المفضي الى الخارج ، وانا أفكر فيها . كنت قد حدثتها عن حياتي ، عن زوجتي والاولاد ، وعن طبيعة عملي . لم تكن لتسأم ، كانت ترغب في الاستزادة ، تقول :حدثني . واسترسل في الحديث الذي يعيد لي الوجوه والملامح التي أحبها . الاصدقاء ، وحكايات الاولاد ، والاخبار التي تبعثها لي سعاد . انغمر في دفء الحنين الى جميع الاشياء التي اشتاق اليها . في الفترة الاخيرة ، بدأت احس ان الراحة التي تغمرني حين أتكلم معها لا تنبع فقط من مواضيع الحديث ، أو اشواق الغربة وحدها ، كانت هي . دفء صداقتها . كانت لويز ايضا . وهي تردد امامي دائما : كثيرون من الناس يكونون ثواراً في البداية ، ثم يسأمون ويحسون بصعوبة الاستمرار . أنت مختلف عنهم . ما زلت تحتفظ بالعين التي ترى الاشياء جديدة ونضرة لم تفقد بريقها .

انتظرتني في الفناء المغطى بالثلج ، وهناك رأيتها . كانت ترتدي معطفاً من الفرو ، وتفلت شعرها الناعم الذي كان مربوطاً دائماً الى الخلف على كتفيها . خدّاها كانا بلون الورد ، والتماعة عينيها البنفسجيتين تبرق نجوماً في نظراتها . يا إلهي ، هل يمكن هذا ؟ . الطبيبة الصديقة صارت صبية غجرية فاتنة . تقف بين اشياء الطبيعة غزالة سارحة بين الاشجار والثلوج . الرقة تحيطها ، والابتسامة على شفتيها . تمد يدها ، تشبكها بذراعي . ونسير ونحن نتحدث كأي صديقين قديمين منذ الطفولة . ولكن ! اقسم اني كنت أراها للوهلة الاولى . ربما لو لم أرها هناك ، في تلك اللحظة ، لما أحببتها بعد ذلك .

ونعادو الخروج سوياً ، وينقلب التعلق الى عشق من نوع غريب ، غرابة الصداقة الحميمة التي ربطت بيننا . يتوقف الزمن . ويتراجع المرض ، وتفسح كل الاشياء أماكنها

لكي نبقى معا طيلة الوقت . تنهي عملها ، وتهرع إليّ . نجلس ، ونروي أتفه الاشياء أو أهمها ، بالحماسة ذاتها التي يسترد بها الانسان عمراً مضى ، دون أن يعرف بان العجائب ما زالت تحدث في هذا العالم . في الصباح أستيقظ . الفكرة الاولى تلتمع مثل السهم أمامي . كيف ؟ كيف اني أحببتها الى هذا الحد ، الى هذه الدرجة . لم اتساءل ابداً لماذا . الحب هو الشيءالاخير في العالم الذي يجعلك تسأل لماذا . مرة ذهبنا الى مطعم في وسط المدينة . سهرنا على اضواء الشموع الذائبة مع فرحة عرس كان يقام صدفة هناك ، في تلك الليلة . عبارات الابتهاج . تصفيق الناس مع ايقاع الموسيقى . عناق العروسين . العروس المضيئة بالابيض والزهري . وهي معي . لويزا . كان ذلك اشبه بالحلم الذي يراه الانسان وهو مفتوح العينين ، مع الفارق بان حدقتيٍّ مفتوحتان على سعتيهما . كنت اعرف تماماً أين أنا ، وأن هذا كله سوف يمضي فجأة كما ابتدأ . أيام وأعود ، وكأني لم ألتق بها ، لم أحبها ، ولم اعرفها في حياتي سابقاً .

لويزا ، ثلاثون عاما . بشرة الثلج وشفاه النبيذ . الشعر والموسيقى ، وأنامل الغجر التي تلمس الاوتار فتحيلها الى نيران مشتعلة . لويزا ، واليوم الذي لن يمضي الا حين أكمل علاجي . أذهب معها الى حفلات اصدقائها ، أزور بيتها واتعرف الى امها وابيها . نسمع موسيقى قرب مدفأة من الجمر ، حيث الثلوج في الخارج تغمر العالم . نستعيد ألحان « تيودراكيس » واغنيات « جاك بريل » ، وتجعلني أتعرف على عزف « زامفير » المذهل . لا أصدق بان آلة تشبة الناي تستطيع أن تطلق كل هذه الاحزان ، العزلة ، وطوفان الفرح الوحشي دفعة واحدة . تشرح لي عنها ، وتقول بان الموسيقى تعكس الطبيعة في بلادها ، بل انها لكذلك . قبل ان اعرف لويزا لم اكن اكترث بأن اعرف أي شيء عن البلد الذي أزوره . كنت كمن يذهب في مهمة عسكرية ، يستطلع ما يناسب مهمته ويكتفي ، وأنا كانت مهمتي ان اتعالج ، ثم امشي . أما الان ، فانا ابدأ في التعرف الى الطرقات ، المآكل ، المقاهي ، الناس الذين ألتقي بهم . حتى الاضواء والظلال صارت تستلفت انتباهي . أحدثها عن أدق تفاصيل الحياة عندنا ، تحفظ اسماء عائلتي واصدقائنا ، وتلم بالاوضاع السياسية لدينا . وتسألني أن أترجم لها الرسائل التي تأتيني وكانها احد افراد بيتنا .

لويزا . الزمن الذي لا يكتئب ، الا انه يمضي . هكذا صارت الايام الباقية معدودة ، وصارت لويزا تتجنب النظر الى عيني . فاذا فاجأتها وهي تتهرب بنظراتها مني ، تغير لون عينيها البنفسجيتين ، غائصاً في العتمة ، وجللته نداوة داكنة متحولا الى غروب

شفق وحيد في المساء الذاهب . اسألها ما بها ، فتتهرب من الحديث ، وتحكي عن أي شيء ، عدا الشيء الذي أتوقعه منها . تصطحبني الى الدكاكين ، وتشير بيديها فرحة بحذاء لابنتي ، أو معطف لابني . وتتنقل بين عدة محلات كي تنتقي الشال الاجمل لزوجتي . هذا ، وذاك . والمطرزات المنمنمة الاكثر رقة وحلاوة لبيتي . والجاكيت الجلدي الاكثر انسجاما كي يناسبني ، ثم تأخذني الى محل للزهور تفتش فيه عن أزهار برية صغيرة ، الوانها البرتقالية والمحمرة تومض عبر ورق السوليفان اللامع الذي يغلفها ،وتخبرني : هذه لن تذبل اذا اخذتها معك . انها طبيعية تماماً ، ورغم هذا فهي لا تذبل أبدا . تأخذ أجازة لعدة أيام ، وتدور مثل نحلة من الصباح الى المساء . منقبة عن الاماكن التي لم ازرها . مشاهد الطبيعة او المتاحف التي لم اعرفها سابقا ، ومفتشة عن المزيد من الهدايا كي تبعثها معي . وأنا اقول لها : لويزا ، هذا يكفي ، لماذا . وهي تسكتني باشارة وديعة من يديها ، وكأنها لا تودّ أن تستدعي حديث الغياب خوف ان ينكسر بالون الاحلام الذي مكثنا بداخله طويلا .

لويزا . الواقع والحلم ، وهل يمكن ؟. تنغمس معي في تصورات بهيجة حول استقبالهم لي ، وفرحتهم برجوعي . سيعرفون انني تعافيت تماماً . الجرثومة قاتلة ، وأنا شفيت رغم ان المرض كان صعباً . ولا تحكي عن نفسها ، كأنها ستختفي تواً ، فور أن اغادر ، متحولة الى نقطة ماء صغيرة تنسرب في احدى زوايا الكون ، تبتلعها احدى شقوق الارض وكأنها لم توجد ابداً . فليكن هذا اذاً . ولكن الى متى يا لويزا ؟

الليلة الاخيرة اخترنا ان نقضيها خارج المستشفى . نُزْل بعيد يرقد داخل الثلوج مثل خشبة منسية على حافة غابة . ونحن نتعشى في المطعم الذي بني على هيئة كوخ للصيد في الايام البدائية . اقترب عازف الكمان منا . تصاعدت خفقات اوتاره قرب وجهينا . كان يعزف الرابسودي التي اعتاد عزفها للعاشقين في هنغاريا ، وأنا ؟ سقطت عيناي عن وجهي ، وتعلقتا على وتر القوس الذي يرتجف بالموسيقى لانه ما عاد يمتلك دموعا منذ زمن طويل . ولكنها بكت بدلا عني . تساقطت دموعها في الغرفة الصغيرة التي يحلم أي عاشقين بأن يَجدا نفسيهما فيها يوما . وانا لا اعرف ماذا افعل ؟ وأي وداع هازىء سوف يتم لو بكيت مثلها . كانت تحاول ان تعتذر عن بكائها . تتمتم ، وتقول بانها سوف تلحقني الى نهاية العالم .

(٢)

كأني قادم من عالم آخر . أضبط ساعتي على التوقيت المحلي فور هبوطي من الطائرة . ومن ضجيج المطار ، وتجمع الحمالين في توسل محموم حول الشنطة التي

احملها ، ومن تكاثر الاولاد الذين يبيعون العلكة ، أو يستجدون مباشرة حول السيارات المصفوفة في الباحة الخارجية ، اتنقل الى عالم آخر مختلف تماما .

على الطريق انتبه الى البنايات القديمة ، الحائلة اللون ، وكاني أراها للمرة الاولى . لا اعرف لماذا يفكر المرء وهو في الخارج بأن بيروت هي المكان الاجمل في العالم ، مع انها ليست كذلك . البثور ازدادت على وجهها ، بثور القصف على المباني ، بثور اكوام الزبالة على جوانب الشوارع ، بثور اكتظاظ البشر والسيارات ، بعضها فوق بعض ، بعد ان قلصت الحرب مساحاتها . وقبل ان ندخل المنطقة يمر الطريق على مقبرة الشهداء . شواهد رخامية بيضاء ، اكاليل من الزهر والورد الناشف ، وبشر يرقدون بوداعة على مدخل المدينة . كلما مررت قربهم تهيأ لي بأنهم يحتجون دون كلام . لماذا ؟ لماذا يموتون وهم ما زالوا يرغبون في الحياة ؟ . أف . أنا لا أحب ان استرسل في هذه التصورات . في القاهرة ، يمر المرء على مدينة هائلة تعج بالبشر والناس بعد ان يخرج من المطار ، اسمها « القرافة » ، ولا يلبث ان يكتشف فيما بعد انها مجرد مقبرة يكسن البشر داخلها . في القاهرة ، يلجا الاحياء الى مقابر الاموات من اجل استمرار الحياة ، وهنا يتكيء الاموات على الارض المفروشة بالاعشاب الجافة كي لا يحدث ما يجعلهم يموتون مرة اخرى .

منطقتنا . الفاكهاني . أخيرا ، أشاهدهم ، وكأني غبت عنهم سنوات طويلة . كلما سألت عن جمال تغير سعاد الموضوع ، وتطرق مواضيع اخرى . متى سيمر علينا ؟ كيف هو ؟ وتتحدث سعاد عن أشياء كثيرة ، ولا تحكي عنه شيئاً . لكن الاصدقاء عادوا واخبروني . جمال استشهد ، الم تعلم ؟ . وكيف اعلم وانا هناك ؟ . إذاً فهذه هي الفجيعة التي تحاول اخفاءها عني كي لا اصدم منذ وصولي ، جمال صديقي استشهد في الجنوب . كيف ؟ انفجر لغم اثناء عملية استطلاع ، وتهشم جزؤه السفلي . رقد على الارض وسط دمائه النازفة ، ولم يقبل أن يسحبه الرفاق ، صرخ بهم وقال بانه يعرف انه لا فائدة ، وانه سيموت بعد لحظات . طلب منهم ان ينسحبوا بعد ان فتحت نيران العدو الغزيرة عليهم . وعندما استطاعوا الوصول اليه ، كان الامر قد انقضى . جمال ، الشاب الذي لم يكمل الخامسة والعشرين ، لم يعد هنا . كنت أعرفه ، كنت احبه ، ولكني لم اتوقع ان يمضي بهذه السرعة . بل . . . ربما انني لم اكن اتوقع ان يحتفظ بكل هذه الشجاعة في لحظات رحيله الاخيرة . وسمعت أيضا عن الرفاق الذين غادروا الى بلاد اكثر أمنا بعد ان قدموا تنازلاتهم . استشهاد جمال لم يفاجئني . الذين تنازلوا وغادروا هم

الذين يفاجئونني . والحياة تمضي ، ما الذي نملكه ، اذا قدمنا التنازلات والانحناءات ؟

أعود الى حياتي العادية . لا . كفت حياتي عن ان تكون عادية بعد ان تحول عملي الى فرع اداري . ما أقذر التقرير الطبي الذي اعلن بان حياتي يجب ان تكون مريحة منذ الآن . قد لا أقبله ، ولكن عليَّ ان اتكيف مع هذا الوضع رغما عني ، وفكرة التكيف هذه هي التي ترهقني . كلما احسست بالارهاق خطر ببالي . لويزا . أنت سوف تشفى . وافرح من الداخل كما لو اني اطير على رفة جناح فراشة . لا أحاول ان أنساها . ماذا يحدث لنا اذا نسينا أحباءنا ؟ أحكي عنها لسعاد وجنان ، أحس ان الحديث يطفيء شوقي لها . لم أعتد على هذا النوع من الشوق ، ومع هذا ، فعلي ان اعترف بأنه كان شوقاً جنونياً بالتأكيد . أشاهدها في كل مكان ، تمتد يدها وتشير صوب شيء ما ، وعلى وجهها تلك الابتسامة الاخاذة . تصلني رسائلها ، واكتب لها بأن لا تعاود ذكر مسألة زيارتها الى هنا ، هذا شيء مستحيل ، وسيظل مستحيلاً حتى نهاية العالم .

حينما نكون ثلاثتنا ، انا وسعاد وجنان ، نتمازح حول الموضوع ، وحين انفرد بسعاد تبكي امامي وتقول بانها لم تعتد هذا الاهتمام الغريب بأحد غيرها . أضمها الي ، اقول : لماذا تخافين ؟ أنت تعرفين ان المسألة لا تعني لدي شيئاً . اطمئنها ، واخاف من نفسي ، ومن هذا الشوق الجنوني ، برغم اني اعلم تماماً بأن المسألة قد انتهت دفعة واحدة ، والى الابد .

في احدى الليالي ، جفلت سعاد اثناء نومها ، صحت وهي ترتعش من قمة رأسها الى إخمص قدميها . حاولت ان اهدئها . سألتها المنام ، تركْتني ،طِرتَ من النافذة وبقيتُ وحدي . حضنتها ، ولاذت بقربي كالطفل الخائف . حاولت ان اهدئها . اذا كان الامر يتعلق بلويزا فاني أحلف لك بأن المسألة لا تعني لدي شيئاً . أومات لي براسها مصفرة الوجة وهي تقول : لا . بل انني اخاف الشيء الآخر .

كنت مرهقاً وتعباً ، وما كان بامكاني التفكير في هواجسها . غمرتها بذراعي . وسألتها ان تنام .

III جنان

(١)

الصباح . صباح هذه المنطقة التي تمتليء بعجقة السير ، أقدام المشاة ، والبسطات

الصغيرة على الجانبين . رائحة الشمس القوية . أشجار الكينا المعمرة في الملعب البلدي . أخرج من باب الجامعة . نتف الاحاديث المتناثرة على الرصيف تتقاطع مع اصوات المغنين المنطلقة من عربات الكاسيت المتجولة . وضجيج آلات مصلحي الطرق في مكان قريب . على الارض بقع من الرمل الاصفر ، جرفها الهواء وأحذية المارة ، من أكياس المتاريس التي حُصِّنَتْ بها مداخل البنايات والمحلات ، ايام القصف الانعزالي في نيسان وأيار . البارحة ، أشَّرت سعاد بيدها من البلكون . كلهم شالوا الاكياس ، حتى جارنا مصطفى الكوافير . يا اختي ، شيء لا يصدق . منذ السابعة صباحا ، افتح عيني ، وأشاهد طابوراً من الصبايا أمام محله .

المجلات والجرائد منشورة على الرصيف ، افتح عيني لا أتوقف لاقرأ عناوينها . سأطلع عليها في المكتب بعد ساعتين . قراءة العناوين وحدها دون التفاصيل ، تبث فيَّ رعباً غامضاً . هناك أقراها بشكل اعتيادي ، ولا اكون وحدي ، فلماذا تسميم البدن منذ الصباح الباكر ؟ الزنجي المسن الذي يبيع الفستق على اناء يتصاعد من منتصفة الدخان . ثياب الموسم الجديد في واجهات المحلات ، والخضار والفاكهة في الصناديق أمام الباعة . الساحوري . باذنجان بنفسجي صغير مخطط بالابيض ، يسمونه نسبة الى « بيت ساحور » ، لم اشاهده قبلاً هنا . أمي كانت تنتظر نزوله في الصيف باحتفاء خاص ، تصنع مأكولات معينة لا اذكر اسماءها ، ولم اذقها منذ خروجنا من الضفة . اشتري منه ، ولا اعرف ماذا سافعل به . أحمل الكيس الورقي الخشن فيوقظ الملمس المألوف باطن كفي ، واذكر نزولي بالباص من« ابو ديس » الى « سوق باب خان الزيت » في القدس . أتسوق لأمي حاجياتها من تحت القناطر المظللة . أفاصل الباعة فيخفضون السعر ويقولون : كرمالك يا شاطرة ، كم تريدين ؟ . . . أحمل كيساً صغيراً لا يلبث ان ينتفخ بالاغراض ، والحاجيات ، وأبدأ في عد القروش المتبقية ، وان كانت تكفي لشراء مجلة سمير ودفع اتذكرة الباص . مرة ، لخبطت الحساب ، جلست في الباص وبيدي المجلة ، ثم قلبت جيوبي ووجدتها فارغة . أحسست رعباً شديداً وانا أنظر الى وجوه الناس حولي . رأيت بنتا صغيرة تجلس وحدها . ذهبت اليها وطلبت منها قرشا . أعطتني القرش وقعدت بجانبي . وظللنا نحكي طيلة الوقت ونحن نتفرج على مغامرات سمير وتهته .

الكيس الورقي بيدي . الدوار الضيق الذي تتوقف عنده سيارات السرفيس لتنزل ركابها ، وتحمل آخرين . يقف شرطي السير في المنتصف ، مرتديا خوذة عسكرية ، ونظارات داكنة تعكس عدساتها الخارجية البشر والسيارات باشكال مصغرة . يشنشل نفسه

بالعديد من الاشياء المتدلية من حزامه . عصا ، كلبشات ، مسدس ، بضعة قنابل ، وجهاز ارسال . اذكر تعليق عمر على مظهره . هل سيذهب في التو إلى ساحة المعركة ؟ ويتساءل ضاحكا : أيه معركة يا اختي ، وهل السير في بيروت مشكلة أم معركة ؟ . أقف عند محطة البنزين وأتردد . هل أمر لاحضر الرسالة التي حملتها سلوى من عمان . رسالة من شهد مع « فريكية » و « مرمية » . الميرمية يعني ستنا مريم ، كانت تخبرني سليمة الحاجة . يعني ، لما هربت ستنا مريم الى الجبال ، كانت تلتقط أعشابها وتمسح بها عرق التعب والركض عن وجهها . الرسالة . أمر على سلوى الآن وأحضرها ، فهذا أفضل . البارحة ونحن نجلس على الشرفة في بيت سعاد ، اخبرتنا . اخيراً ، استطعنا تدبير الامور بحيث حضرنا الى هنا . الخليج ، والوظيفة منذ سنوات ، ثم الاستقالة هناك لم احس بان الناس ينتظرون سوى زيادة الراتب ، وأجازة نهاية السنة . الله وكيلك . كل الذي جرى وما زال في الخارج « فلسطينية » يتذمرون من قرار التعبئة العامة .

علقت سعاد ، العتب على النظر . هؤلاء الذين امنوا انفسهم واستقروا ، سوف يركضون قبلنا الى فلسطين عندما تتحرر .

وتبدأ سعاد حديثها حول البيوت التي سكنتها منذ خروجها من الاردن . ويا دلّي ، ما أصعب الشمشطة والتنقل . تحكي ، فاذكر حديث امي عن التشرد والشحشطة . كأن الهدوء والاستقرار حلم ، ومنذ ازمان طويلة ، لم اعد أذكرها . احكي لهما ، اقول . كان عمري سنتان ، ثلاثة ، اربعة . وانا لا اعرف وجه ابي المحبوس في الجفر . اقول لصورته في الصباح : صباح الخير . وقبل ان انام ، ابعث له بيدي قبلة : تصبح على خير يا ابي . ولا اذكر سوى الصناديق الخشبية الطويلة التي ترصها امي بمرطبانات الزيتون ، والمعلبات ، وبعض الاوراق . الصناديق ، غالبا ما كانت تضيع ولا تصل . ثم وجهها الحزين ، والدموع التي تحاول اخفاءها عني . في السنة الخامسة صاروا يطاردونها هي ايضا . انزل رجال الحرس الوطني امرأة من باص القدس - اريحا ، بدعوى أن لها عينين خضراوين وشعراً طويلاً مثل امي . فتشوها ، واطلعوا على هويتها ، وعندما تأكد لهم انها ليست هي ، سألوها ان كانت شيوعية مثلها .

إيه سلوى !!! دخل عمر ، وسلم عليها مرحبا . منذ متى انت هنا ؟ . اسبوع . هذا كثير . وكيف لم تندلّي على بيتنا . التفت الي : جنان . ما بالك اليوم ؟ لماذا هذه السحنة المقلوبة ؟ . سحب كرسيا ليجلس عليه وهو يقول متبسما : لا بد ان سعاد وجنان افزعتاك بحكايات الحرب الاهلية . يا بنات ، اشفقن عليها ، فمازالت جديدة على

البلد . وسلوى تتجاوب مع مرحه . لقد بدأت بتلقيني دروسا عن الاحتماء بمداخل البنايات اذا تجدد القصف وانا في الشارع . نأخذ الامر على محمل الجد . انا وسعاد . كنا نقول ان بيروت كانت اجمل في الصيف الماضي . ليتك حضرت يا سلوى وقتها . نأخذ الاولاد ونذهب الى البحر . ونشم الهواء عدة ساعات بعيدا عن حشرة البيوت والرطوبة الخانقة . كنا نتمشى على الكورينش ، ونجلس في مقاهي شعبية بها اشجار وحدائق . ولكن هذا الوضع . لا . لم يعد بامكاننا الخروج كما في السابق . وحظك انك حضرت بعد انتهاء معارك الشهرين .

يتدخل عمر قائلا : الحدائق ، طبعا لا تسألي عن الحدائق . صرن يهوين النباتات بشكل شنيع حتى اني صرت لا آتي الى هنا الا واجدهن يتحدثن عن « المكحلة » « والست المستحية » . وهذه التي على الزاوية . السجادة !!! . والذي يسمعهن يظن ان لدينا سجاداً حقيقياً . وأسماء عجيبة غريبة اخرى . عندما لاحظت اهتمامهن المفاجىء بالنباتات قلت لهن بانهن بدأن يكبرن . الاهتمام الشديد بالنباتات يعني التقدم في العمر . اليس كذلك يا بنات ؟ وانا وسعاد نضج ونستنكر . ثم ، العصفور . هل سمعت حكاية العصفور ؟ قال يا ستي جنان احضرت بلبلاً للاولاد ، ثم استسفرت وعرفت انه بحاجة الى صديقة ، فاخذته الى الجيران في بناية رحمة ، لكي يتزوج ويخلف اولاداً وبنات عندهم . والنتيجة ؟ فقس البيض قبل اسبوع ، وصار العصفور أباً محترماً . غير ان الرجل لم يقبل اعادة العائلة قبل ان يعلمها لغات الكناري التسع حسبما يقول . هيه ، اسأليها اذا لم تصدقي .

وأنا اضحك . هل يمكنني أن لا ؟ . فعلا ، هكذا اخبرني . وعدني بان يسمعهم اشرطة تغريد العصافير التي لديه. سيعتني بهم، الى ان يكبروا ثم يعيدهم الينا . واستعدت صورته مرة اخرى . مربي العصافير العريق ، على ساعده الايمن وشم لامرأة حورية ، وعلى الايسر مرساة مثلثة . سألته ، فاخبرني انه كان بحاراً ، ثم تقاعد وصار يقضي ايامه مع عائلته ولا يخرج من البناية . الضجر . واحاديث النساء حولي تصيبني بالملل . لا أتآنس إلا مع طيوري . سكتُ ، ولم اخبرهم بانه وعد بان يعطيني ، في المرة القادمة ، شتلة من الجادرينيا .

وعمر يتدافع بصخبه حولنا . لنصنع شاياً اخضر من اجل صديقتنا سلوى . الكاسات لا تكفي . نشرب باكواب الاطفال البلاستيكية اذاً . ويعاود المزاح والنكات . وعمر يقول : يا سلام . لو رايت الصبايا وهن يتدربن في الصيف الماضي اثناء التعبئة العامة .

سعاد تقول . أنا ، لا . كنت حاملا بجمانة . وهو يؤشر لي : جنان ، والبقية ما شاء الله ، ليتك كنت هنا لتريهن . يرجعن ملطخات بالرمل والقاذورات بعد التدريب ، ونحن لا نصدق اعيننا . وبعد ان ينزعن البدلات والبوطات العسكرية ، يبدأن في المزاودة علينا بمعلوماتهن العسكرية . اقول ضاحكة : لكني لم افلح في الرماية . لم اعرف التحكم بعيني اثناء التصويب . وكيف يمكن فتح عين واغلاق الاخرى . كنت افتحهما واغلقهما سوياً . وسعاد تقول : حتى اننا اقترحنا عليها ان تربط ايشارباً على احدى عينيها ، آنذاك يصير شكلها شبيها بموشي دايان .

ونضحك . نضحك من اعماق قلوبنا . فاذا حدث وفاجأني عمر وانا ساهمة ، صفق أمام وجهي ورفع صوته هاذراً : هنا . نحن ما زلنا هنا . ونهاية العالم لم تحدث بعد .

أصل الى بداية الزقاق الموصل الى بيت سلوى . المنازل القديمة المتراصة قرب بعضها . دكاكين البالة التي صارت تعج بها المنطقة بعد اقفال سوق البلد . شجر الزنزلخت التي تزهر في نهاية الصيف . القطط المتجمعة على اكوام النفايات ، ثم عدة بنايات حديثة في نهاية الدخلة المسدودة . الطابق الاخير .

سلوى تفتح الباب . نتحادث حول امكانية البحث عن عمل لها ، ثم تتركني وتدخل الى غرفة النوم لتفتش في الحقائب عن الرسالة . بيت خال من الاثاث ما عدا الصوفا والطاولة ، وبعض الحوائج المكومة في صناديق قرب الحائط . اخرج الى سطح البناية الذي سُيّج وصار شرفة واسعة . الشمس الساطعة تزيد الجو سخونة . كمية الضوء الباهرة تغشي الاعين . من بعيد تطل بنايات المنطقة الشرقية . برج رزق يواجه برج المر . ومن الجانب الاخر تبدو رؤوس بنايات الفاكهاني والمدينة الرياضية . خزانات المياه . انتينات التلفزيون المتشابكة مثل دغل فوق الاسطحة . سعاد . لا بد انها ستسألني ان كان في الرسالة شيء من اخبار اهلها . عندما انزل ، أكلمها تليفونيا . احيانا ، اطلب رقمها وانسى الشيء الذي اود اخبارها عنه . اعرف وقتها بانها مجرد الرغبة في التحدث معها . أحكي لها اشياء صغيرة عابرة ، لا يخطر ببالي ذكرها سوى لها . ستكون الان جالسة في « الطبابة » في بناية رحمة . تدون القوائم الصحية ، وجمانة جالسة في كرسي الاطفال قربها . قبل يومين سألتها لماذا لا تعاود ارسالها الى دار الحضانة بعد ان توقف القصف على المنطقة . في بداية الشهر القادم . اخبرتني .

الصوت ! شيء غير اعتيادي .
بغتة ، يقتحم الفضاء ويئز من حولنا .

تأتي سلوى راكضة . وجهها المصفر .
اطمئنها . ربما اختراق جدار الصوت .
حدث هذا قبلا .
ثـــم .
بـــوم !!
ترتج الارض كما لو ان البناية سوف
تتهاوى بنا . سحابة من الدخان .
الاسود . ناحية الفاكهاني .
من جهة الفاكهاني ، نبتة فطر هائلة .
ترتفع ، وتتصاعد .
ثـــم
بوم . وزلزلة عنيفة اخرى .
الطائـرات .
الطيران الاسرائيلي .
ضجة الاقدام المتدافعة على سلم البناية .
لا اعرف كيف . السكان ، وصيحات .
الذعر . الملجأ . صفقات االهواء الساخن
تنحدر مع الارتجاجات المتوالية .
بدأت افكر . الشيء الاول .
انهم يركضون الان .
ركبتاي توجعانني . قشعريرة مثلجة
من كتفي الى ظهري . يركضون ،
ويركضون .
بناية رحمة . بالتأكيد . رأيتها .
الدماء التي تسيل على الوجوه .
الممرات والسلالم . يتراكضون .
من سطح البناية استطعت
أن هناك . جسدي
يوجعني . القشعريرة الباردة

المثلجة . ولا اعود قادرة
على الحركة . احاول ان افكر .
ولكنها ، بناية رحمة .
من الذي سينجو ؟
اضيع عن الوجوه التي اعرفها
هل ؟ لا . لا ، يمكن
وبانسحاق رهيب اذكرها .
هي وجمانة .

(٢)

ثم .
الجحيم .
غارة . أربع مرات .
من الذي يمكن ان ؟ .

(٣)

الشارع المطوق بقوات الكفاح المسلح . الدخان الاسود الذي يملأء الشارع . الصراخ في كل مكان ، والرجل الذي يجتذبونه الى الخلف . شعره المجلل بالرماد .

العويل ، صراخه وهو يبكي : اين عائلتي ؟؟؟

البلدوزر ، ورجال الدفاع المدني . انظر الى مكتبها . الطبابة . الطابق الثالث . لم تعد من طوابق هنا . الحيطان المتطايرة . بيتها المقابل ؟ دخان الحريقة يمتد الى الخارج من شبابيكه . الشارع لم يعد كما هو . اختلطت المعالم . السيارات المقلوبة على ظهرها . الاوراق المتطايرة في السماء . الحريقة الدخان . القيامة .

أقرفص بصمت في احدى الزوايا المظلمة . لا اعود قادرة على الحركة . الضجيج ، والبحث عن القتلى والجرحى . بقع الدماء على ملابس الناجين . والقوائم التي تتوارد بالاسماء شيئاً فشيئاً . أولا الشهداء . الجرحى . ثم المفقودون . ولكن هي ، اين هي ، اولادها ؟ اركض الى كل القوائم الجديدة التي تأتي : ارجوكم . اعطوني اسماً واحداً ، لأيّ منهم . في أي مستشفى ؟ لا اسأل عن عمر لانه مشغول بالتأكيد بانقاذ الجرحى . يا عالم . يا هوه . لا يمكن حتى الان . فقط اسماً واحداً . يدب الخدر البارد

في يدي ، حالة تشبة الشلل . لن اتحرك من مكاني حتى نهاية العالم الا اذا وجدتها . اذا كانت هي ، فهذا يعني انهم جميعا سالمون .

ساعة ، او عدة ساعات . لا اذكر . تدخل من العتبة ، ولا اصدق كيف تحرك لساني واستطعت ان احكي ، لا اعرف .

وهي تسأل عن عمر .

غريب . لِمَ لم يخطر ببالي ان عمر لم يظهر حتى الان . ولكنه مشغول بانقاذ الجرحى ، وسوف ياتي في المساء لاخبارنا . تسأل ، ونسألها . الاطفال ، اخرجتهم من البيت ، لا . يا جماعة . هلكت وانا افتش . لا بد ان شيئا قد جرى له . لا يمكن . يا عزيزتنا ، يا حبيبتنا سعاد ، لا بد انه مع الشباب الان . البعض يقول بانه رآه اثناءالغارة ، آخرون يقولون بانهم لم يروه على الاطلاق . ويحضر شاب سمع حديثنا . اطمئني . ليست لديه مناوبة اليوم . قد يكون خارج المنطقة .

وهي تنتفض ، ثم تنخرط في نحيب طويل :

سألت عنه في جميع الامكنة ، والجميع قالوا هكذا ، فأين هو ، أين هو ؟ .

لاامتلك الجرأة على تصديق دموعها . قد يأتي الان ، او بعد لحظات ، يصف لنا الذي حدث ، ويضحك من خوفنا الذي « بلا طعمة » كما يسميه . انتظري قليلاً . وهي تبكي ، تقول ، الى متى انتظر ؟ .

أسالها عن الاولاد . تخبرنا بكلمات مقتضبة ، بانها تركتهم في بيت صديقة خارج المنطقة . اذهبي اليهم ، وانا التي سوف انتظر . احضر اليك . واخبرك متى علمت عنه شيئا .

ولكن هل يمكن ؟ . لا . مستحيل . لا تتركي الاولاد وحدهم . ونحن ، هنا ، نأتي اليك فورا متى علمنا بشيء جديد .

(٤)

نسهر الليل كله . الثالثة صباحا ، لا شيء . اصوات الجرافات الرتيبة ، والاضواء الكاشفة . المستشفيات والجرحى . الشهداء الذين لا نصدق انهم صاروا شهداء . العائلات التي تبحث عن افرادها . لا شيء يمكن ان يستوعبه الانسان في هذه الحالة . لا

استطيع تخيلّه جريحا ، او . . . . فهو لا زال في مكان ما لم تكتشفه الايدي التي تبحث بسرعة ودأب عن أصوات الاحياء ، واجساد الموتى .

وهو . لا يمكن .

عرفته للمرة الاولى في ايلول . كنا محاصرين في منزل طوقته قوات البادية . اشتد القصف ، وانتقل الرفاق الى مواقع اخرى . وبقيت مع جعب الاسعاف في المنزل الموجود في نهاية جبل الحسين ، على حافة المخيم . طيلة الليل ، وهم يتحلقون حول المنزل ، ويطلقون العيارات النارية في الهواء ارهابا للسكان المحتشدين في بهو الطابق الارضي . كيف يمكننا التحرج في هذه الحالة ؟ وفي الصباح ، يداهمون البيت ، ويقبضون علينا . في الفجر ، انسحبوا لساعات قليلة . حضرت ام محمود ، واخبرتنا بان واحدا منا ما زال نائما قرب جدار المنزل من ناحية المخيم . ذهبنا اليه راكضين . كلمات قليلة ، ومد يده الينا ، ساعدنا على تسلق الحائط والقفز الى الجهة الاخرى . اجتزنا الفتحة المكشوفة التي ترقد في نهايتها فتحات مدافع الدبابة . القنص . قصف مدافع الهاوزر . وهو يشجعنا الى ان وصلنا المخيم . لوح لنا بيده ، ومشى عائدا الى كمينه قرب الساحة المكشوفة . قابلته بعدها عشرات المرات ، ولم اسأله كيف استطاع ان ينام بالقرب منهم . يفرش جاكيته العسكري ، وينام قربهم دون ان يفصله عنهم سوى جدار واحد .

الخامسة صباحا . يأتون . وحدناه تحت الردم . عمر ، الشهيد عمر . هم يقولون هكذا ، وانا التي لا اصدق . مات الشهيد . عاش الشهيد . الشهداء لا يموتون ، يستشهدون . وانا التي لا اصدق . بلى . علي ان . ولكن ، كيف ؟ .

والفجر الملوث بنفثات الخرائب يقول : عمر او الشهيد عمر . لماذا لا تصدّقين ؟ انه هو . لا فرق . وخيوط الشمس الجديدة تتغلغل في غيوم الغبار وتقول : بلى . انه هو . فلم لا تصدقين ؟ . واكوام الاسمنت ، الحجارة ، نثرات الملابس الممزقة ، الزجاج المفتت ، نتف القطن ، شذرات المعدن ، البنايات المهدمة والمائلة ، المداخل المحترقة ، حركات المسعفين السريعة ، ارتجافات الاجساد المتحلقة حول البلدوزر ، كمامات المنقذين البيضاء ، ابواق سيارات الاسعاف الممطوطة ، اصص الزريعة المقلوبة . الغمام الاسود المنطلق من بقايا الحرائق . المواسير المخلّعة . الشرفة التي لا زالت مطلة على الفاكهاني . وبريق ابتسامته حين لوح لي بيده مودعا بالامس . وتخترقني تلك الحركة الصغيرة اللامألوفة . اغادرهم كل يوم ، اقول : انا ذاهبة . أتركهم جالسين

على البلكونة ، وأنزل دون أودعهم . البارحة ، وقفت سعاد على المدخل . ثم . لا اعرف لماذا . قلت لها : عمر . عدت الى الممر فأطلت عليه وهو ما زال في مكانه على البلكونة . باي ، عمر . لوح لي بيده مودعا ، وبريق ابتسامته . وانا لم يخطر ببالي شيء . ولكن ، كيف ! . والصدمة التي تحولت الى واقع تسجله شمس الصباح الجديدة . كيف ساذهب لاخبارها ؟ . والفتيات يتحلقن حولي . لنذهب اليها .

مرة ، ايام كانوا في شاتيلا ، اصيب برصاصة خاطئة في قدمه . سمعت النبأ صدفة . حملت باقة من اللاوندة ، وذهبت اليها كي ارافقها الى المستشفى . على العتبة ، رأيتها تعد الطعام لاطفالها . عمر في اي مستشفى ؟ ، انت تعرفين رقم الغرفة ؟ صدمت عند دخولي ، فتحت فاها دهشة ، وانا اخبرها . لم يحضر الليلة الفائتة ، ظننته في المناوبة . تلبكت سعاد ، وعلى عجل اودعت اولادها عند ام حمدي ، وذهبنا الى المستشفى . ثلاث مستشفيات ، ولم نجده في أي منها . في النهاية ، وجدناه يستلقي بضماده في بيت صديقه . ووبهدوئه المعتاد واجهها : المسألة بسيطة . عالجوني في المستشفى ، وخرجت . لم ارد ازعاجك . وكنت سأحضر في المساء فور ان ارتاح قليلاً .

انا والفتيات في السيارة . الاشعة الصفراء الثقيلة ، والهواء الراكد . والعجلات المسرعة . لا . كيف يمكن . احاول ان اسيطر على دموعي . العالم صحراء ، وانا ما عدت امتلك دموعاً . كيف نقول لها . هذا شيء لا يصدق . البكاء . الدمع . معناه انه لم يعد هنا . عمر ، او الشهيد عمر . لا فرق . كلمة واحدة زائدة . كلمة تشبه الموت ، ولكنها مختلفة عنه تماما .

واحاول ان لا . . . . لا . لن ابكي . ولكني ، رغما عني .

(٥)

الفاكهاني . الجميع يتحلق حولها . شيء يشبه البكاء ولكنه ليس هو . الدموع تجري على وجهها . الجميع يتقدم اليها . الكل يتقدم اليها ، ويعانقها فرداً فرداً ، ولا صوت من حولنا ، سوى اصوات انهيارات اكوام الاسمنت التي تجرفها انياب البلدوزر . ولا شيء من حولنا ، سوى الركام . الاقدام المهرولة . وحرقة الغصة التي يجاهد الجميع لاخمادها .

اذهب الى بيتها لاحضار عناوين اهله في البلد البعيد .

اذكر ، كان يحضر نفسه ببهجة قبل ايام قليلة . يقول : اذا لم اذهب انا ، فستذهب سعاد . تقابل امي التي لم ارها منذ عشرين سنة . العيد الكبير ، والاجازة والاطفال الذين يستعدون للسفر في الطائرة. الطائرة ! اية طائرة الان ! .

ادخل البناية التي كانت تعج بالبشر والناس قبل يوم . اجدها فارغة . صفير الوحشة والترقب في عز النهار . واجهة بناية رحمة ما زالت واقفة مقابلها ، وبمحاذاتها بنايتان تكومتا مثل رقائق البسكويت . وكأنه لم يكن هناك شيء منذ مئات الاعوام سوى شظايا الاثاث المفتتة ، الحجارة ، قضبان الحديد المنبعجة ، وخصل الشعور الادمية فوق فرشات القطن المتناثرة . قلبي يدق . السلم الفارغ تماما ، وباب البيت المكسور . تتصاعد الدقات الى اذني مع صرير الحذاء عند احتكاكه بمسحوق الزجاج الذي يفرش كل الامكنة . درفات الشبابيك المخلعة ، والانقاض التي تتوزع المكان وكأنه لم يكن بيتا بالامس . قرون وقرون طويلة من الغبار الحجري تجلل الاشياء التي بقيت في اماكنها ، أو تلك التي تحركت عنوة . طاقية ربى الضاحكة منكمشة في احدى الزوايا . بقايا بطيخة على الطاولة . دفاتر الاولاد مفتوحة على الارض بين الحجارة . غرفته هي المكان الوحيد الذي بقي على حاله في البيت ، لم يتحطم سوى زجاج شبابيكها . صندوق الرسائل على المكتبة . الاصوات تضج داخل الصندوق الصغير . الاهل ، ولويزا ، يقرأ لي ولسعاد مقاطع من رسائلها ، ويمر بعينيه مبتسما على مقاطع اخرى لا يقبل ترجمتها لنا . ونحن نحتج ونعترض . نهذر ونصرخ ضاحكات . صديقتنا ، على العين والرأس ، ولكن قل لها بان تغض النظر عن مسألة الزيارة . يمزح عمر ، ويقول : انها ودودة وطيبة . كنت احدثها عنكن كثيرا ، فلماذا انتن شريرات معها ؟ . وتخلط سعاد الجد بالمزاح وهي تدلي باحدى امثالها الشعبية : الله يسعدها ويبعدها .

ساعته ما زالت على الطاولة ، والقواقع البنية التي احضرها اطفاله من البحر ، بعد ان اخذهم اليه هذا الصيف للمرة الاولى .

تتجمد عيناي على ثيابه . بنطلونه البني وقميصه البيج الذي بلون البشرة على الصوفا . نسيجه الرقيق يتحول الى شيء انسانيٍّ يتنفس وكأنه ليس النسيج ، بل صاحبه . ثنيات الثياب نفسها حين يضعها بيديه ، يرتبها ، ليرتديها مرة اخرى .

البلكونة . الضحك ، ضحكنا ، وضرب الاكف على نكات عابرة . صحن الجبنة

المقلوب وشرائح الخبز المرمية على الزاوية .

ولا استطيع ان اشاهد ايضا . الغبار الابيض يمتد الى الداخل مثل لذعات النيرات الكاوية . البناية الفارغة ، دقات المعاول واصوات الجرف في الخارج . وقلبي يدق ، يدق ، وانا ارجع اليها راكضة .

(٦)

في المطار . يرفع المقاتلون أكفهم بالتحية العسكرية ، ويطلقون واحدة وعشرين طلقة . الان فقط يستطيع ان يذهب الى بلده ، بعد ان غاب عنها عشرين عاماً ، وواحد اخر سوف يبدأ . يذهب اليها ، وعلى كفه الاسم الجديد الذي اختاره عمر ، او الشهيد عمر ، لا فرق . يذهب ، ويذهب معه ضحكنا الذي يكرج كرنين اجراس من فضة . يتهادى فوق الاكف قبل ان يغيب مجللا بالعلم الفلسطيني ، واكاليل الورود الزاهية . لو كان ، لنهرنا على اللون الاسود الذي نرتديه . لو كان ، للوّح لنا بيده مودّعاً ، وبريق ابتسامته . لن اغيب طويلاً . انتظروني . لو . لكان سخر الان من خوفنا الذي « بلا طعمة » كما احب ان يسميه يوما .

وانا احاول ان لا . لكني . اصدق . احاول ان لا ابكي . ولكن . رغما عني .

وهي سعاد ، تودعنا محاولة ان تبدو بشكل طبيعي . تبتلع دموعها ، وقبل ان تصل الى ممر المسافرين ، تستدير عائدة ، وتقول : انتظريني . لن اغيب طويلاً .

ملحق

(١) سعاد :

كانت تستيقظ من الحلم بيقظة فجائية غير معتادة . شيء بارد وعنيف ينسكب في سلسلة ظهرها . يهزها ويقول لها : اين انت . الطقس الحار ، وجدول من العرق البارد حول جسمها . اسنانها المصطكة ، وضربة الكابوس العابرة . حاولت ان تستذكر مقاطع الحلم ، وهو ينسكب عليها دفعة واحدة ، ينكزها . قومي . اين انت ؟

حاولت ان تكشه بيديها كما يفعل المرء مع ذباب الفَرَس الازرق الكبير ، فلم يصغ اليها ، ولم يذعن . الفاكهاني . غبار ابيض . بقع من الدم تتسع وتتسع . غبار ابيض

يغطي المنطقة . ومن رماد الدخان ، تبرز اطراف البنايات المهدمة ونتوءات المنازل المدكوكة التي سويت بالارض . وعلى الارض ، يتمدد رجل ميت لم تعرفه سابقا . يلتحف بعباءة من الدماء . ربما قبل الغارة بشهر ، او ايام .

فيما بعد ، اخبرت سعاد جنان ، بانها رأت رجل المنام فعلاً . كان يرقد مغطى بدمائه ، قرب عمر في المستشفى . كانت اكوام من الجثث ، ترقد متخشبة على ارض البراد في المستشفى . استطاعت ان تتعرف الى عمر من حذائه العسكري . كان نائماً على بطنه ، فلما اقتربت منه شاهدت ذلك الرجل ، رجل المنام وغبار الفاكهاني الابيض .

(٢) عمر الذي يمضي :

كانت سعاد تبكي . تقول : مثل القمر كان نائماً . يا حبيبي ، ما الذي فكرت فيه قبل ان تنام ؟ . ترنم وكأنها تغني ، وينفرش صوتها على مساحات السواد عذاباً ، رقيقاً ، صافياً . تخفض صوتها ، وتبادله حديثاً لا نسمعه . تصمت ، ثم تندفع تروي . يا حبيبي ، ما كان اجمل تلك البدلة عليك . ذلك الصباح ، تركت جمانة نائمة حده ، ونزلت الى صبرا . حملت اكياس الاغراض الثقيلة ، وتعبت منها . في البيت ، وجدته متأهبا للنزول . ارتدى بدلته العسكرية ، ولم يفطر . وضع الحزام فوق الجاكيت . مازحني يا ست سعاد ، ها اني اضع الحزام فوق البدلة كما تحبين . أنبني لحمل كل هذه الاكياس . انت تتعبين . بسيطة ، اقول له . اخبرني : بعد ايام تسافرين وترتاحين هناك . اساله : ألن تذهب الى المستشفى لاجراء فحص الدم ؟ قال لي : اليوم استنفار . اذهب اليهم اولاً . تعلقت به جمانة قبل ان ينزل ، وبكت . نخزني قلبي من بكائها ، ومن تشبثها الشديد به . اخذتها منه ، ولم اره بعدها الا في المستشفى .

(٣) جنان :

وانا فكرت بأن يجب ان اراه . القي عليه تحية الصداقة قبل ان يذهب . قلت للدكتور يوسف : اذهب معكم ، واراه . سيارة الاسعاف . اضواؤها الحمر التي لا تضيء . والرائحة ذاتها تنبعث من الشرشف الابيض المصفر ، ملطخاً ببقع الدم الجاف على النقالة .

تخرج السيارة من منطقتنا المطفأة الانوار ، وتخلف وراءها أصوات البلدوزرات التي تتحرك بصخب ورتابة تحت الاشعاعات الصفر للكشافات المسلطة على بنايات

الفاكهاني . المدخل ، كان على مدخل بناية رحمة حينما وجدوه بين الحرائق والحطام . والشاب الاخير الذي رآه قال بانه كان ينقذ المدنيين الذين كانوا في البناية . ربما في الغارة الثالثة . كان راجعا ليسحب اناسا اخرين وسط حلكة الظلام والدخان الكثيف . وعلى المدخل . .

سير في بيروت ، ونرى الحياة الطبيعية . نعم ، اظن انهم يسمونها هكذا . جماعات الناس في الشوارع ، اضواء الفترينات الملونة ، ازدحام السير في شارع الحمراء . وتتوقف سيارة الاسعاف وراء رتل من السيارات اعاقها عن التقدم خروج الناس من احدى دور السينما . مفرق مستشفى الجامعة . الرائحة . الرائحة ذاتها . والحياة الطبيعية في الخارج كما يسمونها . غرفة البراد في المستشفى . ينفتح الباب ، وتزأر الرائحة في وجهي دفعة واحدة . كثيفة . ومتجمدة . وهو يستلقي هناك بسيطاً ، وهادئاً . يرتدي بدلته العسكرية ، ويستلقي ببساطة ووداعة ، وكأن شيئاً لم يصبه . بضع كدمات على الرأس ، وخيوط من الدماء تنسال على الوجهْ الذي لم يفقد التعبير الذي اعرفه . احلف . ما زالت ابتسامته تنبض تحت الخيوط الحمراء المتجمدة . انظر اليه ، ويمر بصري على البدلة الزيتية . الحزام . قليل من الغبار على مقدمة البوط العسكري الاسود . انظر اليه ، والتعبير نفسه . كان صامتاً . ولكن ، كأنه يحادثني . كيف فعلتها يا عمر ، وكيف استطاعت بضع كدمات وجروح ان تجعلك تمضي هكذا . و يتغير وجهه بشكل طفيف . آثار الضربة ، والردم . والتعبير ذاته مشبعاً بالحكمة والسخرية . الرائحة تضج حولي . استنشقها بعد ان حبست نفسي طويلا .

ايلول ، عمان ، الرائحة تجلل الجبال السبعة . كاد ان يُغْمى عليّ في مركز الاسعاف الصغير في مخيم جبل الحسين . الدوار . تماسكت . والغثيان . خرجت الى الباب ، واستنشقت الهواء . الغروب ، والهواء النقي المنعش رغم الاصابات العديدة ، ورغم قصف الهاوزر . أمتلأ جوفي بهواء العالم ، واستطعت ان اعود الى العمل على ضوء الشمعة . الهواء الراكد ، واضواء الشموع الصفراء تتذبذب على المقص الطبي ، وابرة التقطيب . الجروح المفتوحة مثل افواه مندهلة ، وانا اقول لنفسي بان الامور تمضي هكذا دائما . ما زال هناك هواء نقي في العالم .

اخبرني الدكتور يوسف : وكريم هنا ايضا ، ابو انطوان ، و . . . . الرائحة ما زالت تحيطني . وحين خرجت ، كانت نقالة الجرحى الفارغة ، تغطيها شراشف ببقع كبيرة من الدماء .

اذكر ان للبحر رائحة في بيروت ،

تهب كلما اتسع الافق ، وبان عن الازرق الجميل .

بعد الحرب ، صارت هناك براكسات الصفيح ، ولم تحجز الرائحة .

امتلأ رصيف الكورنيش بباعة الذرة المشوية ، والفستق السوداني ، والترمس ، ولم تختف الرائحة .

امتدت واجهات البسطات التنكية ، مع الثياب الرخيصة ذات الالوان الصارخة ، ومع اكف الباعة المهاجرين من سوق سرسق ، ولم تختفِ الرائحة .

ولكنها انتهت ، رائحة البحر ، دفعة واحدة . البحر ، لا . ولكنها تذكر رائحة البحر .

كان للبحر رائحة تشبه الرجل الذي تعشقه . قطرات عرق ، وازهار ليمون ، وشفق مورد .

صار للبحر رائحة سيارات الاسعاف المسرعة ، صفيرها الممطوط ، اضواؤها الحمر التي تضيء او لا تضيء . والرائحة ذاتها ، اتنشقها ، ولا أخاف .

قصة

يحيى يخلف

عن العصافير الحنونة

اهزّ رأسي . . . هل انا بحاجة لصحوة ؟ لم تغمض العينان منذ شهرين . هل احتاج لصحوة . ليس من الضروري ان يرتطم رأسي بجدار ما لكي ادرك ان نشاطاً بركانيا قد حدث ، وان الليل يسابق النهار ، والسيف يسبق العذل ، والعاصفة تسبق الصمت !!

حاولت ان اكتب ذات لحظة ، اثناء القصف . ربما بعد توقف الغارات الجوية ، هنا في البقاع ، بعيداً عن بيروت .

حاولت ان أغص ، او ان اسجل من خلال الغبش كلماتي ، فلم استطع ، كيف يمكن ان اخترع لغة جديدة ، او ان احطم المتعارف عليه ؟ما العمل ؟ بعد كل الذي حدث . . . ما العمل ؟

علينا ان نتحلى بالروح العالية لكي تظل معنوياتنا عالية . اكتب على ضوء سراج خافت . لا بد ان خطي رديء وغير مقروء . . .

ـ المهم خطك السياسي .

وابتسم له . مجدي يسهو أو يقرأ افكاري .

الان تحت أشجار التفاح . الشباب حولنا لا يضيئون قناديلهم الصغيرة ، ربما لتوفير الزيت ، او لان مراصد العدو ، هناك ، في التلال العالية تتمكن من رؤ يتنا .

أمس هاجم الشباب أحد المراصد في تلال الباروك ، لذلك فانهم ، تحسُّباً ، بدأوا هذه الليلة باطلاق قذائف التنوير .

مجدي متعب . . . مرهق . . . لحيته طويلة . ولكنه موجود .

مجدي أمضى عشر سنوات في سجون الارض المحتلة . وخرج منذ سنة ، سنة واحدة لم تستطع ان تستوعب كل اشواقه للحياة . تزوج وتبرع له الاصدقاء بالعفش واجرة البيت . وعندما بدأ يعالج نفسه من امراض المعدة ، وسواها من امراض السجون ، بدأت الحرب .

عندما بدات الحرب كنا في الخارج ، ولذلك لم نتمكن من الوصول الى بيروت قبل الحصار .

قبل الحرب ، بايام ، سافرنا من مطار بيروت بطائرة واحدة . توقفت في برلين . وتابع هو الى براغ . لم تكن هنالك رائحة حرب فورية .

لنقل اننا في السنوات الاخيرة . صرنا نشم رائحة الاشياء بالخبرة . صرنا نشم رائحة الموت . اؤكد لكم ان للموت رائحة تهجم عليك قبل حدوثه . نحن الذين عشنا في عمارات بيروت ، التي كانت ، في السنة الأخيرة ، تنشطر الى شطرين بفعل السيارات المفخخة ، أو قوارير الغاز المحشوة بالديناميت . صرنا نشم رائحة الخطر قبل ان يندلع ، نحن الذين أحببنا ركوب الخطر حتى الادمان .

الان تمر من امامي سناء ، تلك الصبية الطالبة القادمة مع المتطوعين ، والتي خلعت ، منذ شهرين ، الفستان ، والخواتم ، والقرط ، ولبست الكاكي .

تمر من امامي ، لا اتبين ملامحها ، لكن استطيع ان احدس انها تفكر بطريقة ما تصل بها الى بيروت . ينفذ زيت السراج . اشعر بالتعب والنعاس . احاول ان اغفو .

□

عادة ، مع الخيوط الاولى لنور الفجر ، عندما تكون اوراق الاشجار مثقلة بالندى ، وتفتح عينيك على سماء زرقاء كسولة أو طيبة أو خجولة ، وتشعر ان البطانية ، تحت رأسك ، رطبة ، وانك تحن الى فنجان قهوة قبل سيجارة الصباح ، عادة مع الخيوط الاولى لنور الفجر ، عليك ان تنهض وتنتشر لان هدير الطيران يأتي من مكان ما وراء تلك الجبال المحتلة .

تدخن السيجارة على الريق وانت تتمدد تحت شجرة التفاح . ترقب بزوغ الشمس - كما لم تكن تفعل في السابق - وتستيقظ من سباتها طفولة ريفية ، وتتذكر امك ، وتشم

رائحتها ، رائحة حنانها ، وترى عروق يديها ، ومسبحة اليسر الطويلة بين أصابعها .

وترى ابن اخيك الرضيع قربها ، يستغرق في النوم بوجهه الطافح بالسكينة . . . فها هو يبتسم في مهده ، يبتسم ابتسامة واسعة ، عذبة تنظر امك الى وجه حفيدها وتهز رأسها باسمة : انه يحلم لقد مرت من امامه غزالة .

وفجأة يغيب كل شيء ، ويعقب الهدير انفجارات ، وبقعة عالية من الدخان الاسود . وتسد الطائرات التي تطلق الرعد فجوات الفضاء ، وتسقط على الارض حبات من التفاح الذي لم ينضج بعد .

□

بعد ايام قليلة يمكن للمرء ان يعتاد على هذه البقاع الخصبة ، هذا البساط الكبير من اشجار التفاح والصفصاف والكرز ، ووراء البساتين بساتين ، والماء يتدفق من الآبار الارتوازية .

اما العصافير ، فلم يعد لها وجود ، ولا بد انها هاجرت بعد ان دمرت الاجنحة الحديدية آفاقها . اما المتطوعون ، الذين اطلقوا لحاهم حديثا ، والذين ربما يحملون البندقية لاول مرة ، فانهم اصبحوا جزءا من الشجر والوعر ، وصاروا يتوغلون وراء خطوط العدو ، ويشاركون في العمليات العسكرية .

□

جاءت سناء قلقة ، مرتبكة ، جاءت مجهدة ، مثقلة الجفون .

ـ عادت الدورية ومازن لم يعد .

قالت ذلك ولم تشرح التفاصيل ، وكان علينا ان نعرف ان هناك دورية للفصيل الطلابي ذهبت للاستطلاع ، او للاقتحام ، وراء الخطوط ، وان جميع افراد الدورية قد عادوا وان احدهم (مازن) لم يعد .

سألها مجدي : هل هو مفقود أم أسير أم . . .

لم تجب ، وانما اغرورقت عيناها بالدموع .

في المساء ، جاء المزيد من الطلاب . كبر مازن . أصبح بحجم الفضاء كله . مازن طالب التاريخ القادم من جامعة اليرموك . والقادم اصلاً من مخيم بلاطة في نابلس ، والذي يحمل تصريحا من سلطات الاحتلال انتهت مدته ، والولد النحيف ، الخجول ، غائر العينين ، وصاحب الابتسامة التي لا تزول .

□

مجدي يقرأ . . . دائما ، في اوقات الفراغ ، يقرأ عيناه في الصفحة . كم أطال التأمل . هل يقرأ أم يسهو ؟ الى اين تشرد افكاره ؟

كان مجدي يقلق . ذلك القلق المشروع . لكنه لا يحتمل ان يضبطه احدهم وهو يقلق . زوجته هناك . في بيروت . بيته في كورنيش المزرعة . زوجته حامل . في شهرها التاسع ، فاذا ما جاءت الطائرات . كيف يمكنها ان تنزل الى الطبقات السفلى من البناية (أي افق يمكن ان يتسع لرعبها وفزعها !!) .

جاءالخال (ابو خلوي) قائد مركز التجمع . جاء يحمل بندقيته وشهامته ولهجته الخليلية التي لها رائحة النعنع . وجاء بسام الذي يحب الممازحة والقراءة ولعبة الشطرنج . وتوجهنا الى الغرفة الصغيرة التي تقع على كتف البستان ، نشر بسام رقعة الشطرنج وبدأ اللعب .

نادراً ما تظهر على السطح تلك الحساسيات الصغيرة لكن احداً لا يغضب من الآخر اكثر من لحظات عابرة .

ومرة اخرى تأتي سناء ، قلقة ، مرتبكة ، مجهدة ، ومثقلة الجفون ، فتهجم من جديد قضية الفتى (مازن) الذي ذهب مع الدورية ولم يعد .

تتوقف لعبة الشطرنج . يكف مجدي عن التذكر ، وخارج الخيمة يسطع ضوء قمر ساكن . يسيل على ذوائب التلال العالية ، تتحدد بوضوح المنعرجات والمنحنيات والمسالك . والطرق التي شقت حديثا ، وهذا يعني أنها ليلة رديئة لا تصلح لعبور الدوريات . تضاربت الروايات حول مصير مازن . في رواية اولى انه اصيب في كتفه عندما اصطدموا بكمين اثناء العودة . فعندما انهال الرصاص انبطحوا ارضاً ، وفتحوا بدورهم رصاص بنادقهم ، وتعاملوا مع الكمين . وفي رواية اخرى ، رواها احد الذين غطوا عملية الانسحاب ، ان مازن أصيب في كتفه ، ولكنه واصل الانسحاب دون ان يلقي

بندقيته . وفي رواية ثالثة ان الطائرة المروحية الاسرائيلية التي طاردت المنسحبين ، تمكنت من القبض عليه وأسره .

ويواصلون الحديث ، بينما تتعارك الفراشات البرية حول فانوس الغاز الذي يسطع ويزيد من حرارة الخيمة . وفضلاً عن الفراش البري ، تداهمنا بين حين وآخر الجنادب الصلفة ، والعناكب الوحشية ، تصطدم الكعاكل الشرسة بزجاج الفانوس ، تصطدم ، فتسقط على الأرض ناشرة أجنحتها . واحيانا تسقط على يدك او وراء رقبتك ، او على شعرك ، فتنتفض ، تنتفض وتقف على قدميك ، وتمد يدك وتلقي بهذا الصرصور البشع على الأرض ، وسط ضجيج وصياح الآخرين .

لكن ، احياناً ، في النهار . . في النهار بالتحديد ، لا يخلو الامر من وجود بعض الكائنات اللطيفة ذات الاجنحة ففي صباح باكر كنا ندخن عندما سقطت على ذراع مجدي واحدة من هذه الحشرات اللطيفة . كانت حشرة خضراء ، طويلة السيقان ، لها عينان سوداوان مثل نقطتين وباستثناء عينيها ، فان لونها حشيشي . . . أما جناحها الذي فردته ، دون ان تطير ، فانه شفاف الى غاية الشفافية نظر اليها مجدي بحنو . كانت تبدو مثل ورقة من اوراق الصفصاف سقطت سهواً عن غصنها .

سالني مجدي : هل تتذكرها . . ؟

قلت له : ايام الطفولة ، في القرية ، ليس في مثل هذا الصيف ، وانما في الربيع ، وكان اهلنا يحبونها ويحذروننا من ايذائها .

عاد يسأل : هل تتذكر اسمها .

هززت راسي مجيبا : اجل اسمها (فرس النبي) ، وكان اهلنا يعتقدون انها تشبة البراق الذي ركبه النبي اثناء الاسراء والمعراج .

ومرة اخرى استيقظت في اعماقي تلك الطفولة الريفية المسروقة . وظل مجدي ينظر اليها تلك النظرات الاليفة .

وفجأة ، فردت جناحيها اكثر فاكثر ، ثم تجمعت بعضها على بعض ، واندفعت في الهواء . وظللنا نرقبها الى ان اختفت . وعند ذلك حك مجدي ذقنه . واستغرق في التفكير .

ها هو يتذكر رغماً عنه زوجته الحامل في بيروت فاذا ما جاءها المخاض ، لحظة

الاغارة الجوية ، فما الذي سيحدث ؟

قلت له : إن فرس النبي ترمز الى الفأل الحسن ، على كل حال .

وجاءت سناء الينا بأخبار جديدة عن مازن ، لقد وجدوا جثته ، هناك ، في العراء ، وهم يستطلعون المنطقة لاخراجها . ودار جدل ونقاش حول التفاصيل . .

ـ ربما يكون العدو قد وضع كمينا قرب الجثة لكي ينزل بنا المزيد من الخسائر .

ـ ربما يكون العدو قد فخّخ الجثمان ، فاذا ما سحبها احدهم انفجرت به و . . .

ـ ولكن يجب سحب الجثة على كل حال ، ويجب دفنها في مقبرة الشهداء بشكل لائق . وكالعادة . . . جاء هدير الطائرات !!

□

ذات صباح داهمتنا اخبار الخروج .

هل نترك بيروت وصلنا تعميم من العمليات المركزية وظلت اذاعة (المرابطون) تذيع الموسيقى الوداعية .

ـ انهم يخرجون من بيروت ، فماذا نفعل نحن في البقاع ؟ الى اين يخرجون ؟ متى تنتهي هذه الرحلة ، متى يكون الوصول ؟ المسافات طويلة ، من القدس الى عّمان ، ومن عّمان الى دمشق ، ومن دمشق الى بيروت ، ومن بيروت الى الجزر والارخبيلات . والبرازخ ، والمضائق ، والمخانق والمكائد . . !! ايتها العصافير الحنونة . . . ايتها العصافير الحنونة .

□

مع الخيوط الاولى لنور الفجر ، تكون اوراق التين مثقلة بالندى . تقطع حبة التين فينحبس الحليب ، وعليك ان تنتبه ، فاذا ما سقطت نقطة حليب على يدك ثم دعكت عينيك . فسوف تصاب بالرمد .

وافاق مجدي متورم العينين ، لا لانه دعك عينيه ، وانما لانه ظل ساهراً طوال الليل

يدير نقاشا حادا حول عملية الخروج .

وبرغم سكينة الصباح ، وعذوبة الطبيعة ، كان القلق يكبر ، والمستقبل يبدو قاسيا . وكان علينا ، هذا الصباح ، ان نذهب لاستطلاع موقع جديد .

□

ركبنا السيارة مجدي يسوق ولا يتكلم كيف يتسع جسده لكل هذا القلق !! وعندما كنا نعبر في السيارة ، عبر الطريق الوعر ، غير المعبد ، حيث تترامى امامنا حقول الرماية ، قال مجدي : بعد الآن لا يجوز ان يتساوى المقاتل واللص ، لا مكان تحت الخيمة الآ للمقاتل فقط .

كان ينسى قلقه الشخصي تماماً . وبعد برهة قال :

ـ وعلينا ان نعمل مراجعة نقدية . وحكى كلاماً كثيراً . قال اشياء مهمة . كان المستقبل يؤرقه . . . واثناء العودة لم يتوقف عن الكلام .

وفي الطريق توقفت الى جانبنا سيارة اسعاف ، وابلغنا السائق انهم احضروا جثمان (مازن) . فتوجهنا الى المستشفى في (بر الياس) .

في باحة المستشفى كانت سناء ، وكان عدد من المتطوعين الطلاب ، وكانت تقف سيارة الاسعاف التي يرقد فيها الجثمان . جاء الطبيب ، وسمح لنا بان نلقي على وجه (مازن) . النظرة الاخيرة . فتح الباب الخلفي لسيارة الاسعاف ، فصعد الممرض ، وازاح الغطاء عن وجه الفتى . كان نائما . كان مستغرقا في النوم . بكت سناء . اغرورقت عينا مجدي . ظل مازن يستغرق في النوم . وجهه نحيل ، ويطفح بالصمت ، كأنه طفل قد يستيقظ بعد قليل .

ولاح لي كأن ابتسامة ما ترتسم على شفتيه . لعله ابتسم قبل ان تستقر الرصاصة في كتفه ، لعله ابتسم بعد ان استقرت الرصاصة في كتفه . أو لعله ابتسم ، لانه قد مرت من امامه غزالة .

قصة ميدانية كتبت اثناءوجود الكاتب في البقاع . تاريخ كتابة القصة ١٩٨٢/٨/٢٤ .

مختارات
مختارات
مختارات
مختارات
مختارات

البحر.. البحر.. كم من موجة لا تعود

(من أغاني المقاومة الإسبانية)

ترجمة : شوقي عبد الامير

في كل قصائد هذه الانطولوجيا ، لو استبدلنا مدريد ببيروت ، أشبيليه وغرناطة بصور وصيدا ، وجورنيكا بصبرا وشاتيلا . واستبدلنا الثوار الجمهوريين الاسبان وحلفاءهم من متطوعي العالم بالمقاومة الفلسطينية والحركة التقدمية اللبنانية ومن معهم من متطوعين لوجدنا أن التاريخ لا يعيدُ نفسَهُ وحسب إنما يُقيؤها .

التأريخ ليس نهر هيراقليطس ولا مجرد قبر يحدّقُ في البحر . إن هابيل وانكيدو وديونيسيس وأحمد الزعتر إسطورة واحدة . لم يُخلق الفلسطيني جُثةً في هواء الجريمة . إن سبارتوكوس والمسيح والحسيرة والفلسطيني مرادفات في قاموس الدم .

لم يعد هذا الحياد البارد في مفرده « التأريخ » يُطاقُ اليوم . ولهذا فسنسمّيه : سجل الادانة . أيها الموغلون في الدم الفلسطيني حتى أضراس جماجمكم ، ليس لكم في هذا السجل الكوني الاّ أصابع الاتهام .

١ـ أميليو برادوس

« ولد في مالطا عام ١٨٩٩ . أسس وترأس مع عمانوئيل آلتولاجير مجلة ودار نشر litoral بين عام ١٩٢٧ ، و ١٩٢٩ . ساهم بشكل فعال بالتنظيم الثقافي مع الجمهوريين كما أشرف على نشر الانطولوجيا العامة للحرب الاسبانية . يعيش حالياً في المنفى ، في المكسيك . صدرت له مجموعات شعرية عديدة »

المدينة المحاصرة

أراني بين المدافع
وبين المدافع أكبر
حصناً لقناعتي
وحدوداً لنومي .
أين تبدأ أحشائي
وأين تنتهي الريح .
لم يعُد هناك أيُّ نبض في عروقي
الا اصطكاك الرعد .
تحملني الطلقات
عبر غابة الاعصاب
أعدادها الهائلة تجرّني
عينايَ تبرقُانِ عُنفواناً
النصرُ يلهث
تراتيل للدم والحديد
طيور تمزقني
تحمل جبهتي الى السماء
تُضيء الغيوم
وتُوسّع أرضي .
لنذهبَ الى هناك : كتلٌ ثقيلة
تجتاز عروقي الحديدية
حدّتي تغتلي بعظامي
يا رفاق الزمن الحالي
وأشباح ذكرياتي
يا أملَ يديّ

وحنيني الى اللعب
إنهضوا للدفاع عنّي ،
حياتي محاصرة
والحقيقة السجينة
مهددة في الصدر
هيا ، لتنهضوا الى المتاريس
ما دام القلب ينبض
سوف لن يَكون بامكانهم إطفاؤه
باطلاقاتهم السوداء المتصلبة
إن دمي يعود مُسرعاً الى جسدي
إحملوا بسرعة الاسلحة مع دمي
فالنار تحيطُ بي الآن
ومن يحارب ضدي
سيصيرُ حجراً .
وأنت أيّتهُا المدينةُ العبدة ، المدينةُ المحاصرة
المدينةُ التي أقيمت من صدري
اذا داسك العدو بقدمية
فسأفضل الموت قبل ذلك .

حصناً لقناعتي
وحدوداً لنومي
بين المدافع أكبر . . .
ولكن أين تبدأين يا مدريد
وأين ينتهي جسدي . .

٢ ـ مقاتل مجهول . . .
« كل ما نعرف عنه أنه كان في ميليشيا الثوار الجمهوريين » .

سيرانيلا

عبر الجبال وعبر التلال
تتقدم صدور شابة
أمي ، ها هم المقاتلون
سيناضلون ضد الخونة ،
ها هم يجتازون الطريق المؤدي الى الصخور
في الاعالي
إن سهول سيجوفي الشاسعة
تمتدُّ بعيداً خلفهم .
بين الأحراش والحصى
سيضطرون مراراً للقفز
وعبر الوديان والطرقات
سيعلقُ الطينُ بثيابهم
إن الشمس التي تضيئهم
قد حملت بشرتهم
والطلقات
قد أضرمت لعناتهم
وهياجهم للمعركة .

عبر الجبال وعبر التلال
تتقدمُ صدور شابة .

٣ ـ بدرو كارفياس

« ولد في كوردو في عام ١٨٩٤ . أسس بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٢٣ مجلة إيلترايست الشعرية . نُفي من اسبانيا منذ عام ١٩٣٩ وهو يعيش حالياً في المكسيك . أصدر عددا من المجاميع الشعرية » .

أغنية رومانسية لـ فيللا فرانكادوكوردو

« مقاطع »

من قال إذن أنّ الفاشست
لم يحتلوا قرية قط ؟
رأيتُ الناس راحلين
على طول الطريق المغطاة بالظلال
يحملون منازلهم على ظهورهم
ـ كان الليلُ بارداً والريح قاطعة كالشفرة ـ
وليس معهم إلاّ النظرات مُسمرة في الارض
على جانبي الطريق ـ في الموكب الجنائزي ـ
كان الشيوخ والأطفال والنساء
يتبادلون الحديث عن تعاساتهم
والرجال المعطلون
يرفعون في الهواء قبضاتهم المتسخة
ويحدقون سدىً في بنادقهم
الخالية من العتاد .

في البعد كانت القرية خاليةً تماماً
بلا أحشاء ولا نبض
ولا حتىٰ خيط من الدخان
الا بشرةَ وعظام الاحجار
الممدة عاريةً
آه ، أيُ جليد يغمرُ روحك
أيةُ هاوية لكبريائك
أيّةُ هاوية مستبدة قد أغاصت قدميك
في مثل هذا القبر !

النباحُ البعيد للكلاب
يتصاعد في مواجهة الجدران

والناسُ البعيدون في المقدمة
مع ذويهم ماضينَ خطوةً خطوة
ليناضلوا ويعيشوا
ليعيشوا أو يموتوا
معاً .

٤ ـ فاسنت الكسندر

« ولد في أشبيلية عام ١٨٩٨ وكان أثناء الحرب الأهلية طريح الفراش يعاني من مرض عضال ، ولكنه مع ذلك انضم الىٰ الجمهوريين . دخل عام ١٩٤٩ الى الاكاديمية الاسبانية . شاعر صدرت له مجاميع شعرية عديدة . حاصل على جائزة نوبل للآدب » .

المقاتل المجهول

لا تسالوني عن إسمه
تجدونه هناك في الجبهة
قرب ضفاف النهر ؛
هناك من أجل كل المدينة
ينهضُ كل صباح
عندما يغمره الفجر
بشعاعه المتوقد ـ شعاع الحياة ـ
وأيضا ،
شعاع الموت
كلَّ صباح ينهضُ
عتياً صلباً
وحيث تستقرُ نظراتهُ
يسطعُ شعاعُ موتيٍّ
لا تسألوني عن إسمه
فلا أحدٌ منّا يتذكره
ولكنهُ ينهضُ كلّ يوم
مع الفجر والأصيل

يشدُّ القبضة ، يتقدم ، يتدحرج
يقتل ، يمضي ، يُحلّق
ويخرجُ منتصراً
وحيث يسقط
يبقىٰ كالصخرة لا يتنازل
مثل جبلٍ . . . أجل
ومثل سهمٍ يجرح .

ستعرفُه مدريد كلها
مدريد تخفقُ فوق أصداغه
نبضهُ يرتعش . . . يغلي
بدمٍ رائع ملتهب
وفي قلبه تغني
ملايينُ الكائنات
ـ من كان ؟
ـ لااعرف شيئاً ،
لقد كان من أجل كل المدينة
مدريدُ وراءه
مدريدُ كُلّها تسنُده
جسدُ وروحُ وحياة
واقفُ مثل عملاق على بواباتها
هل هو طويل القامة ، أشقر الشعر ؟
وهل هو قصير اسمر مفتول العضلات ؟
إنه مثل الجميع وهو الجميع
ما اسمه ؟
إسمه يتدحرجُ مبحوحاً
حياً بين الاموات
خالداً الى الابد .
إسمه اندرياس ، فرانسيسكو

او حتى بيترو جينياريز
لويس أو جون ، مانوئيل ، ريكاردو
جوزية ، لورنسو ، ناسنت . . .
لا إنه يسُمى فقط والى الابد
شعبٌ لا يُقهر .

٥ ـ أنطونيو ماشادو

« ولد في أشبيليه عام **١٨٧٠** ومات في كوليور عام **١٩٣٩** . في عام **١٩٠٧** كان مدرساً للغة الفرنسية . شارك في الاحداث الجمهورية ومنذ بداية الحرب الأهلية أعلن بوضوح إنتماءَه الى الجمهوريين . ساهم في كل النشاطات الثقافية وانتقل الى المنفى بعد الهزيمة حيث مات في كوليور ؛ وهي مدينة صغيرة تقع في جبال البيرينيه الفرنسية . شاعر معروف وله أعمال شعرية عديدة . »

وقعت الجريمة في غرناطة

« في رثاء لوركا »

ـ ١ ـ
الجريمة
كان يُرى وهو يشقُّ طريقه بين البنادق
في شارع طويل
خارجاً عبر الحقول الباردة
ومع نجمات الصبح الاولى
وعندما انتشر الضوء
قتلوا فرديريكو . . .
كان جلادوه لا يجرؤون
على التحديق في وجهه
لقد أغمضوا جميعاً عيونهم وصلوا ؛

« ليحفظك الرب »
ميّتاً ، سقط فريدريكو
بدم في الجبهة ورصاص في الاحشاء
نعم ، وقعت الجريمة في غرناطة
لتعرف غرناطة البائسة ،
في غرناطة .

- ٢ -

الشاعر والموت

كان يرى يشقُّ طريقه معهُ
دون خوف
وما أن وقعت الشمسُ على الابراج
المطارق على السناديك
كان فريدريكو يتكلم ، يلهو مع الموت
والموت يصغي له :
« البارحة
آه يا قريتي
كانت نبضاتُ رئتيك اليابستين
تلهث في شعري .
لقد منحتِ الجليد لأغنيتي
والدليل لمأساتي
ومن حدِّك الفضي سأغني البشرةَ التي لا تملكين ، العيونَ
التي لا تملكين ،
شعرَك الذي تتقاذفه الرياح
وشفاهَك الحمراء حيث تستقر القبلاتُ الرطبة جداً . . .
اليوم مثل البارحة ، يا غجراً ياموت
كم هو عذبٌ أن نذهبَ وحيدين معاً ،

معكَ أنتَ الذي لي
عبر هواء غرناطة ، غرناطتي . »

- ٣ -

كُنّا نراهمُ يشقّون طريقهم . . .
إنحتوا أيها الأصدقاء
أحجاراً وأغاني
في قلب « الحمراء »
قبراً للشاعر
ولتَبكِهِ نافورة مائها
وتقول الى الابد :
وقعت الجريمة في غرناطة ، غرناطته .

٦ ـ ميخائيل هيرناندز
« ولد في اليكانطا عام **١٩١٠** . مات في مستشفى السجن في اليكانطا عام **١٩٤٢** مصابا بالسل . ينتمي الى عائلة فقيرة جداً وقد كان في صباه راعياً للماعز . انتقل عام **١٩٣٤** الى مدريد واستقر فيها حيث تعرف على أشهر الشعراء في ذلك الوقت مثل نيرودا والكسندر . وعندما اشتعلت الحرب التحق فوراً بالجمهوريين وشارك في المعارك . وفي نهاية الحرب حاول الهرب الى البرتغال ولكن القي القبض عليه . وخلال إقامته في السجن حاولت جماعة من المثقفين الفرنسيين إطلاق سراحه ولكن دون جدوى . أصيب نتيجة ظروف السجن بسل حاد ومات في مستشفى السجن . صدرت له العديد من المجاميع الشعرية » .

أغنية جندي زوج

لقد ملأتُ جوفكِ حباً وبذاراً
وأطلْتُ صدى الدم هذا الذي أردُّ عليه الآن ،

علىٰ أخدودٍ وأنا انتظر مثل محرات
لقد أدركتُ الأعماق .

يا إمراةً سمراء ، أبراجاً عالية ، ضوءً عالياً ، عيوناً عالية
يا زوجة بشرتي ، يا كأس حياتي الطافح
ان نهديك المجنونين يكبرانِ نحوي
بقفزاتِ ضبيةٍ وليدة .

لقد أصبحتِ بالنسبة لي كريستالاً هشاً
أخشىٰ أن يتهشم بأقل تماس
وأن تنكسر عروقك مثل شجرة الكرز
عندما أضمها الى بشرة الجندي .

يا إمرأة بشرتي وقوادم أجنحتي
إنني أمنحكِ حياةً في الموت الذي يُسدّدُ لي دون جدوى
يا إمرأةً يا إمرأة
أحبُكِ مُسيّجةً بالطلقات
مشتهاةً من الرصاص .

على التوابيت الرهيبة المترصدة
وحتىٰ على الموت بلا أغطية أو حُفر
أحبكِ يا إمرأة
وأودُّ بكل صدري لو امتلككِ حتىٰ التراب

في ميدان المعركة

عندما تفكر فيك وتُبْدِعُكِ جبهتي
هذه التي لا يُخففُ وجهُك من الحمّىٰ فيها
تقتربين منيّ مثل فم هائل باسنانٍ يشحذها الجوع .

اكتبي لي في النضال واقتربي منّي في الخندق
هنا والبندقية في يدي ، أتحدثُ باسمكِ وأثبته ،
إدافع عن بطنكِ من التعاسات التي تنتظرني
وإدافع عن إبنك .

إبننا سيولدُ مشدود القبضة
في أغاني الانتصار والقيثار
وعلىٰ عتبتكِ سأترك حياة المقاتل
بلا أظافر وبلا مخالب .

من الضروري أن تقتل حتىٰ تستمرَّ بالعيش
يوما ما سأعود لظل شعرك البعيد
وفي الأغطية ذات الضجيج المنشاة التي خاطتها يداكِ
سأنام .

مستقيمةً نحو الخلاص تندفعُ سيقانُك العنيدة
وكذلك فُمك العنيد بالشفاه التي لا تُروّض
أمام وحدتي هذه حيث كل شيء ركام مسنّن وقابل للأنفجار
تمضينَ في طريق القبلات العنيدة .

لأجل طفلنا سيكون هذا السلام الذي اصنعه
ولكي انتهي في محيط العظام هذا الذي لا شفاء منه
سيظلُّ قلبانا وحيدين غريقين
إمرأة ورجل استنفذتهما القبلات .

٧ ـ جوزيه هيريرا بيتر

« ولدَ في جودالاجاد عام ١٩١٠ . ساهم منذ بداياته الشعرية بالنشر على صفحات مجلة «اكتوبر» . تطوع منذ اندلاع الحرب الاهلية في الجيش الجمهوري . حصل في عام ١٩٣٨ على جائزة الاداب الوطنية . إستطاع بعد نهاية الحرب اللجوء الى المكسيك . يعيش حالياً في جنيف . صدرت له العديد من المجموعات الشعرية . »

قطار الليل

يا قطار الليل ،
الذي يمر ،
مسعوراً ملتهباً بغاز الأسيتيلين
توقف عند هذا الشاطىء
يا حلزون الدخان
ولا تقتلع من عينيّ
هذه الزيتونات .

لم تعد هنا
شفاهُ النساء النائمة
والمبتسمة
لم يعد هنا ،
الاّ الوجوه القاحلة
الاّ القمر .
القمر الرهيب الاصفر الذي يسطعُ ثانيةً
الاّ النوافذ
سوداءَ ،
الليلَ ،
والحرس المدني الصامت .

٨ ـ رفائيل البرتي

« ولد في سانت ماريا عام ١٩٠٢ . حصل عام ١٩٢٤ على جائزة الآداب الوطنية . ترأس مجلة « اكتوبر » و « مونوازول » وشارك في تحرير مجلة أسبانيا الحرّة . بين عام ٣٦ ـ ١٩٣٩ : عمل سكرتيرا لاتحاد المثقفين المعادية للفاشية . عضو في الحزب الشيوعي الاسباني . كان في بيونس إيريس في الارجنتين وعاد الى اسبانيا بعد موت فرانكو . له مؤلفات شعرية كثيرة . »

صعبةٌ هي الأراضي في الخارج
هي الأراضي التي تتسع بالموتىٰ
هي !
حزينةٌ ، كم هي حزينةٌ في الوصول
واكثر حزناً في المغادرة
هي الأراضي التي تتسع بالالم
هي !

عندما يعاني القلب ،
تغنيّ
القمحُ جرثومُ معادٍ
للآتين .
البحر ! البحر !
كم من موجةٍ لا تعود !

أُغينةُ شاعر لا يريدُ أن ييأسَ

ماذا يعرفون عنك ؟
إنهم لا يعرفونك
أو يعرفونَ القليلَ جداً عنك .

وفي كل يوم يعيدونَ عليك
انهم وحدهم الوطن
وحتىٰ الهواء الذي نتنفس
ولكن ماذا يعرفونَ عنك ؟

أنتَ تيأس ، تعاني
ويغيب عنك النوم . . هل تذهب وتتركهم
ولكن الىٰ أين ؟
يقولون أنهم أنت
ولكن ماذا يعرفون عنك ؟

انتَ تيأس ، تموت من السكوت وتمضي . . .
ولكنك لا تريد الذهاب . . . ثم الى أين ؟
إذا كانوا هم أنتَ فأنتَ هم
بالرغم من أنهم لا يعرفون شيئاً عنك

٩ ـ شاعر مجهول

لكل لحظة إشتهاء

البهاءُ المشعُّ يغورُ في الربيع
أعرف ؛
كما في المساءات الأخرى ،
سيغمُر ضوء ذهبيٌّ هائل
المدينة المكومة في السهل .
في البعد ، الأرضُ تتجملُ بتيجانها من الازهار
والبنفسجات الشفافة

وعندما تغرب الشمس
كل شيء سكوت وفضاء .
غير أنّ هذا التجلي العميق لا يتوغل الى روحي .
لقد ضعتُ في أغوار الغابة
أبحث وانظر ما بين الاشياء
أو أشعر أنني أهبطُ فجأة
وبلا أكتراث الى مدينة أخرى
تُعلنها لي - وبهذيانٍ -
الاجراسُ
وقلبي .
صامتاً وحيداً في الهواء العدو وحيداً بين الجدار والزمن المقنع .
ها هي الساعةُ الحاسمة تدُق
لِتُنهَبَ مدينتُك الخاسرة
لِتَسنُدَ بغنائك هذهِ النجومَ المُذلّة .

أُحدق في سنواتي العجاف
سنواتي التي أمرّها الحنَد وأصفاها الفرح
سنواتي الخالية من الجمال المتيقظ
أحدّقُ واحدّقُ وحيداً .

يا لهُ من سجنٍ مُعتمٍ للتوَدُّد
وأنـظت أيها الربيع ، يا لك من خندق صاخب
ايُّ شمس عمياء فوق البحر الصحراوي !
أيَّةُ حَرْبةٍ للموسيقى تخترقُ قلبي !

يا للغرابة ، لو ظلّ القدر مكشوفاً هكذا

لايام أخرى ، ولليالٍ أخرى مرصعة بالنجوم
وانت تُصغي لاجراس نواقيس الخطر الرهيبة ،
للصرخات المعتمة ، لنظرة الزمن وهي تفرضُ لُغتها للضوء وللاغاني .

لكنني أواصل طريقي ، وفي الغيمة المحترقة التي يصنعها المجهول ، في كل ما هو موجود ، في الموجات الليليّة التي ينشرها الزمنُ على رمالي .
اتنفس وامضي مقتلعاً الاسرار ، ممزقاً الطحالب الخافقة انظرُ للجمرِ وللطير وهي تموت .

ثمة شيء يستقيم ، ربما
موجة مضطربة ، لهاث قاتل مأجور ، طلقات نارية ،
البحرُ بصوته المبحوح في الشوارع
أرىٰ شيئاً يقترب
ليحميَ حواضر وذكرياتٍ كريهة .

بينما كانت الريحُ تصفر
كنتُ أريدُ أن أُقربَ شمساً ذهبية من شُجيرة ورد خضراء
كنتُ أريدُ أن ألعقَ النحلات
وألامس سرطان البحر
كنتُ اريدُ أن أُرددَ الى الابد الكلمات المحلّقة
لكي تتلفظها تلك الشفاة التي أعبد ؛
الحرية . . .
وفي هذه الاثناء
اكتشفتُ الاشياء الحقيقية :
إني لوحدي أُغني الحرية
وصوتي هذا
يشهدُ علىٰ الصمت والدم

١٠ ـ شاعر مجهول

الينبوع

هنا في مفترق طريقين
كان ينبوع قديم
صامتاً أقتربُ
وفي الصخور أتاملُ
الجدول الذي ينبع
من هذه الغياهب الباردة جدا .

في العشب الدافىء
خمسٌ من زهرات الخشخاش الحمراء الجديدة
تدفعُ في الافق
بوحدتها الهزيلة .

في مساءٍ ما
قربَ هذا النبع الصافي سقطتْ خمسُ حيوات
حيواتٌ شابة .

بضعةُ خيوط من الدم
كانت تجري فوق المنحدر
تُعَمِّدُ الارض .

عشرُ سنوات مرّتْ
والصيفُ الآن

يُهدي أزهارَهُ الحمراء

هكذا أخذ الينبوعُ القديم
إسماً إسطورياً :
نافورةُ الموتىٰ

وهكذا تواصلُ الأرض نسيانَها
العذبَ الاخضرَ
في صمت الاعشاب .

١١ ـ جوزيه هيرو

« ولد في سانتا دار عام ١٩٢٢ . شارك في هيئة تحرير مجلة « برويل » حصل في عام ١٩٥٣ على الجائزة الوطنية للآداب وعلىٰ جائزة النقد عام ١٩٥٨ له مؤلفات شعرية عديدة . »

ريبورتاج

من هذا السجن ، يمكننا
أن نرىٰ البحر ، نتابع تحليق طيور البحر ،
والاحساس بنبض الزمن الذي يحيا .

هذا السجن يُشبه الشاطىء
الكل نائم فيه والامواج تتحطم على أقدامه
الصيف ، الربيع ، الشتاء ، والخريف
طرقات يتقدم فيها الأخرون ،
أشياء بلا فاعلية ، رموز صامته للزمن

(الزمن هنا ليس له معنىً)

في الماضي كان هذا السجن
مقبرةً . كنتُ طفلاً
أمرُّ أحياناً بهذا المكان ؛
أشجار للسرو سوداء ومرمر مهشم
وكان الزمن المتعفن حينها
قد نقل العدوى الى الارض
والعشب لم يكن فيها صرخة الحياة
وفي صباح ما
جاؤوا يحرثون برودة الارض
بالمعاول والبلطات وهكذا فقدت شجيرات الورد
والقبور والسرو والاسوار وجودها .
وأقامو مقبرة جديدة

للاحياء .

من هذا السجن ، يمكننا
أن نلمسَ البحر ، ولكنَّ البحرَ
والجبال العارية الباردة والاشجار التي ما زالت مطفأة
في التناسق الشاحب والشوارع التي تَفتح على الفجر
مراوحها الكبيرة . .
أشياءُ الخارج هذه
أشياء بلا فاعلية ، إبتداعات قديمة
طرقاتٌ يعدو بها الآخرون
أشياء هي الزمن

وهنا ليس لها معنى .
وفيما تبقىٰ فأن كل شيء
هادىء بشكل مرعب .

لماءِ الصباح
إرتداداتُ النافورة . . .
(خيوط من الماء
في الصباح . ظهور عارية
عيون يجرحها الفجر البارد)
كل شيء هنا هادىء
بشكل مرعب .

وهكذا الساعات . وهكذا
السنوات . وربما في فجرِ
خريف دافىء (نتحدث عن المسيح) نشعرُ
بان الزمن قد توقف (كان المسيح يقول للناس :
سعداءُ أولئك الذين يعيشون بنفوس بسيطة) .
ولكن المسيح ليس هنا
لقد هرب عبر المواجهة الزجاجية الكبيرة ؛
وهو الآن يجري في السهل
يركب السفينة وهو يصلي
على البحر الهادىء .

المسيحُ ليس هنا ، حيث يتلاشىٰ الخالدُ
ويظلُّ الفاني ؛ إمرأة شقراء ، يوم ضبابي ،
طفل نائم على العشب ، قُبّرة تمزق السماء ،

هذا هو الفاني ،
ما يجري وما يُغيّر
هو الذي يُمسكُ بنا ويشُدّنا
أتعطشُ للزمن لآن الزمن هنا
ليس له معنى .

رجلٌ يمر (عيونه مملوءة بالزمن)
كائن حي
يعدُّ الارقام ٤ ، ٥ ، ٦ . .
كما لو كان يرمي بالسنين الىٰ النسيان
فتىً من وديان
ليبانا . فلاح
وانتَ ترىٰ تحسُّ بأنك تسمعُ صوت أمة تقول
« لا تتأخر يا ابني »
كانت الكلاب تنبح .
بين غابات الصنوبر
تتفتح أزهار أبريل الزرقاء
كانَ يَعُدُّ ؛ ٥ ,٦ ,٧ . . . .
هادئاً كما لو كان يرمي بالسنين
الى النسيان .
السماء زرقاء أحياناً
رمادية ، بنفسجية أو ملتهبة بالضوء
مذهبة أحياناً ،
ذهب سماويٌ مسفوح .
ولكننا ندرك جيداً
من يُسطعُ هذا اللهب ويعطي للزنابق

بياضها ، من يمنح الاحمرَ
للخمر ، من يحلقُ
بين الغيوم ويأمرُ
بالفصول :

(طرقات يمشي بها الآخرون)
هنا ليس للوقت شكل مثل الماء المتشرد الذي
لا يحتويه النهر .

وأنا بين أشياء الزمن
أروحُ وأجيء سُدىً
ولكنني هنا
والزمن هنا بلا معنى
ضيّعتُ الابدية ؛ ملاك يَحُنُّ
الىٰ آثار الزمن .

لانه من دون برهان للزمن
لا حياة لي .

من هذا السجن ، يمكننا
أن نرى البحر ـ لم أعد أفكر في البحر ـ
يكفي أن أصغي لخيوط الماء في الصباح
أفتح طرقاتي الجديدة ،
لكي لا أشعر بالوحدة
لقرون وقرون من الزمن ـ

١٢ ـ بابلو نيرودا

« ولد في بيرال في شيلي عام ١٩٠٤ . وبعد أن حصل على الدكتوراه إنتقل الى العمل الدبلوماسي . عُيّن عام ١٩٣٤ قنصلاً في مدريد ومن هناك ترأس مجلة « كابالو » وكان قد صدر منها ستة أعداد عندما إندلعت الحرب الاهلية . الغت الحكومة الشيلية منصبه لموقفه في دعم الجمهوريين الاسبان . غادر إسبانيا الىٰ باريس حيث نظمّ عام ١٩٣٧ مؤتمر الكتاب الذي عُقد في مدريد في نفس العام . عاد الى بلاده ايام حكومة الائتلاف الشعبي حيث عُين قنصلاً في مدريد للمرة الثانية عندما كانت الحرب تقترب من نهايتها . وقد كُلِّفَ بترتيب استقبال المنفيين من الجمهوريين الىٰ شيلي .

قُتل أثناء الانقلاب الدموي الذي قام به بينوشه ضد حكم اليندي عام ١٩٧٣ .

شاعر معروف وله مؤلفات شعرية عديدة . حاصل على جائزتي « لينين » و « نوبل » للآداب . »

مدريد / ١٩٣٦

يا مدريد الوحيدة المحتفلة
لقد فاجأك تموز وانت مبتهجة

يا خلية النحل الفقيرة ؛
بهيّاً كان شارعُك
وبهيّاً كان حُلُمك .

عصبةٌ سوداء من الجنرالات
موجةٌ من جلابيب الكهنوتات الغاضبة
قد ألقت عند ركبتيكِ
مياهها الوحلة وانهار بصاقها .

مدريد ، بعيونكِ التي لا يزال يُجرِّحُها النعاس ،
بالنبادقِ وبالاحجار ،

بجراحك المبتلّة ،
كنتِ تدافعينَ عن نفسك
وتركضين في الشوارع
تاركة دمَك الغالي يجري
تنادين بصوتكِ الاوقيانوسيٍّ
وجهُكِ ؛
لم يُغيِّرْهُ تفجّرُ الدم
مثل جبل منتقم مثل
نجمة بسكاكين لاهثة
عندما في الثكنات الغيهبيّة
وفي اضغاث الخيانة
توغل سيفك
لم يكن هناك الا صوت الفجر
لم يكن هناك ، نعم
الا خطوتك الراياتيّة
وقطرة دم مجيدة
في إبتسامتك .

١٣ ـ لوي أراغون

« ولد في باريس عام ١٨٩٧ . ترأس لفترة الجمعية العالمية للكتاب . شارك في الحركة الدادائية ومن بعدها السريالية في بداية هذا القرن . ترك الحركة السريالية فور انضمامه الى الحزب الشيوعي الفرنسي . عاش في باريس وقد صدرت له مجاميع شعرية عديدة وقصص قصيرة وروايات . توفي في كانون اول ١٩٨٢ » .

سانتا إسبانيا

أتذكر هاجساً لا يمكن أن نسمعه
الا والقلب يرتعش والدم يلتهب

ودون أن تستردُ النار كقلب تحت الرماد
أو أن نعرف أخيراً لماذا السماء زرقاء .

أتذكرُ هاجساً يشبهُ هاجسَ عرض البحر
هاجساً يشبهُ صرخة الطيور المهاجرة
هاجساً كتمتهُ الحسرات
إنتقامُ ملح البحار من واطئيها .

أتذكرُ هاجساً كُنا نبوحُ به في الظل
في أزمنة بلا شمس ولا فرسان جوّالة
عندما كانت الطفولة تبكي وفي سراديب الاموات
كانت شعب يحلم بموتِ الطغاة .
كان يحملُ في إسمه الاشواك المقدسة
التي تبعثُ في جبهةِ إله دموعه الملونة
والاغنيةُ في البشرة مثل سفينة مثبتةٍ بالمرساة
كانت تُنعش جراحه وتفُتح آلامه .

لم يكن أحد يجرأ أن يُعطيه عهداً
في هذا الهاجس كانت ترنُّ كل الكلمات الممنوعة
عالمٌ قضى عليه الزُهريوّن القدامىٰ
وكان قد أتاك المستحيل .

ابحثُ عن كلماته الممزقة سُدىً
ولكن الارض لم يعد فيها غير دموع الاوبرا
دموعُه اللاهثة تتضاءل في الذكرىٰ
نداء الينبوع للينبوع في مساء المنشدين

إية ، أيتها الشوكة المقدسة ، لتبدأي من جديد
قديماً كنّا نُصغي اليك ونحن واقفون ، هل تذكرين ذلك
من يستطيع اليوم أن يجدّد ملحمتك
أن يعيدَ الصوت الى الغابات الصادحة التي صمتتْ .
أريدُ أن اصدقَ أنه لا تزالُ هناك موسيقىٰ
في القلب الغامض لبلاد سيمشي فيها
يوما ما الصُمُّ والمشلولون
علىٰ إيقاع الكوبلا .

وأن نشهد تاج الدم ـ رمز التعاسة
يسقط من جبهة الانسان
ويغني الانسان عالياً هذه المرة
كما لو كانت الحياة جميلة والزعرور مزهراً .

١٤ ـ برتولد برشت

« ولد في اوغست في البافيير عام ١٨٩٨ ومات في عام ١٩٥٧ . هرب عام ١٩٣٣ من ألمانيا وعاش متنقلا في عدد من البلدان ومنها الولايات المتحدة . إستطاع عام ١٩٤٨ فقط العودة الى ألمانيا . كاتب ومؤلف مسرحي شهير كما صدرت له العديد من المجموعات الشعرية . »

كان أخي طيّاراً

كان أخي طياراً
إستلم في يوم جميل أمراً بالالتحاق
أعدّ حقائبه
والىٰ الجنوب قادتهُ رحلتُه .

إن اخي فاتح
شعبُنا تنقصُه الاراضي

وغزو الاراضي عندنا
حلمٌ قديم .
إن الارض التي إحتلها أخي
تقع في مكان ما في سهول جوداراما
أرضٌ طولها مترٌ وثمانون سنتمتراً
وعمقها مترٌ وخمسون .

١٥ ـ يوجين غيللفك

« ولد في كارناك في منطقة بريتان الفرنسية في عام ١٩٠٧ . يعيش حالياً في باريس وقد اصدر العديد من المجاميع الشعرية . »

حوار

ـ الريحُ ، البرد ، الاعلام ، الليل
البرد ، الطلقات، الاعلام ، الدخان
نفثات سريعة بين الصرخات

ـ هذه الليلة في الساحات وفي الاجواء ،
ننتظر الموت بعد الانذار وسقوط الثمار

ـ هل تعرف ـ هؤلاء الذين كانوا يغنون والمدينه تحترق
هؤلاء ، الذين يأكلون العشب على أطراف البحر هؤلاء الذين يسقطون مجتمعين وهم يمشون نحو الطلقات .

ـ لقد حلّ التعبُ علىٰ أجفان النساء
لن يلدنَ قبل موت الفجر
الا اذا امتلأت الآبار بعرق الاسطبل
الاّ اذا ضغطتِ بيديكِ علىٰ وركي .
ـ ولكن في الليل تتواصلُ المسيرة التي لا حدّ لها .

ـ كان دمُكِ يضطرم
أتذكرُ ؛ في الحقل كنُتِ تسيرين
وكانت صرخةُ الوقواق التي لا تحتمل
تُذكرني بعُنقك الساخن
حيث الدم لم يعد يطيقُ البقاء فيه .

أيتها الشمس التي تقتات على البشرة
والشواطىء الصارخة من الجوع
إن صرخات الطيور المذبوحة
تجعل الاشجار المحنيّة على أطراف المستنقعات أكثر استقامةً ،
حيث الاسماك تنزع أصدافها علىٰ البركة الظمآنة .

تريستان تزارا

« ولد في رومانيا عام ١٨٩٦ . جاء الىٰ باريس . وشارك مع بريتون في تأسيس الحركة الدادائية والسرياليّة . صدرت له مجموعات شعرية عديدة . »

إسبانيا/ ١٩٣٦

فُتوُةُ الخطىٰ في الرماد
الشمسُ تنزع الوشاح عن صممكِ الصباحي
عندما يندنس الثعبان ليحرثَ
في سبائك الكريستال البطيئة
القنزعات المدبوغة بالجلد والحليب
تحت القُوّة الفحولية للطيور
دفعتُ بالصرخة ، باسلحة الشتاء
إبكين ، أيتها النساء إذا ما قال لكُنّ القلبُ ذلك سيمحو الملاحون دموعكُنّ .

ولكن وراء خطوط الركام

ما هي إشعاعه الخمر الابيض هذه ،
حيث الكلام السائلُ فيها يُرَجحُ عودة
الغربان الثقيلة في جرّةِ العالم
إن قساوة الشِباك
تحملها أيدٍ للقوت
والهواء الذي لا يتعب
الىٰ الاجراس المسمّرة
بعكازات الموت البهلوانية المنتصبة عالياً
في إختلاجات المصابيح .

في مكان ما
بلادٌ رُبطَ بها البحر
إنه الذهبُ المعلق في حانات الاسماك
الاكياس المنفوخة بالموت
فراش ، فراش آلامه تصطك على زجاج النهر
سماءٌ متنافرة مزقاً ، مسكونة بالنعاسات الصديقة .

أرضٌ خاسرة
لم تخضع قط
بين الحماسات القديمة المتعددة
وأُخوّةُ أساطير الرجال العطشى
شعلةَ ضحكات الغد .

١٧ ـ بول إيلوار

«ولد في ضواحي باريس في منطقة سان دوني عام ١٨٩٥ . ومات في باريس عام ١٩٥٢ . في نهاية الحرب العالمية الاولى شارك في الحركة الدادائية كما ساهم في الحركة السريالية مع بريتون واراغون . دخل الحزب الشيوعي الفرنسي في عام ١٩٢٦ وتركه عام ١٩٣٣ . زار إسبانيا أثناء الحرب الاهلية . صدر له العديد من المجاميع الشعرية . »

إنتصار جورنيكا*

- ١ -

عالم اكواخ جميل
منجم وحقول .

- ٢ -

وجوه طيبة في النار . وجوه طيبة في البرد
في رفض الليل والاهانات والضربات .

- ٣ -

وجوه طيبة في كل شيء
ها هو الفراغ يثبتُكَ ؛
سيصيرُ مُوتك مثالاً .

- ٤ -

الموتُ قلبٌ مقلوب .

- ٥ -

لقد جعلوكِ تدفعين ثمن الخبز
ثمن السماء والارض والماء والنجوم
ثمن تعاسة حياتِك .

- ٦ -

لقد كانوا يقولون أنهم يحلمون بالذكاء الجيد
يقوّمون ا لأقوياء ويحكمون علىٰ المجانين .
يقدّمون الصدقة ويقسمون الفلس نصفين
يحيّون الجثث
ويثقلون أنفسهم بالمجاملات .

- ٧ -

مواظبون مبالغون ليسوا من عالمنا .

- ٨ -

للنساء وللأطفال نفسُ الكنز
أوراق خضراء للربيع وحليبٌ صافٍ

وديمومةً

في عيونهم الصافية .

- ٩ -

للنساء وللأطفال نفسُ الكنز

في عيونهم

يدافعُ عنه الرجال ما إستطاعوا .

- ١٠ -

للنساء وللأطفال نفسُ الأزهار الحمراء

في العيون

كلُ منهم يظهر دَمَهُ

- ١١ -

الخوفُ والشجاعة في الحياة وفي الموت

الموت كم هو صعب وكم هو سهل .

- ١٢ -

أيها الرجالُ الذين من أجلهم أقيم هذا الكنز

أيها الرجالُ الذين من أجلهم هُدّم هذا الكنز

- ١٣ -

أيها الرجال الحقيقيون الذين لهم يُغذّي

اليأسُ النارَ التي تفترسُ الامل ؛

لنَفْتَحْ معاً بُرعم الامل الأخير .

□

[عن كتاب « رومانسيرو الحرب الاسبانية] الذي صدر باللغة الفرنسية بطبعته الثانية عن دار ماسبيرو عام ١٩٧٦ . نقل القصائد من لغاتها الاصلية الى الفرنسية عدد من المترجمين أهمهم كلود كوفون الذي قام بترجمة النصوص الاسبانية وجمع الانطولوجيا والتقديم لها . كما أن القصائد المنشورة هنا عبارة عن مقتطفات .]

---

* القريه التي أبادها الفاشست الاسبان اثناء الحرب الاهليه

عـــزلة أمريكـا اللاتيـنية

[كلمة غبرييل غارسيا ماركيز في حفل تسلمه جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢] .

انطونيو بيغافيتا ، الملاح الفلورنسي ، صاحب ماجلان في رحلته الاولى حول العالم ، كتب ، عند مروره بالاراضي الجنوبية من قارتنا الاميركية وقائع دقيقة ، هي ، في الوقت نفسه ، مغامرة للمخيلة . يتحدث فيها عن خنازير سُرَّتها على صلبها ، عن عصافير لا أرجل لها ، أناثها تحضن بيضها فوق ظهور ذكورها ، عن بطريق دون لسان ، بمنقار على شكل ملعقة . ويصف حيوانا خرافياً له رأس وآذان بغل وهيكل جمل ، وأقدام أيل ، وصهيل جواد . يحكي كيف قدم المستكشفون مرآة لأول شخص صادفوه من اهل البلاد في باتاغونيا **patagonie** ، ولكن رعب العملاق من صورته جعله يفقد عقله .

هذا الكتاب الصغير الساحر ، الذي نحدس فيه ، منذ ذلك الحين ، بذور رواياتنا اليوم لا يشكل ، برغم ذلك ، الشهادة الأكثر إدهاشاً عن واقعنا آنذاك . مؤرخو وقائع الهند تركوا لنا أيضاً شهادات متعددة . آلدورادو ، بلادنا الوهمية المشتهاة ، غيرت مكانها وشكلها ، في كتب الخرائط ، زمناً طويلاً ، تبعاً لمخيلة راسميها . وفي بحثه عن نبع الشباب ، جاب الأسطوريُّ الفار فونيز كابيزا دوفاكا ، شمال المكسيك خلال ثمانية أعوام ، على رأس حملة مجنونة ، بقي منها خمسة رجال فقط من ستمئة رجل كانوا في البداية ، بعد أن وصل لهم الأمر إلى أن بعضهم بعضاً . وواحدة من الخفايا الكثيرة التي بقيت دون جواب ، هي تلك الأحدى عشرة « ألف بغل » ، التي خرجت من غوزكو ، يحمل كل واحد منها خمسين كيلو من الذهب ، لدفع فدية آتا هواليا ، ولكنها لم تصل إلى هدفها أبداً » .

وفي المرحلة الاستعمارية ، كانوا يبيعون في كارتاجين دجاجات مسمنة في أراض غرينية ، تحوى قوانصها تبراً ذهبياً . هذا الهذيان المذهب لمؤسسينا لاحقنا عبر تاريخنا كله . حتى في القرن التاسع عشر ، فقد قررت البعثة الألمانية المكلفة بدراسة انشاء خط حديدي بين المحيطين في باناما ، امكانية المشروع ، بشرط أن تكون السكة الحديدية ، لا من الحديد ، معدناً نادراً في هذه المنطقة ، ولكن من الذهب .

التحرر من السيطرة الاسبانية لم يحمنا من الجنون . والجنرال انطونيو لوبيز دوسانتا ، ديكتاتور المكسيك ثلاث مرات ، نظم مأتماً فخماً لدفن ساقه اليمنى التي فقدها في الحرب التي تسمى « حرب الحَلوى » . الجنرال غارسيا مورينو حكم الاكواتور ، مثل ملك مطلق خلال ستة عشر عاماً ، وأبقيت جثته ،بثياب الحفلات ، مصفحة الصدر بدرع من الأوسمة ، جالسة علي كرسي الرئاسة . الجنرال ماكسيمليانو هرنانديز مارتنيز ، الطاغية المتصوف في السلفادور أباد ٣٠ ألف فلاح في مذبحة وحشية . وكان قد اخترع نوّاساً لاكتشاف المأكولات المسمومة ، وغطى المصابيح بورق أحمر لمحاربة وباء الحمى القرمزية . ونصب الجنرال فرانشيسكو مورازان في ساحة تيجسيجالبا الكبيرة هو في الحقيقة تمثال للمارشال ناي ، اشتُرِي بسعر مخفض في مخزن للتماثيل المرمية في باريس .

منذ أقل من أحد عشر عاماً ، من كلمته ، جاء واحد من أكبر شعراء عصرنا التشيلي بابلونيرودا ، لينير هذا المجمع . ومنذ ذلك الحين انبثقت الأخبار التُّرَّهية عن أمريكا اللاتنية ، بقوة في الضمائر النقية ، في أوروبا ، وحتى في ضمائر أقل نقاء . اميركا اللاتينية هذه وطنٌ كبير لرجال هاذين ، ونساء تاريخيات ، عنادهن اللامتناهي يمتزج بالأسطورة . لم نعرف لحظة هدوء واحدة ، رئيس برومثيوسي مات معتصماً في قصره الملتهب وهو يحارب ، وحيداً ، جيشاً كاملاً .

حادثا طائرة مشبوهان لم تتوضح حقيقتها حتى الآن ، قتل فيها رئيس بقلب كبير ، وعسكري ديمقراطي عرف كيف يعيد إلى شعبة العزة . عرفنا خمس حروب ، وسبعة عشر انقلاباً ، وظهور ديكتاتور شيطاني ، يبدأ ، باسم الله ، أول مذبحة عرقية في اميركا اللاتينية المعاصرة . وفي هذا الوقت ٢٠ مليون طفل من أميركا اللاتينية ، اكثر عدداً من أولئك الذين ولدوا في أوروبا الغربية منذ العام ١٩٧٠ ، يموتون قبل أن يحتفلوا بعيد ميلادهم الثاني .

ما يقارب ١٢٠ ألف شخص اختفوا نتيجة القمع ، كما لو أننا فقدنا كل أهالي مدينة

اوبسالا . نساء حوامل سجينات ولدن في السجون الأرجنتينية . ولكننا نجهل ، حتى الآن ، مصير وهوية أطفالهن ، الذين أعطوا ، سرياً ، للتبني ، أو سجنوا في ماتم من قبل السلطة العسكرية أكثر من ٢٠٠ ألف رجل وامرأة ماتوا في القارة ، لأنهم أرادوا ان يضعوا حداً لهذا كله ، من أكثر من ١٠٠ ألف في ثلاثة بلاد عنيدة من أمريكا اللاتينية : نيكاراغوا ـ السلفادور ـ غواتيمالا . أي ما يعادل أن يكون قد مات ، موتاً عنيفاً ، مليون و ٦٠٠ ألف شخص في الولايات المتحدة خلال أربع سنوات .

تشيلي ، بلد التقاليد الكريمة ، كانت من هجرة مليون شخص ، أي ٤٠ ٪ من سكانها . الأورغواي ، البلد الصغير المكوّن من ٢,٥ مليون نسمة ، والذي كان يعتبر الأكثر تحضراً في القارة ، فقد ، بالنفي ، مواطناً من أصل خمسة . الحرب الاهلية ، في السلفادور ، نتج منذ العام ١٩٧٩ لاجئاً كل عشرين دقيقة . والبلد الذي نستطيع تعميره من كل المهاجرين المجبرين ، والمنفيين ، من أميركا اللاتينية ، سيكون عدد سكانه أكثر من عدد سكان النروج .

أجرؤ على الظن بأن هذا الواقع الفاحش ، وليس فقط تعبيره الأدبي ، هو الذي لفت ، هذا العام ، انتباه أكاديمية الآداب السويدية . إنه واقع ليس كتابياً ، ولكنه يحركنا ، ويحدد كل لحظة ، من قوتنا اليومي المتعدد ، ويغذي نبع الخلق النهم ، المليء بالتعاسة والجمال ، حيث يكون هذا الكولومبي ، المتشرد المترع بالحنين ، رقماً بين أرقام كثيرة ، مسحوباً بالمصادفة وحدها .

شعراء ومتسولون ، موسيقيون وأنبياء ، محاربون ومثقفون ، كل مخلوقات هذا الواقع المتفلت ، ما كان علينا أن نلتمس الخيال ، لأن تحدينا الكبير ، على العكس من هناك ، هو عدم كفاية الوسائل التقليدية في جعل حكاية وجودنا هذا قابلة للتصديق . هذه ، يا أصدقائي ، عقدة عزلتنا .

إذا كانت هذه الصعوبات تقف في وجوهنا ، نحن الذين نشارك في جوهرها ، فكلٌ يستطيع أن يفهم كيف عجزت المواهب العقلية المولودة في هذه الجهة من العالم ، والمسحورة بتأمل ثقافتها الخاصة ، عن أن تجد منهجاً مُرْضياً يسمح بقراءتنا .

لا أدعي تجسيد أوهام تونيو كروجر التي مجدها توماس مان ، في هذا المكان ، منذ ٥٣ عاماً ، أحلام الوحدة بين شمالٍ عفيف وجنوب مشبوب الأهواء . ولكني أعتقد أن الأوروبيين ، الذي يرون بوضوح في هذه المسألة ، واولئك الذين يناضلون هنا من أجل أكثر انسانية ، وأكثر عدالة ، يستطيعون مساعدتنا أكثر ، إذا أعادوا النظر ، عميقاً ، في

الطريقة التي يروننا بها . والتضامن مع أحلامنا لن يجعلنا نحس انفسنا أقل وحدة ما لم يترجم التضامن ، هنا إلى أفعال داعية في مساندة شرعية للشعوب التي تتعلق بأمل الحصول على دورها الخاص بها ، المشارك في حياة العالم .

اميركا اللاتينية ترفض ، وليس هنالك من سبب كي تقبل ، أن تكون حجر شطرنج ، دون اختيار حر . وليس وهماً ان تطمح الى أن تكون أهدافها في الاستقلال والأصالة أمنية غربية . ومع ذلك ، فإن تطور وسائل المواصلات . التي قلصت المسافات بين أمريكا وأوروبا تبدو وكأنها ، على العكس ، زادت المسافة بين ثقافتنا . لماذا يقبلون ، دون تحفظ ، أصالة أدبنا ويرفضون ، بكل أنواع الريبة ، أن تطبق هذه الأصالة على مشاريعنا الصعبة في تغيير مجتمعاتنا ؟ لماذا يفكرون في أن هذه العدالة الاجتماعية نفسها ، التي تجهد الطليعة الأوروبية لفرضها في بلادها ، لا تستطيع أن تكون هدفاً يعمل من أجله الأميركيون اللاتينيون في شروطهم المختلفة ، بمناهج مختلفة ؟ لا : العنف والألم الفائضان في تاريخنا هما نتيجة عدة قرون من الظلم والمرارة لا توصف ، وليسا بفعل مؤامرة مدبرة على بعد ٣ الآف فرسخٍ من بلادنا . لقد صدّق هذا عدد كبير من المسؤولين والمثقفين الأوروبين بصبيانية جدٍ عجوز نسي جنون الشباب الخصب ، كما لو أنَّ ليس هناك من قدر آخر إلا العيش في رحمة أسياد العالم . هذا هو ، يا أصدقائي ، حجم عزلتنا .

غير أننا ، في وجه القمع والدمار والتخلي ، جوابنا هو الحياة . لا الطوفان ولا الأوبئة ، ولا المجاعات ولا الكوارث ، ولا حتى الحروب الدائمة التي تتكرر من قرن إلى قرن ، لن تستطيع أن تنقص التفوق العنيد الذي يكبر ويتعمق : في كل عام عدد الولايات لا يتجاوز ب ٧٤ مليون عدد الوفيات ، عدد كافٍ من الأحياء كي يضرب في سُبْعِ عدد سكان ينويورك . والأغلبية تلد في البلدان الأقل غنى ، ومن بينها ، طبعاً ، أميركا اللاتينية . أما البلاد الغنية فقد استطاعت أن تجمع قوة هدم كافية كي تحول إلى غبار ، مئة مرة ، لا الناس الذين عاشوا على الأرض حتى الآن فقط ، بل كل المخلوقات الحية التي مرت بكوكب البؤساء هذا .

في يوم مثل هذا ، قال هنا معلمي وليم فوكنر : « أرفض لنفسي أن أقبل نهاية الانسان » . وما كان يمكن لي أن أشعر بنفسي أهلاً لاحتلال هذا المكان الذي كان له ، لو لم أكن واعياً تماماً ، أنها المرة الأولى ، منذ البدايات ، التي تصير فيها المصيبة الكبيرة التي كان يرفض أن يعترف بها منذ ٣٢ عاماً ، مجرد احتمالٍ علمي :

في وجه هذا الواقع المرعب ، الذي كان نوعاً من « اليوتوبيا » في الزمن الانساني ، منذ بداياته ، نحن ، مخترعي الحكايات ، الذين نؤمن بكل شيء ، نعطي الحق في التفكير بأن الوقت ليس متأخراً للانطلاق في خلق « يوتوبيا » مناقضة ، سيكون فيها مستحيلاً ، على أي كان ، أن يختار للآخرين حتى شكل موتهم ، وتحصل فيها السلالات المحكومة بمائة عام من العزلة ، على فرصة ثانية على الأرض ، وإلى الأبد .

غبرييل غارسيا ماركيز

ترجمته عن الفرنسية :

سلوى نعيمي

ماركيز
وغريزة الحيوان النادر

مرة اخرى يستفيق اكاديميو استوكهولم من خدرهم الاكاديمي اللذيذ والنار تشتعل في لحاهم ، فهدير ملايين القراء دوى في آذانهم المشعرة ، فقرروا ، وهم يعرفون انهم سيندمون على قرارهم فيكفرون عنه في سنوات مقبلة برفع عدد من كتاب لا يعرفهم الا « مافيا » الفكر ؛ قرروا اللهاث وراء نبض الناس ، فمنحوا امير التلقائية ، المنعزل الأكبر غابرييل غارثيا مركيز جائزة نوبل للآداب .

وعندما اتصل به ممثل الأكاديمية ليعلمه بالخبر ، سمع هذا سيلاً من الشتائم بموسيقى اسبانية رفيعة ، عجز ، بالطبع ، عن فهمها ، واغلق غابو « هكذا كانت تسمية زوجته مرسيدس » الخط وهو يظن ان صديقاً ينتمي الى الكولونيل الذي لا يكاتبه احد ، شعر كعادته في شهر اوكتوبر - « وكأن حيوانات تتحرك في أمعائه » ، فقرر ان ينتقم من ماركيز بلغة ذات لكنه لعينة . لكن الهاتف رن مرة اخرى . وبصبر وقور ، وتهذيب اخجل الكاتب عديم الحياء ، اعاد عليه الخبر ورجاه ان يبقيه سراً حتى الاعلان الرسمي .

جلس ماركيز امام مكتبه الذي تكدست عليهٌ ترجمات بسبع وثلاثين لغة لروايته قبل الأخيرة « قصة موت معلن » والتي بيع منها عشرون مليون نسخة . . .ثم اطلق تنهيدة ارتياح ، فمنذ سنوات وهو يشعر بالضيق في شهر اوكتوبر ، منذ الوقت الذي اخذت فيه الاشاعات تضعه بين المرشحين لجائزة نوبل .

ماركيز هو رابع اديب من امريكا اللاتينية يخرق شبكة جائزة نوبل التي حاكتها ايدٍ خبيرة بالصراعات السياسية الطاحنة . قبله فازت بها سمكة تشيلي الفضية الشاعرة غابرييلا ميسترال في العام ١٩٤٥ ، والغواتيمالي ميغيل استورياس بمسوحه القاسي ، وبباباه الأخضر

في العام ١٩٦٧ ، وذئب امريكا اللاتينية الأغبر ، الرجل البركاني الوديع بابلو نيرودا ١٩٧١ ، ولا يزال ينتظرها كتاب كبار في حجم القرن امثال الارجنتيني ذي فم الذهب بورغيس ، المرشح ، هو والبرتي نسر الجبال الوهاج ، منذ سنوات ، لجائزة نوبل ، وغيلن الصافي كنبع مهجور ، وأمادو نمر الباهيا الأرقط ، وكاربنتيه الكوبي ، تاج الأسرار ، ورفاقهم خوان رولفو وفارغاس ليوسا ، واوكتافيو باث . . . ولا نقفل قائمة من جددوا شباب الأدب العالمي بعد ان نزعت اسنانه غمغمات اوروبا العجوز ، الذي لا يزال منطقها القاسي البالغ الذكاء يثير اعنف الغضب .

لم يعد عالم القراء يبالي كثيرا بجائزة مخترع الديناميت كما كان من قبل ، جاءت ازمان وازمات استطاعت فيها الاحقاد الاستعمارية ، والأصابع الصهيونية والتعصب القومي ، ان يحولوها الى مسخرة .

اربعة كتاب فقط من القارة الملتهبة يفوزون بالجائزة منذ تأسيسها في العام ١٩٠١ ، بينما وزعت ثلاث عشرة جائزة على كتاب من الدول الاسكندينافية يجهل جمهور القراء نتاج اغلبهم .

تولستوي العظيم نفسه داعي السلام الأول ، لم يحظ بجائزة السلام التي انشئت في زمنه . ومنذ فترة قريبة مات أراغون الجبار ، احد اهم القامات الشعرية والروائية والثقافية في عصرنا ، دون ان تلاحظه مونوكلات دهاقنة الاكاديمية الملكية ! ولكنهم لاحظوا صراصير أدبية من امثال الامريكي سينجر ، الذي يكتب بلغة اليديش التي يفهمها الحاخامات الدمويون الذين يلبسون « طاسات الرعبة » على صلعاتهم ، والاسرائيلي اغنون الذي عملقته مكبرات الصهيونية ، والروسي المرتد سولجينسين الذي نصب نفسه مسيحا للقرن العشرين فنُسي قبل ان يصلب .

وحتى اليوم لم تقم مملكة الأكاديمية علاقات دبلوماسية ، لا مع القارة السوداء فطساء الأنف ، ولا مع العالم العربي الكئيب بعباءته وعقاله ، واستكثرت على مليار صيني ان ينجبوا نجماً مبدعاً ، ولا اعترفت أن هؤلاء الفيتناميين ، القصار القامة ، المنحرفي العيون ، الذين يقاتلون ببسالة منذ الف سنة ، ويهدلون بالشعر كالحمائم ، يمكن ان تزهر حقولهم الا بالأرز وملح البارود .

ولكن الناس لا ينتظرون قرار هؤلاء السادة النخب ليقرأوا ايتماتوف ، وراسبوتين ، وكورتاثار ، وخايتوف ، وغيرهم ، وغيرهم ، من سادات الابداع الادبي ، فتاثير الكاتب

ومن الطريف ان ماركيز نفسه ، الذي حاز على الجائزة الرفيعة ،يكتب منذ مدة قصيرة في مقاله الاسبوعي الذي يصدر كل اربعاء ، في اربع من اوسع صحف كولومبيا والمكسيك واسبانيا وانجلترا انتشاراً تحت عنوان « جائزة نوبل للموت » : اقترح منح هذه الجائزة للمجرم شارون لما « أبدعه » في لبنان ، وطالب بالجائزة كيلا يتميز الجزار بيغن عن صديقه بشيء .

□

انطلقت الرواية ، في امريكا اللاتينية ، من الاسار الذي وقعت فيه الرواية الواقعية بأجنحة الخيال الوثابة ، رفضت السرد المجلل ، واكتفت باللمحة التي تطلق الشرر امام عيني القارىء ، انها رواية دائرية ، ولكنها تسير الى امام باضطراد ، وهي تتجدد بين يديك ، تحس بثقلها وخفتها بالتناوب ، وتحذف الواقع لتقدم لك خرافة واقعية بصورة لا تصدق ، شيوخ يموتون ثم يحيون من جديد ، اناس يطيرون في الهواء ، شبكات صيد تخرج من البحر فيلة وسعادين وسيركا اقتلعته الرياح ورمت به في البحر . . . تقرأ وتصدق ، تعود الى طفولتك حينما كان الجدة تقص عليك الحكايات ، وتخلق واقعا لا شك في وجوده ، موجود اكثر من الوجود ومن الجدة نفسها . . . استفادت الرواية الجديدة في امريكا اللاتينية من حكايا الف ليلة وليلة ، ومن ادب العصور الوسطى ذي الخيال الحر . لقد كانوا يصدقون في ذلك الوقت ، ان رأس الفارس قد قطع اربع مرات ، وفي كل مرة يعود الى مكانه ، وكان سرفانتس ، ملك هذا الابداع ، ومن هذا الكنز المسحور امتاح الادباء الشباب في امريكا اللاتينية ، لم يسم الشاعر الاعظم نيرودا ماركيز « بسرفانتس العصر » فالسلطان المطلق هو للمخيلة كما يقول ماركيز ، لتخلق عالما آخر ؛ عالماً نشطاً ، مسحوراً ،اقرب الى قلب الانسان ، اكثر فعالية في توعيته ، اعظم دفعا له على التغيير ، بواسطة اللغة الحية ، التي تجدد نفسها كل لحظة ، وتتفجر شظايا بروق وشعلاً وجمرات حكمة ، بيكاسو اجترح المعجزة بأن خلق عالم الواقع المتحرك الانساني من الواقع الثابت في عيون الفوتوغرافيين .

وها هو مركيز ينهل بجنون في الخرافة ليصنف الى الواقع الوجة الآخر القابع في الظل والرطوبة « كانت اعظم مشكلة هي ان اهدم الخط الفاصل بين الواقعي والوهمي » يقول ماركيز . اختلاط العالمين ، ثم تمازجهما ، انشأ عالماً من احلام ومشاعر ، تقوده ثوابت ارضيه ، واحداث تاريخية فاجعة ، وتشده حبال مقصبة مهتزه الى النجوم ، تعصر المغامرة ، والمعجزة روح الانسان حتى تخرج منه الإقدام المستحيل ، والأهواء البشرية ، والطبقات الاجتماعية المتناحرة تصطدم في هذا العالم كصخور البراكين ، يدورون كيوم الحشر باحثين عن معنى حياتهم ، ويقتتلون في سبيل الكرامة والعدل والاخوة الانسانية ، الصراع الملحمي

هنا كوني ، تشترك فيه ، الى جانب البشر ، الافاعي ، والتماسيح ، والفهود الى جانب الفراشات والطحالب وغبار النجوم . . . في هذا العالم العجيب المدهش يعيش الانسان حقا ، ولكنه لم يره إلا بفضل ماركيز وامثاله . ان القارىء يريد ان يعرف اكثر من ثمن البطاطا كما قال ماركيز . . وهو ليس بحاجة الى من يحدثه عن الفواجع التي يعرفها غيباً ، والتي تغطي جلده كالعرق ، انه بحاجة الى اجنحة ، والى عين نسر ، وقلب نمر لا يهاب ، والى الايمان بعالم رائع يجب ان يقاتل لكي يستحقه ، يقاتل اولاً من حولوا الناس الى بغال طاحون ، وربطوا عيونهم حتى يظنوا انهم يسيرون الى الأمام . . . الى الأمام ، لا في الدائرة الغبية المهينة .

إنه ادب يربط الثورة بالابداع ، والابداع بالثورة ، ويربط كليهما بقدرة الانسان على التجاوز ، وعلى اطلاق فراشات مخيلته ، وفتح قلبه للزلازل ، ادب لا يتقيد بقيود الأصول والحبكة ، ادب ثوري وتقدمي لانه مبدع ومتجدد « كل ما يحد من حرية الخلق هو رجعي » يقول ماركيز ولك الادوات ممكنة اذا كان الهدف هو الوصول الى قلب القارىء وعقله : « كل امر مباح للكاتب اذا استطاع ان يقنع الآخرين بما يروي » .

كل هذا يحتاج الى لغة جديدة ، لغة ليست كتلك التي كتبها بوينيديا على الاشياء في زمن فقدان الذاكرة ، لغة تتخلص كل سنه من جلدها وقرونها كالافاعي والوعول ، ويعترف ماركيز ، وكتاب وطنه ، بقيمة اللغة الاسطورية :« فاللغة تسمو بمستوى السحر الروائي ، وتخلق الجو الذي يتعرف فيه البشر الى انفسهم واهوائهم وتأسر القارىء ، وتنقله الى عالم مختلف » كذلك يقول براسو ، ويجب على اللغة ان تبحث عن صيغتها في قلب المضمون ، إنها أهم اجزائه فتنة وحيوية وقدرة اقناع ، : « الحقيقة لا تبدو حقيقة لانها كذلك ببساطة ، بل بفضل الصيغة التي تصاغ بها » . ومن بعده جوزيه اركاديو ، لتحويل المعادن الى ذهب : اختزال هذا هو جدل ماركيز واصدقائه المرهق ، والذي صارع فيه ماركيز الكلمات والصيغ بالضراوة نفسها ، التي صارع فيها اجداده الهنود البوا ، وتماسيح الامازون ، حتى وصلوا الى البناء الروائي الدائري المحكم ، والذي ينفتح مع ذلك ، من كل الجهات لكل هوام الأرض ، وناسها ، اتين اليه مع مهبات الريح .

يلفت النظر بشدة كيف ترجم ماركيز حياته الثورية الطويلة ضد الديكتاتورية ، وضد الظلم في كل مكان الى هذا الشكل من الأدب ، هذا الملتجىء الى السفارات ، والمنافي ، هرباً من قبضة الدكتاتورية ، لم يسطح تجربته الثورية بالمعنى المبتذل والشائع لمفهوم التزام . الادب ليس منشورا ثوريا او نسخا تجزيئيا لجوانب الواقع . ان ادباً كهذا ضد مفهوم الثورة

نفسها ، فمنذ ان اطلق ايزنشتاين صرخته « الثورة في الفن والفن في الثورة » والمبدعون الثوريون يبحثون بدأب ، وشغف ، وحمية ، عن اشكال فردية ، لا عن نماذج في طرق اتحادهم الوثيق بالقراء ، وقد حققوا منجزات تركت وستترك اثراً حتى عند السياسيين الثوريين ، الذين تقوقعوا على مفهوم واحد وحيد للواقعية .

ماركيز لا يخفي انتماءه السياسي « اعتقد ان العالم سيصبح اشتراكيا ؛ عاجلا او آجلاً ، بل اتمنى ان يصبح اشتراكياً ، وخير له ان يحدث ذلك في اقرب وقت ، على اني أومن كذلك ان انتشار الأدب الرخيص من شأنه ان يعيق هذه المسيرة » . كيف هذا ؟ لأن الأدب الرخيص عاجز عن الكشف ، عاجز عن الرؤيا ، عاجز عن ان يبرر نفسه ، ويقنع الآخرين ، ويثير خيالهم ومشاعرهم ، إن الالتزام جبة فضفاضة تخلق الثوري ، والديماغوغي ، والبيروقراطي ؛ وحتى الدكتاتور . والكاتب الثوري ملتزم دون ان يبلي حنجرته بالنعيق :« ان واجب الكاتب السياسي الثوري ان يكتب جيداً . هذا هو التزامه » .

انها مغامرة كبرى معالجة السياسي الجمالي في آن واحد ، إنها كما يقول فوانتيس : « ثمة جوادان : الجمالي والسياسي ، والروائي الامريكي اللاتيني غارق في المهمة الصعبة : ان يمتطي الجوادين في آن واحد » .

ولكن ماركيز ، أمير التلقائية ، الكادح ليلاً نهاراً ، ليحافظ عليها نضره ، وابن المخيلة التي فاق بها ساحرات الهنود ، استطاع دمج الجوادين في رهوان له ايطلاظبي وساقا نعامة ، ذلك انه كان يهتدي ، كسكان الغابات العذراء ، « بغريزة حيوان نادر » كما يقول عنه براسو . وياله من حيوان مفترس في غاية الظُرْفِ والوداعة .

سعيد حورانية

اقواس

مقدمة لدراسة شخصية العربي في الأدب الصهيوني

يحاول عدد من النقاد الاسرائيليين، المتشبعين بالفكر الصهيوني، تسويغ وحشية الادب الصهيوني، لا سيما ما يكتب الان في اسرائيل، بالصراع العربي - الاسرائيلي فحسب. ان هذا النمط من التفكير هو تضليل من الناحية النظرية، وغير صائب من الناحية العملية، بالنسبة لظروف ونتائج الأدبين.

وقد ذهب احد هؤلاء (البروفيسور شموئيل موريه) الى ابعد من هذه المحاولة بكثير، حين انبرى يؤكد ان غالبية النتاج الادبي العربي المعاصر، الذي تعامل مع النماذج اليهودية «كان مشرّعا امام شتى التأثيرات الخارجية، بدءا بالقرآن الكريم والحكايات الشعبية وانتهاء بما اسماه اللاسامية الاوروبية بعامّة، والنازية بخاصة».

كتب يقول:

« في حالات الصراع بين شعبين يحاول كل طرف تشويه شخصية الطرف الآخر، والتدقيق في سلبياته عبر عدسة مكبرة. ويؤدي التوتر الناجم عن الصراع الى تصعيد الاتجاه، لدى كل طرف من الطرفين، إلى ابراز المتناقضات الاجتماعية والثقافية والدينية، وتشويهها الى حد التأكيد على التمايزات في المظهر الخارجي مثل اللباس، وبنية الجسم، وتقاطيع الوجه، ولون الشعر والجلد، وما الى ذلك. ويستهدف الطرح لدى الطرفين، واحدا مقابل الآخر، التأكيد على اختلاف وغرابة ابناء الشعب العدو، وتبرير علاقات العداء والرفض ازاءهم. اضافة الى ذلك ثمة هدف مزدوج في الأمر - على الصعيد الخارجي(تبرير الدعوة لابادة العدو) وعلى الصعيد الداخلي(رفع المعنويات وتحويل الصراع الى اسطورة قومية) ».

«ان هذه الاتجاهات تميز بشكل خاص الصراع الاسرائيلي ـ العربي. لقد شوهت شخصية اليهودي في الادب العربي بتأثير عوامل داخلية وخارجية، من القرآن والحكايات الشعبية، ومن اللاسامية الاوروبية بعامّة والنازية بخاصّة».

ان اساس ما ينطوي عليه طرح موريه، آنف الذكر، هو وضع الطرفين، العربي والاسرائيلي، في وضع متساوٍ لا نعرف من المعتدي ومن المعتدى عليه، بحيث تتوزع المسؤولية من جراء هذا الصراع(والقضية الفلسطينية جوهره) على الطرفين بالتساوي، وهو ما نلحظه في غالبية الادبيات الاسرائيلية، حتى تلك منها التى تتحلى بشيء من الواقعية (على ندرتها).

ان هذا النمط من التفكير(التسويغ)، اضافة لكونه باطلاً من أساسه، وبكل المقاييس، فان واقع الحال يعطي ما هو معاكس تماما. فبينما فرضت الصهيونية على كتابها ان ينسجوا هذا الادب، المتوحش(والاصح من ذلك القول ان ادبا يكتب بوحي هذا الفكر لا يمكن أن يكون عكس ما هو عليه) فرضت على الادب العربي عموما والفلسطيني خصوصا «النماذج العبرية» التي كان عليه ان يتعامل معها في نتاجه.

وفي اعتراف الناقد المعروف اهود بن عيزر ما يؤكد الشق الاول من المعادلة. ويشير بن عيزر في مقاله النقدي المنشور في الملحق الادبي لصحيفة «عل همشمار» بتاريخ ٣/٧/ ١٩٧٠، الى ثلاث سمات في الحياة الادبية الاسرائيلية، هي:

١ ـ هناك تدخل في حرية التعبير الادبي الاسرائيلي اذا جنح الى مخالفة جوهر اهداف السلطة الاسرائيلية. وهو امر يمثل الجانب العنيف من عملية شاملة تستهدف تجنيد الادباء الاسرائيليين، بالاغراءات والضغوط، من اجل الدعوة الى مفاهيم السياسة الاسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيوني بعامّة (أ . ش).

٢ ـ الادب في اسرائيل يواكب اهداف السلطة ويدق لها الطبول. وهو أداة في يدها لتحريك الجماهير اليهودية. وهو أدب يحمل سمات الصبغة والافتعال.

٣ ـ هناك أدب يتحرك لخدمة الدعوة الصهيونية لما يسمى« القومية اليهودية»، وارتباطها بفلسطين.

وقد عبر عن ماهية هذه الدعوة حاييم هزاز(الذي شغل ذات مرة منصب رئيس اتحاد الادباء العبريين) حين قال في حديث مع محرر صحيفة معريف بتاريخ ٧/٨/ ٦٩ ما معناه «ان عبقرية الشعب اليهودي تكمن في ذاكرته التي ظلت تعي، على امتداد عشرين قرنا، كونه وحدة غير قابلة للتفتت».

تزييف الحقائق والتاريخ

وحينما يقول هزاز هذا انما يريد ان ينفذ منه الى دور الاديب الصهيوني وتحديده. ان هذا الدور يتحدد في العمل على تغذية الذاكرة الجماعية لدى ابناء الطوائف اليهودية، واثارة مشاعر الانتماء القومي الموهوم لديهم، والعزف على وتر« العلاقة التاريخية التي تربط بين الشعب اليهودي والارض الفلسطينية» .

وعلى هذا الضوء فان الفكرة الاساس التي سعت الصهيونية لترويجها هي ان فلسطين لم تكن سوى أرض خالية من السكان ، قاحلة ، تملأها الحشرات والمستنقعات .

كتب ثيودور هرتسل ، الأب الروحي للصهيونية ، في كتابه «الارض القديمة الجديدة» : «ان اليهود لم يفعلوا شيئاً للارض القديمة الجديدة(المقصود فلسطين ـ أ . ش) سوى نقلهم المؤسسات المتحضرة اليها ، التي كانت موجودة في البلاد المتحضرة في اواخر القرن التاسع عشر» .

وكتب مفكر صهيوني آخر، هو موشيه سميلانسكي ، في صحيفة العالم (٢٩/ ١/ ١٩١٤) «وصفت دعاية الفكرة الصهيونية منذ نشأتها البلاد التي ستتوجه اليها كبلاد خربة، ومهجورة ، تنتظر الخلاص بفارغ الصبر» .

وفي محاولتها ترسيخ هذه الفكرة، اصطدمت الصهيونية بمقاومة الشعب العربي الفلسطيني، الذي لم تستطع ان تنفي وجوده كلية. واوقعها هذا في تناقض حاولت تجاوزه من خلال تركيز نصوصها على الحديث حول شخصية العربي، او البدوي ، وليس العربي الفلسطيني ، مع التأكيد على افتقار الروابط بين هذا العربي او البدوي وبين ارضه. وبما ان الارض في مثل هذه الحالة هي الوطن، وبما ان العربي يفتقر الى الروابط القوية بالارض فانه يفتقر الى الروابط القوية بالوطن، ولهذا يتنازل عنه راضيا مرضيا. ومن الأمثلة على ذلك شخصية رشيد بك في كتاب هرتسل المذكور سابقا(الارض القديمة الجديدة) ، التي ترحب بالمشروع الصهيوني وتتنازل عن اراضيها وتندمج فيه . هذا من ناحية، ومن الناحية الاخرى فان هذا العربي ، او البدوي ، متخلف ولا يستحق هذه الارض (الوطن) ولا يفهم سوى لغة القوة .

كتب يعقوب روئي في مقاله حول العلاقات بين سكان رحبوت وجيرانهم العرب في السنوات ١٨٩٠ ـ ١٩١٤ يقول: (منذ اوائل ايام الاستيطان ساد الرأي القائل بان العربي يحترم ويعرف لغة واحدة هي القوة) .

وكتب إحاد هعام، وهو احد كبار المفكرين الصهيونيين الأوائل في مقالته« الحقيقة من فلسطين» : (نعتقد ان العرب متوحشون مثل الحيوانات ولا يفهمون ما يدور حولهم) !

ويفند إحاد هعام هذا الاعتقاد بهدف ارساء نظرة واقعية للتعامل مع العرب .

وكتب منظّر صهيوني آخر محدداً رأيه في سكان فلسطين العرب: «انهم بلا ثقافة، ويفتقرون الى ملامح القومية ، وهم يتطبعون بسهولة، وبسرعة ، بأية ثقافة واردة عليهم اذا كانت اعلى من ثقافتهم . انهم لا يستطيعون ان يتوحدوا في مقاومة التأثيرات الخارجية بصورة منظمة، وليسوا قادرين على المنافسة القومية»(٣) .

وشموئيل يوسف عجنون الحائز على جائزة نوبل للأدب !! نعت العرب في روايته «الامس الاول» (كتبها سنة ١٩٤٥) بشتى النعوت البذيئة، فهم حسب رأيه« لا كرامة لهم ويتحملون الاهانات . يستغلون المستوطنين. قتلة . وهم سبب خراب ارض فلسطين. مزعجون وقذرون . يغشون اليهود. يكرهون الحضارة. يشبهون الكلاب في جلستهم»(*) .

ويجري غرس مثل هذه الاضاليل، والافتراءات ، على الواقع وحقائق التاريخ في نفوس طلاب المدارس الاسرائيلية، بواسطة مناهج التعليم الرسمية .

ففي سؤال من مجموع اسئلة امتحان الاعانة لطلاب صفوف الثوامن(كانون الاول ١٩٧١) جاء ما يلي :

«لم يتوقف استيطان اليهود لفلسطين ابداً . وبغض النظر عن عدد اليهود الاجمالي في البلاد كان الكثيرون منهم مفكرين وحكماء ومبدعين نشروا ابحاثاً وكتباً . وبالمقارنة معهم فان العرب والمسيحيين الذين استقروا في هذا المكان(بما معناه انهم ليسوا اصحاب هذا الوطن بل مستقرين فيه ـ أ .ش) لم ينتجوا في فلسطين أي شيء له اهمية، بالرغم من قدسية البلاد لاديانهم

وفي كتاب قواعد اللغة العبرية(فدييك) ، المفروض في مناهج التعليم الثانوية ، تقرأ عن العرب في صفحة ٢٧٧ ما يلي :

تمرين ـ املأ الفراغ :

العرب . . . . ، نهبوا وقتلوا

الكلمة الناقصة ـ سلبوا .

اي ـ العرب سلبوا نهبوا ، وقتلوا .

وتقرأ عن اليهود في صفحة ١١٧« : اليهود جلبوا الحضارة الى الشرق الاوسط» .

وفي مقدمة كتاب دراسي آخر اعده د. ا. تسفروني، ورد التأكيد على ان «شعب اسرائيل هو صفوة الشعوب كلها . . . واكثر العناصر افتخارا لأنه تكوّن عن طريق انتقاء

الافضل! وجاء في وصف العرب وتحديد طابعهم : «هذا العنصر الغريب عن البلاد بطينته والدخيل على رسالتها وتطلعاتها يعيش الآن فوق ترابها ويستغل خيراتها. ولا بد لنا من أن نحاربه كما حاربنا من سبقه من الغزاة والاجانب، الذين استولوا على البلاد في العهود الغابرة، ونهبوا ثرواتها» .

اهتمام عربي بدراسة «الوثيقة الادبية الصهيونية»

لقد كان من بين التحولات التي طرأت على الادباء العرب، بتأثير نكسة حزيران ١٩٦٧، ذلك الاهتمام الواضح بدراسة« الوثيقة الادبية الصهيونية». وانعكس هذا التحول والاهتمام في ظهور عدد من المؤلفات في العالم العربي تتناول الادب الصهيوني بالدرس والتحليل، تبرز من بينها دراسات الاديب الفلسطيني الشهيد غسان كنفاني، والدكتور ابراهيم البحراوي وغيرهما[١]

وارتبط هذا التحول والاهتمام بالوعي لحقيقة كون الادب «وثيقة» كاشفة لا تقل اهمية عن الوثائق السياسية والاجتماعية الاخرى. فالدكتور البحراوي يشدد في كتابه «الادب الصهيوني بين حربين»، على كون «الوثيقة الادبية» مزوداً أساسياً للمعلومات المطلوبة في اتجاهين هما - ١ - اتجاه التعرف على الواقع الشعبي، وقوانين الترابط الاجتماعي، والانماط النفسية الاجتماعية السائدة، و٢ - اتجاه التعرف على القيم الرسمية التي تبثها في العمل الادبي الايديولوجيا السائدة في المجتمع، والتي تعكس موقف السلطة فيه .

ولقد رأى شاعرنا سميح القاسم، في معرض تعليقه على هذا التحول(«الجديد» - عدد ١١ و١٢ من العام ١٩٧٢) ان الاعمال التي ظهرت في حينه اعتورها نقص واضح رده الى العوامل التالية:

اولا - عدم معرفة الاغلبية العظمى من الباحثين العرب للغة العبرية .

ثانياً - استخلاص النتائج من خلال بعض الاعمال الادبية العبرية المترجمة الى الانجليزية، او اية لغة اخرى. وهذه الترجمة اقتصرت على بعض الاعمال الحديثة، التي لا تعطي صورة كاملة عن الادب الاسرائيلي، او الادب الصهيوني بعامة .

ثالثا - الاستشهاد ببعض الاعمال التي كتبها صهيونيون غير اسرائيليين، مثل ليون بوريس في كتابه «اكسودس»، وهذه الاعمال لا يمكنها ان تعطي فكرة شاملة عن الادب الصهيوني، لا سيما ما كتب منه في فلسطين .

واعتقد ان بعض هذه العوامل ينطبق على عدد من الدراسات الشائعة في العالم العربي(مثلا عدد حزيران ١٩٧٩ من مجلة« الاقلام» العراقية الخاص بالادب الصهيوني» وفي مقدمتها الاعتماد على نماذج مترجمة الى اللغة الانجليزية . ومع ذلك فان كل هذه الدراسات تحرث في أرض بكر. واذا اخذنا ذلك بعين الاعتبار يمكن تقدير مجهودات كتابها باكتفاء .

كيف يقدم العربي في الادب الصهيوني؟

ان تجربة الادب الصهيوني هي تجربة« فريدة» من نوعها، في التاريخ ، حيث يستخدم الفن، بجميع اشكاله ومستوياته، للقيام بأبشع عملية تضليل وتزوير وتحقير لانسانية الانسان، سواء جاء ذلك عبر تعبئة الفرد اليهودي بكل مشاعر الحقد والاحتقار للعرب، او جاء ذلك عبر تزوير التاريخ ونشر الاضاليل والخرافات .

وفي غالبية نماذج هذا الادب تتجسد شخصية العربي في اربع حالات ، وذلك تبعاً لرؤية العربي في منظار الفكر الصهيوني عموماً ، كما مثلنا عليها اعلاه ببعض الاستشهادات من اقوال مفكرين وقادة صهيونيين .

وهذه الحالات الاربع هي :

اولا ـ العربي (اليهودي)

كتب ا . ن . بولاك في مقاله «اصل عرب البلاد»، المنشور في مجلة «موليد»، عدد تشرين الثاني ١٩٦٧ . يقول «كان الرأي السائد إبان الهجرة الثانية (١٩٠٤ ـ ١٩١٤ أ .ش) وفي نتاجها الادبي يقول ان عرب البلاد(وخصوصا الفلاحون منهم) هم بالاساس يهود اكرهوا على تغيير دينهم في فترات الملاحقات والاكراه الديني. وكان المستعدون للهجرة يتبنون هذه الفكرة وهم في اوروبا الشرقية بعد، وبالاساس من كتاب« ارض اسرائيل المعاصرة» الذي كتبه يسرائيل بلكيند باللغة الروسية، وكان بمثابة دليل مساعد رسمي ومشروع لشؤون البلاد» .

وافنير كرميلي (اسمه الحقيقي شراغا غفني) وهو من ابرز كتاب الاطفال يبرر انصهار العرب في الشعب اليهودي بكونهم من سلالة «بني اسرائيل»!

وكتب في قصته «الرياضيون الصغار عائدون» يصف الشبان العرب الذين قرروا مصيرهم بمصير شعب اسرائيل: «بدأ عدد من الشبان الناطقين باللغة العربية يؤمنون انهم من سلالة بني اسرائيل القدامى. وهم بقوا في البلاد، ولم يذهبوا الى المهجر بعد ان خربها الرومانيون . وعندما احتل العرب البلاد اضطرت غالبية ابناء البلاد الاسرائيليين الى

قبول دين المحتلين وعاداتهم رغما عنهم . والان ـ هكذا آمن هؤلاء الشبان العرب ـ أزفت ساعة الرجوع الى حضن شعبهم الحقيقي ، شعب اسرائيل، والمشاركة في عملية انبعاثه العظيمة في بلاده كشركاء متساوين» (ص ٢٥) .

ثانيا ـ العربي «المتوحش» و«الشرير المتعطش للدم» يقابله اليهودي عيدو سيتر(وهو اسم مستعار لحزاي لوفبان) ورد هذا الوصف النموذجي للعربي: «كان وحشيا مثل ثعبان صيني. كان غير هيّاب مثل نمر هندي. كان مكارا مثل ثعلب سوري. كان مجرما من بطن امه . منذ نعومة أظفاره كان يشبه لصاً اكثر من كونه ولداً طبيعياً» .

وحفلت هذه النماذج بمقاطع وصفت التفاوت بين وحشية العربي وحضارة اليهودي عبر المقارنة بين قرية العربي و«كيبوتس» اليهودي. لنمثل على ذلك بهذا المقطع في حكاية اخرى لأفنير كرميلي بعنوان(البحارة في عملية الانقضاض):

«لم يكن في كل البلاد« كيبوتس» سعى رجاله للحياة بسلام مع جيرانهم العرب ومساعدتهم مثل كيبوتس «بيت غيبغ». وعلى الرغم من ان العصابات العربية قامت، اكثر من مرة ، بشن غزوات على هذا الكيبوتس، وكثيرا ما قام الفلاحون العرب بتحريض من زعمائهم الافندية بمهاجمة رجال الكيبوتس وهم يحرثون حقوله، لم يتخقل الكيبوتس عن طريقه السلمي. لقد تسامح دوماً مع مهاجميه، وتطلع الى ان يعقد حلفاً أبدياً معهم» (ص ٦٥ ـ ٦٦) .

ثالثاً ـ العربي المتخلف الغريب عن الحضارة والتطور . او كما عبر عن ذلك ثيودور هرتسل، حين صاغ مشروع الصهيونية في كتابه «دولة اليهود»، حيث كتب في مقطع «فلسطين او الارجنتين» مفضلا فلسطين لتنفيذ المشروع الصهيوني الكولونيالي قائلا: «بالنسبة لاوروبا فاننا سنكون لهم هناك(في فلسطين ـ أ.ش) بمثابة جزء من السور الدفاعي أمام آسيا. ويكون بمستطاعنا ان نزودها بالقوات الأمامية الحضارية ضد البربرية » .

بدأت مجلة الجيش الاسرائيلي «في المعسكر» (بمحانيه) ، قبل مدة وجيز، بنشر مقاطع عنوانه «ذكريات من الجليل» لكاتب صهيوني هو عزيئيل لوفوفسكي، يسلسل فيه بعض الذكريات عن العرب. في احد المقاطع يصف الكاتب الوليمة التي اقامها والده «السيد» اليهودي لجمهرة من «الفرسان» العرب الاجلاف . . ويكتب :

«فجأة دقت ساعة الحائط، التي جلبها والدي من أمريكا، اثنتي عشرة دقة . وقام الفرسان الذين لحسوا اصابعهم من اثر الحلاوة اللذيذة على اقدامهم مذهولين. . وحاول يسرائيليك ان يشرح لهم ان هذه الساعة تدق كل ساعة لكن عبثاً . اصروا على رأيهم بانها من صنع الجن . واضطر والدي ويسرائيليك الى إخراج وجبة الضيافة الى الساحة»!!(*)

رابعا ـ العربي المقلوب الذي يمكن أن يكون كل شيء سوى أن يكون ذاته . وهذا الاتجاه في الادب الصهيوني اسقط كل السمات الانسانية عن شخصية« البطل العربي» .

وحتى الادباء الذين حاولوا ان يستبطنوا شخصية العربي، بنزعة اخلاقية، فشلوا في الصاق اي سمة انسانية به . واحد هؤلاء يزهار سميلانسكي الذي يكتب بروح« الاتهام الذاتي» نزع العربي (في قصته «الأسير») من انتمائه التاريخي وعلاقته بالأرض فبقي صوتاً بائساً، ويجهل كل شيء ، ولا علاقة له بأرض أو قضية او حرب (تدور القصة في العام ١٩٤٨) وكأنه خارج حقائق التاريخ والجغرافية . تلح عليه تحت وطأة التعذيب والرعب وعدم الفهم، رغبة طفولية في تدخين سيجارة مما يجعله شخصية كاريكاتورية مبكية تسهم ـ بقالبها هذا ـ في جعل الراوي (الكاتب نفسه) متمكناً من بسط النزعة الاخلاقية والشفقة الابوية عليه .

والذي ينطبق على يزهار سميلانسكي ينسحب على جميع الكتاب المؤدلجين صهيونياً ، والمحبطين بفعل« عقدة الذنب» تجاه الشعب العربي الفلسطيني، مثل عاموس عوز ، وأ . ب يهوشوع وغيرهما .

تفصيلياً

لقد تعمدت ان تبقى هذه المقدمات في اطار تعميمي، وستوقف تفصيليا عند نماذج الادب الصهيوني، وشخصية العربي، في عينات من المسرحيات وحكايات الاطفال الصهيونية في سياق لاحق .

انطوان شلحت

إشارات

١ ـ شموئيل موريه ـ مقاله« شخصية الاسرائيلي في الادب العربي منذ قيام الدولة» في كتاب «النزاع العربي ـ الاسرائيلي في مرآة الادب العربي» ـ منشورات مؤسسة« فان لير ـ القدس ١٩٧٥».

٢ ـ اورد ذلك الدكتور إميل توما في كتابه «الصهيونية المعاصرة» ـ منشورات «الاسوار في عكا » ١٩٨٢ (ص ٢٠١).

٣ ـ أورد ذلك الدكتور اميل توما في كتابه «طريق الجماهير العربية الكفاحي في اسرائيل»، منشورات دار «أبو سلمى» في عكا، ١٩٨٢ (ص ٦٢) .

(*) تجدر الاشارة الى ان احقاد عجنون هذا مشوبة بأحقاد شخصية أيضاً، ذلك أن اخته أحبت عربياً فلسطينياً وتزوجته ، الأمر الذي دعا عجنون هذا الى مقاطعتها مدى الحياة .

(*) لاحظوا كيف ان هذا «المتفذلك» يستعمل قصة الوفد العربي الى بلاط شارلمان ، ملك الفرنجة، وهرب الحاشية من ساعة هارون الرشيد!! يسرقون الحكاية ايضاً!!

العالم دون أراغون

« لا بدّ من وقت طويل . . .
لا بدّ من صبر عنكبوتيّ وباتجاه معاكس
لكي تفُكّ نسيجَ ذاتك ونسيج العالم » .

لا بدّ من وقت لأراغون لكي يرى « صورة العالم من دونه » ، ويشهد « الغياب عن الذات والى الابد » ، ليرى « الصورة الجديدة » ، حيث « يأتي الربيع ليمحو شتاءه » . وعبر هذا الانتظار يراقب أراغون مسيرة الموت اليومية :

« إنني لا أطيق رؤية هؤلاء الفتية اليافعين
يموتون باعداد هائلة وبشكل مفاجيء
. . . .
أما نحن المسنين فلا نموت
إننا نمضي . . . »

مضى أراغون إذن ولم يمت ، مضىٰ ألى أعماق المرايا الغيهبيّة ، الى زمن الشتاء الجليدي المؤبد ، الى هاوية الصمت الكوني المقدس . مضىٰ أراغون وألزا ماتت . ومنذ ذلك الحين قرر إنتظارها ، وبفارغ الصبر ، وكان إنتظاره لها اكثر عذوبةً من أي حلم طفولي ، واكثر واقعيةً من أية غيمة ميتافيريقية . وعندما كان يشعر بأن من الصعب عليه إقناع الآخرين بذلك يتضايق ، ويبدأ يلوم نفسه بصوت مرتفع :« كل شيء في هذه الغرفة يبدو وكأنه ينتظرها ، وليس من العسير فهم أنها لن تعود الىٰ الابد » .

بهذه الكلمات كان أراغون يتمتم في غرغة « السيدة الغائبة » عندما التقيناه في منزله في الربيع

الماضي ، وكان أول ما قام به ، وفي الدقائق الاولى ، هو زيارة غرفتها ، حيث قضينا اكثر من نصف ساعة كان أراغون يحوم ، خلالها ، مثل طير جريح ، وكان صوته جزءا من الزمن الثابت ، والغبار المتراكم فوق اشياء المكان .

مضى أراغون بعد إنتظار دام ٨٥ عاماً قضاها في طفولة متواصلة ، عرفت كيف تبقى برغم كل هزّات هذا القرن الدامي وعواصفه ، مضى بعد ثلاثة ارباع قرن من الكتابة التي صارت غمراً لينبوع ، وفضاءً لصوت ، وإسماً لأراغون . مضى و « السفينة » التي غادرها تنداح تحت الموجة السوداء الهائلة ، هذه السفينة التي « لم تغادرها لاروائحها ولا قراصنتُها » في بحر تزدادُ امواجه عنفاً ، وقراصنتُهُ عدواً ، بينما تطول المسافة وتتهاوى النجوم ، أية مسيرة لهذا المجد القدري الملوث ، لهذا الكائن الملفوف بالماء والنار ؟ .

إن المسيرة الطويلة لأراغون ، عبر المسافات الطويلة التي قطعها في كل اتجاه على الارض ، وفي المخيلة ، مجتازاً كل هذه الهزّات والخرائط طيلة ال ٨٥ عاماً ، ليست ، في آخر المطاف ، بالنسبة له الاّ المسافة بين شارع « فانيو » حيث ولد وبين شارع « فارين » حيث عاش ومات . مسافة لا تتجاوز ال ٣٠٠ متر على خارطة الحي السابع في باريس .

« لأنّ أمي كانت تسكنُ في شارع « فارين » ،
وأنا عابرُ الأجواء والبحار في كل صوب
سأعود الى المكان نفسه مثل الفئران التي تدور دون جدوى » .

حقاً ، فبالرغم من كل أسفار أراغون ، وعالميته ، لم يغادر وجوده الباريسي ، طُابع الحي السابع المعروف بارستقراطيته القديمة ، تحديداً . وهكذا ظلّ شارعا « فانيو » ، و « فارين » حيّ جزيرته النائية ، وشاطئه القريب . وهكذا كان شأن كل السرياليين « الباريسيين » كما يسميهم أدباء فرنسا من غير باريس ، الذين كان منزل اراغون الحالي إحد محافلهم المهمة . وهكذا ، أيضاً ، صارت إسبانيا في أغاني المقاومة ذكرى ، والاندلس في « مجنون إلزا » أغنيةً عربية حزينة ، وإلزا فتاة الصقيع السوفيتي قناعاً .

لكنّ أراغون قد مات قبل أن يمضي ، وكانت السنوات الأخيرة هذه شاهداً لزمن محنط ، لهامة ترقد في خيمة الذكرى ، لشمس الماضي تستبدّ بثلوج الحاضر . كان اراغون ، طيلة هذه السنوات ، يرتدي معطفه وقناعة الفتى (كان يضع قناعاً لصبي جميل عندما يظهر على الشاشة او في المهرجانات) ولا يبرح كواليس ومسارح العاصمة الفرنسيّة بكل محافلها الادبية والسياسية .

وعندما سقطت جثته صارت مشتهاة ، فتناولتها الايدي ، ونال منها الجميع . وصار غيابه حبراً ،

في ضمير الناس ، وفي افكارهم ، هو المعيار الذهبي لعطائه ، والانخراط اليومي ، والارتباط الانساني بمعركة العصر ، وهمومه ، هو المقياس الحق للحكم على شجاعته والتزامه .

وصمته صراخاً ، غير أن الحقيقة الوحيدة خلف كل ما قيل ، ويقال ، وبالرغم من كل الاختلافات هي أن أراغون كان كاتباً واديباً فذّا : « لأ أحب أراغون . وشيوعيتي ليست شيوعية أراغون قط . وأنا ابن شرطي منطقة بريتان وأراغون إبن محافظ باريس ، وبالرغم من معرفتي القديمة به ، لم يكن يوماً صديقي ، واذا كنتُ أعلق بشيء اليوم علىٰ موته فلا يمكنني الاّ أن أذكر صفة واحدة له لم يختلف بشأنها أحد ، هي كونُه مبدعاً وكاتباً لم يعرف الادب الفرنسي المعاصر مثيلاً له . وفي تأريخ الادب الفرنسي ربما استطعنا أن نقارنه ب الفريد دي موسيه .إنه يملك معرفة واستطاعة للكتابة باللغة الفرنسية نادرة وفريدة جدا » . بهذه الكلمات عّلق يوجين غيللفك على موت أراغون . هذا ، ومن المفارقات بين غيللفك وأراغون أن غيللفك قد أهدى مجموعته السياسية الوحيدة « إنتصار » الى أراغون في العام ١٩٤٨ .

□

ش . ع .

السينما التركية : أفق في زنزانة

السينما التركية كثيرة الانتاج كمّاً، حتى بلغت في سنوات الستينات حوالي المائتي فيلم سنوياً، وقد تجاوزت بذلك انتاج الولايات المتحدة الامريكية نفسها لتلك الفترة. اما نوعاً فلا يسعني الا أن أصفَ هذه السينما بكلمة واحدة بانها(هابطة)، وهذا الكم من الافلام الرديئة التجارية الاتجاه مُعدّة فقط للاستهلاك الداخلي، الذي عوّد الجمهور على الموضوعات السهلة كالميلودراما الفجة، او الافلام الموسيقية، او البوليسية المطعمة بقصة ساذجة ، والتي تفتقد الى ارضية واقعية وانسانية .

وكانت الفوضى التجارية هي القانون السائد الذي يُسيِّر جميع عمليات الانتاج في ظل غياب أي سلطة قانونية، او قوانين قضائية، وحتى المراقبة الرسمية من قبل الدولة على التجارة السينمائية لم يكن لها وجود لتحمي هذه السينما الوطنية على رداءاتها، من سطوة الاحتكار العالمي، وسيطرة اثرياء شارع (ايسلسام / شارع الشجرة الخضراء وهو مركز نشاط التجار الاتراك) .

هذه السينما لم تقدم الى جمهورها سوى الهروب من واقعها القاسي، والتخدير المجاني الى عوالم خيالية ليس لها اي صلة بطبيعة الحياة الاجتماعية التي يعاني منها هذا الجمهور، على عكس ما قام به الادب التركي، وبالاخص الرواية التركية الحديثة من بث الرؤية الواقعية للعالم ومشاكله، كذلك أدى الشعر التركي الدور نفسه في شحذ اذهان الجمهور، ويشهد بذلك اشعار ناضم حكمت وروايات يشار كمال واورهان كمال. وقد أُخْمِدَتْ جذوة بعض السينمائيين الجادين الذين بدأوا ، في الخمسينات ، بصنع افلام تحتوي على نَفَس انتقادي للمجتمع، وكانت متواضعة بطروحاتها النقدية، ومما ساعد على ذلك هو تركيبة الحياة الاجتماعية والسياسية السائدة انذاك . اما في الستينات، وعلى اثر الانفتاح النسبي الذي حصل

العام ١٩٦١ فقد ساد جو من النشاط الفكري والفني المتطور نسبياً، والذي مسّ وأثر على جميع مجالات التعبير الفكري والفني، عدا فن السينما، ولم يتمكن من استغلال هذا المناخ الفريد الذي لم يدم طولاً.

وبرغم هذا الغياب للسينما التركية الجادة حاول بعض السينمائيين المشهورين في تركيا، من الجيل الاول، كلطفي العقاد، وعاطف ايلماز، وهليت رفيق، ميتن ايرسكان وى. كورس، فادهشوا المشاهدين بحفنة من الافلام الانتقادية التي اشتهر بعضها، وحاز على جوائز عالية في المهرجانات كفيلم(صيف جاف) من اخراج ميتن ايرسكان، الذي حصل على الجائزة الكبرى في مهرجان برلين العالمي في العام ١٩٦٤. ولكن سرعان ما أُجْهض هذا التيار، بعد ان ترك اثاره على ما تبعه من انتاج، ومن ثم تواصل هذا النَفَس على يد مجموعة اخرى من مؤلفين سينمائيين، والذين طبعوا افلامهم بنزعة ـ اقليمية ـ وطنية ضيقة، مستمدة من افكار الروائي كمال طاهر، ومستوحية من التقاليد الضاربة في جذورها في عميق التاريخ التركي.

اسس هؤلاء السينمائيون ما يسمى، فيما بعد، بمدرسة السينما الوطنية، والتي كان على رأسها المخرج هليت رفيق، ويعتبر التاريخ الرسمي لظهور هذه المدرسة وتجذرها هو العام ١٩٦٥، وموضوعها الرئيسي، والأثير، هو المشكلة التي شغلت تركيا منذ مئة وخمسون عاماً الا وهي الهوية الثقافية والوطنية لهذا البلد، والاختيار الصعب الذي كان عليه ان يأخذه بين الانتماء الى الشرق او الغرب.

والفيلم الذي يمثل هذا الاتجاه هو(اربعة نساء في الحريم)، للمخرج هليت رفيق، والذي يكشف عن خفايا الحياة في قصر احد الباشوات العثمانيين في عهد تركيا الفتاة، وفيلم (وقت للحب) للمخرج ميتن ايرسكان، الذي يحكي قصة حب رجل من الطبقة العامة، منقولة عن الحكايات الشرقية التقليدية لموضوع الحب.

وكان رد فعل السينمائيين المنتمين لهذا التيار ازاء دخول القيم الغربية في جسم الحياة الثقافية والفكرية، في تركيا، ينحصر في الدعوة الى التمسك بالتقاليد والرجوع الى المنابع الاصلية للثقافة التركية، مما اثار رد فعل معاكس من جانب اليسار التركي، من اجل خلق وانتاج تكافؤ في العلاقات الاقتصادية، والاجتماعية، التي ستحصل بين الغرب والدولة العثمانية، بعد نقل وادماج بعض مظاهر التفكير الغربي التي لا يمكن تفاديها: (من مظاهر الميل نحو الغرب« التأورب»: قرار الدولة الرسمي بتحويل حروف الكتابة من العربية الى اللاتينية). وكان رفض هذا الاتجاه يعني، في نهاية الامر، تشجيع تَكَتُّل المحافظين والرجعيين والمتدينين، وحتى العنصريين، على النهوض والسيطرة على زمام الامور في تركيا، باسم التقاليد، والحفاظ على الجوهر.

وفي اواسط الستينات تطورت الحركة العمالية الناشطة بدعم من الاحزاب اليسارية، المستفيدة من هذا النمو في الوعي الطبقيـ الذي استغله مجموعة من المثقفين في خلق ظروف تسمح لهم بالتعبير عن ارائهم، وافكارهم ، وادانة واقعهم الاجتماعي المتخلف الرازح تحت بناء معقد من نصف إقطاعية ـ نصف بيروقراطية ـ نصف رأسمالية ، غير منظمة، والنطق باسم العمال للدعوة الى تغيير اجتماعي، واقتصادي، حقيقي وجوهري .

لكن السينما بقيت بعيدة عن كل هذه التطورات، وحبيسة لهذه المشكلة الازلية : هل تركيا اقرب للشرق أم للغرب؟ واين تقف مصالحها ؟

وللاحتجاج على هذه التركيبة الجامدة تحرك في احضان الواقع نبض جديد جدد دماء السينما التركية، وخلق ما عُرِف به «السينما المختلفة او البديلة في تركيا»، التي قادها يلمازغوناي ومجموعة السينمائيين الشبان ، الذين تابعوا طريقه، او الـذين بدأوا معه كمساعدين ، ليساهموا جميعهم بابداع سينما جديدة، وذلك ابتداء من العام ١٩٦٥ ايضاً، عندما بدء لفيف من النقاد والسينمائيين بطرح مسألة وظيفة السينما، ولماذا لم تتمكن ، حتى الأن ، من تجسيد الحالة الاجتماعية ، والتعبير عن الواقع ومعالجته ، توج هذا الاتجاه الجديد فيلم(ايموت) ،للمخرج يلمازغوناي، الذي يتناول حكاية حوذي في «عدنا» التابعة لمنطقة سكورفا، التي طالما وصفها في سطور شاعرية الروائي التركي المشهور يشار كمال. وكما اشار النقاد في ذلك الوقت، اثناء تقييمهم لهذه الافلام، ونقدها، الى التأثير الايجابي الذي تركته المدرسة الايطالية(الواقعية الجديدة) على هذا الفيلم، والتي احتفظت بخصوصيتها الجمالية النابعة من واقع اخر غير الواقع الايطالي، الذي طرحته وعرته المدرسة الايطالية بطريقتها الخاصة، وجمالياتها، ولغتها الفيلمية الاوربية الاصول والقواعد. اما الاسلوب السينمائي الجمالي لهذه المدرسة التركية فهو نابع من المواقف الفكرية، والسياسية الواعية ، والملتزمة ، بخط ايديولوجي واضح، ومتبلور، على عكس الغالبية من المخرجين الايطاليين الذين إمتازوا بمواقف انسانية عامة، دون أي التزام سياسي متجذر، وما كان يجمعهم هو عدائهم للفاشية، ومطالبتهم بالحرية والديموقراطية الليبرالية، ونزولهم للشارع بكاميراتهم لتصوير الواقع، كما هو، دون تحريف او اضافة، مع الإلادانة الضمنية غير العلنية لكل ما يسوده من سوء وتخلف وظلم اجتماعي. ولقد تابع يلمازغوناي، بالاندفاع والوضوح نفسه، في تعرية هذا المجتمع الفاسد، والمتخلف ، والمطالبة بتغييره الى مجتمع اشتراكي علماني عادل، ومتطور ، في جميع المجالات ، وذلك في مجموعة من الافلام المتفاوتة في جودتها تقنياً، لكنها جيدة في مضامينها، وطروحاتها السياسية والفكرية، ومنها «إيلجي» و«الالم والصديق»، والتي شكّلت تجاربه الاولى في الاخراج، ونالت نجاحاً تجارياً وفنياً مرموقاً، مما مكنه على المواصلة برغم كل المعوقات التجارية والسياسية التي جابهته. وهذا ما شجّع الجيل

الجديد من السينمائيين الشبان، الذين عرفوا غوناي وتعاونوا معه، وساعدوه على اخراج وانتاج افلامه، حتى وهو في السجن، مثل زكي اوكتن، الذي اخرج فيلم غوناي (القطيع). وعلي اوزجنترك، الذي اخرج فيلم(هزال) الجميل، والشاعري جداً. وشريف كورين الذي أخرج فيلمه الاخير(الطريق) الذي ستتحدث عنه بالتفصيل بعد قليل. وعلى اثر النجاحات الجماهرية والفنية محلياً، ودولياً، لهذه المجموعة من الافلام، ولد جيل ثالث من المخرجين الاتراك، ساروا على خطوات غوناي ومساعديه الاوفياء لمنهجه. ومنهم يافوز اوزكن الذي اخرج فيلم(المنجم، وسكة الحديد)، وايضاً عمر كافور، الذي اخرج (اولا استانبول، واستانبول جميلتي)، واردين كرال الذي اخرج(على ارض خصبة وفصل في هاكاري)، وكورهان يورتسفر الذي اخرج (جني الفرات ورأس اسود)، وفوزي تونا، الذي اخرج (ارض محترقة)، واوزكان اوركا الذي اخرج (تحية) وسنان ستين الذي اخرج (وقائع يوم واحد)، وتونس اوكان الذي اخرج (الباص)، تونسل كورتيس الذي اخرج فيلم (حسن الوردة) الخ.

والان سنحاول تقديم المخرج يلماز غوناي، وفيلمه الاخير (الطريق)، بشيء من الاستفاضة. ففي المسابقة الخامسة والثلاثين لمهرجان كان الدولي، للعام ١٩٨٢ كانت لجنة التحكيم منعقدة لتقرر منح الجائزة الكبرى للمهرجان(السعفة الذهبية) لاحد الافلام المشتركة في المسابقة الرسمية. وفي اللحظات نفسها، وعلى انغام الموسيقى والشعارات والاهازيج الشعبية كان بعض الاتراك يرقصون، ويغنون امام قصر المهرجانات مطالبين باعطاء الجائزة الكبرى لفيلم غوناي (الطريق)، والتي حصل عليها فعلاً وبجدارة واستحقاق، مناصَفَةً مع فيلم سياسي آخر للمخرج الفرنسي اليوناني الاصل والمولد كوستا غافراس وهو فيلم(مفقود)، وما جمع بين هذين الفلمين هو تناولهما موضوعين سياسيين من موضوعات الساعة، وغايتهما الكشف والتعرية والادانة لنظامين يختلفان في الشكل، ويلتقيان في الجوهر، ويدعم احدهما الاخر كل بوسائله وامكانياته، الاول هو النظام التركي بتركيبته العسكرية الفاشية، التي كان الفيلم قد افلت من بين انيابها، ومن اجراءاتها القمعية التعسفية، وهُرِّب سرا ليصل الى (كان) بعد ان لحق به مخرجه هارباً، هو الاخر، من طغيان هذه الزمرة الحاكمة، لينشرا في المحافل الدولية وثائق الادانة برغم انف السلطات، التي لم تنفعها احتجاجاتها لمنعه من الاشتراك في المسابقة الرسمية، وطلبها الرسمي بارجاع المخرج الى تركيا لمحاكمته.

والثاني هو النظام الامريكي الامبريالي حامي الشيطان في الأرض ومستغل الشعوب، سواء اكان ذلك في الوطن العربي، او في افريقيا، او في امريكا اللاتينية، وهذا ما عالجه فيلم «مفقود» الذي يكشف عن تواطؤ وسكوت السلطات الامريكية عن اعدام احد مواطنيها، وهو صحفي تقدمي، في تشيلي، ابان الانقلاب العسكري الدموي الذي اطاح بحكومة الليندي التقدمية الاشتراكية، الذي دَبّره مكتب المخابرات الامريكية.

إن قرار منح الجائزة الكبرى لهذين الفلمين، مناصفة، كان بالاجماع . اما عن فيلم الطريق للمخرج يلماز غوناي. فقد كان الاول من نوعه في تاريخ السينما فيما يخص طريقة اخراجه . فالفيلم يحكي لنا الجوانب المأساوية لمجموعة من السجناء الاتراك اثناء خروجهم في إجازة مؤقتة لزيارة عائلاتهم وذويهم. والجوانب الدارمية لكل واحد منهم في حياته الشخصية. وهي تجربة عاشها المخرج نفسه، حيث كان هو ايضاً، ولعدة مرات، سجيناً مجازاً لفترة قصيرة. عندما أمضى فترة طويلة من سنوات حياته داخل السجون التركية التعيسة، وشاهد بعينه حالة السجناء المؤلمة . وحتى بعد هربه، عند خروجه في احدى هذه الاجازات، توالت عليه الأحكام، الواحد بعد الاخر، غيابياً، حتى بلغت مدى محكوميته ما يزيد على المئة عام، هذا ما صرح به مازحاً حين أوصلوهُ الى مهرجان (كان) . وما زال البوليس التركي يتعقبه باستمرار، ويطارده من مكان لأخر . ولكن من هو يلماز غوناي ، ولماذا اكتسب كل هذه الاهمية والشهرة الفـنية والسياسية الدولية ؟ . انه احد سبعة ابناء لأب عامل من العمال الموسميين من أصل فلاحي كردي، كان قد هاجر من قريته في منطقة «عدنا» واستقر في استانبول للبحث عن عمل . واصل غوناي دراسته الابتدائية والثانوية، وعمل اثناءها في مختلف المهن لكسب رغيف يومه ، ومساعدة والده في تحمل مسؤولية العائلة منذ صغره. تمكن من نشر اول رواية له وهو في السادسة عشرة ، وكتب الشعر ايضاً . وفي عمر التاسعة عشرة بدأ أولى خطواته في طريق الفن، حيث تعرف على الوسط السينمائي، وبالذات على المخرج التركي المخضرم عاطف يلماز، الذي اتاح له فرصة العمل كممثل مبتدىء . واستمر برغم فترات الانقطاع القسري، التي سببها السجن. والتي كان اولها في العام ١٩٦١ ، وكانت التهمة الموجهة اليه هي نشره للدعاية الشيوعية، وحكم سنتين سجناً، و. تاصل بعدها رفد رصيده الفني والفكري والسياسي الثوري . لقد بلغ اوج شهرته كممثل ونجم للسينما التركية التجارية اولاً ، حتى لقب بالملك القبيح ، لانه يخالف جميع الشروط التي كان يجب ان تتوفر في فتى الشاشة الاول . بحسب المفاهيم التجارية السائدة، واستطاع بمؤهلاته الخاصة ان يجسد عدة شخصيات متفاوتة المستوى، كرئيس عصابة، او سارق جياد، او مغامر، او راعي بقر(كابوي) أو متشرد، الخ . ومن أشهر افلام هذه المرحلة(ذئب الجبال)، وهذه الافلام التي مثلها جلبت له الشهرة، ورفعت اسمه جماهيرياً الى حدود الاسطورة، برغم أن اغلب ما مثله ليس سوى ادوار ساذجة ، مُركّبة تركيباً سطحياً ، ذات أبعاد ميلودرامية سخيفة. الا انه ارتفع فيها الى مصاف الابطال الشعبيين المحبوبين ، واستنادا الى هذه المكانة الجماهيرية اخذت السلطات تهابه بسبب افكاره« الهدامة والخطرة» بحسب وصف الأجهزة البوليسية الحاكمة في تركيا ، وعندما وجد في نفسه الطاقة ان يبدع بنفسه، ويجدد صورته التي طغى عليها الجانب التجاري، قرر أن يصنع افلامه بنفسه كمخرج ومنتج : لكنه قرر لها أن تكون أيضاً أفلاماً ملتزمة وثورية وجادة، ومختلفة تماماً عما اعتاد عليه الجمهور المُنوَّم : أفلاماً تمتاز بمستوى تقني عال وناضجة

على مستوىي المحتوى والشكل الذي يُطْرَح به المضمون الفكري والسياسي للفيلم .

وفي العام ١٩٦٨ أخرج اول افلامه الرزينة وهو (سيد هان)، عن قصة حب متوحشة وقاسية التفاصيل، نمت وتطورت فصولها تحت هيمنة تقاليد وأعراف المنطقة التي تدور فيها الاحداث، وهي شرق البلاد، في ظل الحكم الاقطاعي، والتي تنتهي بتراجيديا مفجعة . وكانت تجربته هذه في الاخراج نصف ناجحة، فعلى مستوى التعبير الفيلمي والتقني كانت تشير الى ان هذا المخرج متمكن من ادواته التعبيرية، لكنها على مستوى المضمون لم تكن تناسب طموحات المخرج الفنية والسياسية، اذ ان الموضوع ليست له تلك الاهمية السياسية التي تذكر برغم احتوائه على مشاهد غاية في الروعة بلاستيكيا . واستمر في عمل مجموعة اخرى من الافلام ـ التجارب التي صقلت موهبته الفنية، وزادت من تجربته الاخراجية ، مثل «الذئاب جائعة، الرجل القبيح» الخ حتى سنة ١٩٧٠ ، وهي السنة التي اخرج فيها اول افلامه المهمة(الامل)، الذي يعتبر الحجر الاساس في اعمال المخرج، وانعطافة مهمة في اسلوبه ونظرته الى السينما كوسيلة تعبير خطرة ومؤثرة جداً، وكذلك أُعْتُبِر الفيلم قاعدة انطلاق، ونموذجاً يُحتذى لكثير من الافلام التي تلته، والتي سارت على الطريق نفسه الذي خطّه غوناي بفيلمه هذا، راسماً الخطوط العامة لمدرسة سينمائية يُمكننا أن نطلق عليها بالواقعية الجديدة التركية. وباخراجه لهذا «الفيلم ـ الانعطافة» قطع غوناي الجسور نهائياً مع السينما المُخدِّرة، والتجارية، المتميزة بالبطل النموذج والنهايات السعيدة المفتقدة لاي بعد فكري او فني . ووصل الى تجسيد البطل « الفرد ـ الرمز» الذي يناضل ويكافح داخل الواقع الحقيقي، بطل له ملامح واقعية نستطيع ان نلتقي به كل يوم وفي كل مكان، بطل يقاوم ضد آلية الاستغلال وطاحونة القهر، التي شيّدها النظام الاقطاعي العشائري، وهو في صراعه هذا كثيراً ما يخسر ، ونادراً ما يربح الى ان يصل الى القناعة التامة بلا جدوى الصراع الفردي، وانه يجب ان يتوحد ويندمج وينسق مع الصراع الذي يقوده المجموع ، اي النضال الجماعي المنظّم والمبرمج على اسس علمية ، وضمن قيادة سياسية ذات خط ايديولوجي واضح ،ومحدد الاهداف .

وبعد انتهائه من فيلم «الامل» اسس يلماز غوناي شركته الخاصة للانتاج السينمائي، وهي غوناي ـ فيلم. حينها اصبح المسؤول المطلق والوحيد الذي يقف وراء افلامه ونجاحها، وكذلك المحرك الرئيسي لمجموعة اخرى من الافلام التي صنعها مساعدوه لحسابه، او بتوقيعهم انفسهم على هذه الافلام . ومن الافلام التي انتجتها شركته، ومن اخراجه، فيلم(غدا اليوم الاخير) وهو موضوع بوليسي في ظاهره، اراد به وصف الفترة الزمنية القائمة بين عامي ٧١ ـ٧٢ والتي عرفت فيها تركيا، وللمرة الاولى، اعمال العنف وتصفية الحسابات السياسية بين المنظمات المتطرفة من اقصى اليمين الى اقصى اليسار. اي الفترة التي سادت فيها ما يشبه الحرب الاهلية غير المعلنة . ثم تبعه بفيلم اخر عنوانه (البائسون)، وهو عبارة عن قصة حب

جميلة التفاصيل، تستند الى خلفية اجتماعية واقعية عن رجل من الطبقة الشعبية، وفتاة من البرجوازية الكبيرة، وهو الفيلم الأقرب لنفس المخرج وذوقه مما سبقه . ويعود به الى معالجة مشاكل منطقة الاناضول في القطاع الشرقي لتركيا، ليعرض لنا ، ومن خلال القصة الشفافة، الاصول الاقتصادية والطبقية لكثير من التجمعات - او العشائر الثائرة التي اطلق عليها، وعلى لسان الصحافة الرسمية (عصابات الجبال) . في هذا الفيلم كان اسلوبه في الاخراج، وادارة المشاهد، قد تغيّرا بشدة عن اسلوبه الاخراجي في افلامه السابقة، وبخاصة فيلم الامل. وقد وصلت جماليات المشاهد الى درجة عالية من الاتقان والشاعرية حين حلت الواقعية الملحمية محل الواقعية الذاتية، وحقق تقدماً كبيراً على المستوى التكنيكي من خلال استعمال المؤثرات البصرية والصوتية ، واسلوب المونتاج المتوازي الذي ذكرنا باسلوب المخرج الايطالي« فيتوريو دي سيكا» الرائع . (الاب) هو عنوان فيلمه الآخر الذي أعدّه عن رواية الكاتب التركي المشهور «بكريلديز»، والذي يبدأ من نقطة محددة وواضحة في قلب الحالة الاجتماعية للابطال التي تتسم بالصدق، لتُحَول، بعد ذلك، داخل إنعطافة ميلودرامية أضعفت قيمة الفيلم وقوته . لكن غوناي استدرك بسرعة هذه الهوة، وبدأ تصوير فيلم ملتزم اخر هو(الفقراء) في السنة التي حصل فيها تدخل للجيش في الأحداث في شهر مارس، ١٩٧١ ، مما ادى الى توقف التصوير . وفي هذا التاريخ ولدت مرحلة فريدة وشاقة وطويلة في حياة وتأريخ تركيا المعاصرة، اذ انه امام ضعف الحكومة البرلمانية القائمة انذاك ، وهي حكومة «دميرل»، وازاء احداث الفوضى والعنف التي شلت البلاد، واعطت عذرا شرعياً للجيش الذي اسسه كمال اتاتورك ان يترجم رد فعله الى عمليات بطش وابادة وانتقام من الحركات والمنظمات الثورية اليسارية دون استثناء، على طريقة السناتور «مكارثي» الذي شن حملة اصطياد الشيوعيين ابان سنوات الخمسينات. ومن البديهي ان يكون للمخرج التقدمي يلماز غوناي نصيبه من هذه الحملات الفاشية، ورمي في السجن في نيسان العام ١٩٧٢ بتهمة التعاون مع الشيوعيين في نشاطاتهم («الهدامة!») وبقي في السجن ٢٦ شهراً، وكانت المرة الثانية التي يدخل فيها السجن لمدة طويلة نسبياً . وقد اطلق سراحه في شهر مايس ١٩٧٤ لبضعة اشهر فقط، استجابة للضغوط الدولية، والرأي العام، ونداء المثقفين المشهور الذي وقعه سارتر ولانغلوا وتايلور وبرتون وايليا كازان ، ثم القي القبض عليه مرة اخرى. ومن داخل السجن استغل المخرج فترة التوقف الاجبارية هذه ليكتب روايتين وكتاباً تضمن رسائله من السجن، وبعض الافكار والخطوط الرئيسية لعدة سيناريوهات تحول بعضها الى افلام، كفيلم (الرفيق) الذي يتحدث عن لقاء صديقين منحدرين من اصول فلاحية، الاول كان قد كُسب الى جانب البرجوازية التي أغْرَته وزرعت في ذهنه افكارها ومبادئها، والثاني ما يزال يبحث عن طريقه الفكري وهويته ، ولم يحدد بعد ميوله وقناعاته، اي: بمعنى اوسع، يتحدث الفيلم عن لقاء بين جبهتين متناقضتين، وهو التناقض الذي يسوق المجتمع التركي المعاصر كله عبر هذين الرمزين . يتم لقاؤهما في

احدى القرى التي تقطنها الغالبية البرجوازية الثرية، مما يولد سلسلة من الصراعات والمعارك تنتهي بمأساة. ان البعد العام، اي الرسالة التي يحملها هذا الفيلم للمشاهد هي تلك اللوحة المشوهة لذلك التعارض بين نوعين من الانظمة، الاول ذو القيم البرجوازية الغربية الطابع تبنته البرجوازية التركية، دون ان تفهمه كلياً، او تتمكن من هضمه بكل ابعاده، والثاني ذو القيم الفلاحية التي تعتمد كلياً على المبادىء السلفية، لكنها تعيش لحظات المخاض الصعبة عند خطوط العبور من ما قبل الرأسمالية، وبالاحرى شبه الاقطاعية العشائرية، الى الشكل الاول من الرأسمالية، دون ان تتمكن هي الاخرى تقبل واستيعاب التركيبة الرأسمالية كما يعيشها الغرب، فعملية العبور كانت سرعية وقسرية. ويُلمِّح المخرج بانه لا الاول، ولا الثاني، يشكلان الحل الصحيح الذي تنتظره تركيا، وعلينا أن نبحث عن بديل ثالث هو الاشتراكية العلمية، كما سيتضح ذلك في جميع اعماله وطروحاته اللاحقة. ويبقى المخرج التركي العظيم أميناً ووفياً لالتزاماته، وتطلعاته، ليواصل عن طريق اللغة الفيلمية نشرها، ليخرج فيلما اخر تحت عنوان(القلق)، حول حالة عمال القطن الموسميين، الذين يعرفهم جيداً في محل ولادته «عدنا»، التي طالما وصفها بدقة وتفصيل وحنين صادق في رسائله من السجن، التي ارسلها الى زوجته، وصدرت في كتاب. يتحدث الفيلم عن قصة فلاح محاصر بين العهد الذي قطعه على نفسه بالانتقام والاخذ بالثأر الذي يؤرقه، ويلاحقه كالموت، وبين رغبته وتعهده للانضمام الى حركة التعاونيين التي تمثل تنظيم العمال داخل تشكيل نقابي لتوحيد نشاطاتهم وجهودهم، ليسهل الدفاع عنهم، وتوعيتهم. وكانت القصة جيدة الموضوع، ومركزة في تفاصيلها، ومن النوع الذي يستهويه جدا، مما اتاح له ان يخرج واحدا من اجمل افلامه، لكن القدر لم يسمح له اكمال تصوير هذا الفيلم بنفسه. ففي ذات يوم من ايام التصوير كان فريق العمل موجوداً في احد المطاعم للعشاء، وتعرض لتحرشات واستفزازات احد قضاة التحقيق اليمينيين المتطرفين في عدائهم وكرههم للتقدميين، وتأزم الموقف وتطور الى شجار انتهى بمصرع القاضي، واتهم غوناي بقتله، وحكم عليه بثمانية عشر عاماً، امضى منها ستة سنوات لم يتوقف خلالها عن الخلق والابداع الفنيين، ولا عن نشاطه السياسي حتى داخل السجن الذي وفَّر له فرصة الاطلاع وتعميق افكاره وثقافته الماركسية، ولم يضيِّع لحظة واحدة هباء. وكانت المرحلة الاخيرة من عمره الفني داخل تركيا، قبل هربه الى الخارج.

وضمن هذه الظروف التي اعتاد عليها هذا المخرج الجاد، على قساوتها وصعوبتها، واصل سعيه لايجاد وتطوير لغته السينمائية الخاصة به، ونشرها، وتعميمها، على جميع الاجيال التي ستستمر على هذا المنوال لخلق التيار الثوري في الفن بشكل عام، والسينما بصورة خاصة. وقد اطلق النقاد على هذا النوع اسم «سينما الغضب». ومن داخل سجنه استطاع توصيل صوت الادانة الذي اطلقه بكل قوته، عبر فيلم(القطيع)، وهو يحدثنا عن الملحمة الدرامية لاحد رؤساء العشائر، الذي يرحل الى المدينة لبيع اغنامه عندما تتكالب عليه

كل الالة الشيطانية التي تعج بها هذه المدينة التركية، ككل المدن الكبيرة الاخرى، التي يحكمها الفساد والسرقة، فهي عفنة في كل محتوياتها، ومرافقها ، من شرطتها الى موظفيها ،مروراً بكل اصناف البيروقراطيين فيها، دون استثناء

ان قسوة وعنف الموضوع، كما طرح، وبصورة مباشرة خالية من الرتوش، ادهش النقاد والجمهور في اوربا، اللذين واجها، ولاول مرة ، واقعا سوداوياً معقدا تعيشه احدى الدول الاوربية ولكن على طريقة العصور الوسطى الهمجية ، حسب المفاهيم الغربية السائدة في الوقت الحاضر عن المجتمع وطبيعته، ومفهومه للحرية وكرامة الانسان والعدالة الاجتماعية. واستمر غوناي بكتابة السيناريو من وراء القضبان، لكنه لم يكتف بذلك، وانما الحقه بكافة التفاصيل والشروح الضرورية للاخراج التي على فريق العمل تنفيذها بامانة، ودقة. وكان اخر ما اخرجه بهذه الطريقة هو فيلم« الطريق» الذي سبق ذكره، حيث تولى مسؤولية الاشراف على تطبيق خطة الاخراج كما كتبها غوناي بنفسه مساعده، وصديقه ، المخرج شريف كورين ، الى ان تمكن من الهرب من سجنه في شهر اكتوبر ١٩٨١، حيث اكمل مونتاج فيلمه بنفسه في اوربا، قبل تقديمه للمسابقة الرسمية في مهرجان «كان» وفوزه بالجائزة الكبرى. وكعادته ظل غوناي يناضل بعناد وثبات منقطع النظير ضد الطغمة الفاشية، ويقارع الظلم المتحكم بمصير الشعب التركي منذ ٢٥ عاماً وبسلاحه الخاص« السينما». وفيلمه الاخير« الطريق» يروي لنا، وبطريقة ، شاعرية رائعة وصبغة اجتماعية مؤثرة جداً حياة السجناء الاتراك عن خمسة نماذج اختارها بعناية، وفي لحظات محددة من حياتهم، عند تخطيهم عتبات السجن للخروج في اجازات مؤقتة لزيارة عائلاتهم، ومدنهم، او قراهم المتناثرة في ارجاء تركيا الواسعة، لعدة ايام قليلة تضيع معظمها في السفر والتنقل. ولكل واحد منهم مأساته الخاصة التي قد تنتهي برجوعه للسجن، أو موته، أو هربه نهائيا، حيث يبقى مطارداً الى اخر لحظات حياته. وهو القرار نفسه الذي اتخذه المخرج اسوة باحد ابطاله، وقرر ان يهجر قفصه ويصل الى اوربا بمساعدة اصدقائه، وما زالت الشرطة التركية تلاحقه في كل مكان.

وقد تابع ابطال فيلمه مصائرهم، فمنهم من لم يصل الى خطيبته لفقده لاوراق اجازته، ووقوعه في حاجز للرقابة العسكرية. والاخر قتل على يد شقيق زوجته انتقاماً لاخيه الذي خانه هذا السجين في إحدى العمليات التي قاما بها معاً، وكان قد تعرض الى فضيحة عندما ضُبِطَ وهو يحاول ممارسة الجنس مع زوجته في داخل مراحيض القطار. واخر قرر الهرب والالتحاق بالثوار الاكراد في الجبال بعد مصرع أخيه ، على يد العسكر، وقبوله بالزواج بارملة شقيقه المقتول. والأخير ترك زوجته الخائنة تموت من البرد في وسط الثلوج عقاباً لها، بعد ان عاني الكثير للوصول اليها. وهكذا ينقلنا المخرج من حالة الى اخرى بطريقة هارمونية بديعة جداً، وذكية، عبر كادرات رائعة الجمال والدقة والتوازن.

كان فيلمه هذا حصيلة تجربة تجاوزت العشرين عاما من العمل السينمائي، وثمرة لنشاط جاد وطويل في الحياة السياسية والفنية، وهي تجربة شاقة تبلورت تحت ظروف استثنائية فريدة، خرج منها بنتائج ناضجة وثرية على كل المستويات، بخلطه الحالة الاجتماعية بمصير الفرد، وتعقد الحياة، وشاعرية الوجود الانساني. ان اخراج هذا الفيلم كان بحد ذاته ظاهرة فريدة، وغريبة في تاريخ السينما، عندما استطاع المخرج إدارة جميع عمليات الانتاج والاخراج، ويحدد جميع عناصرها الرئيسية بكل تفاصيلها. فقد الف فريق عمله التقني من المقربين اليه، الذين يثق بهم، وبجديتهم وامانتهم لافكاره، وقدرتهم على فهمه وتنفيذ توجيهاته بدقة ، لكنه اخطأ ، في اول الامر. ففي الايام العشرة الاولى من بدء التصوير، اصبح على غوناي ان يتخذ قراراً صعباً وجريئاً بتغيير المخرج المساعد، الذي يقوم بعمله في مكان التصوير، ليشرف على خطوات التنفيذ المتعلقة بالاخراج، والمُدارة عن بُعد، من وراء جدران السجن. وقد جاء هذا التغيير لصالح الفيلم، بعد ان انفرد هذا المساعد باتخاذ قرارات مهمة دون الرجوع للمخرج، والاخذ برأيه، فيما يتعلق بتفاصيل جوهرية ومهمة كان قد طلبها المخرج منه، مثل إختبار واختيار بعض الالوان والملابس، وطريقة ادارة بعض الممثلين. حتى الانارة، التي هي من اختصاص مدير التصوير، كانت تتعارض تماماً مع ما كان يتوخاه غوناي بتقريره التقني لفريقه، وذلك بسبب تدخل المساعد واعطائه توجيهات شخصية لمدير التصوير. وجاءت النتيجة لا تناسب احوال واجواء وحقيقة حياة السجناء المجازين . ولكل هذه الاسباب لم يتورع المخرج عن استبداله، ولم يتردد طويلاً باختيار مساعده السابق« شريف كورين» الذي يعرفه ويثق به جيداً . يقول غوناي« في البداية لم اكن اهتم بكتابة السيناريوهات، وقد تولدت عندي هذه العادة والقدرة على الكتابة وانا في السجن . فعندما كنت اصور افلامي، وانا مطلق السراح، ابدأ بفكرة غير واضحة، ولا مدروسة، ثم اطورها اثناء عمليات التصوير. وقتها اتابع التسلسل الحقيقي للقصة- الفكرة، حسبما سيكون عليه الفيلم في تسلسله النهائي، على عكس ما يُطبق في الخارج، حيث يدور التصوير ضمن برنامج محدد يضم جميع المشاهد التي تدور في مكان ما ،او ديكور ما، ويعاد ترتيبها في مرحلة المونتاج بحسب تسلسلها. فانا اصور المشاهد بحسب مكانها في الفيلم، والقصة، حتى وان تباعدت وتوزعت أماكن تواجدها داخل النسخة المعروضة، وهذه الطريقة تتيح لي ان ابتكر وارتجل، وان اضطرني ذلك الى الرجوع الى الاماكن نفسها، والديكورات، مرات ومرات ، انا افضل هذه الطريقة على غيرها كثيراً، اضافة الى اني اناقش مع المارة المشهد الذي أصوره، واطلب منهم آراءهم، وهل المشهد يعجبهم ، وهل لديهم شيء يقترحونه، او فكرة ما نابعة من تجاربهم الشخصية تتعلق بطبيعة ونوعية المشهد المصوَّر . ان هذا مهم بالنسبة لي، فلربما تفوتني اشياء لا اتمكن من ملاحظتها لولا تدخل المارة،

وانا اعمل كما كان يعمل القصاص، او الراوي، او الحكواتي الشعبي، اثناء تطوافته بالقرى والمدن لنقل ما يدور فيها من اخبار، وكان يلقي الشعر، ويرتجل القصائد الشعبية، والحكايات الشعبية، وقد شاهدته عندما كنت طفلاً وبقيت المآسي التي قصها علينا راسخة في ذاكرتي» .

ان اسم غوناي محبوب جداً، وهو يعني (الجنوب) وهو العنوان الذي اطلقه على مجلته : «غوناي : الصراع من اجل ثقافة برولیتارية وثورية» . ان ما نشاهده الان معروضاً في الصالات هو النتيجة النهائية لاحد عشر نسخة لسيناريو بدائي، اولي، كان غوناي قد استقى فكرته العامة من احاديثه مع السجناء، وتساؤلاته، ونقاشاته الطويلة معهم، ووصفهم لمشاعرهم واحاسيسهم وأمانيهم، واسرارهم الشخصية، ماضيهم، وحاضرهم الخ .

قبل ان يصور الفيلم اعتمد غوناي اعتمادا كلياً على الديكورات الطبيعية، واماكن التصوير التي يعرفها جيدا اما عن طريق الذاكرة، او اثناء زيارات كان قد قام بها لتفحص هذه الاماكن، في اجازاته هو كسجين مُرّخص، وذلك لنقل الاجواء الحقيقية والواقعية لفيلمه بامانة وأتقان .

ان تلك الزيارات الميدانية لاماكن التصوير قد اتاحت له القدرة على تقرير، وتأكيد، وتثبيت كل زوايا التصوير وحركات وتنقلات الكاميرا، والايقاع العام للفيلم، وتكوينات الكادرات ، واحجام اللقطات، وتمكن ان يُتْخِم مساعديه وتقنييه وممثليه بالملاحظات والاوامر الدقيقة، وطلب من كل واحد منهم كتابة تقارير وافية، وكاملة، عن سير العمل، وما يواجههم من عراقيل ومعوقات وصعوبات، واذا كانوا قد نجحوا بتجاوزها، او تفاديها، ومن وقت لاخر كان يجتمع ببعض افراد فريقه اثناء زيارتهم له في السجن للنقاش، وتلقي التعليمات الجديدة على ضوء ما يصله من تقارير. وبالرغم من كل هذه الدقة في التحضير والعمل فقد واجه المخرج، اثناء قيامه بمونتاج الفيلم، صعوبة كبيرة في الاختيار، وتنقيح كثير من المشاهد، بل حتى تغيير وحذف كميات كبيرة منها، وتخلّص من كثير من الزوائد والتطويل، وحذف شخصيات باكملها لاسباب جمالية او تقنية او سياسية، للوصول الى النتيجة المقبولة، ومن ثم فقد اضطر الى اعادة كتابة الحوار والمؤثرات الصوتية باكملها، وتسجيلها داخل الاستوديوهات الاوربية بطريقة الدوبلاج، آخذاً بعين الاعتبار حركة شفاه كل ممثل، وقوة تعبير ملامحه ، حتى يسيطر على طبقة الصوت المناسبة والمطلوب تسجيلها من جديد. كل هذا يدل دلالة واضحة لا تقبل النقاش بان «يلماز» هو المؤلف الشرعي الوحيد لفيلمه، والمسؤول عنه مسؤولية تامة، دون ان ننسى لحظة واحدة دور واهمية فريق العمل، وضرورة وجود مساعده الذي لولاه لما كان لهذا

الفيلم هذى المستوى المرموق، وهذه عبارة غوناي نفسه بهذا الخصوص(لم يكن المقصود ان لا اعطي ثقة لفريق عملي، وكلهم اصدقائي ورفاقي، وانما اردت ان يحمل هذا الفيلم بصماتي وتوقيعي وان يكون فيلمي الشخصي المختوم بختمي واسلوبي) وهذا جواب وافٍ يناسب فناناً يعرف كيف يتعامل مع ادواته التعبيرية كروائي، وشاعر، الى جانب كونه مخرجاً، لا كحرفي فقط. وهو الوحيد الذي يختار، ويحدد، ويثبت عناوين افلامه قبل الانتهاء من مواضيعها، ويعلق على ذلك بما يلي: (العنوان بالنسبة لي هو بمثابة صورة تحددني وتربطني بخط الفيلم، وتقيدني بما سيكون عليه وانطلاقا. من هذا الشعور يتولد عندي حالة تذوق« فيزيائياً» للعبارة او الكلمة التي يتشكل هذا العنوان منها، كمعاني المرارة والضجر، وما شابه ذلك والتي تدفع بالفكرة الرئيسية الى الظهور، والتكامل، كمفهوم الحزن؛ مثلا استطيع ان أصوغه في مائة طريقة .

فيلمي القادم سيدور حول الالم ، والانين، والصراخ ، وقد يكون احدهما هو عنوانه. عندما كنت شاباً كنت احلم بان اكون شاعراً، لكن هذا لم يتحقق، وما كتبته من قصائد لم تعجبني في معظمها، ولذا وجدت في السينما، التي احبها جدا ،الشاعرية التي افتقتها في اللغة).

جواد بشاره